
مكتبة
مدبولي
الجواسيس
عملاء سريون غيروا مجرى التاريخ
رنست فولكمان
Bibliotheca Alexandrina
0105877

الجواسيس

عملاء سريون غيروا مجرى التاريخ

اسم الكتاب:

الجواسيس
عملاء سريون غيروا مجرى التاريخ

المؤلف: إرنست فولكمان
المترجم: مصطفى الرز

الجمع والتنفيذ الفنى: المركز العربى للدراسات والنشر
وحدة التجهيزات الفنية
الناشر: مكتبه مدبولى
رقم الايداع
الترقيم
الطبعه الأولى
سنه ١٩٩٩

الجواسيس

عملاء سريون غيروا مجرى التاريخ

تأليف: إرنست فولكمان

المترجم: مصطفى الرز

مكتبه مدبولى

الفهرس

تقديم

هذه ترجمة حرفية كاملة لكتاب «الجواسيس: عملاء سريون غيروا مجري التاريخ»، من تأليف: إرنست فولكمان، ومن منشورات جون ويلي (نيويورك)، وصادر في نوفمبر ١٩٩٦، ويحتوي علي ٢٨٠ صفحة.

ويتناول هذا الكتاب، بصورة مختصرة، قصص حياة جواسيس، وهي قصص مثيرة، وربما تجعل القارئ ينتهي إلي استنتاجات كثيرة. ولكن، هل أدت أفعال هؤلاء الجواسيس إلي تغيير مجري التاريخ؟ نعم، ولكن نحو الأسوأ. والأصل في «تغيير مجري التاريخ» أن يكون تغييراً نحو الأفضل، ولكن هذا لم يحدث، والمؤلف لم يقل. ما الذي أضافته جهود الجواسيس في الحروب وأعمال القهر إلي التاريخ غير تغييره؟ وتغيير التاريخ علي ذلك النحو الذي جري عليه ما كان ينبغي أن يحدث، ولم تكن هناك ضرورة إلي حدوثه، وكان ينبغي أن يتأتي التغيير بأساليب أخري، وهي أساليب. تتوافق بالضرورة مع مقتضيات الإرتقاء الطبيعي للإنسان والأشياء. والأفعال التي أدت إلي ذلك التغيير، أو التي كان يراد منها أن تكون أداة إلي مثل هذا التغيير، لم تكن أفعال جاسوس واحد معين بذاته، وإنما تضافرت مع أفعال جواسيس آخرين. ريتشارد سورج، الجاسوس الأعظم في هذا الكتاب، لم يكن وحده الذي حمل السوفييت علي نقل قواتهم من الشرق إلي الغرب، ولو كان كذلك، ما كان يمكن الثقة به.

وهذا الكتاب، يستحق القراءة، لامن أجل عنصر الإثارة الذي فيه، وإنما من أجل تكوين إنطباعة ذهنية إنتقاديه عن أفعال جواسيس سجلها التاريخ لهم وعليهم، وهي أفعال قذرة بطبيعتها.

المترجم

مقدمة

قال مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية السابق ألين دالاس ذات يوم:

«التجسس ليس لعبة القساوسة»

وهذا صحيح، ذلك أن لعبة الاستخبارات، لو إستخدمنا التعبير المهذب الحديث، هى «ثانى أقدم مهنة فى العالم»، وهى تكتسب السمعة الرديئة نفسها التى إكتسبتها المهنتان التاريخيتان السابقتان عليها. وكما قال المؤرخون، فإن التجسس كان إحدى ثلاث مهن بدائية ظهرت فى بداية التجربة الإنسانية على هذا الكوكب: الشامان، والجاسوس، والعاهرة. والشامانيون أصبحوا فى غاية الأمر سياسيين ورجال قانون، بينما تطور الجواسيس والعاهرات إلى ... حسناً، جواسيس وعاهرات.

وتختلف مسألة تحديد أى من تلك المهن التى اكتسبت سمعة رديئة اكثر من غيرها باختلاف الآراء. وليس هناك اختلاف فى الرأى، مع ذلك، حول أى من المهن التى اكتسبت سمعة أشد غموضاً. والجواسيس، من وقت إلى آخر، يتعرضون للشتائم والتكريم، والاحترام والتجاهل، والمدح والذم. وهذه مسألة تتصل بوجهة النظر الفردية إلى حد كبير. ومما له دلالته فى هذا المجال هو أن ناثان هيل، الجاسوس الأمريكى خلال الحرب الثورية، يلقى تكريماً من أهل بلده بسبب عبارته لشهيرة «يؤسفنى أننى لا أملك غير حياة واحدة أقدمها إلى بلدى» فى كل احتفال بمناسبة إعدامه على أيدى البريطانيين. ولكن وجهة نظر البريطانيين فى أمر ناثان هيل مختلفة تماماً، وهى ناشئة بالضرورة عن تفكيرهم فى عدد الجنود البريطانيين الذين ماتوا نتيجة المعلومات الإستخباراتية التى قدمها إلى الجنرال جورج واشنطن. وبالمثل، فإن الجاسوس السوفييتى العظيم، ريتشارد سورج، جرى تكريمه من خلال إصدار طابع بريد تذكارى فى موسكو بعد حوالى ٢٥ عاماً من إعدامه على أيدى اليابانيين. ولكن الألمان لم

يقدموا مثل هذا التكريم أبداً، ذلك أن الآلاف من رجالهم الشباب ماتوا فى الثلوج حول موسكو فى شتاء ١٩٤١ على أيدى القوات السيبيريه التى انتقلت غرباً للقيام بمذبحة الألمان، وهو انتشار للقوات السيبيرية ما كان يمكن أن يحدث لولا أن سورج اكتشف أن اليابانيين قرروا عدم القيام بهجوم على الاتحاد السوفييتى.

وحتى فى هذه الأيام، فى وقت جعلت فيه مؤسسات التجسس الوطنية المتعددة عملية التجسس حقيقة راسخة، فإن كلمة «الجاسوس» مازالت كلمة غير لطيفة. وهذا هو السبب الذى جعل مؤسسات التجسس تفضل أن تطلق على نفسها «وكالات إستخبارات». ومهما اعترفت الملاحظات الساخرة السياسية الحديثة بضرورة الحاجة إلى إستطلاع متطفل على أفراد معينين فى عالم محفوف بالأخطار، فإن التجسس ليس مهنة يفضلها الآباءلأبنائهم.

والتجسس إكتسب سمعته الرديئة والبغيضة أخلاقياً منذ اللحظة التى نشأ فيها، قبل حوالى ٥,٠٠ عام فى مصر القديمة، وذلك حينما إستحسن الملك تحتمس الثالث فكرة إخفاء رجال داخل أكياس الدقيق للتجسس على مدينة يافا المحاصرة. وقام تحتمس الثالث بتنظيم أول جهاز حكومى رسمى فى التاريخ، وهى فكرة جديدة إحتال عليها فى الكتابات الهيروغليفية التى سجلت الانتصارات فى عهده، مع أنه حرص على تصنيف أعماله البطولية فى التجسس تحت عنوان «العلوم السرية». وجاءت أعمال تحتمس الثالث فى التجسس على هيئة ملاحظات ثانوية إلى جانب بعض الانجازات الحقيقة مثل بناء المدن وتعبئة مخازن القمح لتوفير الطعام إلى شعبه. وربما كان تحتمس الثالث جاسوساً عظيماً، ولكنه كان يشعر أن هناك شيئاً رديئاً فى عملية الاستطلاع المتطفل، حتى لو كان ذلك إستطلاعاً على أعدائه، وهذا يؤكد أنه كان يفضل أن يخلد إسمه من خلال أمثلة أخرى فى فن إدارة شؤون الدولة.

وذكرت التوراة أيضاً أن موسى أرسل جواسيسه «للتجسس على الأرض». ولكن عملية التجسس والجواسيس لم تصبح جزءاً لا يتجزأ من فن إدارة شؤون الدولة إلا بعد قيام الشعوب الكبيرة قبل ثلاثة قرون. وفى الوقت نفسه، فإن النفور من التجسس

والجواسيس بدأ فى التطور بين شعوب هذه الدول. (جيمس بوند هو الأخير فى سلسة طويلة من الشخصيات الخيالية التى لم تشأ أن تلطخ أيديها فى عالم التجسس القذر).

وفى القرن العشرين، جرى نشر جيوش كاملة من الجواسيس خلال فترة من التاريخ تميزت بحروب مستمرة إلى حد كبير. وكلما كانت هناك حروب، كان هناك جواسيس أيضاً. ولو عرفنا أن الاتحاد السوفييتى إستخدم أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ جاسوس فى ذروة قوته، وأن الولايات المتحدة إستخدمت جيشاً من الجواسيس أقل من هذا الرقم بقليل، فربما يمكننا أن نعرف مدى عمق جذور التجسس فى بنية الحضارة الحديثة.

وهذا القرن أطلق عليه فى بعض الأحيان «قرن الجواسيس»، والسبب فى ذلك هو أن الرغبة الدائمة فى الحصول على المعلومات عند الدول الصناعية الحديثة أوجدت جيوشاً كبيرة من الجواسيس الذين قاموا بمثل هذا الدور الحاسم فى مجرى تاريخ العالم.

ولايبذل هذا الكتاب أيه محاولة للحديث عن جميع الرجال والنساء فى هذه الجيوش. ومثل هذه المهمة ربما تكون مستحيلة فى صفحات أى كتاب مهما تكن كثيرة، ذلك أن ملايين الجواسيس فى واقع الأمر مارسوا ما يمكن اعتباره حتى الآن «الفن القذر». ومع هذا، فهناك عدد قليل نسبياً منهم كانت لأفعالهم تأثيرات دراماتيكية على التاريخ. وهؤلاء هم الرجال والنساء الذين أثروا على نحو مباشر على مصير الامبراطوريات والشعوب وحتى التاريخ نفسه.

وينبغى أن تعرف مع ذلك، أن أياً من هؤلاء الأشخاص لايملك أساسيات العظمة. وهم يمرون بسلسلة كاملة من الصفات البشرية، من الشجاع إلى الجبان، ومن العاقل إلى الأحمق، ومن الذكى إلى الغبى. والبعض منهم أشخاص غير عاديين، والبعض الآخر أشخاص عاديون جداً، والآخرون فى مكان ما بين هاتين المجموعتين. وليس هناك عامل مشترك يجمع بينهم، باستثناء أن جميعهم محكومون بوصايا التجسس العظيمة الثلاث:

(١) إحرص على تجنب إلقاء القبض عليك.

(٢) ولو ألقى القبض عليك، فنحن لانعرف عنك شيئاً.

(٣) وحينما تلتزم بذلك، فليست هناك أية وصايا أخرى ضرورية.

وهكذا الكتاب ظهر إلى جيز الوجود من واقع مناقشات جرت مع أعضاء من مجموعة الإستخبارات الأمريكية، كما يفضلون أن يطلقوا على أنفسهم، الذين يميلون إلى التأمل والتفكير فى مكانة الجاسوس فى التاريخ. ومع تطور تلك المناقشات، نشأ إجماع عام تدريجى فى الرأى: من بين الكثيرون من الجواسيس الذين وضعوا على أنفسهم عباءة مجازية مليئة بالكراهية، هناك عدد كبير منهم ليس لهم أدنى تأثير، وهم إما فشلوا أو أن حكوماتهم التى إستخدمتهم فشلت.

وتشكل الاستثناءات لتلك القاعدة العامة جوهر هذا الكتاب. وينبغى أن أشدد هنا على القول إن اختيار هؤلاء الرجال والنساء كموضوع للبحث فى هذا الكتاب جاء نتيجة بحوثى واستنتاجاتى.

واننى على يقين أن عدداً كبيراً من الأفراد فى مجموعة الاستخبارات الأمريكية سوف يعترضون على بعض الأسماء، وربما يجادلون بإضافة أسماء أخرى. وإننى أتحمل مسؤولية كاملة عن قائمة الأسماء النهائية لهذا الكتاب وتفسيراتى المصاحبة لها. وربما يجد القراء أن بعض الأسماء المألوفة غير موجودة، ولكنهم ربما يجدون بعض المفاجأت أيضاً.

وربما يكون هذا الكتاب موضوعاً فى علم المنهج أيضاً، ذلك أن الجواسيس جرى تصنيفهم إلى عدد من الفئات: الجواسيس العاملون فى الظلام، والجواسيس المرتدون، والجواسيس الأساطير، والجواسيس الخائنون، والجواسيس السوبر، وجواسيس الأفعال الشائنة، علاوة على أشخاص كثيرين جرى تصنيفهم تحت فئة «جواسيس الأفعال الغامضة»، و«جواسيس ظرفاء». ولأن عدداً من مهام التجسس متداخلة بطبيعتها، فسوف يجد القراء بعض الأسماء مكتوبة ببنط أسود، أما تلك الأسماء التى تنطوى على أهمية خاصة، فهى مدرجة على نحو مستقبل فى هذا الكتاب. وفيما يتعلق بالأسماء المدرجة ضمن فئة جواسيس الأفعال الشائنه، أو، إن شئت، الجواسيس الأعظم فى عالم

التجسس، فهى مبينة بدون ترتيب معين، سواء كان ترتيباً زمنياً أو غيره. والتجسس، كما عرف الناشطون فى هذا المجال منذ زمن بعيد، نشاط يقاوم كل تصنيف له فى فئات.

وكما هو الأمر عادة، فإن هذا الكتاب ما كان يمكن أن يظهر إلى حيز الوجود بدون نصيحة ودعم وتوجيه من أحلام كل كاتب مستوحاة من كتابات الأديبة فيكتوريا بريور الأركادية.

الجواسيس العاملون فى الظلام

فريتز كودرز

إنتصار الرجل المخادع

الاسم الرمزى: ماكس

الاسم المستعار: ريتشارد كلات

(١٩٠٣-؟)

من خلال أسلوبه المؤدب فى التعامل مع الأفراد القائم على التملق والمداهنه، وسحره التمساوى، أصبح هذا الرجل قصير القاحة، وممتلئ الجسم، وصاحب الشعر المتموج، نموذجاً للرجل الأوروبى المعروف فى المانيا بالرجل المخادع. ومع حلول ١٩٣٩، أصبح فريتز كودرز، الرجل الذى عاش خفيف الظل خلال الجزء الأعظم من الستة وثلاثين عاماً الإولى من حياته، واحداً من أعظم المخادعين فى أوروبا. وكان كودرز مستعداً لتطوير أسلوب فى العمل، وهو أسلوب تحول إلى أعظم أساليب الخداع فى تاريخ التجسس.

وفيما يتعلق بخلفيته، فإن كودرز بدا رجلاً مثالياً فى عالم التجسس الأوروبى البيزنطى السابق على الحرب العالميه الثانية. وكودرز ولد فى فيينا من أم يهودية وأب كاثوليكى (وهى حقيقة تنطوى على أهمية بالغة فى وقت لاحق)، واشتغل صحفياً فى فترة الشباب فى العشرينيات. ومع ذلك، فما لبث أن وجد أن هناك نقوداً كثيرة يمكن تكوينها من طريق الخداع والكسب غير المشروع: عقد صفقات تجارية وهمية، وبيع بطاقات هويات مزورة، وإقناع عدد كبير من المسؤولين فى البلدان الأوروبية بالفساد

والرشوة مقابل جزء من النقود. ولأن لودرز كان يقوم بزيارات متكررة إلى معظم عواصم أوروبا، من واقع تنشيط صفقاته التجارية العديدة، فمن الطبيعى أن يتمكن من تكوين شبكة من الاتصالات الحكومية من بحر البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط.

ولم تمض فترة طويلة حتى سعى جهاز إستخبارات أو آخر إلى إختيار هذا الرجل المخادع جاسوساً نافعاً. وجاءت اللحظة فى ١٩٣٩ حينما قامت شخصية غامضة، أندريه تورخول، بترشيح كودرز إلى عضوية شبكته، وهى شبكة كبيرة تضم بالدرجة الأولى الإشخاص المبعدين من روسيا البيضاء، وتقوم بجمع المعلومات الاستخباراتية من كافة أنحاء أوروبا، وحتى من داخل الاتحاد السوفييتى نفسه، أو هذا على الأقل مازعم به تورخول أمام صاحب العمل الظاهرى، وهو وكالة الاستخبارات الألمانية. وفى واقع الأمر، فإن ولاء تورخول الحقيقى كان للإستخبارات السوفييتة التى إختارته قبل حوالى ٢٠ عاماً. وكان تورخول يطلع موسكو باستمرار على عمليات الاستخبارات الألمانية، غير أن اختيار كودرز جعل جهاز الاستخبارات السوفييتى يفكر فى أمر لعبة أعظم، وهى خداع المانيا النازية بمظهر كاذب.

وهذا الأمر إستدعى وضع خطة جريئة وطويلة الأجل: خلال فترة زمنية معينة يجب مشاركة لودرز فى المصدر الرئيسى للمعلومات الاستخباراتية فى وكالة الاستخبارات الألمانية حول الشؤون السوفييتية. وفى بادئ الأمر، يجب تزويده بمعلومات إستخباراتية متدنية الدرجة من موسكو، وذلك إلى الحد الذى يتمكن معه من بناء الثقة الالمانية به. وفى اللحظة المناسبة، يتم تزويده بمعلومات إستخباراتية رئيسية مخادعة، بحيث يتعذر على الاستخبارات الالمانية تجاهلها. ولم يكن أى من تورخول أو كودرز يعرف مدى النتائج التى يمكن أن تنشأ عن مثل هذه المعلومات الأستخباراتية المخادعة.

وسعى تورخول شيئاً فشيئاً إلى تثبيت أقدام كودرز، الذى عمل تحت الاسم المستعار، ريتشارد كلات، كرجل أعمال. وبمساعدة من موسكو بدأ كودرز فى تقديم تيار من معلومات إستخباراتية من الدرجة المتوسطة إلى وكالة الاستخبارات الألمانية،

وقام كودرز بتعزيز سمعته المتنامية من خلال بعض العمليات التى إخترعها بنفسه، بما فيها عملية سرقة أوارق دبلوماسية هامة من مكتب القنصل الأمريكى فى زغرب فى يوجوسلافيا.

وفى هذه الأثناء، كان كودرز يتقاضى راتباً شهرياً كبيراً من وكالة الاستخبارات الألمانية، ولكن، كما الألمان يعرفون، فإن كودرز أراد شيئاً آخر: ورقة لاتقدر بثمن، وهذه الورقة هى «شهادة الإنتماء إلى الجنس الآرى»، وهى وثيقة تصدرها الحكومة الألمانية وتشهد على أن حاملها، الذى يفترض أن يكون يهودياً، خضع للتحقيق من جانب خبراء فى «العلاقات العرقية»، واتضح أنه ينتمى فى الواقع إلى «الجنس الآرى». وفيما يتعلق بالأشخاص المولودين من زواج مختلط، مثل كودرز، فإن مثل هذه الورقة يمكن أن تصون حياته، وبدونها، يمكن أن يتعرض فى أية لحظة إلى إلقاء القبض عليه وارساله الى معسكرات الموت.

ولم يكن هذا مطلباً سهلاً، ذلك أن النازيين أخذوا مسألة تحديد من هو اليهودى على محمل الجد، حتى أن كبار المسؤولين فى وكاله الاستخبارات الالمانية لم يملكوا نفوذاً فى هذه المسائل. ولم يكن باستطاعة وكالة الاستخبارات الألمانية تسهيل حصول كودرز على مثل هذه الشهادة، ولكن كان باستطاعتها أن تحميه من الجستابو (البوليس السرى النازى)، وفى ذلك انتهاك لأشد القيود فى المانيا النازية: عدم السماح لليهود بالعمل فى أية وكالة إستخبارات المانية. والغريب فى الأمر هو أن كودرز لم يتمتع بحماية وكالة الاستخبارات الألمانية فحسب، وإنما تمتع هذا الجاسوس أيضاً بحماية وكالة الاستخبارات النازية فى المانيا.

ولم يكن من الصعب التفكير فى هذا الأمر ومعرفة الأسباب الموجبة إلى ذلك. وببساطة، فإن كودرز إعتبر بمثابة واحد من أهم مصادر الاستخبارات الالمانية فى الشؤون السوفييتية، وهو مصدر على جانب كبير من حيث الأهمية، حتى أن المخاطرة بتوظيف يهودى، وهى مخاطر قاتلة فى المانيا النازية، كان لها مايبررها فيما يتصل بالنتائج المتوقعة. واستمد كودرز سمعته الجيدة من خلال خطة على مراحل وضعها

تورخول، الذى زعم أمام المسؤولين فى وكالة الاستخبارات الالمانية أن كودرز لدية شبكة من الاتصالات داخل الاتحاد السوفييتى تمتد إلى مستوى القيادة العسكرية السوفييتية العليا. وكان توقيت هذا الخداع حاسماً، ذلك أن الألمان قاموا باجتياح الاتحاد السوفييتى، وكانوا فى أشد الحاجة إلى أيه معلومات إستخباراتية عن العسكريين السوفييت. وقال كودرز إنه يمكنه توفير مثل هذه المعلومات، ولكن شريطة إستخدام جهاز إرسال خاص به، وتقديم المعلومات إلى كبار المسؤولين فى وكالة الاستخبارات الألمانية مباشرة ودون وجود وسطاء، وعدم وجوب الإفصاح عن مصادر تلك المعلومات.

ووافقت وكالة الاستخبارات الألمانية شاكرة على هذه الشروط، وقامت بإرسال كودرز إلى صوفيا فى بلغاريا مع جهاز الارسال الخاص به. ومنذ اللحظة الأولى، برهن كودرز، صاحب الإسم الرمزى «ماكس»، على كونه ذخراً عظيماً، وقام بتزويد وكالة الإستخبارات الألمانية بسلسلة متكاملة من التقارير حول التشكيلات والمواقع العسكرية السوفييتية. وما أثار دهشة الألمان هو أن هذه التقارير كانت صحيحة على نحو صادق، حتى أنهم تمكنوا بسببها من تحقيق انتصارات تكتيكية رائعة عديدة. ومع حلول ١٩٤٢، أصبح كودرز المصدر الوحيد والأهم للمعلومات الاستخباراتية الألمانية فى الشؤون العسكرية السوفييتية، حتى أن زعماء الاستخبارات العسكرية فى الجيش الالمانى، وويلهيلم كناريس، من وكالة الاستخبارات الألمانية، وصفوا «ماركس» بأنه ذهب خالص.

ومع هذا، فلم يكن جميع المسؤولين الألمان فى وكالة الاستخبارات الألمانية فى صوفيا تشككوا فى أمر كودرز منذ البداية، وتعاظمت شكوكهم تجاهه حينما فكروا فى أمر عملياته: من أين يأتى بكل هذه المعلومات الاستخباراتية؟ وكان كودرز يزعم أن مصادره تشمل كبار الضباط فى القيادة العليا السوفييتية، كما أن لدية مصادر مقربة من ستالين نفسه، وهذه المصادر كانت ترسل معلومات إستخباراتية شديدة السرية إلى كودرز، وفى الغالب بعد لحظات من اتخاذ القرارات داخل مجلس الحرب الستالينى.

وفى نظر اى مسؤول فى وكالة الاستخبارات الألمانية لدية خبرة فى شؤون دولة ستالين البوليسية، بإجراءاتها الأمنية التى لم يسبق لها مثيل، وعلى الأخص فى أوقات الحرب، فإن مزاعم كودرز كانت تبدو جوفاء. وقام مسؤولون فى وكالة الاستخبارات الألمانية فى صوفيا بمراقبة المعلومات الاستخباراتية التى يرسلها كودرز، واتضح لهم أن كمية المعلومات الاستخباراتية لا تتناسب مع حجم المعلومات الأستخباراتية التى يزعم كودرز باستلامها. وعلاوة على ذلك، فإن الفكرة القائلة إن الخائنين فى القيادة العليا السوفييتية يرتكبون غلطة قاتلة حين إرسال خياناتهم من الكرملين مباشرة ربما تعمل على تقليص الثقة به.

وانتهى رجال وكالة الاستخبارات الالمانية فى صوفيا فى غاية الأمر إلى إستنتاج مؤداه أن كودرز جاسوس سوفييتى يعمل فى الظلام، ومزروع فى الأستخبارات الالمانية بهدف محدد، وهو تمرير خدعة إستخباراتية إستراتيجية رفيعة الدرجة. ولكن بالرغم من شكواهم إلى برلين، فإن ثقة المسؤولين فى الاستخبارات الألمانية بالمعلومات الاستخباراتية التى يرسلها كودرز لهم ظلت ثابتة. وحتى أشد الناقدين له فى صوفيا إضطروا إلى الاعتراف بأن معلوماته الاستخباراتية، أياً كان مصدرها، لا يرقى إليها الشك. أين الخداع إذن؟

ولم يكن الألمان يعروفون أن الروس يفكرون فى أشياء أخرى، وينتظرون اللحظة المناسبة. وكان الروس قرروا بدم بارد التضحية بوحدات عسكرية كاملة من أجل تعزيز مكانة «ماكس»، وأبدوا إستعداداً للتضحية بخطوط دفاعية عسكرية كاملة بهدف تهيئة الظروف لتنفيذ المؤامرة الأستخبارتية الكبرى. وفى أواخر الشتاء من ١٩٤٢، تحرك الروس أخيراً: كودرز أرسل معلومات إستخباراتية مفادها أن مصادره أبلغته أن هناك خطة روسية لمواجهة الجيش السادس الألمانى فى ستالينجراد، وأن أوامر ستالين قضت وجوب صمود المدينة أياً كانت التكاليف. وأرسل كودرز تفاصيل أخرى: العدد الفعلى للوحدات العسكرية السوفييتية المخصصة للمعركة، وخطة إرسال وحدات عسكرية محمولة عبر نهر الفولجا فى الليل، وأسماء الجنرالات المسؤولين عن مهمة طَرد الالمان من المدينة.

وبدت هذه المعلومات الاستخبا راتية على جانب كبير من الأهمية، ولكن، كما اكتشفت وكالة الاستخبارات الألمانية، فهى معلومات ناقصة: كودرز لم يكن يعرف، بطريقة ما، أن الخطة السوفييتية تضمنت حركة إلتفاف ضخمة لاجتياح المواقع العسكرية فى غرب وشرق المدينة حيث الجبهات الضعيفة من القوات الهنغارية والرمانية المتحالفة مع الألمان، وتطويق الجيش السادس الألمانى وقوامه ربع مليون رجل. وفى غضون شهر، تمكنت القوات السوفييتية من تطويق ستالينجراد، وإجبار ما بقى من الجيش السادس الالمانى على الاستسلام، وهى هزيمة ذاقت المانيا النازية مرارتها، ولم يكتب لها الشفاء.

وبرغم هذه الكارثة، ظت مكانة «ماكس» عالية. ولكن فى ١٩٤٤، أسفرت عملية تقديم معلومات إستخباراتية مخادعة أخرى بالغة الأهمية عن نهاية مهنة كودرز كجاسوس سوبر لألمانيا. وتعلقت هذه العملية بقرار القيادة العليا السوفييتية القيام بهجوم عسكرى رئيس يستهدف أخيراً تشتيت القوة العسكرية الألمانية فى الشرق. وكشف «ماكس» عن أن إتجاه هذا الهجوم هو المناطق الجنوبية من أوكرانيا، وهدفه النهائى هو إحتلال البلقان. وبالنتيجة، حشد الألمان قواتهم فى الجنوب، ولكن حينما وقعت الضربة، جاءت فى الجبهة الوسطى، على بعد أكثر من ٤٠٠ ميل. وقتل حوالى نصف مليون جندى ألمانى فى هذه المذبحة، ولم تنته حتى شق الروس طريقهم نحو برلين بعد شهور قليلة.

وفى هذه الأثناء، بدا كودرز منهكاً ومترنحاً عند الحافة، على الأقل أمام المسؤولين الألمان فى صوفيا، ذلك أنهم اكتشفوا أن كودرز يدير عمليات تجارية خاصة إلى جانب عمله، ويقدم رشاوى للبوليس الهنغارى للتستر على بعض عملياته المشبوهة، وهذا أمر أجبرهم على إعادة النظر فى كل عمليات «ماكس». وفى النهاية، لم يعد هناك شك : «ماكس» جاسوس سوفييتى يعمل فى الظلام.

ومن المثير للانتباه هو أن هناك جهاز إستخبارات واحد خارج الاتحاد السوفييتى إنتهى فى ١٩٤٣ إلى الأستنتاج نفسة: جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦». وبفضل

إستخدام عملية «أولترا» لفك الرموز، تمكن البريطانيون من قراءة المعلومات الاستخباراتية الالمانية المتدفقة بين صوفيا وبرلين. وفى بادئ الأمر، شعر البريطانيون بالقلق، ذلك أن تفاصيل الأسرار العسكرية السوفييتية أشارت إلى أن الالمان لديهم مصدر، أو مصادر، عند أعلى المستويات فى القيادة العسكرية السوفييتية يقوم بتقديم معلومات إستخباراتية رفيعة الدرجة عن طريق الراديو إلى صوفيا، حيث يقوم عميل آخر من وكالة الاستخبارات الألمانية، المعروف باسم «ماكس» فقط، بنقلها إلى برلين. وبسبب شعورهم بالقلق، قام المسؤولون فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» بإبلاغ السوفييت أن هناك تسرباً فى المعلومات الاستخباراتية، غير أن موسكو لم تظهر إكتراثاً بهذا الأمر. وتوصل جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» إلى إستنتاج، وهو على صواب فى إستنتاجه، مؤداه أن عدم الإكتراث السوفييتى لايعنى غير أن «ماكس» كان جزءاً من عملية خداع سوفييتية متكامله.

ولم تكن وكالة الاستخبارات الالمانية تملك ميزة إستخدام عملية «أولترا» لفك الرموز، ولكنها مع ذلك إستنتجت أن «ماكس» يعمل لصالح الروس. وفى ظل الظروف العادية، فإن هذا يعنى الحكم على كودرز بالموت. وفى ذلك الوقت، مع ذلك، أمكن إنقاذ حياته، وذلك لأن الاستخبارات الألمانية كانت فى تلك الفترة فى حالة إرتباك. والسبب فى ذلك هو أنه بعد محاولة الانقلاب الفاشلة ضد هتلر فى يوليو ١٩٤٤، وهى محاولة شارك فيها كناريس نفسه، تقرر حل وكالة الاستخبارات الألمانية، وتولت وكالة الاستخبارات النازية مسؤولياتها. ومن الغريب هو أن وكالة الاستخبارات النازية إستمرت فى الاعتقاد أن كودرز رجل صادق، وعقدت العزم على إنقاذ حياته، ونقلته إلى محطة الاستخبارات فى هنغاريا كمحاولة للتهرب من القانون الذى يحظر توظيف العملاء اليهود فى أجهزة الاستخبارات الألمانية. ولكن هذه المحاولة فشلت، ذلك أن هتلر، حينما عرف بتوظيف عميل يهودى، أمر بإرسال كودرز إلى معسكر الاعتقال. واستدعى هذا الأمر تدخلاً شخصياً من جانب الجنرال هانزجودريان، رئيس الأركان العامة، لإلغاء هذا الأمر، وتقرر وضع كودرز فى أحد السجون العسكرية الألمانية كمحاولة للمحافظة على حياته. وفى مايو ١٩٤٥، وفى وقت بدأت فيه المانيا النازية

فى الانهيار، اطلق سراح كودرز، وهرب إلى النمسا تحت حماية تورخول، وبعد بضعة أسابيع، ألقى القبض عليه مرة أخرى، من جانب الأمريكيين فى هذه المرة، بوصفه عميلاً نازياً.

وكانت سنوات حياة الخداع الطويلة أعدت كودرز إلى مثل هذه الاحتمالات. وفى غضون عام، لم يعمل كودرز على إطلاق سراحه فحسب، وإنما تمكن أيضاً من اقناع مكتب الخدمات الاستراتيجية باستخدامه فى عمليات ضد الاستخبارات السوفيتية فى النمسا. ولم يشعر السوفييت بالإرتياح تجاه هذا التحول المفاجئ حينما أبلغهم تورخول بذلك، وفى فبراير ١٩٤٦، حاولوا إختطافه، مستخدمين فى ذلك مجموعة من العملاء بملابس البوليس الأمريكى. ولكن عملاء الاستخبارات الأمريكية أحبطوا المحاولة، وفهم كودرز الرسالة: واختفى. وفى ١٩٤٦، ظهر كودرز مجدداً فى فيينا لكى يعرض خدماته على وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، ولكن المسؤولين فى الوكالة المتشككين فى أمره، رفضوا عرضه، واضطر كودرز إلى الاختفاء مرة أخرى.

وبعد مضى سنوات قليلة، وإثر تحليل سجلات الإستخبارات الألمانية التى أمكن الإستيلاء عليها، عرف الأمريكيون أن كودرز كان «ماكس» المخادع، الجاسوس العامل فى الظلام الذى فعل الكثير لإفشال العمليات العسكرية الألمانية فى الجبهة الشرقية.

وأدى إختفاء كودرز إلى ترك أسئلة كثيرة متصلة بعملياته الاستخباراتية بدون أجوبة، وأهمها كانت الدوافع إلى ذلك: لماذا وضع كودرز رأسه فى فم الأسد لتنفيذ عمليات إستخباراتية مخادعة فى وقت كان يعرف فيه حتمية إكتشاف أمرة؟ وليست هناك أيه دلائل تشير إلى وجود نزعات شيوعية عنده، ولذلك فمن الواضح أنه لم تكن هناك أيه دوافع سياسية محركة له. وهل وافق على المساعدة فى تدمير المانيا النازية لأنه كان يهودياً وعاقداً العزم على الأنتقام من محرقة هتلر ضد اليهود؟ ربما، وذلك على الرغم من أنه لم يكن يهودياً متديناً، وكان يصر على القول دائماً إنه كاثوليكى. وهل هى النقود؟ ربما، وذلك على الرغم من أن الأموال السخية التى حصل عليها من

الألمان شكلت تعويضاً ضئيلاً لرصاصة ألمانيا مؤكدة فى الرأس لو أكتشفوا عمليات المخادعة. وربما يكون الجواب ببساطة هو أن كودرز، الرجل الذى عاش حياته كلها مخادعاً، لم يستطع مقاومة أسلوبه فى العمل.

وكودرز نفسة فقط يعرف الجواب، أينما كان.

هارولد أدريان راسل فيلبي

أعظم الجواسيس العاملين في الظلام

الإسم الرمزي: ستانلي، والعميل توم

(١٩١٢ - ١٩٨٨)

قال هارولد أدريان راسل (كيم) فيلبى قبل نهاية حياته: «حتى تكون خائناً، يجب أن تكون منتمياً، ولم أكن منتمياً فى حياتى أبداً».

ومهما كان هذا القول غامضاً، فهذا هو التفسير الوحيد الذى قدمه فيلبى فى شرح مهنة ترقى إلى مرتبة أشد المهن غموضاً فى تاريخ التجسس كله. وكان فيلبى مثال الجاسوس العامل فى الظلام، وهو الرجل الذى تغلغل، لحساب جهاز الإستخبارات السوفييتى، فى صفوف جهاز الاستخبارات البريطانى، وخان أسراره لمدة تقترب من ٣٠ عاماً. وكان فيلبى على وشك أن يصبح رئيساً لذلك الجهاز من الاستخبارات، الأمر الذى كان يمكن أن يشكل مهزلة فى تاريخ التجسس: رئيس جهاز إستخبارات يعمل لحساب الآخرين، وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من نتائج لاتظهر إلا فى الأحلام. وكانت قصة زاخرة بالاعمال البطولية، وذات تأثير ملهم فيما يتصل بأعمال الخيال العلمى وأعمال الحقائق التاريخية العديدة التى حاولت تفسير ظاهرة فيلبى.

ويميل المحللون لمسألة فيلبى إلى التركيز على نحو ثابت على حياته الأولى لمعرفة الدوافع التى جعلته يتجة فى هذا الاتجاه. وكان فيلبى ولد فى الهند، قبل الحرب العالمية الأولى بوقت قصير، وكانت أمه بريطانية، بينما كان أبوه شخصية غريبة فى التاريخ البريطانى، إنه المستعرب جون فيلبى. وكان فيلبى الأب شخصية

تامة النضج وغريبة الأطوار ومعروفة فى الشرق الأوسط، حيث عمل لحساب الإستخبارات البريطانية فى تحريك الثورة العربية ضد تركيا. وبعد الحرب، وإدراكاً منه أن بريطانيا خانت العرب، ذهب فيلبى الأب إلى المملكة العربية السعودية، حيث إعتنق الإسلام، وتزوج إمرأه عربية كزوجة ثانية، وحذر إبنه من مغبة تصديق كلمة الاستخباراتالبريطانية.

وكانت علاقةالأب والأبن علاقة قوية، ولكن الأب لم يكن يملك أى تأثير على تحول إبنه السياسى نحو الشيوعية. وعملية التحول هذه بدأت حينما إلتحق فيلبى بجامعة كامبريدج فى ١٩٢٩، حيث أصبح صديقاً حميماً للماركسيين جاى بيرجيس ودونالد ماكلين. وقام هذان الماركسيان بترشيح فيلبى، الذى كان من المحتمل جداً أن يبقى مجرد شيوعى آخر لولا تلك التجربة التى برهنت على كونها مشتملة على بذور تطور فى حياته المستقبلية.

وخلال عطلاته السنوية، أحب فيلبى أن يتجول فى أنحاء أوروبا، حيث عملت حقائق الرعب النازى على تعزيز تحوله إلى شيوعى متحمس، ولكن كانت فيينا هى المكان الذى قرر فيه فيلبى فى صيف ١٩٣٤ أن يصبح «جندياً»، على حد قوله فى وقت لاحق، فى الصراع ضد النازية.

ووصل فيلبى إلى فيينا فى غمرة اضطربات سياسة هناك، ذلك أن الحكومة اليمينية كانت منهمكة فى صراع حياة أو موت ضد خصومها اليساريين، وسجل فيلبى إسمه متطوعاً مع الثوريين الاشتركيين، المدعومين من الشيوعيين النمساويين، وعمل فى بادئ الأمر كحلقة وصل بين العناصر المختلفة المعادية للحكومة. وبمحض الصدفة، إلتقى فيلبى ووقع فى الحب مع الفتاة أليس فريدمان. وكانت فريدمان، المعروفة باسم ليتزى، شيوعية نمساوية، وكانت منهمكة على نحو عميق فى الصراع الذى زلزل المدينة النمساوية، وبلغ ذروته حينما إضطرت القوات الحكومية إلى قصف مساكن العمال وقتل المئات منهم. وعملت تجربة رؤية الحكومة وهى تذبح شعبها على مضاعفة راديكالية فيلبى.

وبالمصادفة بالنسبة للاتحاد السوفييتى، ففى ذلك الوقت كان هناك إثنان من عملاء الاستخبارات السوفييتى يعملان فى المدينة: ثيودور مالى، القسيس السابق الهنغاوى الذى تحول إلى الشيوعية، وجابور بيتر وهو شيوعى آخر. وعرف الإثنان فى فيلبى قدرته النادرة على الجمع بين الاستخبارات والإخلاص الأعمى، وجرى ترشيحه لخدمة «قضية الثورة العالمية». ولكنه لم يعد معنياً بالبرهنة على إلتزامه تجاه القضية الشيوعية من خلال تهريب رسائل عبر نقاط التفتيش البولسية، وإنما يجب، من الآن فصاعداً، كما جرى إبلاغه، إخفاء قناعاته السياسية والتغلغل فى الحكومة البريطانية، وعلى الأخص فى جهاز الإستخبارات البريطانى، من خلال إحداث ثقب من الداخل.

وعند عودته إلى بريطانيا، تحرك فيلبى فوراً لمحو ماضية الشيوعى، وهى الخطوة الأولى الضرورية لاختراق المؤسسة البريطانية. وفى العلن، إتجهت سياساته فجأة نحو اليمين، وانضم إلى الزمالة الأنجلو–ألمانية، وهى مجموعة يمينية تناصر فكرة التحالف مع ألمانيا النازية. وكخطوة أخرى نحو إخفاء قناعاته، قام فيلبى بتطليق زوجته أليس فريدمان.

وجاء تغلغله فى المؤسسة فى ١٩٣٦، وذلك حينما إشتغل لحساب جريدة «التايمز اللندنية» كمراسل مدافع عن قضية فرانكو فى الحرب الأهلية الإسبانية. وكانت رسائله الإخبارية للجريدة المناصرة على نحو صارخ لقضية فرانكو عملت على تعزيز فكرة يمينية فيلبى، وذلك على الرغم من قيامه فى الوقت نفسه بتزويد جهاز الإستخبارات السوفييتى بمعلومات إستخباراتية متدنية الدرجة تمكن من الحصول عليها من بطانة فرانكو. (وكادت مهنة فيلبى فى الجاسوسية أن تنتهى قبل الأوان ذات يوم، وذلك حينما ألقى جنود وطنيون القبض عليه للإستجواب. وفى ذلك الوقت، كان يحمل بعض الأوراق التى تضمنت إدانات مؤكدة ضده، وحينما طلب منه أن يقدم محفظة جيبه، رماها متعمداً تحت الطاولة، ولما إندفع الجنود نحوها، إنتهز فيلبى الفرصة وقام بابتلاع بعض الأوراق الهامة).

وفى ١٩٣٩ ، وبينما كان مراسلاً لجريدة التايمز اللندنية ، تمكن فيلبى من تحقيق ما كان يتطلع إليه . وبفضل نفوذ زميله فى الدراسة الجامعية، الرفيق الشيوعى جاى بيرجيس الذى كان يعمل فى الدائرة «د» (التخريب والدعاية) التابعة لجهاز الإستخبارات البريطانى «إم أى٦»، جرى ترشيح فيلبى للإنضمام إلى المؤسسة . وكما جرت العادة داخل جهاز الإستخبارات البريطانى وقتئذ، فإن التدقيق فى أمر ترشيح فيلبى كان روتينياً جداً. وحينما سئل والده عن ميوله الشيوعية المعروفة أثناء دراسته الجامعية فى كامبريدج، قال: «أوه ، كان ذلك مجرد هراء سياسى فى فترة الشباب. وانتهى الأمر عند هذا الحد» .

وبعد هذا التدقيق البسيط والمثير للدهشة فى الخلفية السياسية ، تمكن فيلبى من تحقيق الهدف الذى وضعه له جهاز الاستخبارات السوفييتى قبل خمس سنوات: التغلغل فى صفوف الاستخبارات البريطانية . وفى بادئ الأمر، مع ذلك، لم يكن هذا التغلغل واعداً، ذلك أنه تقرر حل الدائرة «د» (التخريب والدعاية) فى ١٩٤١ ، ولم يكن جهاز الاستخبارات البريطانى « إم أى ٦، يعرف تماماً ما يمكنه أن يفعل بشأن فيلبى . وهناك سبب واحد لذلك، وهو أن حياة فيلبى الطويلة تميزت بالقيل والقال، الأمر الذى حرمه من فكرة تعيينه فى منصب هام. وكان الحل، أخيراً، هو تعيينه في وظيفة مكتبية فى القسم الخامس (قسم مكافحة التجسس فى البلدان الخارجية) التابع لجهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦ » . وما كان يمكن أن يكون هناك قرار أفضل من ذلك بالنسبة إلى فيلبى وجهاز الأستخبارات السوفيتى ، ذلك أن الوظيفة المكتبية جعلته مطلعاً على سلسلة عريضة من التقارير الإستخباراتية، وهذا ما أعطاه فرصة أفضل للإطلاع بالمقارنة مع أية وظيفة أخرى.

وكان فيلبى رجلاً محبوباً فى جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦» . ولأنه كان سكيراً كبيراً مثل الكثيرين من زملائه العملاء، فإن فيلبى كان يملك أوراقاً كافية للثقة به من جانب الطبقات العليا المهيمنه على زعامة جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦» .ولكنه كان أيضاً شخصية عادية على نحو كافٍ قادرة على التكيف بسهولة مع «الرجال العاديين» المهيمنين على الطبقات الدنيا فى جهاز الاستخبارات البريطانى

«أم أى ٦»، ولأنه كان يلقب باسم «كيم»، تيمناً بشخصية، روديارد كيبلينج بسبب مولده فى الهند، فإن فيلبى كان شخصية موهوبة فى الاستخبارات، وأعتبر بمثابة «القادم الجديد»، أو الرجل الذى يمكن أن يصبح يوماً ما رئيساً لجهاز الاستخبارات كله.

وفى أواخر ١٩٤٤، حقق فيلبى خبطة خط مذهلة أخرى، وذلك حينما تقرر تسميتة لإحياء القسم التاسع فى جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦». وهذا القسم، المخصص لمكافحة التخريب السوفييتى والعمليات الاستخباراتية، ظل هاجعاً فى سبات عميق على نحو فعلى خلال فترة الحرب التى كان فيها الاتحاد السوفييتى حليفاً لبريطانيا. ومع هذا، فحينما إقتربت الحرب من النهاية، وأصبح من الواضح أن الاتحاد السوفييتى ربما يكون العدو القادم للغرب، قرر جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦». إحياء هذا القسم برئاسة فيلبى، مع تخصيص مائة من عملاء الاستخبارات للعمل معه.

وليس هناك منصب يمكن أن يكون أفضل من هذا بالنسبة إلى جاسوس يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى. وفيما يتعلق بالأسرار التى أفشاها فيلبى إلى موسكو بالضبط، فهى غير معروفة يقيناً خارج نطاق أرشيف جهاز الاستخبارات السوفييتى، ولكن من المعروف أن فيلبى قدم خدمتين حيويتين إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى خلال الحرب. والخدمة الأولى هى الإحباط التلقائى لجهود المجموعة السرية المعادية لألمانيا النازية الرامية إلى الحصول على دعم بريطانيا للاطاحة بنظام حكم هتلر. وكانت هذه المجموعة السرية تشكل الكابوس الأعظم بالنسبة إلى موسكو: أية حكومة ألمانية جديدة كان لابد أن تسعى إلى عقد سلام منفرد مع الغرب، مع ماينطوى ذلك على نتائج كارثية بالنسبة إلى الإتحاد السوفييتى فى حالة قيام الألمان بتوجيه قوتهم العسكرية الكاملة نحو الشرق. ومن أجل إحباط مثل هذا الإحتمال، قام فيلبى بصرف تقارير الألمان المعادين للنازية العاملين لحساب جهاز الإستخبارات البريطانى «أم أى ٦» عن غايتها، وتشويه فاعلية المعارضة المعادية لهتلر، وضمان جعل تقارير جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦» تميل إلى وصف معارضة الألمان بأنها غير مهمة ولا تستحق التعامل معها.

والخدمة الثانية التى قام بها فيلبى هى جعل جهاز الاستخبارات السوفييتى عارفاً بأسماء الجواسيس النافعين الذين جندهم جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦» فى أوروبا الشرقية (فى وقت لاحق، حينما تولت موسكو السلطة فى المنطقة، جرى إلقاء القبض على هؤلاء الجواسيس). وفى الوقت نفسه، فإن فيلبى قام بافشاء أسرار الشبكات المعادية للسوفييت التى أنشأها وتولى رئاستها فى القسم التاسع التابع لجهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦». وفى ظل معرفته بأسرار هذه الشبكات، تمكن جهاز الاستخبارات السوفييتى من تمرير معلومات إستخباراتية مضللة كان من شأنها خداع الاستخبارات البريطانية لعدة سنوات قادمة.

وفى ١٩٤٥، واجه فيلبى أزمة هددت بإنهاء مهنته. وفى وقت واحد تقريباً، هرب عضوان من الاستخبارات السوفييتية إلى الغرب. أحدهما، إيجورجوزينكو، كاتب الشيفرة فى السفارة السوفييتية فى أوتاوا، كندا، هرب مع مجموعة من برقيات الاستخبارات السوفييتية السرية جداً، علاوة على أية معلومات أخرى كانت فى رأسه. والثانى، قسطنطين فولكوف، أحد كبار المسؤولين فى جهاز الاستخبارات السوفييتى فى إستانبول، لم يهرب فى حقيقة الأمر، ولكنه فاتح السفارة البريطانية بعرض للهروب، مشيراً إلى أن لدية معلومات خاصة عن قيام جهاز الاستخبارات السوفييتى باختراق الاستخبارات البريطانية. ولم يكن فولكوف يعرف الهويات الحقيقية للجواسيس العاملين فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى، ولكنه ذكر دلائل كثيرة، من بينها واحدة، ولو أمكن التحقق منها على نحو كامل، فربما كان يمكن أن تؤدى فى غاية الأمر إلى الكشف عن حقيقة فيلبى.

وقام فيلبى باستشارة مسؤول الإتصال، يورى مودين، رجل جهاز الاستخبارات السوفييتى المسؤول عن الاتصالات مع العملاء فى لندن، الذى تنبأ بجائزة الاستخبارات السوفييتية الكبرى، وهى «مجموعة الخمسة» من الجواسيس العاملين فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى فى بريطانيا العظمى (فيلبى وماكلين وبيرجيس وانطونى بلانت وجون كيرنكروس). وفى حسابات مودين، فإن فيلبى لم يكن قادراً على معالجة هروب هذين الرجلين، وهكذا إضطر جهاز الاستخبارات

السوفييتى إلى مواجهة الإختيار بين أهون الشرين. وكان من الممكن أن يتمكن أى من جوزينكو أو فولكوف من كشف حقيقة فيلبى، وربما حقيقة آخرين أيضاً، ولكن من بين الرجلين كان فولكوف أشد خطورة. وعمل جوزينكو لحساب وكالة الاستخبارات السوفييتية وهى وكالة إستخبارات مستقلة تماماً، وبالتالى أمكن إفتراض القول إنه ربما لم يكن يعرف هويات الجواسيس العاملين فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى. ومن ناحية أخرى، فإن فولكوف كان مسؤولاً بارزاً فى جهاز الاستخبارات السوفييتى، وكان، على مايبدو، يعرف بعض الدلائل عن إختراق جهاز الاستخبارت السوفييتى للاستخبارات البريطانية. ولم يكن أمام مودين وفيلبى أى خيار: فولكوف كان الخطر الأعظم المحتمل، ولذلك، فبالنظرإلى أنه كان يتولى منصب رئيس القسم التاسع (مكافحة التخريب والعمليات الاستخباراتية)، فإن فيلبى كان معنياً باستجواب فولكوف شخصياً. وفى غضون ذلك، تقرر ترك عملية إستجواب جوزينكو إلى مسؤولين آخرين، فيما عكف مودين وفيلبى على مراقبة الإستجواب.

وفى ظل معرفته المسبقة بمحاولة فولكوف الهروب، تمكن جهاز الاستخبارات السوفييتى من القضاء على ذلك الخطر، فيما قضى وقتاً سعيداً حين قيامه بجولة إلى إستانبول. ولم يتم الكشف أبداً عن ما تعرض له فولكوف، ولكن الشاهدين على ذلك رأوا جثة، ملفوفة بضماد من الرأس إلى القدم، فى طريقها إلى طائرة مدنية سوفييتية فى إستانبول، فى ذلك اليوم الذى اختفى فية فولكوف فجأة. ورد فيلبى قيام الروس بإلقاء القبض المزعوم على فولكوف إلى «إغفالهم للاعتبارات الأمنية».

وكما أتضح فى وقت لاحق، فلم يكن جوزينكو يملك أية فكرة حقيقية عن عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى فى بريطانيا العظمى، ولذلك فمع إختفاء فولكوف، أصبح فيلبى حراً فى بلده. وفى نهاية الحرب، صعد نجم فيلبى بثبات فى جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦»، الذى لم يكن يعرف شيئاً عن قيامه بتسريب معلومات إستخباراتية إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى عن عمليات جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦» لاختراق الكوماندوس المعادين للشيوعية فى دول البلطيق. وكان هناك عدد آخر من عمليات إستخباراتية مماثلة فى أوروبا الشرقية، ولكن أحداً لم يجعل

فيلبى مرتبطاً حتى الآن على الأقل، بقائمة الكوارث الإستخباراتية المثيرة للإشمئزاز.

وكان هناك حديث داخل جهاز الاستخبارات البريطانى«أم أى ٦» حول إمكانية قيام فيلبى بخلافة رئيسه، ستيوارت مينزيس، وهو تسلسل أحداث أصبح مؤكداً فى ١٩٤٩ حينما تقرر نسمية فيلبى إلى واحد من أهم المناصب فى جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦»، وهو رئيس قسم واشنطن العاصمة. وهناك تضمنت مهمته القيام بمهام حلقة الإتصال بين «أم أى ٦» والاستخبارات الأمريكية. ولم يكن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يحلم أبداً بإمكانية حدوث مثل هذه الفرصة. ذلك أن فيلبى أصبح فى وضع يمكنه من تسريب ليس فقط أسرار «أم أى ٦»، وإنما أيضاً أسرار وكالة الإستخبارت المركزية الأمريكية «سى أى إيه» أيضاً.

ولم يكد فيلبى أن ينزل فى بيت فى واشنطن حتى عرف السر الأكبر فى أمريكا، الإسم الرمزى «فينونا»، وهو عملية فك رموز الشيفرة الموجهة ضد حركة الاتصالات المتراكمة وغير المنجزة للاستخبارات السوفييتية عن طريق الراديو خلال الحرب من لندن ونيويورك وواشنطن. وظن الأمريكيون والبريطانيون، وكانوا على حق فى ظنهم، أن هذا الحجم الكبير من الأعمال المتراكمة جاء بسبب عدم قدرة موسكو على تنظيم تدفق المعلومات الإستخباراتية من جميع جواسيسها النافعين فى وقت تعرض فيه النظام الشيوعى لأعظم الأخطار. وهذه العملية بدأت مع إعادة كتابة دفتر رموز الشيفرة الذى إحترق جزئياً فى فينلنده، وهى العملية التى أدت إلى توفير خيوط رئيسية عديدة نحو فك رموز شيفرة الاستخبارات السوفييتية. وكانت عملية طويلة ومملة، حتى انها استغرقت اكثر من ثلاثين عاماً، ولكن الدلائل المبكرة كانت باعثة على الحذر: الروس على مايبدو لديهم مئات الجواسيس النافعين فى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى.

وكان هؤلاء الجواسيس النافعون مسجلين فقط بأسمائهم الرمزية، ولكن المسؤولين عن فك رموز الشيفرة كانوا قادرين على مقارنة الأسماء الرمزية بدلائل أخرى وردت فى رسائل مختلفة. وهؤلاء المسؤولون ركزوا جهودهم على العناصر

الأهم، وعلى الأخص على ذلك الجاسوس النافع الذى سرب معلومات عن مشروع القنبلة الذرية، والذى إتضح فى وقت لاحق أنه كلاوس فوتش، وأيضاً من وجهة نظر فيلبى الباعثة على الحذر، على ذلك الجاسوس النافع البريطانى صاحب المنصب الرفيع، الذى كان يحمل الاسم الرمزى «هومر»، والذى سرب معلومات إستخباراتية رفيعة المستوى من وزارة الخارجية البريطانية. وهناك دليل غير مؤكد جاء فى رسالة، وهو أن «هومر» سافر إلى نيويورك من واشنطن فى وقت ما لزيارة زوجته الحامل والمريضة، وهو دليل أشار على نحو مباشر إلى دبوماسى بريطانى يعمل فى السفارة البريطانية فى واشنطن: دونالد ماكلين.

ومن واقع كونه رئيس مكتب الإتصالات الاستخباراتية البريطانية فى واشنطن، فإن فيلبى كان جزءاً من فريق الاستخبارات الذى عكف على مراقبة مدى تقدم عملية «فينونا» لفك رموز الشيفرة السوفييتية، وبالتالى كان قادراً على تحذير جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» من أنه مع حلول ١٩٥١، فإن المسؤوليين عن حل رموز الشيفرة السوفييتية سوف يتمكنون من توجيه الإتهامات إلى ماكلين. وبهذا التحذير، قرر يورى مودين ان ماكلين، الذى اقترب من حد الإصابة بانهيار عصبى نتيجة التوتر الناشئ عن حياته المزدوجة، يجب ذهابة إلى موسكو قبل إنهياره تحت ضغوط الإستجواب من جانب المسؤولين البريطانيين عن مكافحة التجسس. وقام مودين بترتيب هذا الذهاب جيداً، ولكن فى غضون ذلك وقعت حادثة لم يكن يتوقعها، وكان من شأنها وضع حد للاستفادة من جهود فيلبى.

وطلب مودين من واحد من أهم جواسيسه النافعين، جاى بيرجيس، القيام بمهمة إخراج ماكلين من بريطانيا العظمى. وكان بيرجيس صديقاً مقرباً من ماكلين، ولكنه كان أيضاً صديقاً مقرباً من فيلبى، وكان نزل فى بيت فيلبى لفترة قصيرة من الوقت أثناء وجود فيلبى فى مهمته فى واشنطن. وكان مثل هذا الإرتباط سيئاً للغاية، ولكن حينما قرر بيرجيس فجأة وعلى نحو غامض مصاحبة ماكلين فى ذهابة شرقاً، عمل هذا القرار على إثارة الريبة والشك من حول فيلبى على اعتبار أنه «الرجل الثالث» المفترض الذى حذر ماكلين من مغبة إلقاء القبض عليه.

ومن وجهة نظر جهاز الإستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، فهذه كارثة حقيقية، ذلك أنه فى اللحظة التى تولى فيها فيلبى منصباً إستخبارياً رفيعاً وكاد أن يصبح رئيساً لجهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦»، فإن أفعال بيرجيس اللافتة للنظر لغرابتها أفشلت كل شئ. وبعد شهور قليلة، أرسل مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»، وولتر بيديل سميث، ملاحظة جافة إلى مدير جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦»، ستيوارت مينزيس: «إستدع فيلبى، وإلا فسوف نقطع العلاقات الإستخباراتية».

ولذلك، أصبحت خدمة فيلبى الحقيقية لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى نهايتها. وقام جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦» بوضع فيلبى تحت المراقبة، ولكن أيضاً تحت سحابة من الشك، ولم يعد فى وضع يمكنه من تزويد تلك المعلومات الإستخباراتية التى كان جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يتوقعها. وبالاضافة إلى هذا، فإن فيلبى تعرض لمهاجمة المسؤلين عن مكافحة الاستخبارات فى بريطانيا وأمريكا، الذين ظنوا أن الجاسوس رفيع المستوى صاحب الاسم الرمزى «ستانلى» المذكور فى عملية «فينونا» لفك رموز الشيفرة السوفييتة. والشئ الذى عمل على زيادة الطين بله هو أن عدداً كبيراً من الهاربين السوفييت قدموا دلائل كثيرة تشير إليه. ومع حلول ١٩٦١، أصبح من الواضح أن الشبكة بدأت تشتد ضيقاً، ذلك أن جورج بلاك، جاسوس الجائزة الثانية العامل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» داخل الاستخبارات البريطانية، جرى إلقاء القبض عليه، وأدلى باعترافات كاملة، وذكر بعض الدلائل التى تشير إلى فيلبى.

وهنا، جاء دور مودين فى العمل. وفى ظل تلقيه معلومات عن خطة جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦» لمواجهة فيلبى وتوفير الحماية له مقابل تقديم اعتراف كامل (ولكن من نقل هذه المعلومات الاستخباراتية الحيوية إلى مودين يبقى مجهولا) ، قرر مودين التوجه إلى بيروت، حيث كان فيلبى يعمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦» تحت غطاء مراسل جريدة. وقامت خطة مودين على وجوب خضوع فيلبى لعملية إستجواب يقوم بها جهاز «أم أى ٦» من أجل معرفة

مدى صدق معلومات جهاز «أم أي ٦» عنه، ثم الهروب إلى موسكو بمجرد قيام القائمين على الإستجواب برفع أوراقهم الواضحة. وقدم فيلبى إعترافاً محدوداً، ذلك أنه إعترف فقط بما عرف أن جهاز «أم أى ٦» عرف من قبل، وفى ٢٣ يناير ١٩٦٣ إنسحب من حفل غداء واختفى. وبعد ستة أسابيع، أعلنت موسكو عن منحه حق اللجوء السياسى.

ولو كان فيلبى يظن أن هذا الهروب الأشد أثارة للحساسية فى تاريخ التجسس يمكن أن يؤدى إلى نوع من منصب رفيع المستوى فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، فربما تلقى فيلبى فى الأمر صحوة غير مهذبة. وكان الروس على إستعداد لتقديم شقة كبيرة ومبلغاً كبيراً من النقود للعيش علية، ولكنهم لم يكونوا يفكرون فى إستخدام فيلبى فى أية عملية إستخباراتية. والحقيقة البسيطة هى أنهم لم يكونوا يثقون به على نحو تام. وفى حسابات جهاز الاستخبارات السوفييتى، فلم يكن هناك أى ضمان يؤكد أن فيلبى لايفكر فى التحول إلى الطرف الآخر وأنه لايمر فى مرحلة محاولة تكرار تجربة ماقدمه إلى موسكو مع الغرب. وبناء على ذلك، أصبح فيلبى منفياً بريطانياً، يتجول فى أنحاء موسكو مع نسخة من جريدة التايمز اللندنية (وهى محاولة مقصودة من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» لجعل فيلبى منهمكاً فى مباريات لعبة الكريكيت البريطانية التى يشجعها) . وكان فيلبى شخصية مهذبة وسكيراً مدمناً، ومبدياً إستعداداً دائماً لإجراء مقابلات صحفية مع المراسلين الصحفيين الزائرين. وعاش فيلبى فى ظل الاحترام الكبير الذى أظهره جميع المسؤولين السوفييت تجاهه. وأبقى فيلبى على مراسلات ناشطة مع بعض أصدقائه البريطانيين السابقين، وعلى الأخص الروائى، والزميل السابق فى جهاز الاستخبارات البريطانى «أم أى ٦»، جراهام جرين، الذى جعل شخصية فيلبى الشخصية الرئيسية فى روايته «العامل الإنسانى».

وبقيت علاقة فيلبى مع جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» على حالها حتى ١٩٨٠ ،وذلك حينما قام رئيس جهاز الاستخارات السوفييتى «كى جى بى»، يورى أندروبوف، بتوجيه دعوة إليه للعمل كمستشار للعمليات الإستخباراتية فى بريطانيا

العظمى. وليس من المعروف ماهية النصيحة التى تمكن فيلبى من تقديمها، ولكن فرصة العودة مرة أخرى إلى لعبة الاستخبارات بدت كأنها عملت على تقوية عزيمته، ولو أن ذلك كان لفترة قصيرة من الوقت. وأصبح فيلبى مريضاً، ولم يظهر فى أى مكان بدون زوج من القفازات البيضاء لحماية يديه من حساسية شديدة فى الجلد. وكان ذلك واحداً من بين أمراض أخرى أضعفت قوته تدريجياً، ومات فى مايو ١٩٨٨.

ولم يدخر السوفييت أية جهود لتكريم أعظم الجواسيس العاملين فى الظلام فى تاريخهم. وكانت هناك صلاة جنازة حضارها كل مسئول سياسى واستخبارانى بارز فى الاتحاد السوفييتى، ثم صلاة قبر مع تكريم عسكرى كامل. وكان فيلبى أصر من قبل على دفن جثته فى التراب السوفييتى، وجرى إنزال جثته فى القبر مع ميداليات على صدره، على الطريقة الروسية.

وكان من أهم هذة الميداليات وسام لينين، وهو أعلى وسام فى الاتحاد السوفييتى. وفى سنواته الأخيرة، كان فيلبى مغرماً بالتفاخر بميدالياته، ولكن مثله مثل الرجل الإنجليزى، فهو ظل ينتظر موته، وعرف يقيناً أن الموت أدنى منزلة من كرامة الإنسان.

أنطونى بلانت

البابا يريدك!

الاسم الرمزى: جونسون

١٩٠٨ - ١٩٨٣

ربما من الصعب العثور على مثل أشد وضوحاً عن المؤسسة البريطانية من أنطونى بلانت، الذى كان أبوه واحداً من رجال الدين، وفى فترة معينة قسيساً لدى السفارة البريطانية فى باريس، بينما كانت أمه واحدة من أقارب الملكة الأم إليزابيث. وهذه الحقيقة جعلت تجنيده كجاسوس يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» أمراً غامضاً.

ومثله كمثل الأعضاء الآخرين فى «مجموعة الخمسة» (مصطلح جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى التعبير عن شبكته الرئيسية من الجواسيس البريطانيين)، فإن بلانت درس فى جامعة كامبريدج فى الفترة اللاحقة على الحرب العالمية الأولى، وهى الفترة التى شهدت تخلصاً من الأوهام وغموضاً فى إحتمالات المستقبل، كما شهدت تعزيزاً وانتعاشاً فى الأيديولوجية الماركسية. ومثله كمثل الآخرين من طلاب جامعة كامبريدج، فإن بلانت إنضم إلى الحزب الشيوعى، غير أنه على العكس من معظم الآخرين، إتخذ الخطوة الخطيرة فى الانتقال من مرحلة القناعة السياسية إلى مرحلة التجسس.

ومع أن بلانت نفسه لم يقل أبداً، فمن المعتقد أنه جرى تجنيده فى جهاز الاستخبارات السوفييتى فى ١٩٣٣ أثناء وجوده فى جامعة كامبريدج، وهو لذلك يعتبر بمثابة «الرجل الأول» فى «مجموعة الخمسة». وكان بلانت هو الذى تحدى الماركسيين الشباب فى «أن يفعلوا شيئاً» بشأن إنزلاق بريطانيا والنظام الرأسمالى نحو الكارثة، وأكد على ضرورة الحاجة إلى مساعدة ما زعم أنه منارة الخلاص فى العالم: الإتحاد السوفييتى.

والرجل الأول الذى قام بلانت بتجنيده هو جاى بيرجيس، الشاذ جنسياً على نحو ملتهب (بلانت، الشاذ جنسياً أيضاً، كان حبيبه)، ثم أعقبه آخرون، وعلى الأخص دونالد ماكلين، وميشيل سترايت، وهو طالب أمريكى برهن على أنه التجنيد الذى تجاوز فى أهميته ما كان يتصوره عنه بلانت نفسه. وكانت هناك حدود مزعجة لدور بلانت فى إكتشاف المواهب: كان بلانت فى الغالب يستخدم الإبتزاز الجنسى فى ممارسة الضغوط على المجندين الجدد لإجبارهم على التعاون، وذلك من خلال تهديدهم بإفشاء أسرار شذوذهم الجنسى. وفى تلك الأيام التى كان فيها الشذوذ الجنسى تهمة كبرى فى بريطانيا، فلم يكن هذا تهديداً عديم الجدوى.

ومن أول وهلة، فإن جهود جهاز الإستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى تجنيد الخريج فى جامعة كامبريدج ومؤرخ الأدب الإنجليزى، بالإضافة إلى الرجال الآخرين المغمورين الذين قام بدوره بتجنيدهم، تبدو جهوداً حمقاء. ماذا كان يمكن أن يقدم هؤلاء الجواسيس إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»؟ ولكن المظاهر العامة كانت خادعة، ذلك أن جهاز الاستخبارات السوفييتى فى حقيقة الأمر كان يختار جواسيسه على نحو مقصود ومدروس. والسبب فى ذلك هو أن الحكومة البريطانية كانت تستمد زعماءها السياسيين المستقبليين والموظفين المدنيين وعملاء الاستخبارات من جامعتى كامبريدج وأوكسفورد. ومن خلال الغرس المبكر، وإقناع صغارهم بتسخير قناعاتهم الماركسية فى التغلغل إلى المؤسسة التى يتوقون إلى تحطيمها باسم البروليتاريا، فإن جهاز الاستخبارات السوفييتى زرع بالفعل خلايا سرطانية فى الجسم السياسى البريطانى.

وكان هناك سبب آخر لتجنيد أنطونى بلانت، ذلك أنه كان شخصية هامة فى الجماعة البريطانية الشاذة جنسياً، الأمر الذى أتاح له فرصة تكوين شبكة من الاتصالات لاتقدر بثمن إمتدت إلى المؤسسة الحاكمة البريطانية برمتها. وكما كان يعرف جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، فإن أحد أقرب أصدقاء أنطونى بلانت، والحبيب المفترض، كان رجلاً يدعى جاى ليديل، وهو مسؤول بارز فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، الذى عمل على نحو ناشط على تجنيد وحماية زملائه الشاذين جنسياً. وكان جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» حريصاً على نحو كافٍ على عدم اللجوء إلى محاولة إبتزاز جاى ليديل، والسبب فى ذلك هو أن هناك أعمالاً آخرى أهم كانت تنتظره: تسهيل إنضمام الجواسيس الشاذين جنسياً إلى الاستخبارات البريطانية، مع حماية مثل هؤلاء الرجال من أية أسئلة محرجة حول إهتماماتهم الماركسية السابقة ونزعاتهم الجنسية.

وبناء على إلحاح جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، حاول أنطونى بلانت الإنضمام إلى الإستخبارات البريطانية مع إندلاع الحرب العالمية الثانية وانضم إلى الأمن الميدانى فى الاستخبارات العسكرية، ولكنه طرد حينما عرف المحققون الأمنيون خلفيته الشيوعية. وعاد الشجاع انطونى بلانت عندئذ إلى صديقة جاى ليديل، الذى قام بتعيينه فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥». وفى ذلك الوقت تقريباً، نجح جاى بيرجيس فى الإنضمام إلى جهاز الاستخبارات البريطانى إم أى ٦. وبعد ذلك، قام بتجنيد هارولد فيلبى، وهذا يعنى أن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» نجح فى زرع ثلاثة جواسيس فى الاستخبارات البريطانية. وفى غضون ذللك، إنظم دونالد ماكلين إلى وزارة الخارجية، وبذلك حققت عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى تجنيد العملاء فى السنوات الماضية نتائجها.

وحقق أنطونى بلانت نجاحاً نسبياً خلال فترة زمنية قصيرة، ذلك أنه تولى مسؤولية عمليات فتح الحقائب الدبلوماسية الخاصة بالسفارات المحايدة فى لندن على نحو سرى، وفى الآعم الأغلب عن طريق إغواء الاشخاص المكلفين بخدمة السائحين بتقاضى رواتب دائمة. وكان جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، يشعر بابتهاج

بالغ تجاه مجموعة الأوراق السرية التى تمكن أنطونى بلانت من تصويرها من حقائب المسافرين، كذلك كان جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» مبتهجاً أيضاً لأنه حصل بدوره على نسخه خاصة به. وفى الوقت نفسه، فإن أنطونى بلانت جعل موسكو عليمة بأنشطة عدد من المنفيين الحكوميين فى لندن الذين أبدى السوفييت إهتماماً خاصاً بهم، وعلى الأخص المنفيين من بولندا وتشيكوسلوفاكيا.

وفى عام ١٩٤٤، جرت تسمية أنطونى بلانت ضابط إتصال فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» لدى المقر الأعلى لقوات الحلفاء العسكرية، حيث قيادة الحلفاء العليا فى أوروبا، وهى خطوة حاسمة، ليس بسبب أنها سمحت له بالاطلاع على العملية البالغة السرية البريطانية «أولترا» لفك رموز الشيفرة الألمانية وإنما أيضاً الاطلاع على الخطط العملياتية رفيعة المستوى، بما فيها غزو شواطئ النورماندى. وليس من المعروف ماهية الخدمات الأخرى التى تمكن أنطونى بلانت من تقديمها إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، ولكن مع نهاية الحرب، وقام بتنفيذ عملية لا تتصل بالحرب أو بجهاز الأستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وإنما تتصل بوضع العائلة الملكية فى ورطة.

وخلال فترة الثلاثينيات، كان البريطانيون يشعرون بالقلق تجاه دوق وندسور، الذى كان موالياً للنازية على نحو صاخب. وكان دوق وندسور تعرض للضغوط من أجل التنازل عن عرش إنجلترا بعد إعتلاء العرش لفترة قصيرة بسبب رفضة قطع علاقته مع المطلقة الأمريكية والاس سيمبسون. وفى ١٩٣٧، عرفت الاستخبارات البريطانية أن الدوق، أثناء زيارة قام بها إلى ألمانيا، إجتمع إلى هتلر، وأعرب عن مشاعر متحمسة موالية للنازية، حتى أن الفوهرر فكر فى تعينية رئيساً لحكومة ألعوبة بعد قيام الألمان باحتلال بريطانيا. وفى وقت لاحق أثناء الحرب، قام البريطانيون بإبعاد الدوق عن طريق الإغواءات، وأسموه حاكماً عاماً فى بيرمودا بعد عرفوا أن هناك إحتمالاً وشيكاً بهروبة إلى الألمان.

وحرصت الحكومة البريطانية على جعل هذا كله سراً، ولكنها كانت تعرف أن

هناك مجموعة من الأوراق السرية الضارة، وهى عبارة عن رسائل من الدوق أعرب فيها عن آماله الكبيرة بانتصار المانيا النازية. ومهما يكن من أمر، فإن هذه المجموعة من الأوراق كان ينبغى إستردادها مجدداً. وقام أنطونى بلانت بعملية الإسترداد بنجاح، وفى مقابل ذلك عرضت العائلة الملكية الشاكرة عليه منصباً: باحث وحافظ الصور الملكية.

(ومنح أنطونى بلانت وسام الفارس فى ١٩٥٦). ومع أن أنطونى بلانت إستقال رسمياً من جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» فى نهاية الحرب، فإنه ظل ذا أهمية بالنسبة إلى جهاز الاستخبارات السرفييتى «كى جى بى». ومنذ أيام شبكة الفتى القديم، حرص أنطونى بلانت على الإبقاء على إتصالاته الشخصية مع زملائه القدامى وعلى غدائه الاسبوعى مع كبار المسؤولين فى جهاز الإستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، وغالباً ما كان هذا يؤدى إلى معرفة أنباء سارة كافية لتمريرها إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وكان أنطونى بلانت ذا أهمية أيضاً حينما أصبح جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» منهمكاً فى الموجة الأولى من حالات الجاسوسية اللاحقة على الحرب. وفى ١٩٥١، حينما هرب جاى بيرجيس مع دونالد ماكلين إلى موسكو، قام أنطونى بلانت بفعل أشياء عملت على زيادة الأمر تعقيداً بالنسبة إلى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، وذلك من خلال تسلله إلى شقة بيرجيس قبل وصول عملاء مكافحة الإستخبارات، وإزالة مجموعة كبيره من أوراق الإدانة. وكان من بين هذه الأوراق ملاحظات بخط يد واحد من «مجموعة الخمسة»، جون كيرنكروس، وبعض رسائل الحب العاطفية التى كتبها بيرجيس إلى واحد من أفضل أحبائه الذكور: أنطونى بلانت.

ومع ذلك، فبالنظر إلى أنه كان أحد أصدقاء جاى بيرجيس المعروفين، فمن الطبيعى أن تحوم الشبهات من حوله. وعرض عليه يورى مودين، رجل جهاز الاستخبارات السوفيتى المسؤول عن الاتصالات مع العملاء فى لندن، إخراجه من بريطانيا إلى مكان آمن فى الاتحاد السوفييتى، ولكن أنطونى بلانت رفض. وفى السنوات العديدة اللاحقة، خضع أنطونى بلانت للإستجواب ١١ مرة من جانب جهاز

الاستخبارات البريطاني «إم أى ٥»، غير أنه لم يكن هناك دليل قوى ضده، وتلاشت أية دعوى ضده شيئاً فشيئاً.

وفى ١٩٦٣، مع ذلك، قرر واحد من الأشخاص الذين جندهم أنطونى بلانت، وهو الأمريكى ميشيل سترايت، تقديم طلب للحصول على وظيفة فيدرالية. ومن واقع شعوره بالقلق تجاه إحتمالات أن تؤدى التحقيقات المطلوبة فى خلفيته من جانب مكتب التحقيقات الفيدرالى إلى كشف أسرار خلفيته الغامضة، قدم سترايت متطوعاً معلومات مفادها أنه جرى تجنيدة للعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» من جانب أنطونى بلانت، وقام ببعض عمليات التجسس المحدودة قبل اتخاذ قرار بالإنشقاق عن الحزب الشيوعى. وفى ظل معرفته لهذا الدليل المثبت نهائياً، قرر جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» مواجهة أنطونى بلانت، وعرض عليه صفقة: البوح بكل شئ فى مقابل الحماية. ووافق أنطونى بلانت على الصفقة، ومع أن هناك بعض الأسئلة مازالت باقية حول مدى ماكشف عنه أمام القائمين على الإستجواب، فإن عدداً من المسؤولين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» ظنوا أن أنطونى بلانت، وفق العادة المتبعة عند عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، ربما أدلى بمعلومات يعرفها جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» من قبل. ومع هذا، فإن أنطونى بلانت قدم بعض المعلومات الهامة، ذلك أنه كشف أن ليو لونج، الزميل فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» خلال الحرب، جرى تجنيده للعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» كمصدر للمعلومات، كما أكد أيضاً شكوك جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» بأن جون كيرنكروس كان الرجل الخامس، فى «مجموعة الخمسة». وكشف أنطونى بلانت أيضاً عن أسماء عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» الذين عمل معهم، وعلى الأخص يورى مودين، الذى إعتبر بمثابة الاختصاصى البارز فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى التعامل مع العملاء الشاذين جنسياً. وفى ظل حقيقة مغادرة هؤلاء الروس الأراضى البريطانية منذ فترة طويلة، فإن هذا الكشف كان محدود الأهمية.

وكانت الاستخبارات البريطانية تنوى أن تكون إجراءاتها مع أنطونى بلانت سراً،

ولكن فى ١٩٧٩ ، قام بعض المسؤولين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، بدافع الشعور بالغضب تجاه ما اعتبرت معاملة مؤاتية لأحد أعمدة المؤسسة البريطانية، بتسريب بعض تفاصيل الصفقة إلى المؤلف أنطونى بويل، الذى أثار كتابه حول هذه الصفقة «الرجل الرابع» عاصفة عامة. وكانت رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر إضطرت إلى الاعتراف علانية أن مثل هذه الصفقة عقدت بالفعل. ويبقى هناك نزاع مستمر حول ما إذا كان ينبغى أن يحصل رجل مثل انطونى بلانت على وعد بالحماية، وذلك على الرغم من حقيقة أنه بدون إعترافه، ما كان يمكن أن يكون هناك دليل واضح يسمح بإحالة قضية فى التجسس إلى المحكمة.

وبرغم ذلك، فإن أنطونى بلانت دفع ثمناً، ذلك أنه تعرض للشتائم علانية، وجرى تجريده من وسام الفارس، وأخيراً أسلم نفسه إلى الإعتزال الإنفرادى، وقلما كان قادراً على إظهار وجهه المعروف جيداً. ومات فى ١٩٨٣، من غير شعور بالندم على ما يبدو. وحينما سأل الأصدقاء هذا الرجل المولود فى الثروة والجاه عن الأسباب التى اضطرته إلى خيانه وطنه، أجاب بهذه الحكاية التاريخية: «الجيش الفلورنسى كان يحارب جيش البابا، وكان بينفينوتو سيلينى يحارب إلى الجانب الفلورنسى. وفى أثناء إهتياج فى المعركة، جاء صوت من الخطوط البابوية منادياً: يا بينفينوتو، البابا يريديك أن تحارب معه. ورمى سيلينى سلاحه، وذهب إلى الجيش البابوى، وأصبح صائغ الفضة للبابا، وحينما إنتهى من عمله، عاد إلى فلورنسا حيث استقبل إستقبالاً حافلاً لأنه كان فناناً عظيماً».

وكل من سمع هذه الحكاية كان يتمنى لويعرف أن عقل أنطونى بلانت الغريب رأى بالفعل تشابهاً بين خيانة سيلينى للفن وخيانته العظمى الخاصة به.

أوليج بنكوفسكى

جندي من أجل السلام

الأسماء الرمزية : أليكس ، تشوك ، هيرو ، يوجا

١٩١٩ - ١٩٦٣

فى مساء ١٢ أغسطس ١٩٦٠ ، بدأ فصل غير عادى من فصول التجسس فى الحرب الباردة بين الدولتين العظميين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، فوق كوبرى فى موسكو ، وذلك حينما إقترب رجل قصير القامة ، وممتلىء الجسم ، وأحمر الشعر ، من إثنين من السائحين الأمريكيين ، وأعطاهما ظرفين ، وأبلغهما بنقل هذين الظرفين «إلى وكالة الآستخبارات المركزية الأمريكية ، «سى أى إيه» ، ثم اختفى فى ظلام الليل .

وكان هذان السائحان الشابان غير واثقين من صدق نوايا هذا الرجل ، ذلك أنهما تلقيا من قبل تحذيرات مفادها أن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يسعى فى بعض الأحيان إلى خداع السائحين بمثل هذه اللعبةالماكرة ، وذلك من خلال وضع أشياء مشبوهة فى أيديهم ، ثم إلقاء القبض عليهم بتهمة التجسس . وبعد التفكير فى الأمر ملياً ، قرر هذان السائحان تسليم الظرفين ، غير مفتوحين ، إلى السفارة الأمريكية .

وفى السفارة الأمريكية فى موسكو ، أدرك الدبلوماسى الذى فتح الظرفين أن هناك شيئاً غير دبلوماسى فى الأمر . وتضمنت الرسالة الأولى ، التى حملت توقيع

«الكولونيل أوليج بنكوفسكى»، إقتراحاً بالتجسس لحساب الأمريكيين، وذكرت بعض المعلومات العسكرية. وتضمنت الرسالة الثا نية إرشادات كاملة حول كيفية الإتصال به.

وحينما جرى تمريرها إلى محطة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» فى السفارة، إعتبرت الرسالتان فى بادئ الأمر بمثابة إستفزاز صريح، وربما محاولة لزرع جاسوس زائف فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه». ولاريب فى أن التحقق فى خلفية بنكوفسكس أشار إلى وجوب توخى الحذر، والسبب فى ذلك هو أنه يمثل مثلاً يحتذى به لمنهج عمل موظف سوفييتى ملتزم.

وانضم بنكوفكسى، المولود فى ١٩١٩ فى القوقاز، وابن مهندس مناجم الفحم الحجرى، إلى الجيش الأحمر فى ١٩٣٩، وكعضو فى الحزب الشيوعى بسجل نظيف، أصبح مسؤولاً فى الحزب عن بث المبادئ الحزبية فى وحدة من الوحدات العسكرية والتأكد من صدق ولاء أفرادها للحزب. وحارب فى الحروب الروسية – الفنلندية فى ١٩٤٠، ثم خدم خلال الحرب العالمية الثانية فى سلاح المدفعية، وعانى من إصابة بجروح جسيمة فى يونيو ١٩٤٤. وبعد سنتين، جرى تجنيد بنكوفسكى، الذى اعتبر واحداً من ألمع ضباط الجيش، للعمل لحساب وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آريو». ومع حلول ١٩٥٥، أصبح بنكوفسكى مسؤولاً مقيماً فى وكالة الاستخبارات السوفييتة «جى آريو» فى أنقرة، تركيا، تحت غطاء عسكرى.

ولم يكن من المتصور أن رجلاً بهذا النوع من سجل الإخلاص الشديد للقضية السوفييتية كان يمكن أن يرغب فى أن يصبح جاسوساً يعمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه». وبناء عليه، مضت الوكالة فى طريقها بحذر، غير أن كل الشكوك المبكرة أمكن إزالتها حينما بدأ بنكوفسكى فى إرسال فيض من المعلومات الأستخباراتية. وبقوله إنه أراد أن يكون «جندياً من أجل السلام»، فإن بنكوفسكس لم يقم بتصوير كل وثيقة سرية عثر عليها فحسب، وإنما أضاف كل معلوماته الدقيقة الخاصة به عن التكنولو جيا العسكرية السوفييتية. وإلى حد بعيد، قدم بنكوفسكى معلومات عن أنظمة الكتابة بالشيفرة المعمول بها فى وكالة الإستخبارات

السوفييتة «جى آريو»، وكشف عن أسماء مئات الأشخاص العاملين لحساب وكالة الإستخبارات السوفييتية «جى آريو» فى أنحاء العالم.

وكان مجال المعلومات التى كشف عنها بنكوفسكى واسعاً، حتى أن عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» أصبحت متشاركة فى مصلحة واحدة مع جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، الذى عرض بدوره أحد جواسيسه النافعين، وهو رجل أعمال بريطانى يدعى جريفيل واين، للعمل كحلقه إتصال فاصلة للمعلومات الاستخباراتية الهائلة التى يقدمها بنكوفسكى.

وقال موريس أولد فيلد، رئيس محطة جهاز الإستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى واشنطن العاصمة، عن بنكوفسكى إنه «الإستجابه للصلاة» ولكنه كان مبالغاً فى هذا القول. وجاء ظهور بنكوفسكى فى مرحلة صعبة من الاستخبارات الغربية، وهى مرحلة تميزت بمواجهة صعوبات متزايدة فى تحديد مدى القوة العسكرية السوفييتية المتعاظمة. وعلى الرغم من التقدم الذى أمكن إحرازه فى عدد الطلعات الجوية الإستطلاعية، فهناك كان جدل مستمر حول حجم ومجال وأهمية القوة العسكرية السوفييتية. وكان الاهتمام الرئيسى منصباً على برنامج الصواريخ السوفييتية، ذلك أن إنجازات موسكو الفضائية أشارت إلى حدوث تقدم فى تصميم سلسلة الصواريخ العابرة للقارات. وكما كان يعرف كل واحد، فإن الصاروخ القادر على وضع قمر إصطناعى أو رجل فى الفضاء يكون قادراً أيضاً على حمل رؤوس نووية ذات قوة إنفجارية هائلة إلى آلاف الأميال. وفى حقيقة الأمر، فإن الفكرة المأخوذة عن الصواريخ السوفييتية ذات الرؤوس النووية، التى عززها تباهى رئيس الوزراء السوفييتى نيكيتا خروشوف بأن صواريخه يمكنها «إصابة ذبابة فى الفضاء»، أشارت إلى وجود قوة هائلة أقوى بكثير وأكثر عدداً من قوة الصواريخ البالستية الأمريكية العابرة للقارات. وكانت المزاعم بوجود «فجوة صواريخ» هى التى ساعدت على إنتخاب جون كينيدى فى انتخابات الرئاسة الأمريكية فى ١٩٦٠.

وما أثار شعوراً بالصدمة عند هؤلاء الذين إستخلصوا المعلومات الهامة فى جهاز

الاستخبارات البريطاني «إم أى ٦» ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»، من بين المعلومات الاستخباراتية الرئيسية التى قدمها بنكوفسكى، هو تلك المعلومات التى أشارت إلى أن «فجوة الصواريخ» محض خرافة. وفى حقيقة الأمر، فإن ما كشف عنه بنكوفسكى هو أن قوة الصواريخ السوفييتية تتألف من عدد قليل من الصواريخ ولا يعمل أى منها فى مكان آخر يتجاوز نطاق تصميمها. وبتعبير بنكوفسكى الروسى غير المهذب: «هذه الصواريخ لا تستطيع أن تضرب مؤخرة ثور بروؤسها».

وحدثت هذه النظرة العميقة فى الوضع الحقيقى للصواريخ السوفييتية فى لندن، حيث جرى إرسال بنكوفسكى فى أوائل ١٩٦١ كرئيس لوفد تجارى سوفييتى (وفى الحقيقة كان هذا الوفد عبارة عن مجموعة من رجال وكالة الإستخبارات السوفييتية «جى آريو» المعنيين بجمع المعلومات الأستخباراتية عن التكنولوجيا والصناعة البريطانية) . ومع أن رجال جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» جعلوا الوفد مشغولاً ببرنامج مرهق من الزيارات إلى المواقع الصناعية البريطانية خلال جولتهم التى إستغرقت سته أيام، فإن بنكوفسكى كان ينسحب فى كل ليلة من الوفد ويلتقى فى جناح فندق مع رجال جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» ورجال وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» الذين كانوا يقومون باستخلاص المعلومات المفيدة منه. وهناك كان بنكوفسكى يقضى بعض الساعات فى تخليص نفسه من عبث أسرار موسكو العسكرية الأشد حيوية.

وكان رجال الاستخبارات البريطانية والأمريكية أسقطوا من حسابهم من قبل فكرة إمكانية أن يكون بنكوفسكى جاسوساً سوفييتياً مزروعاً، والسبب فى ذلك هو ذلك الحجم الكبير من المعلومات الإستخباراتية الحيوية التى نقلها إليهم. وهذه الحقيقة أفسحت المجال أمام البحث فى دوافع بنكوفسكى المفضية إلى ذلك. وكما اكتشف رجال الاستخبارات البريطانية والأمريكية، فبرغم سجله الخالى من الأخطاء، فإن بنكوفسكى كان فى الواقع يعانى من متاعب خطيرة.

وهذه المتاعب بدأت بهدوء كافٍ: وكجزء من البحث الشامل فى خلفية

بنكوفسكى إثر تولية مناصب هامة فى وكالة الإستخبارات السوفييتية «جى آريو»، قام رجال مكافحة الاستخبارات فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بالبحث فى خلفيته العائلية. وما أثار شعوراً بخيبة الأمل عند بنكوفسكى هو أنهم اكتشفوا أن أباه، الذى زعم أنه مات فى ١٩٢٠ بسبب إصابته بالتيفوس (أو هكذا أبلغته أمه)، مات فى الحقيقة أثناء قتاله فى صفوف الجيش الأبيض فى الحرب الأهلية الروسية فى ١٩١٩. وتوصلت العقول الميالة إلى الشك والارتياب فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» إلى إستنتاجين، ولم يكن أيهما يخدم بنكوفسكى: الأول هو أن حقيقة معاداة الأب للشيوعية أثارت تكهنات حول إمكانية عدم إخلاص وولاء الأبن للشيوعية. والثانى هو أن حقيقة حرص بنكوفسكى على إخفاء ظروف موت أبيه أثارت إحتمالات وجود دوافع أخرى أشد خطورة.

وكنتيجة لهذه الشكوك، توقفت مهنة بنكوفسكى عن الاستمرارية، وتقرر إلغاء مهمة كانت مقررة من قبل إلى الهند، كما واجه نتائج أشد خطورة من ذلك. وفى ظل تخلصه المتعاظم من أوهام النظام السوفييتى، بدأ بنكوفسكى فى غرس شعور بكراهية شديدة تجاه النظام، وهى كراهية حملته على إتباع منهج خطير فى العمل. وكما أبلغ بنكوفسكى رجال الأستخبارات البريطانية والأمريكية الذين قاموا باستخلاص المعلومات المفيدة منه، فهو أصبح مقتنعاً شيئاً فشيئاً بأن الحكومة السوفيتية تنوى الاستعداد للقيام بحرب هجومية فى وقت ما فى المستقبل، وحينما يشعر السوفييت بأنهم مستعدون عسكرياً، فسوف يواجهون الغرب فى معركة فاصلة كبرى لتحديد ما إذا كانت الشيوعية أم الرأسمالية هى التى سوف تحكم العالم.

وأثارت هذه الحماسة التى تميزت بها رؤية بنكوفسكى الرائعة إلى الأشياء، ودوره الذى تصوره فى كيفية إنقاذ العالم، إنتباه الحاضرين إلى عدالة هذه الصفة من جنون العظمة. وهناك دلائل أخرى على خيانة بنكوفسكى: بنكوفسكى طلب عقد اجتماع إلى الملكة إليزابيث (وحرم من مثل هذا الاجتماع، مع أنه سمح له باجتماع قصير مع رئيس جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» وقتئذٍ ديك وايت)، ثم طلب عقد اجتماع الوجه للوجه مع الرئيس الأمريكى كينيدى (وحرم من مثل هذا الاجتماع

على أساس ضيق الوقت) . وكمحاولة لاسترضائه، قرر رجال الإستخبارات فى جهاز الإستخبارات البريطانى «إم أى ٦» ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» تفصيل بدلتين عسكريتين برتبة كولونيل فى الجيش البريطانى والأمريكى وتقديمهما كهدية إلى بنكوفسكى، والتقاط صور تذكارية له مع رجال الاستخبارات البريطانية والأمريكية الذين قاموا باستخلاص المعلومات المفيدة منه . وفى واقع الأمر، فإن بنكوفسكى وقع عقداً مع جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»، وفيه وافق على أن يصبح «جندياً فى العالم الحر»، وعلى وجوب تخليصه مع عائلته من أية محنة يتعرض لها فى الاتحاد السوفييتى فى حالة بدء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بتشديد الخناق عليه .

وبلغت قيمة هذا كله ثمناً ضئيلاً (تكاليف عملية بنكوفسكى بلغت ٨٢,٠٠٠ دولار فقط) مقابل المعلومات الأستخباراتية التى قدمها بنكوفسكى . ولكن قيمة بنكوفسكى الحقيقية أوجدت مشكلة عملياتية: سفره إلى الخارج جرى تقييده، ولذلك كان ينبغى إيجاد وسيلة للحصول على معلوماته الاستخباراتية فى موسكو، حيث كان يعيش ويعمل .

وبدت الوسيلة التى توصل إليها جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» ووكالة الإستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» فى هذا المجال آمنة . وكان من بين رجال جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» العاملين فى موسكو تحت غطاء دبلوماسى هناك رودريك شيشولم، وزوجته جانيت، التى كانت تعمل كسكرتيرة لدى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، وتعيش معه فى موسكو . وفى يوم ما من كل أسبوع، كانت السيدة شيشولم تأخذ ولديها الصغيرين إلى حديقة عامة . وفى وقت معين «كان بنكوفسكى يأتى إليها، ويجاملها معرباً عن إعجابه بجمال ولديها، ويقدم لهما حلوى من علبة . ثم تأخذ السيدة شيشولم الحلوى، وهى فى الواقع عبارة عن ميكروفيلم . وفى مناسبات أخرى كانت السيدة شيشولم وبنكوفسكى يتبادلان الرسائل فى مكان معين يقع خلف شبكة أنابيب تدفئة مركزية فى الطابق الأول من عمارة سكنية .

وفى الوقت نفسه، كان جريفيل واين، تحت غطاء رجل أعمال يحاول عقد صفقة تجارية مع الإتحاد السوفييتى، يستخدم كصندوق رسائل كلما قام بزيارة إلى موسكو.

ومن هذه الحلوى التى كانت السيدة شيشولم تقوم باستلامها، حصل جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» على منجم ذهبى من المعلومات الاستخباراتية حول وضع قوات الصواريخ السوفييتية، وهو مجال تخصص بنكوفسكى فى وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آريو». ووصلت معلومات فى وقت حاسم، وهى معلومات لم تكن معروفة لدى بنكوفسكى والمتعاملين معه، ذلك أن خروشوف قرر أن ينشر صواريخ هجومية فى كوبا. وكانت المعلومات الاستخباراتية المبكرة لدى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» حول بناء منصات للصواريخ فى كوبا واجهت تبريراً سوفييتياً قام على الزعم أن عملية البناء إستهدفت نشر صواريخ للدفاع الجوى لحماية منشآت عسكرية كوبية وكتيبة سوفييتية مرابطة فى كوبا. ولكن هذا التبرير السوفييتى إنهار حين عقد مقارنه بين معلومات بنكوفسكى الأستخباراتية والمزاعم السوفييتية. وكان بنكوفسكى قدم معلومات إستخباراتية دقيقة حول عملية بناء ونشر صواريخ «إس إس ٤»، وهى صواريخ نووية سوفييتية متوسطة المدى. ولم تدع المعلومات الاستخباراتية الآتية من رجلهم فى موسكو مجالاً للشك فى عقول رجال الاستخبارات فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»: عملية البناء فى كوبا كانت لأغراض نشر صواريخ نووية هجومية.

وكانت تلك فقط هى الاستفادة الأولى من معلومات بنكوفسكى الأستخباراتية. وهو أيضاً أبلغ المتعاملين معه عن المدة الزمنية الضرورية التى إستغرقتها العملية كلها من البناء إلى النشر الفعلى لصواريخ «إس إس ٤»، وهى معلومات جعلت الأمريكيين يعرفون بالضبط الوقت اللازم لإزالة هذه الصواريخ من أماكنها. والأهم من هذا كله، فإن بنكوفسكى قدم للرئيس الأمريكى كينيدى الورقة الرابحة فى لعبة الخداع الدولى التى أصبحت معروفة بأزمة الصواريخ الكوبية. وإدراكاً منه أن قوة صواريخ خروشوف البالستية العابرة للقارات كانت مجرد خدعة، فإن كينيدى عرف أنه يمكنه إجبار

السوفييت على بلوغ حافة الحرب النووية مع معرفته اليقينية بتراجعهم فى غاية الأمر. ولم يكن السوفييت فى وضع قادرين فيه على تحدى الولايات المتحدة فى حرب نووية، ولو فعلوا ذلك لأصبحت الأراضى السوفييتية مسرحاً للتفوق النووى الأمريكى الهائل.

وفى تلك الأثناء التى كانت فيها أزمة الصواريخ جارية، إنتهت مهمة بنكوفسكى كجاسوس يعمل فى الظلام. ومع نهاية صيف ١٩٦٢، أصبح بنكوفسكى عارفاً أن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» عكف على مراقبته. وتقرر فجأة عدم السماح إليه بدخول مكتبة وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آريو»، حيث قام من قبل بتصوير عدة وثائق، وأثناء إحدى مقابلاته مع جانيت شيشولم، لاحظ سيارة ورجالاً يراقبونه. وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢، حينما كانت أزمة الصواريخ الكوبية فى ذروتها، ألقى القبض على بنكوفسكى.

كيف تمكن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» من اكتشاف أمر بنكوفسكى؟ وكانت هذه مسألة على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن كلاً من وكالة الإستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إية» وجهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» إتخذ إجراءات مسبقة وقائية واستثنائية لحماية بنكوفسكى. وكانت هناك حفنة صغيرة فقط من المسؤولين على جانبى الإطلنطى يعرفون هويته الحقيقية، كما كان هناك عدد أكبر من ذلك بقليل فقط يملكون حرية الاطلاع على المعلومات الإستخباراتية التى يقدمها. وأشار إلقاء القبض على هذا المصدر الهام من المعلومات الإستخباراتية إلى ما هو أسوأ من كل كوابيس الإستخبارات: هناك جاسوس يعمل فى الظلام على مستوى رفيع فى أى من جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» أو وكالة الإستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه».

ومع ذلك، فإن عملية إلقاء القبض على بنكوفسكى جاءت من واقع جملة من الإعتبارات: أعمال جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» المجتهدة فى مكافحة الإستخبارات، ورقيب مخمور فى الجيش الأمريكى، وغلطة عملياتية فادحة من جانب

جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦».

ومع أوائل ١٩٦١ ، أصبح جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» عارفاً أن هناك أسراراً عسكرية سوفييتية رفيعة المستوى تجد طريقها إلى الغرب. وكان هذا الجهاز تمكن من تجنيد رقيب مخمور فى الجيش الأمريكى يدعى جاك دانلاب، وهو مجند متواضع المستوى حقق نتائج غير متوقعة حينما عهدت إليه مهمة القيام بأعمال جاسوس سائق مكلف بخدمة السائحين فى وكالة الأمن الوطنى، وهى وكالة أمريكية معنية بفك رموز الشيفرة. وبرغم منصبة المتواضع، فإن دانلاب تمكن من الوصول إلى الكثير من الوثائق التى وقعت بين يده، والتى باعها إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».

(دانلاب فى وقت لاحق إنتحر حينما بدأ عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالى فى ملاحقته).

وشعر رجال الإستخبارات فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بالذعر حينما ألقوا نظرة على بعض وثائق دانلاب، التى لم تترك مجالاً للشك فى أن أشد المعلومات العسكرية حساسية تشق طريقها إلى الغرب. وهذا المصدر أمكن التستر عليه على نحو جيد، ولكن جهاز الأستخبارات السوفييتى «كى جى بى» إنتهى إلى إستنتاج مؤداه أن أياً من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» أو جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، أو الاثنين معاً، لديه جاسوس رفيع المستوى يعمل فى الظلام فى مكان مابين كبار العسكريين السوفييت. ولكن من هو؟ ووفق تقديرات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فهناك حوالى ١,٠٠٠ مسؤول يملكون حرية الوصول إلى تلك المعلومات التى تشق طريقها إلى الغرب، وهم يشكلون فى مجموعهم مهمة مثبطة للهمة، ذلك أن كل واحد من هؤلاء الألف شخص، ومن بينهم بنكوفسكى بالطبع، ينبغى التحقيق معهم.

وفى الوقت نفسه، انتهى جهاز الإستخبارات السوفييتى «كى جى بى» إلى استنتاج مؤداه أن المعلومات ربما جرى تمريرها فى موسكو، حيث مقار المؤسسة

العسكرية السوفييتية. وهذا يعنى أن هناك عميلاً فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» أو جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» تحت غطاء دبلوماسى ربما قام باستلامها. وهكذا، قام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بإجراء إستطلاع شامل لجميع عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» وجهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، المعروفين العاملين تحت غطاء دبلوماسى فى موسكو. وكانت كلمة السر هى «معروف»، ذلك أنه ليس كل عميل غربى فى موسكو كان معروفاً. ولكن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» كان يعرف بالفعل أن رودريك شيشولم كان، بسبب جاسوسه العامل فى الظلام داخل جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، جورج بلاك، الذى خدم مع شيشولم فى محطة برلين التابعة لجهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى أواخر الخمسينيات، قدم إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» قائمة كاملة بأسماء جميع عملاء جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى برلين. وكانت مهمة شيشولم الأخيرة فى موسكو بمثابة غلطة فادحة، ذلك أن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» كان يعرف تماماً أن مهمته إنتهت: جورج بلاك ألقى القبض عليه من جانب جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» فى أوائل ١٩٦١، واعترف بالكشف عن أسماء عملاء جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» الذين كان يعرفهم.

وهكذا، فحينما بدأ جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» إستطلاعة الشامل فى موسكو، كان من بين أهدافه رودريك شيشولم وزوجته جانيت شيشولم. وكان جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يعرف أن جانيت شيشولم خدمت كسكرتيرة فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى برلين. وكانت الأحداث الباقية بمثابة نهاية لعبة حقيقية: مباغتة جانيت شيشولم أثناء محادثة مع كولونيل فى وكالة الاستخبارات السوفييتية « جى آريو» يدعى أوليج بنكوفسكى، ومراقبة بنكوفسكى وهو يدخل بسرعة ويغادر شقة سكنية مجاورة (حلقة إتصال فاصلة واضحة)، وزيارات بنكوفسكى غير العادية إلى مكتبة وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آريو». وكمحاولة للتوصل إلى دليل نهائى، قام عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»

بوضع شمع مسموم على قاعدة كرسى بنكوفسكى الذى يستخدمه فى الجلوس عليه أثناء العمل فى شقته. وهذا السم أدى إلى إدخال بنكوفسكى إلى المستشفى لمدة أسبوع، واستخدم جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» هذه المدة فى وضع كاميرا خفية فى مصباح الطاولة فوق مكتبه. وحينما عاد بنكوفسكى إلى البيت، سجلت الكاميرا ما كتبه من معلومات سريه قبل إرسالها إلى حلقة الاتصال الفاصلة.

وفى أوائل ١٩٦٣، جرت محاكمة بنكوفسكى (علاوة على جريفيل واين)، وهو إجراء كان بمثابة ممارسة دعائية لإقامة الدليل على خيانتة. وإدراكاً كامنه للنتيجة الحتمية، قدم بنكوفسكى إعترافه العلنى بهدوء. وبعد بضعة شهور، جرى إعدامه، على ما يبدو وفق طريقة الاتحاد السوفييتى الخاصة به فى معاقبة أخطر الخائنين: تقديمة شيئاً فشيئاً إلى فوهة نار فرن، تحت عيون بعض زملائة المقربين السابقين.

جورج بلاك «مرشح منشوريا»

الاسم الرمزي: دياموند

الاسم المستعار: ماكس دوفري

١٩٢٢-

بدا ذلك الرجل النحيف بمعطفه الصيني، صاحب البنية التي كانت ممتلئة الجسم سابقاً، الذي عبر خط الحدود صباح أحد أيام الربيع في ١٩٥٣، كأنه جاء لتوه من كابوس. وبطريقة ما، فإن هذا الرجل، وهو نائب القنصل العام جورج بلاك، بالإضافة إلي زملائه الآخرين من الدبلوماسيين البريطانيين، أطلق سراحهم أخيراً في أعقاب حوالي ثلاث سنوات من الوجود في الأسر في كوريا الشمالية ومنشوريا.

وكان بلاك جري إستقباله عند نقطة تبادل السجناء من جانب اثنين من عملاء جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، من بين آخرين، اللذين قاما بأخذه باليد للإستجواب العاجل. وكانت مهمة بلاك كنائب للقنصل العام مجرد غطاء، ذلك أنه في حقيقة الأمر كان عميلاً في جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، وذهب في ١٩٤٨ إلي سيؤول لافتتاح أول محطة للإستخبارات البريطانية في كوريا. وفي ١٩٥٠، أسفر الغزو الكوري الشمالي عن إجتياح سيؤول، ولم يتمكن جورج بلاك وزملاؤه الدبلوماسيون من الهروب، وجري أخذهم إلي شقاء الأسر في كوريا الشمالية ثم إلي منشوريا في وقت لاحق.

وكان لدي جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» سؤال ملح، وأراد من بلاك الإجابة عليه: هل اكتشف الشيوعيون إرتباطاته الأستخباراتية؟ لا، وهذا ما حرص بلاك علي تأكيده إليهم، وخلال فترة وجوده في الأسر، إفترض الشيوعيون القول إنه نائب القنصل العام جورج بلاك فقط. وزملاؤه في الأسر تحدثوا بإعجاب عن بلاك، معيدين إلي الاذهان أنه تصرف «علي نحو رفيع من الشجاعة والجلد»، وأنه عمل كمصدر للإلهام بالنسبة للأسري الآخرين. وكانت هناك عمليات إستجواب أخري قام بها جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» حينما كان بلاك في فترة الاستجمام والراحة في هونج كونج، ولكن جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» لم يكن يعرف أن بلاك ذات ليلة إجتمع إلي ممثلين عن جهاز إستخبارات آخر، وهو جهاز الاستخبارات الذي كان بلاك يكن له ولاءً حقيقياً: جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي».

وربما كان من غير المتصور أن يظل ولاء بلاك للقضية الشيوعية علي حاله بعد تجربته في الأسر في منشوريا، ولكن هذا الأمر كان واحداً من جملة تناقضات إرتبطت بهذا الرجل الذي يمثل بلاريب أغرب حكاية تجسس في كل الأزمنة.

ومن أجل فهم حقيقة بلاك، فمن الضروري قبل كل شئ معرفة أنه ولد في ١٩٢٢ تحت اسم جورج بيهار، وهو إبن واحدة من العائلات اليهودية العريقة والمتميزة في أمستردام. ومات بيهار الأب حينما كان الإبن ١٤ عاماً، وتنفيذاً لرغبة الأب جري إرسال الإبن للالتحاق بالمدرسة الانجليزية المعروفة في القاهرة. وعاش الإبن مع الأقارب، وأمضي الجزء الأكبر من وقته مع خاله، هنري كورييل، الذي لم يكن فحسب شخصية رئيسية في الحزب الشيوعي المصري، وإنما كان أيضاً جاسوساً نافعاً عمل منذ فترة طويلة لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي». وكان كورييل يعرف الطاقة الكامنه في شخصية الطفل الواعدة كعميل، ولكنه لم يحاول أن يسابق الزمن، وفي غضون ذلك، كان مقتنعاً بتلقين إبن أخته مبادئ النظرية الشيوعية.

وحين عودته إلي أمستردام، كان بيهار الصغير شيوعياً ناشئاً. وكان ملتحقاً في المدرسة الثانوية في أمستردام حينما قام الألمان باجتياح البلد في ١٩٤٠ . وهربت أمه وشقيقتاه إلي إنجلترا، وقرر بيهار البقاء في البلد. وأصبح واحداً من الأعضاء الأوائل في المقاومة الهولندية تحت الاسم المستعار ماكس دوفري، ولكن حينما بدأ البوليس السري النازي (الجستابو) في ملاحقته، هرب إلي لندن عن طريق بلجيكا، متنكراً كواحد من الرهبان اللاترابيين الممتنعين عن الكلام. وفي انجلترا، قرر أن يغير اسمه إلي جورج بلاك، وتطوع في البحرية الملكية، مؤكداً رغبته في الاشتغال بالعمليات الاستخباراتية.

وحقق رغبته، غير أن ما أثار شعوره بالاحباط والاشمئزاز هو أنه تولي وظيفة مكتبية. ولكن خلال توليه هذه الوظيفة المكتبية خاض تجربة شكلت نقطة تحول فاصلة في حياته، ذلك أنه وقع مجنوناً في حب مع سكرتيرة في جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، تدعي إريس بيك (وفي وقت لاحق الليدي المقربة من الملكة إليزابيث)، وفي أعقاب مغازلة عاطفية ملتهبة في زمن الحرب، قرر الإثنان الزواج . ولكن عائلة بيك إعترضت علي الزواج، ولم تكن هناك أية وسيلة يمكن من خلالها أن تسمح واحدة من أعرق العائلات البريطانية بزواج أبنتها من شاب يهودي. وهكذا، أذعنت بتردد للضغوط، وانهارت العلاقة.

وشعر بلاك بالدمار، وفي ظل تعاظم شعوره بغضب شديد وإحباط، أخذ علي نفسه عهداً بالانتقام من المؤسسة المتغطرسة التي تسببت في ضياع الحب في حياته. واستمع أحد أقرب أقاربه والرجل الذي يحظي بالثقة، الخال هنري كوربيل، باهتمام شديد إلي غضب إبن اخته، واقتراح الانتقام: بلاك يجب أن يعمل لحساب «قضية الثورة العالمية»، وهذا يعني وجوب قيامه بالتغلغل في صفوف الاستخبارات البريطانية، وفي اللحظة المناسبة يكون في وضع يمكنه من تنفيذ إنتقامه.

ولم تمض فترة زمنية طويلة حتي حقق بلاك هدفه الرئيسي، وهو الدخول إلي جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦». وفي نهاية الحرب، وفي وقت كان يعمل فيه لحساب قسم الاستخبارات البحرية البريطانية، جري إرسالة إلي هامبورج كرئيس

لوحدة صغيرة كانت ألقت القبض علي قادة ركاب القوارب العسكريين وأجرت إستجوابات معهم. وبعد مضي عام، نجح بلاك في التغلغل إلي صفوف جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، ومع حلول ١٩٤٨، جري تعيين بلاك في أول مهمة رئيسية له، وهي رئيس محطة جديدة في سيؤول.

ومن المثيرللإعجاب في أمر إعتزام بلاك علي العمل هو أن ثلاث سنوات من الأسر لم تعمل، حتي للحظة واحدة، علي إضعاف إعتزامه علي إلحاق الأذي بالمؤسسة البريطانية. ومثل هذه الفرصة لم تتحقق حتي ١٩٥٥، وذلك حينما جري تعيين بلاك، بعد عامين من العمل في وظيفة مكتبية في مقر القيادة العليا، للقيام بمهمة رئيسية في واحدة من أهم محطات جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، وهي محطة برلين.

ولم تكن هناك مهمة أفضل من مهمة برلين بالنسبة لأي جاسوس يعمل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» في ١٩٥٥. وكانت برلين بمثابة مفترق طرق فعلي في عمليات التجسس بين الشرق والغرب ومليئة بالعملاء من جميع الأوصاف ومحطة حيوية لعشرات من وكالات الاستخبارات علي الأقل. ولم يعمل بلاك لحساب هذه المحطة الهامة من الاستخبارات البريطانية فحسب، وإنما عمل أيضاً كواحد من الممثلين البريطانيين في لجنه جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» المشتركة التي كانت تشرف علي عمليات الاستخبارات الرئيسية المختلفة التي إنهمكت بها كل من الوكالتين المعنيتين.

وبعد وصوله إلي برلين مباشرة تقريباً، حقق بلاك أول فرصة كبيرة بالنسبة إليه، ذلك أنه عرف أن جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» يعكفان علي تنفيذ «عملية ذهبية»، وهي عبارة عن خطة تقوم علي حفر نفق تحت حدود برلين الشرقية والغربية، واختراق خطوط الاتصالات الروسية الرئيسية، وتسجيل المكالمات الاستخباراتية والدبلوماسية والعسكرية. وافترض الروس أن هذه الخطوط آمنة، ذلك أن كل تليفوناتهم كانت لديها

أجهزة تشويش. ولكن الفنيين في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» إخترعوا أداة تكنولوجية رائعة مكنتهم من التقاط المكالمات من إشارات مشوشة. وجري تركيب هذه الأداة التكنولوجية الجديدة في النفق وتوصيلها بجهاز تسجيل منشط للصوت قادر علي التقاط كل إشارة في خطوط التليفونات الروسية.

وفي ظل تلقية معلومات تحذيرية عن هذه العملية عن طريق حلقة الاتصال الفاصلة في برلين، وهي حلقة بلاك الرئيسية مع الروس، قام جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» بإنهاء فصول هذه اللعبة بحذر شديد، حتي لا يعرض للخطر مصدره الحيوي في جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦». وسمح جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» بحفر النفق، ولكنه حرص علي عدم نقل معلومات شديدة الحساسية أو هامة عن طريق هذه الخطوط. وفي غضون ذلك، فإن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه»، التي وافقت علي تمويل تكاليف العملية، قامت بتجنيد كتائب من المترجمين، بملايين الدولارات، للاستماع إلي المكالمات التليفونية الهائلة. واعتبرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» عملية النفق بمثابة عمل ناجح، مع أنها بدأت في التساؤل عن أسباب عدم التمكن من الحصول علي فائدة حقيقية من وراء عملية التنصت. وقبل استغراق وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» في تساؤلاتها، قام جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» بإغلاق النفق من خلال جعل بعض الحراس من الألمان الشرقيين يقومون باكتشافه «بالمصادفة».

وواصل بلاك خيانتة لعملية النفق من خلال الكشف عن أسماء جميع الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» في محطة برلين. وأياً كانت درجة الفائدة العائدة علي جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي»، ذلك أن عمليات جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» خلف الستار الحديدي أصبحت مشلولة بالفعل، فإن هذه الخيانة في مجموعها للجواسيس النافعين الغربيين لفتت الانتباه علي نحو حتمي إلي إمكانية وجود جاسوس يعمل في

الظلام في محطة برلين. ونجح بلاك في تجاوز محنة الاستفسارات المتشككه في أمره علي نحو متزايد، وذلك حتي كشف هورست آيتنر، جاسوس نافع ألماني في محطة برلين، أنه كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفيتي «كي جي بي»، وألمح إلي أن بلاك ربما كان جاسوساً أيضاً. وشرح بلاك أنه كان يتظاهر في بعض الأحيان بأنه متعاطف مع جهاز الإستخبارات السوفييتي من أجل اكتشاف الجواسيس النافعين الألمان في المحطة الذين يعملون أيضاً كعملاء مزدوجين لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي».

ولما بدأ يشعر بخطورة الوضع، قدم بلاك طلباً للقيام بمهمة أخري. وبناء علي إقتراح كورييل، أبلغ جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، أنه يريد أن يعمل في الشرق الأوسط. ووافق جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، وفي ١٩٦٠ قام بإرساله إلي لبنان للدراسة في كلية الشرق الأوسط للدراسات العربية تمهيداً للقيام بمهمة في محطة بيروت التابعة لجهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦». ولم يكن بلاك يعرف طبيعة هذه المهمة، ولكن عالمه الخاص به كان في سبيله إلي الإنهيار.

وحينما وصل بلاك إلي لبنان، بدأ مسؤول في الاستخبارات البولندية، الذي كان يعمل أيضاً كجاسوس نافع لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي»، في إرسال معلومات إستخباراتية رفعية المستوي إلي وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه»، ومن بين أشياء أخري كشف عنها، قال إن محطة برلين التابعة للاستخبارات البريطانية والأمريكية تغلغل إليها جاسوس يعمل في الظلام يدعي جورج بلاك. وفي يناير ١٩٦١، هرب عميل الاستخبارات البولندية، الذي تبين في وقت لاحق أنه يدعي ميخائيل جوليفسكي، إلي وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه»، وحمل معه دليلاً غير قابل للنقض حصل عليه من ملفات جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي»: وثائق تمكن بلاك من الوصول إليها ونقلها إلي جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي».

وحين إستدعائه إلي لندن بحجة أن المسؤولين في جهاز الاستخبارات

البريطاني «إم أي ٦» أرادوا مناقشة مهمته الأستخباراتية القادمة، وصل بلاك، الذي لم يكن يشعر بالإشتباه به، إلي مقر قيادة جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» حيث واجه الدليل ضده. وما أثار دهشة القائمين علي عملية إستجوابه هو أن بلاك إعترف فوراً. وقدم بلاك صورة مروعة عن الأذي الذي كان سبباً فيه، بما فيه الكشف عن أسماء ٤٢ جاسوساً نافعاً علي الأقل (جميعهم جري إعدامهم)، وأسرار نفق برلين، وقائمة طويلة من عمليات أخري، من بينها قضية بيوتر بوبوف الكئيبة.

وفي ١٩٥٢، رمي بوبوف، الذي كان وقتئذ كولونيلاً يعمل في فيينا لصالح وكالة الإستخبارات السوفييتية، رسالة في سيارة دبلوماسي أمريكي وتضمنت الرسالة تطوعاً من جانب بوبوف بتقديم خدماته لحساب وكالة الاستخبارات المركزية «سي أي إيه»، التي سرعان ما عرفت أن بوبوف أصبح متخلصاً من أوهامه تجاه النظام اليوفييتي، ومصمماً علي تدميره. ومن واقع كونه واحداً من أبناء الفلاحين، فهو أصبح غاضباً تجاه المزايا التي يتمتع بها المسؤولون السوفييت في وقت كان فيه الجزء الأعظم من السوفييت يعيشون عند حافة الفقر. (وهو تقبل فقط مبلغاً صغيراً من المال مقابل خدماته من وكالة الإستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه»، ثم أعطي أخاه هذا المبلغ لشراء بقرة).

ولم تكن عمليات بوبوف الأستخباراتية خالية من الحساسية، ذلك أنه قدم رؤية دقيقة عن عالم العسكريين السوفييت المغلق: الأسلحة الجديدة، وانتشار القوات السوفييتة في أوربا الشرقية، وكيف خطط السوفييت لخوض حرب نووية في حالة نشوب حرب مع الغرب. وفي ١٩٥٦، إنتقل إلي محطة وكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آريو» في برلين الشرقية، وهذا يعني أن الرقابة العملياتية علي أفعاله كانت تحدث عن طريق محطة برلين التابعة لجهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه»

وجري إستدعاء بوبوف إلي موسكو من أجل «التشاور» وألقي القبض علية. ولكن بدلاً من إعدامه، سعي جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» إلقي الإبقاء

عليه، وتحت التهديد بقتل عائلته تلقي أمراً بوضع جهاز تسجيل لاصق علي الجلد وإجراء مقابلة مع عميل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» الجديد الذي يفترض فيه أن يكون معنياً باستلام المعلومات الاستخباراتية منه في موسكو. وفي إجتماعهما الأول في غرفة الرجال، قام بوبوف، دون أن ينطق بكلمة، بإزالة بعض الضماد الذي يغطي إحدي يديه حتي يكشف عن كلمة «تعذيب» المكتوبة بالحبر علي راحة يده. وبعدئذ قام بحركة مفهومة باليدين، محذراً رجل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» بأنه يضع شريطاً معدنياً.

وعمل توخي جانب الحذر من جانب رجل وكالة الاستخبارات المركزية «سي أي إيه» في الاجتماعات اللاحقة علي جعل جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» مقتنعاً بأن بوبوف، بطريقة أو بأخري، حذره من المصيدة. وقرر جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» أخيراً التوقف عن اللعبة، وحينما أجري بوبوف ورجل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» إتصالاً عاجلاً في أحد أوتوبيسات موسكو في يوم ما في أكتوبر ١٩٥٩، جري إلقاء القبض علي الرجلين. (ولكن ليس قبل أن يتمكن بوبوف من إرسال تحذير بأن العسكريين السوفييت إستطاعوا إكتشاف طلعات طائرات «يو٢» التي تحلق علي إرتفاع شاهق وصمموا علي إسقاط إحدي هذه الطائرات). وتقرر طرد رجل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه»، الذي كان يتمتع بالحصانه الدبلوماسية، من البلاد، ولكن بوبوف عاني من ذلك الذي أصبح مصيراً معروفاً عند الخائنين في وكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آريو»: تقديمه علي مهل إلي فوهة فرن مشتعل تحت عيون زملائه.

وكانت خيانة بوبوف مجرد حكاية واحدة في سلسلة حكايات طويلة جري إستعراضها حينما عقد قضاة المحكمة العليا البريطانية جلساتهم لاتخاذ قرار بشأن معاقبة بلاك. وقلما طرأ تحسن علي مزاجهم العام حينما رأوا متهماً بدت عليه دلائل الاعتزاز تجاه ذلك الأذي الذي ألحقه بمؤسسة يكرهها بشده. وبناء علي ذلك، حكمت المحكمة العليا علي بلاك بالسجن لمدة ٤٢ عاماً، وهو حكم شديد القساوة ولم يسبق له مثيل في تاريخ التجسس في أوقات السلم.

وهذا الحكم بالسجن مدي مدي الحياة (بلاك كان يبلغ من العمر ٣٩ عاماً في ذلك الوقت) يبدو كأنه الفصل الأخير في حكاية بلاك، ولكن الحقيقة هي أن هناك تطوراً آخر أشد إثارة. وفي ١٩٦٧، بعد قضاء ست سنوات في السجن، هرب بلاك. ومع أنه جري إفتراض القول إن عملية الهروب كانت بفعل جهاز الأستخبارات السوفييتي «كي جي بي» فإن الحقيقة هي أن العملية كانت من صنع ناشط في الجيش الجمهوري الإيرلندي (وهو أحد زملاء بلاك السابقين) يدعي سان بورك. وكان بورك خبأ بلاك لبضعة أسابيع في وقت كانت فية حملة تفتيش واسعة النطاق في البلاد جارية، ثم إتصل مع الروس، الذين قاموا بدورهم بتهريبه إلي موسكو. وذهب بروك إلي موسكو، أيضاً، ولكن بعد بضعة شهور، ومن واقع شعوره بالإحباط تجاه ما أثار في نفسه شعوراً بالإشمئزاز في المدينة، عاد إلي موطنه إيرلندا. وأصر بروك علي القول حتي موته بعد بضع سنوات إنه قام بتدبير هروب بلاك بدافع صداقته مع جاسوس متهم، دون تدخل من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي». وقليل من الناس صدقوا هذا القول، ولكن لو كان بروك في الحقيقة يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي»، فهو أخذ ذلك السر معه إلي القبر.

وفيما يتعلق بأمر جورج بلاك، فهو حصل علي بيت مريح من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي»، حيث قرأ، بشئ من التسلية، رواية ريتشارد كوندون، «مرشح منشوريا»، التي إستندت إلي قضيته. وتزوج بلاك إمرأة روسية (هاجراً زوجته وولديه في بريطانيا). وفي ١٩٩٠، أجري معه التليفزيون السوفييتي مقابلة، وفيها أعرب عن تفاخره بخيانة ٦٠٠ عميل في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» وجهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦».

نيكولاى ونادجيدا سكوبلين

الموت والعندليب كيرسك

١٨٩٩ -١٩٣٨

١٨٩٧ - ١٩٤٠

بدت كأنها تشبه لقطة سينمائية عن نص مكتوب: فتاة جاسوسة جميلة، مشدودة إلى وتد، تقاوم بعناد وضع عصابة للعينين على وجهها، بينما تتحدى بنظراتها فرقة الإعدام التى توشك على وضع حد لحياتها. وضابط شاب فى سلاح الفرسان، بدافع تأثره بجمالها وشجاعتها، يمتطى فرساً فجأة، ويأمر فرقة الإعدام بعدم إطلاق النار، ثم يقوم بفك وثاقها وإطلاق سراحها، ويقول إنه سوف يتولى الأمر بنفسه.

وأياً كانت درجة الصعوبة فى إمكانية حدوث ذلك، فإن تلك بالضبط هى الكيفية التى إلتقى من خلالها هذا الجنرال الشاب نيكولاى سكوبلين لأول مرة مع الفتاة نادجيدا فاسيليفنا فى وقت مبكر صباح أحد أيام فصل الربيع من ١٩٢٠ فى جنوب روسيا. وفى تلك اللحظة أيضاً وقع فى الحب معها، مع ما نشأ عن ذلك من نتائج أوشكت فى غاية الأمر على اقتراب الاتحاد السوفييتى من حد الدمار وموت أكثر من ٣٠,٠٠٠ رجل، حتى أن سكوبلين نفسه كان واحداً من الضحايا.

وكان سكوبلين وفاسيليفنا كأنهما شخصيتان من شخصيات أوبرا رومانوف الكبرى. وكان سكوبلين، المولود فى عائلة أرستقراطية، ضابطاً فى سلاح الفرسان

القيصرى خلال الحرب العالمية الأولى، وبعد تولى البولشفيك السلطة فى روسيا، حارب إلى جانب الجيش الأبيض فى الحرب الأهلية الروسية. ومع حلول ١٩٢٠، كان يحارب فى معركة خاسرة ضد الجيش الأحمر فى جنوب روسيا، وهو عام لقائه المصيرى مع نادجيدا فاسيليفنا. وكانت هى أيضاً مولود فى عائلة أرستقراطية، وأصبحت مغنية أوبرا، وقبل الحرب كانت معروفة بأنها «العندليب كيرسك». ومن واقع حقيقة تعودها على حياة الحفلات الصاخبة، والبيوت الفاخرة، والملابس الجميلة والمجوهرات، فإن عالمها الخاص بها كان ممزقاً بسبب الثورة البولشفية، التى لم تكن تملك الوقت لمثل هذه الحياة العابثة. والأسوأ من ذلك، فهى تزوجت مدرس بالية فقيراً يدعى إدموند بليفتسكى، ومع حلول نهاية ١٩١٨، كانت فى حاجة شديدة إلى النقود فى وقت لم يعد فيه المعجبون يمطرونها بوابل من النقود والمجوهرات تقديراً لحفلاتها الموسيقية.

ومع هذا، فإن الكيفية التى جعلت وكالة الاستخبارات البولشفية، «تشيكا»، تتخذ قراراً بإمكانية إستخدام تلك المغنية الأولى فى الأوبرا، الفتاة الفاسدة والمتعطشة إلى النقود، كجاسوسة نافعة ضد الجيش الأبيض تبقى أمراً مجهولاً. وفى أواخر ١٩١٨، وربما إذعاناً لولعها بالنقود، قامت الوكالة البولشفية بتجنيدها من التغلغل فى صفوف مؤسسات الجيش الأبيض المختلفة التى تهدد النظام الجديد.

وإلى حد ما، فإن فاسيليفنا كانت مناسبة جداً لدورها. وبذهابها إلى كل أنحاء المناطق الخاضعة للجيش الأبيض، قامت بالترفيه عن الجنود من خلال حفلات موسيقية مجانية، وفى الوقت نفسه فازت بالحظوة عند الزعماء المعادين للبولشفيك الذين أعربوا عن إعجابهم بغناء «العندليب كيرسك». وفى غضون ذلك، بدأت فى تجميع معلومات إستخباراتية مثيرة عن طريق بعض ضباط الجيش الأبيض الطائشين (من بينهم هؤلاء الذين نامت معهم رغبة منها فى الحصول على مزيد من المعلومات).

ومع حلول ١٩٢٠، وبانتقال الحرب الأهلية إلى مرحلة نهائية، بدأت الشكوك

تجاه إمكانية أن تكون هناك علاقة بين زيارات فاسيليفنا وسلسلة الهزائم العسكرية الكارثية تزداد رسوخاً. وفى أوائل ١٩٢٠، وبعد اعتراض سبيل بعض رسائلها إلى وكالة الإستخبارات البولشفية، أصبح الجيش الأبيض يملك دليلاً نهائياً. وتقرر إلقاء القبض عليها، وصدرت الأوامر بإطلاق النار عليها.

وهنا يتدخل نيكولاى سكوبلين أيضاً. ومن واقع كونه متيماً بها، فهو كان على إستعداد للصفح عن إعترافها المروع بأنها كانت تعمل لحساب وكالة الاستخبارات البولشفية، وهذا يعنى الصفح عن كونها عميلة للبولشفيك المكروهين. وفى ظل الظروف العادية، فإن مثل هذا الاعتراف كان يمكن أن يضع حداً لمنفعة فاسيليفنا كعميلة، غير أن وكالة الاستخبارات البولشفية كانت تفكر فى شئ آخر: لماذا لاتقوم بتجنيد نيكولاى سكوبلين كجاسوس نافع؟

وبدت هذه الفكرة كأنها منافية للعقل، ولكن بقدر ما كانت وكالة الاستخبارات البولشفية تعرف مدى قابلية فاسيليفنا للتعرض للأخطار، فهى كانت تعرف أيضاً مدى قابلية سكوبلين نفسه للتعرض للأخطار. ولكن سكوبلين كانت تنتابه الهواجس تجاه فكرة «روسيا المقدسة»، أرض الأحلام التى كانت موجودة قبل القياصرة. وبالنظر إلى أنه كان مصاباً بجنون العظمة، فإن سكوبلين إعتبر نفسة زعيماً لحركة جديدة ربما تتمكن فى يوم ما من الاستيلاء مجدداً على أرض روسيا وإعادة إيجاد تصوراته عن بلد من قصة خيالية. وحرصت فاسيليفنا على إظهار فكرة قابلية سكوبلين للتعرض للأخطار، ومع مرور الوقت فى أواخر ١٩٢٠، حينما تقهقرت مع البقية الباقية من قوات الجيش الأبيض إلى تركيا والمنفى الدائم، تمكنت من إقناعه.

وفى رأى سكوبلين، فهو أراد مجرد إستخدام وكالة الاستخبارات البولشفية من أجل تحقيق هدفه النهائى ومن خلال التعاون مع وكالة الاستخبارات البولشفية، فربما يتمكن من القضاء على حركة. المنفيين الروس وتولى السلطة، وحين تحقيق ذلك الهدف، فربما يتمكن من قيادة حملة عسكرية مقدسة كبرى تقوم بالزحف على روسيا والقضاء على وكالة الاستخبارات البولشفية وكل مايتصل بالبولشفيك. (وفى الوقت

نفسه، كما أشارت فاسيليفنا، فإنها و سكوبلين يمكن أن ينتهى بهما الأمر إلى عقاب سخى، وهو بيع الحبل للشانق).

وفى ذلك الوقت، غادر هذا الثنائى العجيب إلى باريس، حيث المقر الدولى لحركة المنفيين الروس، التى، بدورها، شكلت تهديداً كبيراً ضد النظام الشيوعى الضعيف. وفى ظل وجود أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ رجل مسلح من المنفيين بالدفاع عن القضية القيصرية والممولين جيداً عن طريق تبرعات من اكثر من مليون شخص من الاتباع الموجودين فى كل أنحاء العالم، فإن هذا بحد ذاته كان بمثابة مسألة مثيرة لشعور دائم بالقلق عند وكالة الاستخبارات البولشفية، التى عهد إليها لينين بمهمة تحييد التهديد أو جعله فى حده الأدنى على الأقل.

وكان سكوبلين الأداة الرئيسية لتحقيق هذه المهمة. وتزوج فاسيليفنا (وكان زوجها المتفهم ظاهرياً لموضوع الزواج بمثابة الرجل الأفضل فى حفل الزفاف)، وشرع فى التغلغل فى صفوف حركة المنفيين الروس. وفى ظل خلفيته وتجربته العسكرية، وسجله الفعلى من القتال الحقيقى ضد البولشفيك، فلم يكن هناك أحد يتشكك فى أمر سكوبلين. وفى أوائل الثلاثينيات، أصبح زعيماً رئيسياً فى منظمة «روفز»، القوة المقاتلة الرئيسية للمنفيين الروس. ومن خلال تلك الفرصة المؤاتية، كان سكوبلين قادراً على جعل موسكو عارفة بأسماء الأفراد التابعين لقوات المقاتلين من المنفيين الروس الذين يتسللون عبر الحدود إلى روسيا لتنظيم الوحدات المقاتلة ضد البولشفيك. وأصبح سكوبلين أيضاً عارفاً بعمليات التزييف المكثفة التى يقوم بها المنفيون الروس (هذه العمليات تضمنت وثائق حقيقة من ملفات البوليس السرى القيصرى «أوخرانا» لإقامة الدليل على أن ستالين كان جاسوساً فى البوليس السرى).

ومع ذلك، فإن النجاح الفعلى الذى حققته عمليات سكوبلين تسببت فى لجوء زعماء حركة المنفيين إلى إجراء تقييمات فترية لأنشطة الحركة. وما انتهى إليه هؤلاء الزعماء لم يكن شيئاً مشجعاً، ذلك أن نتائج التقييمات كانت قائمة على نحو متماثل. وجميع المقاتلين من المنفيين الروس الذين جرى إرسالهم إلى الاتحاد السوفييتى إختفوا

عن الوجود، ولم يظهروا إلى العلن مرة أخرى. وبدا جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» (خليفة وكالة الاستخبارات البولشفية «تشيكا») وكأنه كان يتوقع كل خطوة تقوم بها حركة المنفيين. وكان جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يعرف يقيناً جميع أسماء المنفيين المجندين كجواسيس نافعين فى منظمات الاستخبارات المختلفة، وتمكن من القضاء عليهم على نحو روتينى. وبعد ١٥ عاماً على مغادرتهم روسيا، لم يتمكن هؤلاء المنفيون من إلحاق حد أدنى من الضرر فى الاتحاد السوفييتى.

وبدأ زعماء حركة المنفيين، على نحو حتمى، فى التطلع نحو الداخل: هل يمكن أن يكون هناك أحد ما يتولى منصباً رفيعاً فى الحركة يقوم بإفشاء أسرارها إلى موسكو؟ وفى مواجهة هذه المحاولة القائمة على تسليط الأضواء على حقائق الأشياء، كان سكوبلين وزوجته يشعران بارتياح تام. ولم يكن هذان الزوجان يعرفان أسماء جميع الأشخاص المتنفذين فى حركة المنفيين فحسب، وإنما كانا أيضاً يقضيان وقتاً طويلاً فى محاولة معرفة الخطط المستقبلية للحركة. ومن الصحيح القول إن سكوبلين كان لديه كل مبرر قوى فى سعيه للحصول على مثل هذه المعلومات، ذلك أنه كان على نحو رسمى رئيساً لعمليات مكافحة التجسس الخارجى فى القوة المقاتلة الرئيسية للمنفيين الروس «روفز»، وهى مهمة ظل يتولى أمرها منذ ١٩٣٤ . ومع هذا، فهناك كانت غرابة واضحة فى حياة الرغد التى كان سكوبلين يعيشها مع زوجته، ذلك أنه لم يكن يملك مصادر دخل أخرى يمكن أن تعينه على مثل هذه الحياة مع زوجته. وزعمت نادجيدا سكوبلين ذات يوم أن لديها دخلاً من الحفلات الموسيقية، غير أن السوق الضيقة أمام إحدى مغنيات الأوبرا الروسية فى فرنسا ما كان يمكن أن توفر لها الشئ الكثير فيما يتصل بالنقود.

وفى تلك الأثناء، كان سكوبلين محلاً للتشكك فى أمرة، وذلك على الرغم من عدم وجود دليل قوى ضده. ولوكان سكوبلين يشعر بالانزعاج بسبب هذه الشكوك المتعاظمة، فهو لم يظهرها، ذلك أنه فى ١٩٣٦ قام بتنفيذ أكبر مهمة لحساب جهاز الأستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وهى مهمة كان يمكن أن تجعله شخصية رئيسية فى تاريخ التجسس.

وبدأت هذه المهمة حين قيام سكوبلين بمفاتحة الاستخبارات النازية الألمانية. وعرض سكوبلين عليها خدماته، زاعماً أنه أراد مساعدة الاستخبارات النازية فى تمكينها من فرض سيطرتها على حركة المنفيين فى مجموعها، ثم استخدام سيطرة الاستخبارات النازية «كرأس حربة فى حرب» ضد الاتحاد السوفييتى. ولأن الاستخبارات النازية لم تكن تخسر الشئ الكثير من وراء مثل هذا الترتيب، فهى شعرت بالفرحة تجاه مثل هذه الفرصة، وقامت بتجنيد سكوبلين كجاسوس نافع داخل حركة المنفيين. وكان يمكن أن تكون هناك منفعة ثانوية: سكوبلين زعم أنه يملك مصادر هامة فى الاتحاد السوفييتى تقدم إليه من حين إلى آخر معلومات إستخباراتية رفيعة المستوى، كما أنه أبدى إستعداداً للمشاطرة بها مع الاستخبارات النازية.

وفى ظل مشاركة وكالة الاستخبارات النازية، تمكن سكوبلين من التحرك للمرحلة الثانية من العملية. وكانت بمثابة قنبلة موقوته: سكوبلين زعم أنه يملك دليلاً وثائقياً على أن القيادة العسكرية العليا فى الاتحاد السوفييتى تخطط لانقلاب عسكرى ضد ستالين. وكان سكوبلين حريصاً على القول إنه أراد ٢ مليون دولار مقابل هذه الوثائق، وهو تطور ذكى غير متوقع: مثلما توقع جهاز الأستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، فلو أن رجلاً مثل سكوبلين قدم هذه الوثائق مجاناً، فإن وكالة الاستخبارات النازية كان يمكن أن تتشكك فى الأمر كله. وهذا الثمن المرتفع لا يعنى غير أن الوثائق إما أن تكون صحيحة أو أنها نتاج آلة ضرب النقود المعروفة الموجودة لدى حركة المنفيين الروس التى تقوم بأفضل عمليات التزييف.

والمشكلة فى هذه اللعبة الصغيرة هى أن رينهارد هيدريك، رئيس وكالة الاستخبارات النازية، كان يمكن أن يبدى إهتماماً ضئيلاً لو كانت الوثائق صحيحة. وبمحض المصادفة الاستثنائية الخالصة، فإن هيدريك كان وقتئذ يخطط لعملية تزييف خاصة به، عاقداً الأمل على زرع وثائق مزيفة من شأنها تورط كبار الزعماء السوفييت فى مؤامرة إنقلابية. وكان يمكن أن تؤدى ردود الأفعال الناشئة عند ستالين الذى يميل فى الأصل إلى الشعور بجنون الإرتياب إلى تمزيق الاتحاد السوفييتى سياسياً.

وأدى عقد اجتماع بين سكوبلين وهيدريك إلى جعل المشكلة أكثر تعقيداً، ذلك أن هيدريك عرف بسرعة أن سكوبلين كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وأنه تلقى تعليمات من ستالين بإيجاد «دليل» على «مؤامرة» يفتعلها ستالين نفسه. ومن جانبه، فإن سكوبلين عرف أن أهداف جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» جاءت متزامنة تماماً مع أهداف وكالة الاستخبارات النازية.

وهذا كله كان من شأنه التمهيد لإجراء مفاوضات هادئة جداً، حيث وافق هيدريك أخيراً على شراء وثائق سكوبلين. وزعم هيدريك على نحو صريح أنه يملك أيضاً «وثائق» أشد حساسية كانت الاستخبارات الألمانية حصلت عليها من قبل، وأنه ينوى تمريرها إلى ستالين عن طريق أحد الوسطاء القليلين الذين يثق بهم ستالين: إدوارد بينز رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا.

وكانت النتيجة بمثابة إحدى حمامات الدم الفعلية فى التاريخ. وبزعمة أن هناك محاولة إنقلاب عسكرى جارية، قام ستالين بتطهير قواته المسلحة، معدماً بذلك ٣٥,٠٠٠ ضابط. ومع انتهاء عملية التطهير، قتل حوالى ٩٠ بالمائة من جنرالات الاتحاد السوفييتى. و٨٠ بالمائة من الكولونيلات، وأكثر من نصف عدد جميع الضباط العسكريين الأخريين. ولم يكتب للقوة العسكرية السوفييتية الشفاء من هذه المذبحة حتى بعد سنوات حينما قام الألمان بغزوهم، ذلك أن قوة عسكرية بلا قيادة فعلية محترفة عانت من خسائر فادحة فى الأرواح بلغت ٧ ملايين رجل فى غضون ٢٤ شهراً.

ومهمابلغت مشاعر الفرحة عندها تجاه هذه النتيجة، فإن حركة المنفيين الروس لم تكن تعرف شيئاً عن دور سكوبلين فيها. وكان المنفيون الروس فى ذلك الوقت يتشككون به وبزوجته. ومع هذا، فربما كان من الممكن أن يبقى سكوبلين جاسوساً هاماً يعمل فى الظلام لصالح جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» داخل الحركة لو أن موسكو لم تفشل فى تحقيق غايتها لشدة التلهف عليها، الأمر الذى أدى إلى الكشف عن حقيقة سكوبلين تبعاً لذلك.

ولأسباب لم يكشف النقاب عنها مطلقاً، إتخذت موسكو قراراً بأن الجنرال أنطون ميللر، رئيس الجناح العسكرى لحركة المنفيين الروس، رجل خطير وينبغى التخلص منه. وتضمن القرار القيام باختطافه من مقره فى باريس، ثم إحضاره إلى الاتحاد السوفييتى للتخلص النهائى منه. ومع أن مثل هذا الحل الراديكالى لمشكلة اختطاف ميللر بدا دالاً على حماقة بالغة، فإن سكوبلين تلقى أمراً بتدبير عملية الاختطاف. وفى سبتمبر ١٩٣٧، قام سكوبلين بتوجية دعوة إلى ميللرلتناول طعام الغداء ومناقشة المزيد من القضايا الإستراتيجية. ولسوء حظ سكوبلين، فإن ميللركان واحداً من الزعماء المنفيين الذين تعاظمت الشكوك عندهم تجاهه. ووافق ميللرعلى الاجتماع، غير أنه ترك بحذر ملاحظة على مكتبة تضمنت موعد الاجتماع.

وهذه الملاحظة كلفت سكوبلين حياته. ووصل ميللرإلى مكان الاجتماع، ولكنه فوجئ على الفور بمهاجمة مجموعة حمقاء من عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وبدأ الجنرال المجرب فى مشاجرة معهم، حتى أن المشاجرة أثارت إنتباه الشهود العيان. وتمكن عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» أخيراً من وضع ميللرفى سيارة والانطلاق به بسرعة، غير أن صوت صفارات الانذار إشتد إرتفاعاً. ولم يستطع رجال البوليس العثور على ميللر(الذى جرى اختطافه إلى الاتحاد السوفييتى واختفى)، ولكنهم وجدوا الملاحظة التى تركها على مكتبه. ثم ذهبوا للبحث عن سكوبلين، الذى لجأ إلى الإختباء. وجرى إلقاء القبض على نادجيدا سكوبلين، ومن خلال محاكمة علنية مثيرة للعواطف جرى إتهامها بالتورط مع زوجها فى عملية اختطاف ميللر. وحكم عليها بالسجن لمدة ٢٠ عاماً، وماتت فى السجن فى ١٩٤٠.

وفيما يتعلق بزوجها، فإن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» عرض عليه، على سبيل المساعدة، تسهيل هروبه إلى الاتحاد السوفييتى من أجل ما افترض أنها حياة مريحة تقوم على دعم مالى من حكومة سوفييتية شاكرة. وكانت السذاجة نفسها التى أدت إلى تمكين الإستخبارات السوفييتية من إغوائه قبل ١٩ عاماً هى التى أدت أيضاً فى ١٩٣٧ إلى قيامه بمرافقة فرقة الانقاذ فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى طريقها إلى الاتحاد السوفييتى، غير عارف على مايبدو حقيقة

واضحة: ستالين لم تكن أمامه أية وسيلة أخرى لجعل رجل مثل سكوبلين على قيد الحياة، والسبب فى ذلك ببساطة هو أنه يعرف الشئ الكثير.

وكانت المرة الأخيرة التى شوهد فيها سكوبلين حياً فى مدينة برشلونة، إسبانيا، حيث كان على ظهر السفينة السوفييتية «كوبان». وبعد تقديم شئ للشرب إليه، تناول رشفة، وسقط ميتاً من السم المذاب فى كأس النبيذ. وبعد الوصول إلى الاتحاد السوفييتى، جرى إعطاء جثته إلى أحد مختبرات كلية الطب.

إسرائيل بير

الرجل الذى لم يكن

الاسم الرمزى: الرفيق كورت

١٩٠٨ - ١٩٦٦

وفى صيف ١٩٦٠، جلس رجل أعمال أمريكى كان بجولة إلى إسرائيل فى أحد مطاعم تل أبيب بعد ظهر أحد الأيام لتناول طعام الغداء. ولأنه رجل لدية خلفية فى الاستخبارات، ذلك أنه كان يعمل لحساب مكتب الاستخبارات الاستراتيجية وشارك قبل الحرب العالمية الثانية فى الحرب الأهلية الإسبانية، فمن الطبيعى أن يظل محتفظاً بعادة الجواسيس اللاإرادية، وهى إنعام النظر فى جميع الناس فى اللحظة التى يدخل فيها أية غرفة.

وحينما أنعم النظر من حوله فى هذا المطعم الصغير، لمحت عيناه فجأة رجلاً جالساً إلى طاولة فى أحد أركان المطعم. ونظر إليه نظرة محدقة، وتدفقت تفاصيل شديدة من الذاكرة: المرة الأخيرة التى رأى فيها هذا الرجل كانت فى ١٩٣٦ فى مدريد، وكان هذا الرجل موجوداً فى إحدى خلايا الاعتقال، وهو واحد من أشد الساديين القائمين على التعذيب فى وحدة جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» المكلفين بالقضاء على الجواسيس المتطوعين فى الكتائب الدولية، وكان يقوم بضربه وتعذيبه مطالباً إياه بالاعتراف بكونه جاسوساً. ولكن هذا الأمريكى قدر له

الافلات من التعذيب، وذلك حينما كفلة آخرون، غير أنه لم يقدر على نسيان صورة الرجل الذى قام بتعذيبة: رجل نحيف، وله وجه شديد الشحوب، حتى أنه بدا كالجمجمة التى تغطيها طبقة رقيقة من الجلد.

والآن، وبعد ٢٤ عاماً، جلس هناك فى أحد أركان المطعم ذلك الرجل الذى كان يقوم بتعذيبة، على مسافة لاتزيد عن ١٥ قدماً، وكان يتناول غداءه بهدوء. والأهم من هذا كله، فهو كان يرتدى بزة عسكرية برتبة كولونيل فى جيش الدفاع الإسرائيلى. كيف أصبح هذا السفاح الشائن التابع لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» ضابطاً عسكرياً كبيراً فى إسرائيل؟ وغادر رجل الأعمال الأمريكى المطعم مذعوراً، واتجه إلى مقر قيادة جهاز الاستخبارات الإسرائيلى «الموساد».

وما أثار شعور رجل الأعمال الأمريكى بالدهشة هو أن المسؤولين فى جهاز الاستخبارات الإسرائيلى «الموساد» لم يتأثروا كثيراً بما أبلغهم به، والسبب فى ذلك هو أنه أكد لهم معلومة معروفة لديهم من قبل: هناك شئ خطير يتصل بأمر الكولونيل إسرائيل بير.

وكانت مسألة إسرائيل بير بمثابة هاجس مستديم فى نظر رئيس جهاز الاستخبارات الإسرائيلى «الموساد» إيسير هاريل خلال العشر سنوات الماضية. وكان من المعروف عن هاريل، الجاسوس العظيم الاسطورة الذى بنى جهاز الاستخبارات الإسرائيلى «الموساد» كواحد من أعظم أجهزة الاستخبارات فى العالم، أنه كان يهتم بالتركيز على العامل الإنسانى فى العمليات الاستخباراتية، وكان يولى إهتماماً كبيراً بموضوع «المشاعر الغريزية» تجاه الأفراد: من هم الذين يمكن أن يكونوا جواسيساً، ومن هم الذين يمكن أن يصبحوا خائنين. وباعتماده على مثل هذه المشاعر العريزية، كان هاريل مقتنعاً بأن إسرائيل بير جاسوس يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».

ومهما بلغت درجة إقتناعة، فإن هاريل كان ينبغى عليه أن يعترف بأنه لايملك أدنى دليل. وفى واقع الأمر، فقبل ١٩٥٩، لم يكن هناك شئ فى خلفية إسرائيل بير

كان يوحى بأنه كان شيئاً آخر غير حقيقة كونه مواطناً موالياً فى إسرائيل.

ومثلة كمثل الكثيرين من نظرائه، فإن إسرائيل بير هاجر إلى إسرائيل فى الثلاثينيات هارباً من حملات الاضطهاد التى قام بها هتلر. ووفق سجلات وزارة الدفاع الإسرائيلية، فإن إسرائيل بير ولد فى النمسا، وفى ١٩٣٤ إنضم إلى الاشتراكيين. وبعد ثلاث سنوات شارك فى الحرب الأهلية الإسبانية إلى جانب الموالين. وفى ١٩٣٨، هاجر إلى فلسطين، حيث إنضم إلى الحركة اليهودية السرية.

وانضم إسرائيل بير إلى الجيش الصهيونى السرى، الهاجانا، ومن أجله تطوع بتقديم خدماته إلى الدائرة الألمانية التابعة لجهاز الاستخبارات البريطانى فى فلسطين الواقعة تحت الإنتداب، محاولاً بذلك إقتفاء أثر الزعماء الصهاينة. وقام البريطانيون، الذين لم يكونوا يعرفون علاقة إسرائيل بير بالهاجانا، بإعطائه فرصة جيدة للإطلاع على سجلات الزعماء الصهاينة الناطقين بالألمانية. ومن خلال إنضمامه إلى الهاجانا، تمكن الزعماء الصهاينة البارزون من الافلات من الاعتقال. (وفى الوقت نفسه، فإن إسرائيل بير كان قادراً على معرفة الأفراد اليهود الذين يقدمون معلومات إستخباراتية إلى البريطانيين).

ومن بين الزعماء الذين قدم لهم إسرائيل بير مساعدات الزعيم الصهيونى البارز فى فلسطين، ديفيد بن جوريون. وأصبح الرجلان صديقين حميمين، وهى علاقة كان لها دور حاسم فى حياة إسرائيل بير. ومع حلول ١٩٤٥، كان إسرائيل بير رئيس العمليات العسكرية التى يقوم بها الجيش الصهيونى السرى، الهاجانا، فى الجليل الأعلى. وخلال حرب الاستقلال فى ١٩٤٨، خدم إسرائيل بير فى مقر قيادة الأركان العامة التابعة للهاجانا فى تل أبيب، حيث كان يعتبر واحداً من أهم المخططين العسكريين لأنتصارات البلد الجديد.

وبعد الحرب، تولى إسرائيل بير منصباً هاماً فى المؤسسة العسكرية والاستخباراتية الإسرائيلية بفضل علاقته الوثيقة مع أول رئيس وزراء فى إسرائيل، ديفيد بن جوريون، الذى أصبح بالنسبة له الرجل الذى يؤدى واجبات مختلفة. ومن

بين واجباته الأخرى، هناك مسؤولية متابعة كتابة مذكرات بن جوريون، وهى مسؤولية جعلته مطلعاً على سلسلة مذهلة من الزسرار التى إلتزم رئيس الوزراء بكتابتها على الورق، بهدف إستخدام جزء منها الأقل كقاعدة أساسية لمذكراته النهائية.

وكان بن جوريون يتكل كثيراً على إسرائيل بير، ولكن إيسير هاريل، أحد كبار المسؤولين فى جهاز الاستخبارات الإسرائيلى، لم يكن كذلك. وكانت لدى هاريل «مشاعر غريزية» تجاه إسرائيل بير. ولم يكن هناك شئ محدد على وجه الخصوص، ولكن كما أبلغ رجاله، فهناك شئ لايبدو منطقياً بشأن إسرائيل بير، وعقد هاريل النية على مراقبته والاهتمام بأمره.

ولأن إسرائيل بير كان صديقاً حميماً للرجل القوى ديفيد بن جوريون، فإن هاريل كان ينبغى عليه التحرك بحذر شديد. وفى ١٩٥٢، حينما جرت تسمية هاريل رئيساً لجهاز الاستخبارات الإسرائيلى الجديد، الموساد، حصل هاريل على بعض المعلومات التى تؤكد شكوكه، وذلك حينما إستقال إسرائيل بير فجأة من مهمته العسكرية، وذهب إلى الاشتغال فى السياسة، وانضم إلى حزب المابام، أشد الأحزاب نزوعاً إلى اليسار فى إسرائيل. وبعد أقل من عام، طرد من الحزب لأسباب تتصل بالانحراف اليسارى عن أيديولوجية الحزب. وبعد ذلك، تخلى إسرائيل بير عن آرائه السياسية، وأصبح رئيساً لدائرة الاعلام فى الحزب. وهذا التخلى العلنى عن الآراء، والاعتراف بالخطأ، أثار شكوك هاريل. وقام هاريل بصد محاولة إسرائيل الإنضمام مجدداً إلى الجيش، لأسباب أمنية، ولكن إسرائيل بير، الذى إعتمد على صداقة بن جوريون، حصل على وظيفة فى وزارة الدفاع من أجل إعداد تاريخ رسمى عن حرب ١٩٤٨ والأشتغال فى الدراسات الاستراتيجية.

وشعر هاريل بحذر شديد، ذلك أن إسرائيل بير أصبح يملك الآن حرية الوصول إلى معلومات سرية. وكان هاريل مقتنعاً بأن إسرائيل بير جاسوس يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، ولكن فى ظل عدم وجود أى دليل، إكتفى باللجوء إلى تحذير بن جوريون من شكوكه. وطالب بن جوريون، الذى

لم يكن مهتماً كثيراً بالأمر، بدلائل تبرهن على صحة هذه الشكوك. ولم يأت الدليل الحقيقى إلا فى ١٩٥٩، حينما بدأ ميخائيل جولينفسكى، العميل فى الاستخبارات البولندية والجاسوس النافع فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، بتقديم معلومات إستخباراتية إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» عن أسماء الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى كافة أنحاء العالم. ونقلت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» معلومات تحذيرية إلى هاريل من جولينفسكى: جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» لدية جاسوس يعمل فى الظلام، إسمه الرمزى «الرفيق كورت»، فى مكان ما فى المستويات العليا فى وزارة الدفاع الإسرائيلية. ولم يكن جولينفسكى يعرف الهوية الحقيقية لهذا الجاسوس العامل فى الظلام، ولكنه قدم دلائل كافية تشير إلى إسرائيل بير.

وبعد بضعة شهور، تلقى هاريل دليلاً آخر، ذلك أن جهاز الاستخبارات الالمانى الغربى أبلغة أن إسرائيل بير، أثناء زيارته إلى المانيا الغربية لإلقاء محاضرة أمام مسؤولين عسكريين ألمان، تسلل عبر الحدود إلى المانيا الشرقية، ثم عاد بعد بضع ساعات. ولم يبلغ إسرائيل بير أحداً عن هذه الجولة، كما أنه لم يشر إليها فى تقريره عن جولته. لماذا يقوم كولونيل إسرائيلى بجولة سرية إلى المانيا الشرقية؟ وجاءت المعلومات من رجل أعمال أمريكى، وكان هاريل على حق:إسرائيل بير جاسوس يعمل فى الظلام. ومن خلال حصوله على هذه المعلومات الجديدة، تمكن هاريل من إقناع بن جوريون باتخاذ قرار للبدء باجراء تحريات واسعة النطاق عن إسرائيل بير (وهو شئ ظل رئيس الوزراء الإسرائيلى يرفض إتخاذ قرار نهائى بشأنه حتى تلك اللحظة).

وذات مساء فى مارس ١٩٦١، قامت مجموعة من التحريين التابعين لجهاز الاستخبارات الإسرائيلى، الموساد، باقتفاء أثر إسرائيل بير. وكان إسرائيل بير يحملهفى يده حقيبة صغيرة للأوراق، ومتجهاً فى طريقة إلى مطعم صغير فى تل أبيب. وجلس هناك برهة، ثم جلس إلى جانبه رجل آخر كان يحمل فى يده حقيبة صغيرة للأوراق تشبه تماماً حقيبة إسرائيل بير. وحددت المجموعة من التحريين على الفور هويته بأنه

دبلوماسي سوفييتي، وكان في الحقيقة واحداً من كبار المسؤولين في جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي». وتبادل إسرائيل بير مع هذا الروسي أطراف الحديث لفترة قصيرة، ثم نهض الإثنان، وأخذ كل منهما حقيبة الآخر، وهي طريقة تقليدية في تبادل المعلومات الاستخباراتية. وانقضت المجموعة من التحريين عليهما: في داخل الحقيبة، وضع إسرائيل بير وثائق سرية لتسليمها إلى الروسي. وبعد بضعة شهور، إتهم إسرائيل بير بالتجسس، وحكم عليه بالسجن لمدة ١٠ سنوات.

وكان يمكن أن يكون هذا نهاية الأمر كله، ولكن جهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد» عرف أن اكتشاف لغز إسرائيل بير كان مجرد بداية.

ورفض إسرائيل بير التعاون مع الذين قاموا باعتقاله، ولذلك اضطر جهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد» إلى البحث في الماضي. وكان الاكتشاف الأول الذي لم يبعث على تسوية الأمر هو أنهم القوا القبض على شبح: الرجل الذي كان إسمه إسرائيل بير غير موجود. وكشفت التحريات الدقيقة عن أن كل ما كان معروفاً عن ماضي إسرائيل بير كان مجرد كذبة. والرجل الموجود في زنزانة السجن الإسرائيلي، مع أنه كان يتحدث الألمانية بطلاقة، لم يكن نمساوياً، ولم يكن عضواً في حركة الاشتراكيين النمساويين، وكان في إسبانيا خلال الحرب الأهلية، ولكنه لم يعمل لحساب الكتائب الدولية، ولم يكن يهودياً، ولم يهاجر إلى فلسطين هروباً من الاضطهاد النازي.

من كان إسرائيل بير إذن؟ جهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد» لم يعرف حقيقته أبداً. وإسرائيل بير، الذي ظل صامتاً، مات في ١٩٦٦، بسبب إصابته بنوبة قلبية. وفي نهاية الأمر، انتهى جهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد» إلى إستنتاج مؤداه أن الرجل الذي أطلق على نفسه اسم إسرائيل بير كان عبارة عن عملية إستخباراتية كلاسيكية قام بها جاسوس يعمل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي«كي جي بي». وهذا الجاسوس جاء إلى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية بهدف محدد وهو التسلل إلى الحركة الصهيونية السرية. وحدث الشئ غير المتوقع حينما أصبحت تلك الحركة الصهيونية السرية حكومة البلد الجديد في إسرائيل في

غاية الأمر.

وفى النهاية، إنتهى جهاز الاستخبارات الإسرائيلى «الموساد» إلى إستنتاج مؤداه أن العملية كلها تضمنت رجلين. الرجل الأول كان إسرائيل بير الحقيقى، وكان هذا فى الواقع ناشطاً فى الحركة الاشتراكية النمساوية، وفى وقت لاحق حارب فى إسبانيا. ولكن جهاز الإستخبارات الإسرائيلى «الموساد» كان مقتنعاً بأن إسرائيل بير الحقيقى لم يغادر إسبانيا حياً. وكما كانت العادة المتبعة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» خلال الحرب الأهلية الأسبانية، فهو كان يأخذ جوازات سفر وأوراق خاصة أخرى للرجال الذين كانوا يحاربون فى الكتائب الدولية. وحينما كان يموت أحد المحاربين، كان جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يقوم بإعطاء مجموعة من الأوراق الحقيقية إلى أحد عملائه لحمل هوية أحد المحاربين الموتى.

ومن كان الرجل الثانى؟ لم يتم اكتشاف هويته الحقيقية، ولكن جهاز الاستخبارات الإسرائيلى «الموساد» إعتقد أنه كان ناشطاً شيوعياً متعصباً فى النمسا، وانضم إلى الحزب الشيوعى فى ١٩٢٨. وفى ١٩٣١، قام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بتجنيده للتجسس على أعضاء الحزب، وهى مهمة قام بتنفيذها بنجاح. وباختياره للقيام بمهام أكبر وأفضل، جرى إستدعاؤه إلى موسكو فى ١٩٣٤ للتدريب على عمليات إستخباراتية، وبعد عامين جرى إرساله إلى إسبانيا كرئيس لمجموعة معينة بمهمة القضاء على «المنحرفين عن الأيديولوجية الماركسية» فى صفوف المتطوعين فى الحرب. وعلى مايبدو، فهو تجاوز حدود صلاحياته، وفى ديسمبر ١٩٣٦ جرى إستدعاؤه إلى موسكو للرد على إتهامات بارتكاب «أخطاء فادحة». وفى العادة، فهذا كان يعنى الحكم بالإعدام فى عصر التطهير، ولكن تقرر «إعادة تأهيله» بعد بضعة شهور، وتحويله إلى «إسرائيل بير» للعمل كجاسوس يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».

وماذا عن إسرائيل بير الحقيقى؟ ليس هناك أحد يعرف عنه شيئاً، ويبقى مصيره لغزاً محيراً.

فلاديمير فيتروف

قتل الخط إكس

الإسم الرمزى: وداعاً

١٩٢٨ - ١٩٨٣

لم يكن حدوث القتل شيئاً عادياً فى موسكو فى فبراير ١٩٨٢، ولذلك فحينما وصل رجال البوليس إلى موقف السيارات ورأوا جثة رجل طعن بالسكين حتى الموت وإمرأة اصيبت بجروح بالغة، عرفوا أنهم أمام شئ غريب. وأصبحت القضية حتى أشد غرابة حينما عرفوا أن الرجل الميت كان مسؤولاً كبيراً فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، بينما كانت المرأة سكرتيرة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».

وبكلمات أخرى، فهى كانت قضية محفوفة بتعقيدات سياسية. وقلما إستوعب رجال البوليس حقيقة تلك التعقيدات حينما اصطدموا بتعقيدات أخرى: بعد ساعة من وصول رجال البوليس إلى مكان الحادث، الذى إندفع إليه عملاء الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». بأعداد كبيرة، ظهر فى مكان الحادث كولونيل فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى الرابعة والخمسين من العمر يدعى فلاديمير فيتروف. وأشارت سكرتيرة جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». التى أصيبت بجروح بأصبعها إليه، وأعلنت أنه الرجل الذى قام بطعن الرجل الميت بالسكين وحاول قتله. وألقى رجال البوليس القبض عليه، ووجدوا سكيناً ملطخة بالدماء فى جيبه.

وكانت واحدة من تلك الجرائم المتميزة بالعواطف الإنسانية التى تحدث بين الحين والآخر حتى فى جهازالاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وعمل الجهاز جاهداً على جعل القضية بعيداً عن عيون العامة. وقدم فيتروف إعترافاً كاملاً، وفى غضون ذلك إعترف إنه أقام من قبل علاقة جنسية غير مشروعة مع سكرتيرة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وذات ليلة، كانا يجلسان فى سيارته فى موقف السيارات ويتناولان الشمبانيا. وفجأة خبط مسؤول آخر فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، الذى كان يتجول مشياً على الاقدام فى موقف السيارات، على شباك السيارة. وكان هذا المسؤول تعرّف على زميله فى العمل وأراد تبادل تحيات ودية معه، وربما الحصول على رشفة من الشمبانيا. ولكن لسبب غريب، شعر فيتروف بالذعر، ولاعتقاده على ما يبدو بأن هذا الرجل التابع لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» كان يهم بإلقاء القبض عليه، سحب سكيناً وطعن بها الرجل حتى الموت. وحينما هربت السكرتيرة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» من مكان الحادث، وإقتفى فيتروف أثرها، وطرحها أرضاً، وطعنها بالسكين عدة مرات. وافترضاً منه أنها ماتت، غادر المكان، ولكنه عاد بعد ساعة للتأكد من ذلك.

وبدأت العقول المتشككة فى دائرة مكافحة التجسس التابعة لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى التفكير ملياً فى هذا السيناريو. لماذا شعر فيتروف بمثل هذا الذعر حينما رأى مسؤولاً آخر فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»؟ والحقيقة هى أن محاولة فيتروف المتزوج إقامة علاقة جنسية غير مشروعة مع سكرتيرة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» لم تكن حادثة لم يسبق لها مثيل، وحتى لو اكتشف رؤساؤه أمر هذه العلاقة، فما كان يمكن أن يؤدى ذلك إلى فرض أية عقوبات شديدة عليه. إذن ما الذى كان يحدث بالضبط لهذا المسؤول الكبير فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»؟ وما هى الضغوط الشديدة التى كان يتعرض لها؟

وحتى تلك اللحظة، لم يكن المسؤولون فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يملكون الإجابة، ولكنهم عقدوا النية على وضع فيتروف تحت مراقبة وثيقة.

واتهم بالقتل وحكم عليه بالسجن لمدة ١٢ عاماً. وأدت المراقبة الوثيقة التى فرضها جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» على حركاته وأفعاله داخل السجن، بالإضافة إلى فتح وقراءة رسائله البريدية، إلى ظهور دليل فى غاية الأمر. وفى إحدى رسائله إلى زوجته، ألمح فيتروف إلى أن قضية القتل حملته على التخلى عن «شئ كبير».

وعندئذ، بدأت دائرة مكافحة التجسس التابعة لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» العمل في قضية فيتروف. ومن غير المعروف ما إذا كان تعرض لأعمال التعذيب، ولكن النتيجة كانت عبارة عن وثيقة كتبها فيتروف بخط يده تحت عنوان «إعترافات خائن». وهذه الوثيقة تسببت فى حدوث صدمة قاتلة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، ذلك أن فيتروف كشف النقاب عن أنه كان جاسوساً يعمل فى الظلام لحساب الاستخبارات الفرنسية منذ عدة سنوات. والأسوأ من هذا، فهو أفشى سراً من أعظم أسرار جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وهو إفشاء لم يتخلص جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وكذلك الاتحاد السوفييتى نفسه، من نتائجة.

وكانت الصدمة الأولى هى أن فيتروف، الذى كان يعتبر واحداً من أشد المخلصين فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، قام بإفشاء أسرار بلاده. ومن واقع كونه واحداً من ألمع المهندسين، قام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بتجنيده بعد انتهائه من دراساته الجامعية. وعهدت إليه مهمة وضع القواعد الأساسية لواحدة من أشد الوحدات سرية فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»،وهى الوحدة المعروفة باسم «الخط إكس»، ورسالتها المعلنه لم تكن تقل عن إنقاذ الاتحاد السوفييتى.

ومع حلول ١٩٦٤، حينما وضعت القواعد الأساسية لوحدة «الخط إكس»، كان المسؤولون فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» وأعضاء المكتب السياسى فى الكرملين يعرفون جيداً أنهم الخاسرون فى الحرب الباردة مع الغرب. وكانت

المشكلة هى التكنولوجيا: النظام السوفييتى الضعيف متخلف أكثر فأكثر عن ركب الغرب فى كل من التكنولوجيا والعلوم، وعلى الأخص التكنولوجيا العسكرية. (خبراء الكمبيوتر السوفييت أبلغوا المكتب السياسى أن التكنولوجيا السوفييتية متخلفة بحوالى ٣٠ عاماً عن الولايات المتحدة، وهى فجوة آخذة فى الإتساع فى كل لحظة). وكانت النتيجة النهائية حتمية: الاتحاد السوفييتى سوف يتخلف عن الركب كثيراً، والتكنولوجيا الغربية المتفوقة سوف تملك اليد الطولى وربما تحول الاتحاد السوفييتى إلى نمر من ورق.

وفى ظل وجود إقتصاد سوفييتى ضعيف، ووجود حتى قاعدة صناعية عسكرية أضعف، لم يكن هناك أدنى أمل بإمكانية قيام السوفييت باللحاق بركب التقدم، حتى من خلال تطبيق برنامج شامل وعاجل. وكان الحل هو إعادة توجية الاستخبارات السوفييتية نحو هدف واحد وهو سرقة كل قطعة من تكنولوجيا غربية تقع بين أيديهم. وكان ينبغى أن يقوم الخط إكس، من خلال موقعه فى مقدمة هذا التوجه الجديد، بتجنيد جيش جديد من عملاء الاستخبارات، من الفنيين، والمهندسين والعلماء، الذين يعرفون ما يبحثون عنه وكيفية الحصول عليه.

ونجحت عملية الخط إكس على نحو لافت للنظر. وفى غضون عام، سرق جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» أكثر من ٥,٠٠٠ قطعة مما اعتبر على نحو متفائل «عينات صناعية» من الولايات المتحدة، والبلدان الغربية الأخرى. وشعر الخبراء العسكريون الغربيون بالذهول تجاه السرعة التى تمكن السوفييت من خلالها من الحصول على اكثر التكنولوجيا تطوراً واستخدامها العاجل فى صناعاتهم الخاصة بهم. وكل مالم يتمكن أعضاء الخط إكس والرفاق المساعدون فى وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آريو» من سرقته، قاموا بشرائه، وأصبحت وكالات الاستخبارات الغربية شيئاً فشيئاً عارفة بالعملية الهائلة لنقل التكنولوجيا: شبكات من شركات وهمية لنقل التكنولوجيا المتطورة المحظورة من التصدير إلى الكتلة الشرقية، وعمليات مدروسة لرشوة المهندسين والعلماء مقابل إفشاء أسرار برامج العمل، وأعمال تسلل إلى الوكالات الحكومية لتسهيل نقل التكنولوجيا المتطورة.

ومع هذا، ففى غمرة هذا النجاح الواضح، بدأ فيتروف فى إفساح المجال أمام شكوكه الخاصة به. ومع أنه أحد أبناء الطبقة العليا، فهو أبدى إهتماماً شديداً بالمواطن السوفييتى العادى. وكان يعقد الأمل دائماً على أن التقدم التكنولوجى يمكن أن يؤدى فى غاية الأمر إلى تحسين حياة الشعب الروسى، ولكن برغم دوران محطات الفضاء السوفييتية حول الأرض وتعاظم البناء العسكرى السوفييتى الهائل، فهو رأى أن الشعب لا يشاطر هذا التقدم. وكان الاتحاد السوفييتى، الواقع تحت تأثير هاجس القوة العسكرية، يستخدم كل موارده فى تكديس الأسلحة. وبينما كان يقوم بتحريك الصواريخ السوفييتية الضخمة على دواليب فى عيد العمال أمام مبنى الكرملين فى إستعراض عسكرى، فإن الناس كانوا يقفون فى طوابير لمدة ساعات لشراء رغيف الخبز.

وأبقى فيتروف هذه الشكوك لنفسه، ولكن فى ١٩٦٥، حينما تقرر إرساله إلى باريس للإشراف على عمليات الخط إكس فى أوروبا الغربية، بدأ فى التفكير ملياً فى ذلك التناقض القائم بين مستوى حياة المواطن الفرنسى العادى والمواطن السوفييتى فى بلده. وحتى العائلة الفرنسية الأشد فقراً، كما عرف فيتروف، كانت تعيش حياة لم تكن تخطر على بال أهل بلده إلا فى الخيال. وتعاظمت شكوكه. وأصبحت الاستخبارات الفرنسية عارفة بهذه الشكوك من خلال واقعة غريبة برهنت على كونها ذات دلالة هامة.

وكان فيتروف ذات يوم تورط فى حادث سيارة خطير. ولم يصب بأذى، ولكن سيارة الرجل الفرنسى لحقت بها أضرار مادية جسيمة. وعرض الرجل الفرنسى التعويض عن الاضرار، وتعهد بإجراء التصليحات. وعقد مع فيتروف الشاكر صداقة، وبدأ الروسى فى التحدث صراحة عن شكوكه.

وما لم يكن فيتروف يعرف فى ذلك الوقت هو أن الرجل الفرنسى، الذى إفترض فيتروف أنه رجل أعمال، كان أيضاً جاسوساً نافعاً فى وكالة مكافحة التجسس الفرنسية «دى إسى تى». وعرفت وكالة مكافحة التجسس الفرنسية «تى إس تى» أن فيتروف لم يكن مجرد دبلوماسى متدنى المرتبة كما زعم، لذلك فإن المسألة إتصلت

بكيفية إستغلال مشاعر السخط عنده. وقرر المسؤولون فى وكالة مكافحة التجسس الفرنسية «دى إس تى» الشروع بحذر شديد، ذلك أن مراقبتهم لأنشطة فيتروف أقنعتهم بأنه مسؤول رفيع المرتبة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وربما كان معنياً مباشرة بعمليات سرقة التكنولوجيا. وحينما عرفت وكالة مكافحة التجسس الفرنسية «دى إس تى» ذلك يقيناً، كانت فرنسا فى ذلك الوقت تنزف أسرارها التكنولوجية الحيوية إلى ناحية الشرق، ولذلك فإن تجنيد فيتروف ربما كان يعمل على تعطيل حركة ذلك التدفق.

وفى ١٩٧٠، حين إنتهاء مهمته فى العمل فى فرنسا، جرى إستدعاء فيتروف إلى موسكو للعمل فى مقر قيادة جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وأبقى صديقه رجل الأعمال الفرنسى على إتصالات ودية معه، ولكنه لم يحاول تجنيده على نحو مباشر، مكتفياً بإقناعه بطريقة مهذبة بأن لدية صديقاً فى فرنسا موجوداً فى كل لحظة لتقديم المساعدة. وحقق صبر وكالة مكافحة التجسس الفرنسية «دى إس تى» أغراضة فى ١٩٨٠، حينما كتب فيتروف رسالة مصاغة بحذر شديد إلى صديقة الفرنسى، مبدياً رغبة شديدة فى عقد «إجتماع عاجل» فى موسكو.

وهكذا، قام فيتروف بخطوته فى غاية الأمر. وأكدت إجتماعات لاحقة فى موسكو إفتراض وكالة مكافحة التجسس الفرنسية «دى إس تى»: فيتروف قال إنه يمكن أن يكون جاسوساً يعمل فى الظلام داخل جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وفى الإجتماعات اللاحقة تحت جدران الكرملين مباشرة، قام فيتروف بتسليم نسخ من وثائق بالغة السرية، وكلها مختومة بالتحذير: «نسخة مصورة محظورة».

وكشفت الوثائق النقاب عن كل ما هو ضرورى لمعرفة عمليات الإستخبارات السوفييتية لسرقة التكنولوجيا. وفى ذلك الوقت، كان فيتروف، المسؤول الكبير فى الدائرة «تى» (التجسس التكنولوجى) التابعة لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، يملك فكرة شاملة عن طبيعة البرنامج برمته. ومن واقع شعورهم بالقلق من أن الوقت الذى يستغرقه فيتروف بالقرب من ماكينات تصوير الوثائق فى مكتب جهاز

الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» يمكن أن يثير الشكوك من حوله، فإن المسؤولين في وكالة مكافحة التجسس الفرنسية «دي إس تي» قاموا بإعطائه كاميرا خاصة ذات سرعة عالية بحيث تسمح له بتصوير كل ملفات الوثائق في الخزائن.

وقدمت شرائط الكاسيت المصورة التي قام بها فيتروف بتسليمها إلى ضابط الإتصال الفرنسي، وهو مسؤول في وكالة مكافحة التجسس الفرنسية «دي إس تي» يعمل تحت غطاء ملحق عسكري في السفارة الفرنسية، للفرنسيين (ولأجهزة الاستخبارات الغربية الأخرى التي دعيت للمشاركة في هذا الكنز الكبير) فائدة مزدوجة: شرائط الكاسيت المصورة لم تكشف فقط عن ما كانت موسكو تبحث عنه في مجال التكنولوجيا فحسب، وإنما كشفت أيضاً عن ماهية المجالات العسكرية السوفييتية الأشد افتقاراً للتكنولوجيا المتطورة. وبالإضافة إلى ذلك، جرى الكشف عن أسماء حوالي ٣٠٠ شخص من عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» ووكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آريو» من المعنيين بعمليات سرقة التكنولوجيا، علاوة على دلائل توحي إلى هويات أكثر من ١٠٠ جاسوس نافع في الغرب ساعدوا في تسهيل هذه العمليات.

وبالنسبة إلى جهاز الإستخبارات السوفييتي «كي جي بي»، فإن هذا كان بمثابة كارثة إستخباراتية من الدرجة الأولى. وكان يمكن أن تكون هذه الكارثة أشد من ذلك لولا أن فيتروف، الذي أوشك على الإنهيار مع حلول ١٩٨٢ بسبب مصاعب حياته المزدوجة، إرتكب عملية القتل في موقف السيارات. وعلاوة على ذلك، فحالما عرف الفرنسيون أن فيتروف جرى إلقاء القبض عليه، إتخذوا مع حلفائهم الغربيين قراراً بتجميع أعضاء الخط إكس: ٤٧ عميلاً في جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» تحت غطاء دبلوماسي جرى طردهم من فرنسا، و١٥٠ عميلاً آخر طردوا من بلدان أخرى. وسارع جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» إلى سحب ٢٠٠ عميل آخر قبل إلقاء القبض عليهم وطردهم. وجرى إلقاء القبض على عدد من الجواسيس النافعين.

وبذلك ، فإن عمليات الخط إكس إنهارت على نحو فعلى، تاركة الاتحاد السوفييتى أشد قابلية للتعرض للأخطاء فى وقت بدأ فيه البناء العسكرى الأمريكى فى التعاظم فى عهد إدارة ريجان . والسوفييت، الذين إضطروا على نحو مؤقت إلى الأعتماد على مواردهم الخاصة بهم، لم يلحقوا بركب التقدم التكنولوجى . وهذه الجهود حطمت الأقتصاد السوفييتى، وكانت من بين الأسباب الرئيسية التى أدت إلى إنهيار الأتحاد السوفييتى بعد عدة سنوات .

وفيما يتعلق بمصير فيتروف، فمن الممكن فقط تصور مدى غضب جهاز الأستخبارات السوفييتى «كى جى بى» عليه، ولم يحدث منذ أوليج بنوفسكى أن أدت أفعال جاسوس يعمل فى الظلام لحساب الغرب إلى مثل هذه الأضرار البالغة . وفى بادئ الأمر، وضع جهاز الأستخبارات السوفييتى «كى جى بى» خططاً لقديم فيتروف إلى محاكمة، والفكرة من وراء ذلك هى أن إستعرضاً علينا لأسلوب حياته الذى إتسم بالفساد الأخلاقى (يمكن توجيه اللوم إليه بسبب إنغماسه فى حياة الفسوق فى الغرب خلال مهمته فى فرنسا) يمكن أن يشكل درساً فى علم حقوق المواطنين وواجباتهم . ولكن أياً كانت التهديدات الى تعرض لها، فإن فيتروف لم يكن يملك النية للمشاركة فى محاكمة . ولو كان جهاز الأستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يريد حقاً إجراء محاكمه، فهو أوضح أنه سوف يستخدمها كمنتدى حول مجالات فشل الزعامة السوفييتية . وأضح أيضاً أنه على إستعداد لتوجيه إتهام إلى جهاز الإستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، الذى قال عنه إنه خاضع لهيمنة «الإدمان بالمسكرات والفساد ومحاباة الأقارب» . ومن خلال محاولة لتأكيد اعتزامه عدم القيام بدور الخائن التائب، أصر على إضافة هذه العبارة إلى إعترافه : «أسفى الوحيد هو أننى لم أتمكن من التسبب فى المزيد من الأضرار إلى الاتحاد السوفييتى والمزيد من الخدمات إلى فرنسا» .

ومن واقع تعاظم يأسه، إتخذ جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» قراراً نهائياً، وهكذا أخرج صاحب الاسم الرمزى المثير للمشاعر «وداعاً» من زنزانته فى صباح أحد أيام الربيع من ١٩٨٣ وأعدم رمياً بالرصاص .

الجواسيس المرتدون

عاصفة الطيور

أفانسي شوروخوف

هروب مشجع كرة القدم

الأسماء المستعارة: فلاديمير بيتروف، بروليتارسكي،

سفن أليسون

١٩٠٧ - ١٩٩١

فى نظر زملائه من أعضاء النادى الروسى فى كانبيرا، استراليا، فإن هذا الرجل المعروف رسمياً باسم فلاديمير بيتروف، السكرتير الثالث فى السفارة السوفييتية، كان شخصية غريبة الأطوار حقاً.

ياإلهى، كان رجلاً روسياً على نحو لايرقى إليه الشك، حسناً، إنه ذلك النوع من الروسى الذى، مثل معظم الرجال من أهل بلده ،أحب الفودكا وتلك الأغانى الغجرية المثيرة للعواطف التى تعبِّر عن الحزن والحب الضائع. ومن المثير للإنتباه بدرجة كافية، مع ذلك، هو أنه أبدى شعوراً خاصاً بالفرحة تجاه كل ما هو استرالى، بما فيه الشعور بالعاطفة تجاه كرة القدم الاسترالية. وكانت معلوماته المستفيضة عن الأمور الدقيقة فى هذه اللعبة تنافس معلومات الخبراء فيها من أهل البلد. وبدا هذا الرجل كأنه يتميز بروح حقيقية من الدعابة فى وقت لم يكن فيه ذلك أمراً عادياً بالنسبة إلى أى روسى فى عهد ستالين فى ١٩٥٣ . وعلى العكس من الفكرة الشائعة عند الروس الذين

يميلون إلى اعتبار الاستراليين بمثابة مخلوقات رأسمالية لاتقل عن الهمجيين فى شئ، فإن بيتروف كان يحب الاستراليين على نحو حقيقى، وغالباً ما كان يتحدث عن مدى إعجابه بالبلد.

ولم يكن معظم أعضاء النادى الروسى يعرفون الشئ الكثير عن بيتروف، ولكن أحد الأعضاء أبدى إهتماماً خاصاً فى البدء بعقد صداقة حميمة مع هذا الدبلوماسى السوفييتى. ولم يكن هذا أمراً جاء بطريق المصادفة، ذلك أن الدكتور ميخائيل بيالوجاسكى، المهاجر البولندى، كان جاسوساً نافعاً يعمل لحساب منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو». وكان إنضم إلى عضوية النادى الروسى، قبلة الدبلوماسيين الروس الذين يشعرون بالحنين إلى الوطن، والمسؤولين التجاريين (وحتى عدد قليل من المهاجرين) الذين يقومون بمهمة خاصة وهى مراقبة المسؤولين السوفييت الذين يمكن أن يكونوا عرضة للتملق من جانب منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو».

وفى إختياره بيتروف، كان بيالوجاسكى وراء شخصية هامة. وكما كانت منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو» تعرف، فإن مهمة بيتروف الحقيقية فى كانبيرا هى أنه موظف مقيم تابع لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى استراليا. وكان بيتروف مقيماً هناك منذ ١٩٥١، ومن لحظة وصوله، عرفت منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو» أنه عميل فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وحينما كان فى الرابعة والأربعين من العمر فى ذلك الوقت، كان بيتروف، وهو اسم مستعار لإسمه الحقيقى أفانسى شوروخوف، خدم من قبل أكثر من ٢٠ عاماً فى وظائف وراء البحار من بكين إلى إستوكهولم، وفى الغالب بمرافقة زوجته إفدوكيا، التى عملت موظفة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وكان موطن القوة عند بيتروف هو كتابة رسائل الشيفرة، ذلك أنه أنضم إلى البحرية السوفييتية فى سنوات المراهقة، وأصبح خبيراً فى كتابة رسائل الشيفرة، وجرى تجنيده فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» من واقع قدرته على معالجة رموز الشيفرة. وبعد قيام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بتدريبه على فنون التجسس،

أصبح بيتروف عميلاً نادراً متمكناً من العمل باقتدار فى غرفة كتابة رسائل الشيفرة.

وفى ظل سمعته كواحد من كبار العملاء فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، ظلت منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو»، وكانت على صواب فى ظنها، أن بيتروف كان يتولى فى استراليا فى زمن الحرب مهمة إحياء شبكة ناجحة من الجواسيس النافعين، وهم فى معظمهم من الشيوعيين والمتعاطفين. وبعد الحرب «بدأت هذه الشبكة من الجواسيس النافعين فى الانهيار فى مواجهة حملات التطهير المعادية للشيوعية فى الحرب الباردة، وأراد جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» إحياءها.

وكانت خطة منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو» تقوم على قيام بيالوجاسكى بانتحال شخصية مهاجر مؤيد للسوفييت إلى أبعد الحدود، وإشراك بيتروف فى مناقشات سياسية، وجره إلى الافصاح صراحة عن ميوله السياسية الحقيقية. وماأثار دهشة بيالوجاسكى، مع ذلك، هو أن آخر شئ أراد بيتروف الاستماع إليه هو أى حديث مؤيد للسوفييت. ومع اقترابه أكثر فأكثر من صديقه الجديد، فإن فولوديا، لو إستخدمنا لقب بيتروف المفضل لديه، بدأ فى التحدث صراحة. وفى حقيقة الأمر، فإن بيتروف كان يمر فى مرحلة تحوله إلى جاسوس متخلص من الأوهام وأتخذ الخطوة الخطيرة فى الكشف عن تخلصه من الأوهام أمام بيالوجاسكى، وفى الوقت نفسه البوح بأن زوجته إفدوكيا متخلصة من الأوهام أيضاً. والمشكلة، كما ألمح بيتروف بطريقة جافة، هى أن موسكو لاتقبل الاستقالات.

وكان بيتروف حريصاً على عدم ذكر وظيفتة الحقيقية ككاتب للشفيرة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، كما لم يناقش السبب الحقيقى الكامن وراء إنخفاض روحه المعنوية. وكانت مشكلته ذات شقين: المشكلة الأولى هى أنه تولى مهمة مستحيلة. ومع حلول ١٩٥١، كانت عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى استراليا، فى جزء منها بفضل يقظة منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو»، وصلت إلى أدنى مستوى لها، فيما لم يكن هناك إحتمال بحدوث أية

تحسينات عاجلة. وكانت موسكو تطالب بنتائج سريعة، غير أن عملية إعادة بناء شبكات كتلك التى بناها جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى أوقات الحرب ربما تستغرق عقوداً. والمشكلة الثانية، وهى التى أنذرت بسوء أكثر من غيرها، هى أن رئيس جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» لافنترى بيريا جرى إعدامه فى عام ١٩٥٣ بعد محاولته تولى السلطة فى الاتحاد السوفييتى فى أعقاب موت ستالين. وبدأت عملية التطهير الحتمية ضد أتباع بيريا فى صفوف جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وكما يعرف بيتروف، فإن جميع عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى كل أنحاء العالم جرى استدعاؤهم إلى موسكو، وهناك تلقوا رصاصة فى رؤوس من الخلف. وشعر بيتروف على وجه الخصوص بتعرضه للأخطار: بيريا إعترف بمواهبه قبل بضع سنوات، ورفع مهنته إلى صفوف جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وهذه الرعاية كانت وقتئذ بمثابة تفويض بالموت، ذلك أن بيتروف كان يمكن اعتباره واحداً من «أتباع بيريا».

وشعر المسؤولون فى منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو» أن اللحظة حانت، وتلقى بيالوجاسكى تعليمات بفتح موضوع الارتداد مع بيتروف. وتبددت أية شكوك لدى بيتروف تجاه مثل هذه الخطوة المتطرفة فى إبريل ١٩٥٤، حينما تلقى الإستدعاء المخيف بالحضور إلى موسكو من أجل «المشاروات». وباضطراره إلى إتخاذ قرار عاجل، إختار بيتروف الارتداد، فيما كان من المقرر أن تلحق به زوجته فى وقت لاحق. وأجرى بيتروف إتصالاً من بيالوجاسكى، وشق طريقه إلى بر الأمان بنجاح، غير أن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، فى اللحظة التى عرف فيها أن بيتروف هرب من السفارة، قام بإلقاء القبض على إفدوكيا قبل أن تتمكن من الهروب من المبنى. وبيتروف، فى غضون ذلك، تمكن من الاختباء فى أحد البيوت الآمنه التابعة لمنظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو».

وفى ذلك الوقت بدأ واحد من أشد الفصول العلنية إثارة للذهول فى تاريخ التجسس فى الحرب الباردة. وقرر جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» إرسال زوجة بيتروف بالطائرة إلى موسكو فى أسرع فرصة ممكنة. والفكرة من وراء ذلك

هى أن احتجازها كرهينة فى موسكو من شأنه إخماد حماسة زوجها فى البوح بالكثير إلى منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية«آسيو». وكان جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يعرف جيداً أن بيتروف، من بين العملاء البارزين الآخرين، يملك قدراً كبيراً من المعلومات المخزونة فى رأسه التى يمكن أن تلحق ضرراً بالغاً، وما يعرفه عن أنظمة الشيفرة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يمكن أن يكون وحده أمراً كارثياً.

وقام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بإرسال طائرة إلى استراليا لنقل زوجة بيتروف، بالإضافة إلى فرقة من الرجال الأقوياء التابعين لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» الذين لديهم أوامر بإحضارها بالقوة، حين الإقتضاء. ومن الناحية القانونية، فلم يكن هناك شئ يمكن أن تقوم به استراليا لتعطيل ترحيل زوجة بيتروف، لأنها كانت مواطنة سوفييتية. ولكن منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو» وضعت خطة ليس من شأنها إنقاذها فحسب، وإنما أيضاً توجية لطمة فى العين إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى وقت واحد.

وإدراكاً من جانبهم لحقيقة أن رحلة العودة بالطائرة إلى موسكو تتطلب إعادة التزود بالوقود فى مطار داروين، استراليا، قام المسؤولون فى مؤسسة الاستخبارات الاسترالية «آسيو» بإبلاغ رجال الاعلام. ومع هبوط الطائرة، كان المطار مزدحماً بالمراسلين الصحفيين والمصورين ورجال كاميرات التليفزيون الذين جاءوا مشدودين إلى الحكاية التى لاتقاوم: إجبار زوجة وعاشقة زوجها الدبلوماسى السوفييتى المرتد على التصرف ضد إرادتها والعودة إلى موسكو.

ومن واقع شعوره بالإرتباك بسبب وجود ذلك السيرك الإعلامى، قام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بارتكاب غلطات فاحشة: حراس جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» تلقوا أمراً من المسؤولين فى دائرة الهجرة الاسترالية بمغادرة الطائرة مع زوجة بيتروف. وهم فعلوا ذلك على الرغم من عدم وجود سبب قانونى يجعلهم يلتزمون بتنفيذ هذا الأمر. وبعدئذ، قاموا على نحو خانع

بتنفيذ أمر بالذهاب إلى البوابة، حيث قام عملاء منظمة الاستخبارات السرية الاسترالية «آسيو» بإبعاد زوجة بيتروف عن رقابتهم ووضع جهاز استقبال تليفونى حول أذنها. وفى الطرف الآخر من البوابة كان يقف زوجها، الذى أبلغها بطلب حق اللجوء السياسى. وصرحت علانية: «لا أريد الذهاب إلى موسكو»، وهى بذلك اعطت الاستراليين سبباً قانونياً كافياً لتحريرها من رقابة الحراس.

وبعد ذلك، قام حراس جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بارتكاب الغلطة الأخيرة والأسوأ فى هذه الحكاية الدرامية كلها: بناء على أوامر بإحضار زوجة بيتروف إلى موسكو أياً كانت الظروف، قاموا باحتجازها وإجبارها على دخول الطائرة. وقام الاستراليون بالتدخل وتوجيه الأمر إلى فرقة الرجال الأقوياء التابعين لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» وطائرتهم بمغادرة البلاد.

وهذا كله جاء فى تقارير مجموعة المراسلين الصحفيين، فيما ملأت صور زوجة بيتروف، بنظراتها الخائفة أثناء وجودها فى قبضة اثنين من الرجال الأقوياء التابعين لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، بملابسهما الرديئة وأخذيتهما الباليه، أعمدة الصفحات الأولى من الصحف العالمية.. وكان هذا بمثابة كارثة فى العلاقات العامة بالنسبة إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، ذلك أن الحكومة السوفييتية، فى وقت كانت فيه تحاول إقناع العالم بنواياها «السلمية»، إضطرت إلى مواجهة دليل واضح وملموس على الوجه الحقيقى للشيوعية السوفييتية. وقام زعماء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» الغاضبون بإرسال حفنة من عملاء الجهاز المرتبطين بالعملية الكارثية إلى معسكرات الاعتقال فى سيبيريا عقاباً لهم، ولكن الأضرار وقعت.

وبوجودهما فى ظل الحماية الاسترالية الآمنة، قام بيتروف بإلحاق المزيد من الأضرار فى جهارالاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وتبين فى وقت لاحق أن بيتروف كان يحتفظ على نحو سرى بنسخ من تقاديره إلى موسكو منذ ١٩٥٢. وهذه التقاريركشفت النقاب عن أسماء الجواسيس النافعين الاستراليين من ذوى المرتبة

المتوسطة الذين عملوا لحساب الاستخبارات السوفييتية. وكانت الأشياء الأشد إثارة للانتباه من غيرها التى قدمها بيتروف هى تلك المعلومات التى إتصلت بأنظمة الشيفرة التى إستخدمها جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وهى معلومات على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى القائمين على كتابة رسائل الشيفرة من الأمريكيين والبريطانيين فى محاولاتهم قراءة حركة إتصالات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى الحرب العالمية الثانية.

وأدى قيام بيتروف بإفشاء الأسرار إلى حدوث بعض المفاجآت. ومن بين تلك الأسرار التى أفشاها هناك قوله إن جاى بيرجيس ودونالد ماكلين، الدبلوماسيين البريطانيين اللذين هربا إلى الاتحاد السوفييتى فى ١٩٥١، كانا فى الحقيقة جاسوسين يعملان فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» قبل حوالى ٢٠ عاماً. وأبلغ بيتروف القائمين على إستجوابه أيضاً أن هارولد فيلبى، الذى كان محلاً للتشكك به وقتئذٍ، كان يعتبر فى نظر جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» الجاسوس الجائزة العامل فى الظلام لحساب السوفييت فى بريطانيا، وجرى تجنيده فى ١٩٣٤. وكان بمثابة الحلقة الأولى فى سلسلة عمليات إفشاء للأسرار أجبرت فيلبى فى غاية الأمر على الهروب إلى ناحية الشرق.

وبعد انتهاء كل إجراءات إفشاء الأسرار وبلوغ فائدته للإستخبارات الغربية غايتها، إكتفى بيتروف بالعيش حياة أخرى مغايرة، كمواطن عادى إسترالى. وبعد إعطائه هوية جديدة تحت اسم سفن أليسون، مهاجر من اسكنديناڤيا، كتب بيتروف وزوجته كتاباً حول تجربتهما، ثم قاما بفتح وإدارة محل تجارى صغير حتى موت إفدوكيا فى ١٩٩٠ وموت زوجها فى ١٩٩١.

وخلال تلك السنوات، أبدى جيران بيتروف على نحو دائم شعوراً بالحيرة إزاء الأسباب التى جعلت هذا الرجل اللطيف أليسون يقوم بتطوير عاطفة مفرطة تجاه كرة القدم الاسترالية. وانتهى هؤلاء الجيران إلى قناعة مؤداها إن هذا الأمر غريب حقاً بالنسبة إلى رجل من السويد أو فينلندا، أو أى مكان آخر قال إنه جاء منه.

إيجور جوزينكو

الرجل الأول

الأسماء الرمزية: كوربى، كلارك

الاسم المستعار: ريتشارد براون

١٩١٩ - ١٩٨٢

لم ير هذا الروسى البالغ من العمر ٢٦ عاماً، القادم الجديد إلى كندا، شيئاً مشابهاً لذلك أبداً. وكان قطع حكاية قصيرة من جريدة محلية فى أوتاوا، وقدمها إلى جميع العاملين معه، وسألهم: أليس هذا أغرب ما يمكن رؤيته؟

وهذه الحكاية، التى تضمنت حدثاً روتينياً عادياً فى مدينة أوتاوا، تمحورت حول تاجر فاكهة يونانى أمام دعوى قضائية ضد الحكومة بسبب بناء طريق على نحو ألحق الضرر بتجارته. وقرأ إيجور جوزينكو الحكاية مرات عديدة، وكان كلما قراها مجدداً، شعر بمزيد من الذهول.وفى نظر هذا المواطن السوفييتى المخلص، فإن فكرة قدرة أى مواطن عادى على إقامة دعوى قضائية ضد حكومة تبقى أمراً لا يصدق.

وكانت ظاهرة تاجر الفاكهة الأولى من بين دروس عديدة فى الحياة فى الغرب التى أدت إلى حدوث تغييرات عميقة فى حياة جوزينكو. وما كان يمكن أن يكون ذلك التناقض القائم بين مستوى حياة المواطن العادى فى كندا والفقر المروع

والطاحن الذى يعانى منه المواطن السوفييتى أمراً أشد تأثيراً من ذلك. ومع تزايد إطلاعه على مزيد من مظاهر الحياة فى الغرب، أصبح متخلصاً أكثر فأكثر من الأوهام تجاه النظام السوفييتى.

وكان جوزينكو عميلاً فى وكالة الاستخبارات السوفيتية «چى آريو»، ومختاراً لمهمة فى محطة الاستخبارات السوفيتية «چى آريو» فى السفارة السوفييتية فى أوتاوا، تحت غطاء كاتب رسائل الشيفرة فى دائرة الاتصالات الدبلوماسية فى السفارة. وفى حقيقة الأمر، فإن جوزينكو كان مختاراً على وجه الخصوص لمعالجة حركة الرسائل بالشيفرة التابعة لوكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آريو» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» الصادرة من السفارة. وكان وصل إلى أوتاوا، فى أول مهمة له وراء البحار، فى يونيو ١٩٤٣، فى أعقاب تدريبات على التجسس فى موسكو.

وكان جوزينكو جندياً شاباً فى الجيش فى ١٩٤١، يعمل فى دائرة الاتصالات بالراديو، حينما عملت قدراته الرائعة فى معالجة أعمال الرسائل بالشيفرة على جعله محلاً لاهتمام القائمين على وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آريو».

وكما كان ينبغى على جوزينكو أن يعرف، فإن الاستخبارات السوفييتية كانت فى حاجة شديدة إلى خبراء كتابة الرسائل بالشيفرة. وكان الغزو الألمانى للاتحاد السوفييتى أجبر جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» ووكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آريو» على العمل بكامل قوتهما. وكان التجنيد بالجملة للمئات من الجواسيس النافعين، من بينهم عناصر غير شيوعية ملتزمة بالقضية السوفييتية وعناصر غير شيوعية تواقة للمساعدة فى هزيمة هتلر، جعل راديوهات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» تعمل بنشاط بالغ على مدار الساعة، وتنقل المعلومات الإستخباراتية إلى موسكو. وكانت الراديوهات (وخبراء الشيفرة الذين يقومون بكتابة الرسائل) أشياء ضرورية جداً، ذلك أن المعلومات الاستخباراتية فى عالم حديث سريع التطور قابلة للإهلاك، وينبغى إرسالها إلى موسكو فى أسرع وقت ممكن.

وفى أوتاوا، عرف جوزينكو أن محطة وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آريو» تعتبر مركزاً رئيسياً فى نصف الكرة الغربى فيما يتصل بالمعلومات الاستخباراتية التى تغطى كل أنحاء أمريكا الشمالية. ولديها ٢٥ جاسوساً نافعاً فى مناصب رفيعة فى كندا وحدها، وتعالج أيضاً بعض المعلومات الاستخباراتية الهائلة الآتية من الولايات المتحدة.

ولكن أوتاوا شكلت شيئاً آخر فى نظر جوزينكو، الذى كان أحد أبناء أبوين فقيرين. ومثله كمثل طفل يتيم يدخل بيت رجل غنى، فهو لم يستطع أن يتصور إمكانية وجود أرض الجن فى مدينة كندية كحقيقة قائمة. وحينما وصل إلى أوتاوا قادماً من موسكو، حيث اقتربت عملية توزيع حصص الطعام فى أوقات الحرب من حد توزيع المجاعة، شعر بالذهول عندما رأى الناس فى أوتاوا، حتى فى ظل قيود أوقات الحرب، يملكون طعاماً كثيراً. وبالإضافة إلى ذلك، فهم كانوا أحراراً على نحو لم يكن أى مواطن روسى ستالينى قادراً على تصوره: الناس يتحدثون بحرية وعلانية فى كل ما يخطر على بالهم، حتى أنهم فى بعض الأحيان يوجهون إنتقادات للحكومه.

وبدا جوزينكو كأنه لم يكن يعرف شيئاً عن حقيقة أن التجول فى أنحاء أوتاوا للاستمتاع بمناخ الحرية، ثم التحدث عن ذلك إلى الزملاء فى العمل، شئ خطير جداً. وهناك سبب لذلك، وهو أن جوزينكو يكتب الرسائل بالشيفرة، وهذا يعنى أنه يملك حرية الوصول إلى كل الأسرار التى يتم إرسالها من وإلى السفارة. والسبب الآخر هو أن جنون العظمة الستالينى يحكم أفعال محطات وكالة الاستخبارات السوفيتية «چى آريو» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى چى» داخل مبنى السفارة، ذلك أن هناك أكثر من ١٠٠ عميل يقومون بمهمة محددة وهى مراقبة أنشطة العملاء لاكتشاف حتى أدنى الدلائل على عدم الولاء.

ومن المؤكد إلى حد كبير أن أحداً فى السفارة قام أخيراً بالتبليغ عن جوزينكو، ذلك أنه فى سبتمبر ١٩٤٤ تلقى الاستدعاء المخيف بالعودة إلى موسكو من أجل «مشاورات» غير محددة. وكان جوزينكو عمل لفترة طويلة مع وكالة الاستخبارات السوفيتية «چى آريو» حتى أنه بات يعرف ومعنى ذلك: كان غارقاً فى متاعب

ومشتبهاً به على نحو لا يرقى إليه الشك بالإنزلاق نحو «الإنحرافية الغربية الخطيرة».
وكان هناك أيضاً شعور بالغ بالقلق. وخلال بعض الوقت، ظل جوزينكو يسمع همسات بين زملائه فى وكالة الاستخبارات السوفيتية «چى آر يو» وجهاز الاسخبارات السوفييتى «كى چى بى» بأن هناك شيئاً غريباً ربما يصيب كتاب الرسائل بالشيفرة فى وكالة الاستخبارا السوفييتية «جى آريو» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى». ووفق هذه الهمسات، فإن موسكو من عادتها إستدعاء كتاب الرسائل بالشيفرة الذين يعملون على وجه الخصوص فى سفارات حساسة، وبعد ذلك يختفون. وعلى نحو متكرر، فإن كتاب الرسائل بالشيفرة يجرى الاستغناء عن خدماتهم فى فترات منتظمة (ثم يجرى إستبدالهم بكتاب آخرين) لسبب واحد وهو أنهم يعرفون الشئ الكثير، كما أن موسكو لاتريد مواجهة مشكلة نزوع كاتب إلى الإرتداد أو لجوئه إلى المعارضة. (كتاب الرسائل بالشيفرة فى وكالة الاستخبارات السوفييتية « چى آر يو» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، الذين يعرفون حركة المعلومات الاستخباراتية، يعرفون فى الواقع كل الأسرار الروسية. وجميع العاملين القانويين الذين يعملون من الخارج ويتصلون بالسفارة، وجميع الجواسيس النافعين الذين يخضعون لرقابة عملاء مختارين، ينبغى عليهم عدم الكشف عن أى شئ يتصل بالعمليات الاستخباراتية الجارية).

وأياً كانت الحقيقة فيما يتعلق بهذه الإشاعات، فإن جوزينكو لم يكن يعرف الحقيقة من مصادرها الأصلية. وكان تجنبه التأكد من حقيقة هذه الإشاعات جاء بتدخل من رؤسائه فى محطة أوتاوا، الذين اعترضوا على نحو غاضب على إستدعائه، مجادلين بأن مهارته غير قابلة للاستغناء عنها «فى تلك اللحظة الحاسمة». وتراجعت موسكو عن ذلك فى تلك اللحظة على الأقل.

ولم يكن القول «فى تلك اللحظة الحاسمة» قولاً مبالغاً به، ذلك أن محطة وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آريو» فى أوتاوا غيّرت أولوياتها فجأة. وكانت الاستخبارات السوفييتية عرفت أن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تعكفان معاً على العمل فى مشروع سرى للغاية لتطوير قنبلة ذرية، وهو سر حرصت كل منهما

على إخفائه عن الروس. وتلقت وكالة الاستخبارات السوفيتية «چى آر يو» وجهاز الاستخبارات السوفيتى «كى چى بى» أمراً ببذل أقصى الجهود فى هذا المجال: مهما كلف الأمر، يجب التغلغل إلى هذا المشروع. ولم يكن ستالين يقبل أن يجعل حلفاءه يطورون سلاحاً يسمح لهم بالهيمنة على العالم فى الفترة اللاحقة على الحرب مباشرة.

وتمحور الجزء الأعظم من جهود وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو» وجهاز الاستخبارات السوفيتى «كى چى بى» المشتركة، وهى جهود جاءت تحت الاسم الرمزى «عملية كاندى» حول كندا، حيث كان هناك فريق من العلماء يحاولون العمل لحل مشاكل انتاج اليورانيوم القابل للإنشطار. وعرف جوزينكو هذا التغيير المفاجئ من خلال برقية تضمنت قيام السوفييت بإعادة توجيه جواسيسهم النافعين نحو الحصول على أية معلومات حول مشروع القنبلة الذرية. وبعد بضعة شهور، عرف جوزينكو أن وكالة الاستخبارات السوفيتية «چى آر يو» نجحت على نحو لافت للنظر: جوزينكو بدأ فى إرسال مجلدات من المعلومات الفنية التى أمكن الحصول عليها على ما يبدو عن طريق جواسيس يعملون فى مشروع القنبلة الذرية. وكان الجاسوس الجائزة، كما استنتج جوزينكو، رجلاً تحت الاسم الرمزى أليكس، وكان على ما يبدو واحداً من العلماء العاملين فى المشروع.

وفى وقت مبكر من صيف ١٩٤٥، أرسل جوزينكو تقريراً من رئيسه فى العمل، الكولونيل نيكولاى زابوتين (الاسم الرمزى جرانت) جاء فيه أن وكالة الأستخبارات السوفييتيه «چى آر يو» تمكنت من التغلغل إلى المرحلة النهائية من البرنامج الأمريكى. ولم يقدم زابوتين فقط تفاصيل عن ما كان يجرى فى لوس ألموس، بولاية نيو ماكسيكو، المركز الرئيسى لتطوير القنبلة الذرية، وإنما عرف إيضاً التاريخ المحدد لإجراء التجربة الأولى، والتفاصيل الفنية المتعلقة بكيفية صنع القنبلة، والأهم من هذا كله، فهو حصل بالفعل على عينة من اليوانيوم «يو - ٢٣٥» (اليوريثيوم المخصب) من أليكس. وتقرر إرسال طائرة خاصة من موسكو لأخذ العينة وإحضارها إلى الاتحاد السوفيتى، حيث استخدمت فى تسريع عجلة برنامج الأسلحة النووية السوفييتية.

وانهالت الجوائز والأوسمة والترقيات على محطة وكالة الاستخبارات السوفييتية «چي آر يو» في أوتاوا تقديراً لعملها البطولي الرائع، ولكن إيجورجوزينكو

لم يكن واحداً من الذين شملتهم مظاهر الحفاوة والتكريم. ومن واقع إستمرارية كونه محلاً للتشكك به بسبب «إنحرافيته الغربية» المتصورة، فهو عرف أن الأمر لا يعدو كونه مسألة وقت قبل أن ترسل موسكو مجدداً الإستدعاء بالعودة إلى الوطن، مقروناً بالاحتمال القوى برصاصة في الرأس.

وعقد جوزينكو النية على الإرتداد، ولكنه إنتهى إلى أنه بالنظر إلى أن كندا والاتحاد السوفييتي دولتان حليفتان، فهناك إحتمال كبير في محاولة الكنديين القيام بتسليمة مرة أخرى إلى الروس. وأتخذت خطته هذا النمط: القيام بالإرتداد مع أكبر قدر ممكن من الدلائل الوثائقية على عمليات التجسس السوفييتية الهائلة في كندا، وحينما يعرف الكنديون عمق الغدر السوفييتي، فلن تكون هناك إمكانية لقيامهم بتسليمه إلى الروس.

وفي مساءه سبتمبر ١٩٤٥، أنهى جوزينكو جولة عمله اليومي المنتظم في غرفة الشيفرة في السفارة، وخرج من السفارة مع ١٠٩ برقيات تخص وكاله الاستخبارات السوفييتية «چي آريو» وجهاز الاستخبارات السوفييتي «كي چي بي» وضعها في حقيبة صغيرة. وفي ظل حقيقة الإجراءات الأمنية المشددة في السفارة، فهو عرف أنها لن تكون غير مسألة وقت قصير قبل أن يكتشف السوفييت البرقيات المفقودة، ولذلك كان أمامة قدر محدود من الزمن لوضع خطتة موضع التنفيذ.

ولخيبة أمله، فإن جوزينكو إكتشف أنه لن يستطيع حتى جعل الكنديين يعرفون ما يريدون تحقيقه. وكانت أول وقفة له أمام مكاتب «أوتاوا جورنال» الجريدة التى قرأ فيها عن تاجر الفاكهة اليوناني قبل بضع سنوات. ولم يظهر المحرورن في الجريدة أيه دلائل على إمكانية تفهمهم لما كان يتحدث عنه، وطلبوا منه الخروج من المبنى.

(فشلهم في عدم قبولهم الحكاية الأعظم في تلك السنوات أدى إلى إقتناع الأجيال اللاحقة في الجريدة بضرورة الإستماع باحترام إلى كل رجل غريب الأطوار

يأتى إلى هذا المكان، حتى لو كان يزعم أنه تلقى أوامر من كائنات فضائية غريبة عن طريق أطباق فولاذية فى رؤوسها) .

وبعد ذلك، قام جوزينكو بزيارة إلى عدد من المكاتب الحكومية، وهذه المكاتب بدورها إعتبرته رجلاً مهووساً . وفى ظل تفاقم شعوره باليأس، لجأ جوزينكو إلى حبس نفسه فى شقته مع زوجته وولده الصغير البالغ من العمر ثلاثة أعوام، وقلما كان يجرؤ على التنفس كلما سمع عملاء وكالة الأستخبارات السوفييتية «جى آر يو» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» يقرعون الباب الأمامى بشدة، مطالبين بخروجه . ومن خلال خطوة يائسة، حكى جوزينكو حكايته إلى جاره المحاذى له، وكان رقيباً فى سلاح الجو الملكى الكندى، ووافق على تقديم ملجأ آمن له ولعائلته . وانتقل جوزينكو إلى المكان الجديد فى الوقت المناسب: بعدما نزل لتوه فى الشقة المجاورة سمع جوزينكو قيام أربعة من عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» بتحطيم الباب الأمامى لشقته وتفتيش المكان على نحو دقيق .

وفى حقيقة الأمر، فإن هذا العمل المتسرع من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» ساعد جوزينكو كثيراً، ذلك أن رجال البوليس، الذين جرى استدعاؤهم إلى مبنى الشقة، عرفوا أنه لم يكن مهووساً عادياً، وأنه يتعرض للملاحقه من جانب الروس بسبب تلك الأوراق التى يحرص على التعلق بها . ومن خلال ظروف تصادفية أخرى، فإن وليام ستيفنسون، الكندى المولد، والجاسوس السوبر الأسطورة لدى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى نيويورك خلال الحرب، حدث أن كان فى كندا حينما إنتشر خبر فى كل أقسام جهاز الأمن الكندى مفادة أن هناك شيئاً غريباً يجرى فى السفارة السوفييتية فى أوتاوا . وحينما سمع ستيفنسون بعضاً من التفاصيل الأولى، عرف على الفور ما حدث، وبفضل إتصالاته رفيعة المستوى، كان قادراً على تحريك جهاز الأمن التابع للبوليس الملكى الكندى نحو توفير الحماية إلى جوزينكو . وفى غضون ذلك، عكف الروس على المطالبة بعودة جوزينكو، زاعمين أنه سرق مبلغاً كبيراً من النقود من السفارة وينبغى أخذه إلى موسكو من أجل «مواجهة أشد النتائج» .

وتجاهل الكنديون مطالبة السوفييت به، ذلك أن المحادثة الأولى مع جوزينكو، والكنوز الآتية من غرفة الشيفرة التابعة لوكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آر يو»، أوضحت أن شيئاً على درجة بالغة من حيث الأهمية وقع بين أيديهم. من بين الأمور التى أثارت إهتماماً عاجلاً أن هذه الأوراق كشفت عن وجود ٢٥ مواطناً كندياً يعملون كجواسيس نافعين لحساب الاستخبارات السوفييتية، كما عملت أيضاً على حدوث موجات اهتزاز أشد وأعظم. ومما له دلالته فى هذا المجال أن الرئيس الأمريكى ترومان جرى إبلاغه عن اكتشاف أمر سر القنبلة الذرية الذى عقد الأمريكيون الأمل على إخفائه لمدة ٢٠ عاماً أخرى على الأقل. وجرى إبلاغ البريطانيين أيضاً عن وجود واحد على الأقل من علمائهم يعمل لحساب الروس. (تبين أن هذا العالم هو الدكتور ألن نان ماى، وهو الرجل الذى يحمل الاسم الرمزى أليكس. ماى إعترف باتهامات التجسس فى ١٩٤٦، وحكم عليه بالسجن لمدة ١٠ سنوات. واعترف بأنه كان شيوعياً متعاطفاً، وجرى تجنيده من جانب وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو» فى وقت مبكر من الحرب لتقديم معلومات حول مجالات التقدم العلمى البريطانى. وحصلت وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو» على جائزة غير متوقعة حينما عهدت إلى ماى مهمة المشاركة البريطانية فى المرحلة النهائية من صنع القنبلة الذرية. وحصل ماى على ٧٠٠ دولار وزجاجتين من الويسكى من وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو» تقديراً لجهوده، وتلك واحدة من الصفقات العظيمة فى تاريخ التجسس).

وحينما أصبحت قضية جوزينكو معروفة فى العلن، وقعت مثل قصف الرعد فى كافة أنحاء العالم الغربى. وكانت الحرب الباردة لم تبدأ حتى ذلك الوقت، كما أن الروس فى ذلك الوقت كانوا يعتبرون حلفاء حرب قدموا تضحيات أكثر من غيرهم فى الحرب لهزيمة هتلر. وفيما يتعلق بالرأى العام، فإن الأسرار التى أفشاها جوزينكو عملت فى الحال على تمزيق الانطباعة المهيمنة من قبل، وهى أن الاتحاد السوفييتى دكتاتورية منقوصة ولكنها حميدة جنباً إلى جنب مع الديمقراطيات. ولم يعد الروس قادرين وقفت على صون الأوهام فى المفضية إلى أنهم لا يملكون نوايا عدوانية ضد

الغرب، وأنهم يمكنهم التعايش فى عالم لاحق على الحرب برغم خلافاتهم السياسية. وكان الغدر موجوداً هناك أمام الجميع لرؤيته والتأكد منه من خلال تلك السلسة الطويلة من محاكمات التجسس التى نشأت عن الأسرار التى أفشاها جوزينكو: التجنيد الهائل للمواطنين لخيانة أوطانهم الخاصة بهم من جانب حليفة الحرب. ومن خلال الحكم على المؤشرات الواردة فى البرقيات التى حملها جوزينكو معه، فمن الثابت أن كلاً من وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» قام بتجنيد مئات الجواسيس النافعين للبوح بكل سر هام فى الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا العظمى.

وكان حجم ومجال الجهود المبذولة أمراً مثيراً، ولكن فى نظر عملاء مكافحة التجسس فى تلك الدول الثلاث الذين إندفعوا نحو جوزينكو، فهناك إهتمام أعظم من ذلك فى أشياء أخرى كان ينبغى عليه البوح بها.

ومثله كمثل جميع رجال الاستخبارات العاملين فى مناصب حساسة، فإن جوزينكو سمع بعض الإشاعات المكتبية الحتمية خلال السنوات التى عمل فيها فى موسكو. وربما يشعر الآخرون بالدهشة حين يعرفون أن هناك أسراراً حقيقة يجرى البوح بها داخل قاعات وكالات الاستخبارات. ومثلهم كمثل الأفراد الآخرين الذين يعملون فى مكاتب، فإن عملاء الاستخبارات يميلون إلى تبادل الإشاعات حول رؤسائهم، ويتذمرون من طريقة معاملتهم لهم، ويوجهون الإنتقادات ضد منافسيهم المحتملين، ويعربون عن اعتزازهم تجاه إنجازاتهم العظيمة.

وحتى فى ظل نظام الاستخبارات السوفييتى الخاضع للرقابة الجامدة، فإن الإشاعات وأحاديث القيل والقال المكتبية منتشرة على نحو غير مكبوح. وكان جوزينكو أعاد إلى الأذهان أنه سمع بعض الإشاعات خلال وجوده فى مركز موسكو (كما كان مقر الإستخبارات السوفييتية معروفاً من قبل). وكان يمكن أن تؤدى مثل هذه الإشاعات إلى حدوث زلازل صغيرة فى عالم التجسس.

وفيما يتعلق بالممثلين عن الاستخبارات الأمريكية، فإن جوزينكو كانت لديه

أخبار مزعجة: أصدقاء فى مركز موسكو نقلوا إليه بتفاخر حكاية جاسوس نافع أمريكى قاموا بتجنيده، وهذا الجاسوس كان يتولى «منصباً رفيعاً فى وزارة الخارجية». ولأن الأمريكيين جرى إبلاغهم من قبل من جانب وايتكير شامبرز أن مسؤولاً فى وزارة الخارجية يدعى ألجير هيس كان يعمل لحساب جهاز الآستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، فمن الطبيعى أن ينتهوا إلى إستنتاج مفاده أن جوزينكو ربما كان يشير بذلك إلى هيس. وفيما يتعلق بالبريطانيين، فإن جوزينكو كانت لديه أخبار أكثر إزعاجاً من ذلك: جوزينكو سمع عن جاسوس نافع، تحت الاسم الرمزى إيلى، وكان هذا الجاسوس يتولى منصباً رفيعاً فى «دائرة مكافحة التجسس البريطانية». ولم يكن جوزينكو يملك أية معلومات أخرى من شأنها تحديد هوية هذا المصدر الحيوى بدقة، ولكنه أعاد إلى الأذهان تلميحات بعض المسؤولين فى وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو» إلى «خلفيته الروسية». واستبعد المسؤول فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، روجر هوليس، الذى تولى مهمه إستجواب جوزينكو، إمكانية قبول مثل هذا الدليل ، وذلك لأن الاسم الرمزى إيلى كان أيضاً الاسم الرمزى المخصص لأحد الجواسيس النافعين الكنديين التابعين لوكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو». وساد الاعتقاد وقتئذ أنه من غير المحتمل أن يقوم السوفييت بتخصيص الاسم الرمزى نفسه لإثنين مختلفين من الجواسيس النافعين.

وبعد عدة سنوات، أفضت محاولة جوزينكو إفشاء الأسرار، ورفض هوليس المقتضب لمثل هذه المحاولة، إلى تعاظم الشكوك بأن هوليس نفسه كان جسوساً يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، ولكن جوزينكو فى غضون ذلك قطع شوطاً فى حياته الجديدة فى كندا. وفى ظل حماية جهاز الأمن التابع للبوليس الملكى الكندى على مدار الساعة، حصل جوزينكو على هوية جديدة كمهاجر تشيكى يدعى ريتشارد براون (تمشياً مع لهجته السلافية الثقيلة). وكتب جوزينكو كتاباً عن ذكريات حياته فى الأستخبارات السوفييتية وارتداده اللاحق على ذلك، ثم كتب رواية لقيت إستحساناً كبيراً حول حياته فى الاتحاد السوفييتى، وكل منهما تحت إسمه الحقيقى.

ولم تكن العلاقات بين جوزينكو وجهاز الأمن التابع للبوليس الملكى الكندى دافئة. وكان جوزينكو يعرب عن تذمره الدائم تجاه حجم المنحة الحكومية التى كان يحصل عليها، حتى أنه بدا عاقداً العزم على أن يصبح رأسمالياً غنياً. وكان البحث الذى لا يهدأ من جانب جوزينكو، الرجل الغامض والمعقد جداً، عن النقود (فى سنوات لاحقة، كان يطلب ١,٠٠٠ دولار من المراسلين مقابل مقابلة صحفية قصيرة) أثار غضب القائمين على حمايته فى جهاز الأمن التابع للبوليس الملكى الكندى، الذين كانوا يميلون إلى ممازحته بالقول إن شعار عائلة جوزينكو هو: «ما معك لى». وفى غاية الأمر، حينما بدأ جوزينكو يشعر بالأمان، قرر جهاز الأمن التابع للبوليس الملكى الكندى رفع الحماية عنه، فأصبح المرتد الجائزة حراً فى الحماية الخاصة لنفسه. وبعد فترة غير قصيرة من الزمن، إنتهت الفائدة منه كمصدر للمعلومات الاستخباراتية، وقرر أن يعيش حياة البذخ. وغرق جوزينكو فى الديون، الناشئة إلى حد كبير عن البيت الذى بلغت تكاليفة ٥٠٠,٠٠٠ دولار الواقع فى ضواحى تورونتو حيث أصر على العيش فيه. ومن خلال محاولة لجمع النقود، لجأ جوزينكو إلى النفعية، وهى النزوع إلى جر المغانم من غير اعتبار لأخلاقية الوسيلة،وذلك حينما أعلن عن رفع دعاوى نشر الكتابات التشهيرية: أى مؤلف أو معلق تليفزيونى يذكر حتى اسم جوزينكو يمكنه أن يتوقع رفع دعوى نشر كتابات تشهيرية ضده، وفق قوانين التشهير المعمول بها فى كندا.

وأدت عائدات الدعاوى، وهى فى معظمها عائدات ناشئة عن تسويات ودية خارج نطاق المحكمة، إلى تمكين جوزينكو من المحافظة على مستوى حياه مرتفع، ولكنها لم تستطع حمايته من تقلبات الدهر. وبدأ فى التحول إلى رجل أعمى إثر إصابته بمرض فى عينيه غير قابل للشفاء منه، وكان ذلك بالنسبة إليه مصدراً للشعور بالغضب والاحباط النفسى. وتعاظم شعوره بالإحباط النفسى فى السبعينيات حينما قام المحققون البريطانيون بزيارة إليه. وكان هؤلاء المحققون منهمكين فى إعادة فتح ملف مسألة تغلغل جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى الأستخبارات البريطانية، ومشغولين فى التحقيق بما حدث حينما تحدث جوزينكو لأول مرة إلى

جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» فى ١٩٤٥ . وشعر جوزينكو بغضب شديد أثناء محاولة عملاء بريطانيين قراءة ما جاء فى التقارير التى كتبت فى ١٩٤٥ حول قيام جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» باستجوابه، ذلك أن هذه التقارير لم تتضمن شيئاً مما قال جوزينكو، وعلى الأخص تحذيره من أن هناك جاسوساً يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥». وصرخ جوزينكو فى وجوههم، معرباً عن عدم إقتناعه بأن الاستخبارات البريطانية فى غضون ٢٥ عاماً لم تكن قادرة أو راغبة فى اكتشاف هذا الجاسوس العامل فى الظلام، وقال لهم: «إنهم تغلغلوا إلى صفوفكم بالفعل».

وبعد هذه الملاحظة الحزينه، مضى التاريخ تاركاً جوزينكو، ومات فى يونيو ١٩٨٢، وحضر جنازته عدد قليل من الأقارب المقربين. وباتباعهم عادة روسية قديمة، وقفوا فى طابور أمام التابوت، ومشوا من حوله واحداً بعد الآخر وانحنوا إحتراماً لتقبيل الجثة. وخلال جنازة غير قائمة على التعصب إلى طائفة دينية معينة، قام أحد رجال الدين بإلقاء كلمة تأبينية قصيرة، واصفاً الراحل بأنه «السيد براون الذى جاء إلينا من براغ».

أناتولى جوليتسين

وحتى المجنون له أعداء

الأسماء الرمزية : كاجو، ستون، ليدل، مارتل

الأسماء المستعارة : أناتول كليموف، جون ستون

١٩٢١ -

مثلهم كمثل لاعبى البوكر الذين يضعون كومات من الفيشات على الطاولة أمام لاعب برغم أقتناعهم أنه لاعب مخادع، قام رجال مكافحة التجسس بوضع كومات من الورق أمام روسى غليظ الرقبة. وبذلك، تلقى الميجر فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، أناتولى جوليتسين، هذا الأمر: «من فضلك، إقرأ هذه التقارير، وأبلغنا بما لفت إنتباهك فى موسكو».

كان ذلك فى يناير ١٩٦٢ . وقبل ذلك ببضعة أسابيع، كان جوليتسين إرتد إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» من منصبه كموظف مقيم فى هيلسنكى «فينلندا». وزعم أنه يملك كمية هائلة من المعلومات حول عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى مختلف أنحاء العالم، وأنه يريد أن يقيم وكالة مكافحة تجسس تتكون من رجل واحد من أجل اقتلاع جذور الجواسيس العاملين فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفيتى «كى چى بى»، الذين زعم أنهم

موجودون فى كل حكومة غربية وفى كل وكالة إستخبارات، من بينها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه». وكمثل على معلوماته، قام بإبلاغ الذين قاموا باستجوابه أنه قرأ وثائق بالغة السرية خاصة بمنظمة معاهدة شمال الاطلنطى (حلف الناتو) أثناء وجوده فى موسكو قبل عدة سنوات، وذلك لأن الجواسيس العاملين فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» كانوا يقومون بانتظام بتزويد موسكو بكافة القرارات رفيعة المستوى التى يتخذها حلف الناتو بمجرد كتابتها.

ولو كان هذا صحيحاً، فإن ذلك يعنى أن تغلغل جهاز الاستخبارات السوفيتى «كى جى بى» كان على درجة كبيرة حتى أن حلف الناتو كان كتاباً مفتوحاً. وفى نظر بعض مستمعية، فإن مثل هذا الإفشاء للأسرار ينطوى على مبالغة ذاتية، وتلك نزعة ليست غير عادية عند المرتدين فى محاولتهم تضخيم معلوماتهم وأهميتهم من أجل تعزيز مكانتهم والتأهل لنوعية المدفوعات السخية التى تقوم وكالات مكافحة التجسس الشاكرة بدفعها إلى المصادر النافعة.

وكمحاولة لاختبار مزاعم جوليتسين بتغلغل جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى حلف الناتو، تقرر وضع عدة وثائق أمامه، من بينها بعض الاوراق المزيفة جيداً. ولو كان يملك بالفعل المعلومات التى يزعم أنه يملكها، فينبغى أن يكون قادراً على اكتشاف الفرق بينها. وما أصاب الحاضرين بشعور بالصدمة هو أن جوليتسين إعتبر الاختبار كأنه لعبة صبيانية. وقال بلهجته السلافية الثقيلة وهو يضع إحدى الوثائق المزيفة جانباً: «إنه الخداع». وفى غضون نصف ساعة، ألقى جوليتسين نظرة سريعة على الوثائق، وكان قادراً، على نحو صحيح، على اكتشاف الأوراق المزيفة. وحينما سئل عن الأسباب التى جعلته متمكناً من القيام بمثل هذا العمل الفذ بمجرد إلقاء نظرة سريعة على كومة من الأوراق، أجاب جوليتسين ببساطة: «السبب، كما أبلغتك من قبل، هو أننى قرأت هذه الوثائق من قبل فى موسكو».

وبذلك، دخل أناتولى جوليتسين إلى أسطورة التجسس. وفى العامين اللاحقين،

قام بالكشف عن مجموعة من عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» والجواسيس النافعين فى العالم الغربى، الأمر الذى أدى إلى حدوث جملة من الأضرار التى لم يحدثها مرتد آخر فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى». ولكن، كما إتضح فى وقت لاحق، فإن الأضرار التى أحدثها لم قتصر على جهاز الأسخبارات السوفييتى «كى چى بى» وأنما أحدث أيضاً أضراراً قاتلة أخرى داخل وكالات الاستخبارات الغربية ذاتها التى تظاهر بمساعدتها.

ولم يكن هناك شئ فى خلفية جوليتسين يشير إلى دور نهائى خاص به كواحد من الباحثين عن الأشياء الغارقة، حتى لو كان ذلك ضد جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى». وكان سجل حياة جوليتسين، المولود فى ١٩٢٦ لأبوين مزارعين أوكرانيين، يظهر لمحة عن حياة نموذجية لشخصية موالية محترفة فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»: كلية عسكرية، وعضوية فى الكومسومول (حركة الشبيبة فى الحزب الشيوعى)، وكلية المدفعية التابعة للجيش، وعضوية فى الحزب الشيوعى، وانتقال إلى دائرة مكافحة التجسس التابعة لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى». ومن هنا، فهو كان يعتبر فى وقت مبكر بمثابة القادم الجديد، ذلك أن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» أرسله إلى كلية الاستخبارات العليا التابعة له، وهى الكلية التى تقوم بتخريج كبار رجال التجسس المستقبليين، ثم أرسله فى ١٩٥٣ إلى أحد أهم مراكزه، فى فيينا. وبعد جولة إستغرقت عامين، عاد إلى مركز موسكو للعمل كمسؤول فى أحد أشد الدوائر حساسية فى الجهاز، وهى الدائرة الأنجلو - الأمريكية (حيث قرأ وثائق حلف الناتو بالغة السرية، وعرف مدى تغلغل جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» الهائل فى صفوف الخصوم الغربيين). وفى ١٩٦١، جرى إرساله إلى مركز رئيسى آخر تابع لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، فى هيلسنكى، حيث ظهر فى يوم مشهود وشديد البرودة فى ديسمبر فى السفارة الأمريكية مع زوجته وابنته البالغة من العمر سبع سنوات، وأعلن عن رغبته فى الإرتداد.

ومع أن جوليتسين لم يكن يعرف إحتمالات المستقبل، فإن المسؤولين فى وكالة

الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» لم يشعروا بالدهشة مطلقاً حين ارتداده. وقبل سبع سنوات، قام مسؤول فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يعمل فى فيينا، بيتر ديريابن، بالارتداد. وأثناء عملية إستجوابه، حرص القائمون على إستجوابة، فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» على تمريره فى إمتحان معيارى للمرتدين: تحليل جميع شخصيات المسؤولين الآخرين فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» الذين كان يعرفهم فى محطة فيينا، مع التلميح إلى الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا فى تقديره محلاً للإرتداد، أو مرتدين محتملين إلى وكالة الآستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه». وذكر ديريابن اسم زميله جوليتسين المسؤول فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وعلى الرغم من سجله الذى لا تشوبه أيه شائبه، فأن ديريابن أشار إلى أن جوليتسين كان فى الحقيقة فى نظر مركز موسكو بمثابة ألم طفيف فى الرقبة. وجوليتسين المتغطرس ذو الطموحات المفرطة تميز بنزعة اللجوء إلى إثارة الغضب عند رؤسائه. وكان قبل بضع سنوات، أثناء وجوده فى موسكو، إقتراح خطة لأعادة تنظيم هيكل الأستخبارات السوفييتى برمته، وهى خطة وضع نفسه فيها فى مكان بالقرب من القمة. وجوليتسين، كما ذكر ديريابن، كان شخصية لا تطاق، وربما كان شخصية خطيرة. وتنبأ ديريابن بأن جوليتسين، فى حالة إحباط طموحاته، يمكن أن يرتد فى أية لحظة إلى الجانب الآخر.

واتضح أن ديريابن كان على صواب. وكان جوليتسين، من الناحية المبدئية فى حقيقة الأمر، شخصية إستخباراتية متقلبة. وكان موجوداً فى لعبة الاستخبارات لمجرد ما تنطوى عليه من إثارة وخداع، وسواء كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، أو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»، أو جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، فلم يكن هذا ذا أهمية، طالما أنه كان يقوم بدور بارز وفى السنوات اللاحقة، كانت هذه التركيبة العقلية ذات أهمية، ذلك أن جوليتسين، فى المراحل المبكرة من إرتداده على الأقل، كان ميالاً إلى معالجة الموضوعات المثيرة.

وبفضل عمله في الدائرة الانجلو-أمريكية التابعة لجهاز الاستخبارات السوفييتي «كي چي بي»، كان جوليتسين يملك فكرة عامة عن الكثير من الجواسيس النافعين العاملين لحساب الجهاز في الغرب. ومن بين هؤلاء هارولد فيلبي، الذي حدد جوليتسين هويته على نحو نهائي وإيجابي بأنه الجاسوس العامل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي چي بي» منذ فترة طويلة. وكان دليل جوليتسين هو الذي قاد جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» إلى مواجهة نهائية مع فيلبي، الذي عرف بدوره أنه بات في مواجهة دليل لن يتمكن من دحضه، وهرب خلف الستار الحديدي تبعاً لذلك.

ومن واقع إهتمامه بالنواحي العملياتية المباشرة، بدأ جوليتسين بعدئذ في الكشف عن الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي چي بي». وهناك ثلاثة جواسيس أشد إثارة من غيرهم، وهؤلاء قاموا بأعمال التغلغل على نحو عميق، حتى أن الكشف عنهم أدى إلى حدوث خيبة أمل بين وكالات مكافحة التجسس الغربية، وذلك بسبب عدم وجود دليل قاطع على حدوث مثل هذا النزف الدموي.

وكان أحد هؤلاء الجواسيس جون فازال، الكاتب الشاذ جنسياً في الأميرالية البحرية البريطانية، الذي جرى تجنيده في ١٩٥٣ حينما كان مخصصاً للعمل في موسكو. وكان فازال ضبط متلبساً في عملية كلاسيكية يطلق عليها «مصيدة عسل»: جهاز الاستخبارات السوفيتي «كي چي بي» وضعه مع رجل فاجر (يعرف بأنه «غدافي» بلغة الاستخبارات السوفيتية)، وقام بتصوير النتيجة، ثم هدده بتقديم الصور الفوتوغرافية إلى رؤسائه مالم يوافق على العمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي چي بي». وقدم فازال إلى جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي چي بي» كميات هائلة من المعلومات السرية التي وضعت على طاولته، وعلى الأخص حينما عمل في دائرة الاستخبارات البحرية البريطانية، حيث رأى تقرير الأستخبارات البحرية البريطانية.

ومن خلال عملية «مصيدة عسل» مماثلة، وضع جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» جون واتكينز فى المصيدة، وهو دبلوماسى كندى شاذ جنسياً، وكان وافق على العمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» حينما كان مخصصاً للعمل فى موسكو كسفير كندا فى ١٩٥٨ . وكجاسوس نافع، فهو كان فى المكان الأفضل، ذلك أنه كان باستطاعته تزويد رسائل دبلوماسية رفيعة المستوى من كندا وبلدان أخرى. (وكانت المنفعة الثانوية، وربما الأكثر أهمية، هى أن حرية الوصول إلى مثل هذه المعلومات عملت على تمكين محللى رموز الشيفرة السوفييت من العثور على «قصاصات صغيرة» ساعدتهم فى حل رموز الشيفرة الدبلوماسية الغربية).

والجاسوس الثالث، وهو الأشد ضرراً من غيره، هو جورج باك، الملحق الفرنسى لدى حلف الناتو، والشيوعى السرى الذى جرى تجنيده فى ١٩٤٦ . وهذا الجاسوس قام بتمرير معلومات رفيعة المستوى من كل من مقر حلف الناتو والحكومة الفرنسية. (جوليتسين كشف أن باك كان واحداً فقط فى حلقة كبيرة من جواسيس كانوا يعملون فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، وتغلغلوا إلى كل مستوى تقريباً فى الحكومة الفرنسية. وكانت محاولة جوليتسين إفشاء أسرار هذه الحلقة أمراً مثيراً للشعور بالقلق، ذلك أن الرئيس الأمريكى كينيدى شخصياً كتب رسالة إلى الرئيس الفرنسى ديجول حذره فيها عمليات هذه الحلقة، التى جعلها جهاز الاستخبارات السوفيتى «كى چى بى» تحت الاسم الرمزى «سابفير».. وكانت جهود دائرة مكافحة الاستخبارات الفرنسية فى ملاحقة هذه الحلقة موضوعاً لرواية ليون أوريس وفيلم الفريد هيتشكوك «توباز»).

وفى أواخر ١٩٦٣ ، قام جوليتسين بتخليص نفسه من كل شئ تقريباً كان يتعلق بعمليات معينة تتصل بتغلغل جهاز الاستخبارات السوفيتى «كى چى بى» فى الغرب. ثم تحرك بعد ذلك إلى الخطوة التالية، وهى خطوة أشد إثارة للجدل، على طريق أعماله اللاحقة على الارتداد. واشتملت هذه الخطوة على شئ لم يكن يتصل بتقديم معلومات موثوق بها، وانما إشتمل على إثارة شكوك كافية لخداع مضيفيه فى وكالات

مكافحة التجسس: تغلغل جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى أجهزة الأستخبارات الغربية.

وكان لتلميحات جوليتسين الأولى عن وجود جواسيس يعملون فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى الاستخبارات الغربية رنين معين فى بريطانيا، حيث كانت مجموعة من المسؤلين فى جهاز الأستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، وعلى رأسهم بيتر رايت وآرثر مارتن، مقتنعين خلال فترة زمنية طويلة بأن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» تمكن من آلتغلغل إلى صفوف كل من جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» و«إم أى ٦». وبالاضافة إلى ذلك، فهؤلاء المسؤلون إعتقدوا أن التغلغل كان على مستوى رفيع جداً، على مستوى جاسوس سوبر يعمل فى الظلام (أو ربما عدد من الجواسيس السوبر العاملين فى الظلام)، الذين قاموا بتسهيل أفعال «حلقة الخمسة» العاملين لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، وتبعاً لذلك كانوا مسؤلين عن السجل البائس للاستخبارات البريطانية خلال العشرين عاماً الأولى من الحرب الباردة.

وكانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» أعارت جوليتسين إلى بريطانيا بسبب ما أصبح يعرف بأنه تحقيق فى الداخل واسع النطاق تحت الاسم الرمزى «فلوونسى». ومع أن أيديهم كانت مغلولة على نحو واضح فيما يتصل بالنقود المخصصة للعمليات الأستخباراتية، فإن البريطانيين مع ذلك دفعوا ٢٨,٠٠٠ دولار فى الشهر إلى جوليتسين مقابل أن يعمل «مستشاراً» لعملية «فلوونسى». ومن الناحية المبدئية، فإن هذه المهمة إستلزمت إستعراضاً للعمليات الاستخباراتية البريطانية، وبحثاً فى الدلائل التى كشف عنها المرتدون، وأية دلائل أخرى محتملة، وذلك فى محاولة لتحديد هوية الرجل، أو الرجال، الذين حاولوا التقليل من شأن أنشطة دائرة مكافحة التجسس البريطانية فى مواجهة الاتحاد السوفييتى.

وكانت هناك أشياء كثيرة أمام جوليتسين للقيام باستعراضها. وقبل اكثر من ٢٠ عاماً، كان أحد كبار المرتدين فى وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو»، وولتر

كريفيتسكى، حذر من وجود جواسيس يعملون فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى الاستخبارات البريطانية. ومع أنه لم يكن يعرف هوياتهم، فهو كان يملك دلائل معينة. وعلى سبيل المثال، فهو سمع عن «رجل الكشافة كريم الأصل» الذى كان يعمل صحفياً فى إسبانيا. وحتى من خلال جهود متواضعة، كان يمكن ملاحقة الرجال الذين كانوا وراء هذه الدلائل: دونالد ماكلين، وهارولد فيلبى، غير أن شيئاً من هذا القبيل لم يتم القيام به. وكانت هناك أيضاً القضية الملغزة، وهى كيفية معالجة قضية إرتداد إيجور جوزينكو من جانب جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، وكيف جرى صرف النظر عن تحذير جوزينكو من وجود جاسوس يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى جهاز الاستخبارات البريطانى «ام أى ٥». وبالاضافة إلى ذلك، فهناك كان اللغز المحيِّر، وهو كيف أن جاسوسين نافعين مغمورين، كلاوس فوتش وألن نان ماى، تقرر تبرئتهما من أفعالهما بالغة السرية من جانب جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» برغم انتمائهما الواضح للشيوعية (فوتش كان عضواً فى الحزب الشيوعى الألمانى وماى كان ناشطاً بارزاً فى معهد العلماء والفنيين الخاضع لهيمنة الشيوعيين. وكانت عملية ملاحقة الجواسيس العاملين فى الظلام فى كل من جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» و «ام أى ٦» أصابت الاستخبارات البريطانية بالشلل خلال السبعينيات، ولم تتضمن شيئاً ذا أهمية: أنطونى بلانت إعترف، وذكر اسم اثنين من الجواسيس العاملين فى الظلام، غير أن «السمكة الكبيرة» لم يتم العثور عليها. وكان بيتر رايت مقتنعاً بأن مدير جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» روجر هوليس كان الجاسوس السوبر العامل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، غير أن هوليس جرت تبرئته أخيراً فى عملية «فلورنسى») .

وكان تقرير فى جريدة حول عملية «فلورنسى» ودور جوليتسين فيها وضع حداً سابقاً لأوانه فيما يتعلق بعمله فى بريطانيا. وحين عودته إلى الولايات المتحدة، ذهب جوليتسين إلى مكتب رئيس دائرة مكافحة التجسس الأمريكية التابعة لوكالة الأستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»، واجتمع إلى الاسطورة جيمس

أنجيلتون. وفى تلك الفترة، ولأسباب لم يفصح عنها أنجيلتون أبداً، أصبح مدير دائرة مكافحة التجسس الأمريكية واحداً من أشد المدافعين عن جوليتسين.

ومثلما زعم أمام الاستخبارات البريطانية، فإن جوليتسين أصر على القول إن هناك تغلغلاً رفيع المستوى من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى صفوف الاستخبارات الأمريكية، وعلى الأخص وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه». وعلى حد قول جوليتسين، فإن هذا الجاسوس السوبر العامل فى الظلام كان يحمل الاسم الرمزى «ساشا»، وهوبدوره كان يساند شبكة من الجواسيس المماثلين العاملين فى الظلام. والكثيرون من هؤلاً الجواسيس العاملين فى الظلام كانوا منهمكين فى تطبيق نظرية جوليتسين : حملة تضليل إعلامية هائلة ومخادعة يفتعلها جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» تؤدى إلى تضليل الغرب تماماً فيما يتصل بقدرات ونوايا السوفييت. (وكجزء من تلك النظرية، أصر جوليتسين على القول إن الانشقاق الصينى – السوفييتى كان فى الحقيقة خداعاً كبيراً) .

وشرع أنجيلتون فى تمزيق وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» من خلال البحث عن الجواسيس السوبر العاملين فى الظلام، مندفعاً إلى ذلك بتحريض من تلميحات جوليتسين بوجوب طرح الثقة فى جميع العاملين فى الدائرة السوفييتية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»، وعلى الأخص هؤلاء الذين يتحدثون الروسية. وبالنتيجة، تعرضت عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»، ضد الاتحاد السوفييتى للشلل، بينما أفسدت الشكوك أنشطة أكثر من مائة مسؤول فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه». وبلغت هذه الملاحقة المجنونة ذروتها فى ١٩٦٤، حينما تعرض مسؤول مرتد آخر فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، يورى نوزينكو، لاعتقال غير قانونى حوالى ثلاث سنوات بسبب أن جوليتسين أبلغ أنجيلتون أن نوزينكو ربما كان جاسوساً تابعاً لجهاز الأستخبارات السوفييتى «كى چى بى» ومزروعاً بقصد التضليل الاعلامى. (نوزينكو أبلغ القائمين على إستجوابه بعدم وجود جاسوس يعمل الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى وكالة

الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه»، وأن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، على العكس من تلميحات جوليتسين، لم يكن له مصالح عملياتية فى قضية لى هارفى أوزولد حينما كان القاتل الرئاسى يعيش فى الاتحاد السوفييتى).

وانتهى نفوذ جوليتسين المشؤوم فى ١٩٧٤، حينما طرد أنجيلتون من الخدمة فى أعقاب الكشف علانية عن دوره فى عملية تجسس داخلية غير قانونية قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه». وبالإضافة إلى ذلك، فإن جوليتسين كان له أنصار متحمسون فى كل من الاستخبارات البريطانية والأمريكية، وكانوا يبدون إستعداداً لتقديم المساعدة حينما كتب «التحفة الأدبية الرائعة»، وهى عبارة عن مخطوطة تتألف من مليون كلمة لكتاب أدى إلى قلب وجهة النظر الغربية عن العالم رأساً على عقب. وكتب جوليتسين أن كل الافتراضات حول التاريخ الحديث خاطئة، وذلك لأن عمليات التضليل الإعلامية المخادعة التى قام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» قامت على الاستخفاف بعقول آلكافة. وحاول أن يجد كاتباً محترفاً لتحويل هذا المجلد إلى كتاب، غير أن جميع الكتاب الذين فاتحهم فى الأمر قرروا عدم المشاركة، ربما بسبب إصراره على حمل مخطوطته فى حقيبة صغيرة مربوطة فى رقبته. وأخيراً، جلس أنصار جوليتسين المتحمسون فى كل من جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» و «إم أى ٦»، واستخلصوا كتاباً من المخطوطة، تحت عنوان «أكاذيب جديدة لأخرى قديمة». ونشر الكتاب على نحو تجارى، ولكنه غرق بدون أثر.

واختفى جوليتسين أخيراً عن مسرح الاستخبارات. ومعظم المؤيدين له على جانبى الاطلنطى، ومن بينهم أنجيلتون، إما ماتوا أو تقاعدوا. وفى ١٩٩٠، أثناء وجوده فى الولايات المتحدة تحت هوية مزعومة، زعم جوليتسين أن إنهيار الشيوعية فى أوروبا الشرقية كان فى الحقيقة جزءاً من عملية خداع سوفييتية طويلة الأجل. ولم يلتفت أحد، باستثناء هؤلاء الأنصار المتحمسين القلائل الباقين، إلى هذا الزعم.

وايتيكر شامبرز

الرجل ذو الوجهين

الأسماء الرمزية : بوب، كارى، يوجين

الأسماء المستعارة : جورج كروسلى، كارل كارلسون

١٩٠١ -١٩٦١

فى صباح أحد أيام الربيع فى ١٩٣٩، جرى عقد ما آتضح أنه الاجتماع الأشد غرابة فى التجسس الحديث فى إحدى غرف فندق متواضع فى مدينة نيويورك بين رجلين عقدا العزم على إلحاق الأذى بالاستخبارات السوفييتية.

ولم تكن الفروقات النسبية بين الرجلين كبيرة. أحدهم كان قصير القامة وممتلئ الجسم ومهمل فى ملابسه وبأسنان رديئة، ويدعى وايتيكر شامبرز، محرر فى مجلة التايم الأمريكية. والآخر كان مواطناً سابقاً فى الاتحاد السوفييتى، ثم أصبح مقيماً أجنبياً فى الولايات المتحدة، ويدعى شميكا جينزبيرج (مع أنه كان يستخدم الاسم المستعار العملياتى ولتر كريفيتسكى فى بعض السنوات). وكان رجلاً قصير القامة ونشيطاً وشديد العناية بالتفاصيل وبمسحة مميزة من لطافة العالم القديم.

وعلى الرغم من وجود هذه الفروقات النسبية، فإن الرجلين كانا يشتركان فى خلفية مشتركة: الإثنان كانا جاسوسين سابقين. وكان شامبرز، البالغ من العمر ٣٨

عاماً وقتئذ شيوعياً أمريكياً مخلصاً إنضم إلى الحزب فى ١٩٢٤، وبعد ثمانى سنوات جرى تجنيده إلى الجهاز السرى فى الحزب. وكان هذا الجهاز يقوم بتجنيد شيوعيين واعدين مجردين رسمياً من عضوية الحزب ومخصصين للقيام بمهام تجسسيه مختلفة لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» ووكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو». وفى ١٩٣٣، جرى إرسال شامبرز على نحو سرى إلى موسكو لتلقى دورة تدريبية فى التجسس، وبعد عودته جرى تخصيصه للعمل كجاسوس لحساب خلايا عديدة لشيوعيين يشغلون مناصب فى الحكومة الأمريكية ويقدمون معلومات إلى الحزب. ولكن فى ظل تعاظم تحرره من الأوهام تجاه الشيوعية، قرر الانسحاب من الحزب والتخلى عن مهمته السرية فى ١٩٣٧.

وكان كريفيتسكى، البالغ من العمر ٤١ عاماً وقتئذ، إنضم إلى وكالة الاستخبارات السوفييتية «چى آر يو» فى ١٩٢٣، ومع حلول ١٩٣٦، حينما تقرر نقله إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى»، أصبح موظفاً مقيماً فى لاهاى، مسؤولاً عن تنسيق العمليات الاستخباراتية السوفيتية فى أوروبا الغربية. ولكن فى ١٩٣٨، حينما قتل زميله فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» وصديقه القديم إجنيس بوريتسكى فى حملة التطهير الستالينية للقضاء على العملاء اليهود، إرتد كريفيتسكى إلى فرنسا. وفى وقت لاحق شق طريقه إلى كندا، ثم أجرى إتصالات مع مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى»، الذى بدوره منحه ملاذاً فى الولايات المتحدة. وفى تلك المرحلة، أصبح كريفيتسكى متحرراً تماماً من أوهام الشيوعية، وعاقداً العزم على الانتقام الشديد لقتل صديقه من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى».

وكان شامبرز يشاطر كريفيتسكى إعتزامه الإنتقام، واتفقا على مشترك فى ذلك اليوم من الربيع على إفشاء أسرار تغلغل الاستخبارات السوفييتية فى صفوف الديمقراطيات الغربية. وسرعان ما اكتشف الرجلان، مع ذلك، أن الأحكام المسبقة حول الاتحاد السوفييتى لن تجعل هذه أمراً سهلاً.

وإلى حد ما، فإن الصعوبات التى واجهها شامبرز فى بادئ الأمر كانت نتيجة

منهجه الغريب الخاص به. وفى أواخر ١٩٣٩، أجرى شامبرز إتصالاً مع مساعد وزير الخارجية أودولف بيرل، وأبلغه عن تغلغل جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى صفوف وزارة الخارجية، ولكنه كان على مايبدو يريد من وراء ذلك حماية بعض الأفراد الأعضاء فى خلايا شيوعيين ويعلمون لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى». وفى ظل عدم ذكر أسماء، كانت تأكيدات شامبرز غامضة فى أحسن الأحوال، فيما قرر البيت الأبيض فى عهد روزفيلت تجاهل الأمر كله. وفى ١٩٤٢، حينما قام شامبرز بمفاتحة مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى»، كان أيضاً متردداً تجاه ذكر أسماء الجواسيس النافعين.

ولكن المسؤلين فى مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» كانوا متيقظين، ذلك أنهم تلقوا من قبل تحذيرات من جانب كريفيتسكى، الذى أبلغهم أنه سمع عن وجود جاسوس يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى چى بى» فى «منصب رفيع فى وزارة الخارجية الأمريكية»، وأن السوفييت لديهم ٣١ جاسوساً نافعاً فى مناصب رفيعة مختلفة فى الإدارة الأمريكية. وبالإضافة إلى ذلك، قال كريفيتسكى إنه سمع عن وجود ٦١ جاسوساً نافعاً يعملون لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى بريطانيا العظمى. وقام مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» بإرساله إلى لندن للتحدث مع الاستخبارات البريطانية. وبالنتيجة، كان كريفيتسكى قادراً على تحديد هوية اثنين من الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»: جون هيربرت كينج، كاتب الشيفرة فى وزارة الخارجية البريطانية، وتايلر كنت، كاتب الشيفرة فى وزارة الخارجية الأمريكية، الذى كان يقدم أيضاً معلومات إستخباراتية إلى جهاز الاستخبارات الألمانى (كريفيتسكى كان أكثر إهتماماً تجاه إفشاء أسرار كبار الجواسيس العاملين فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى بريطانيا. وكان يملك دلائل حول هارولد فيلبى، ودونالد ماكلين، وآخرين، ولكن البريطانيين لم يتابعوا الأمر. وفى ظل تزايد شعوره بالاحباط النفسى تجاه فشل الولايات المتحده وبريطانيا فى التحقق من دلائله، قام بالانتحار فى ١٩٤١).

وكان مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» حائراً تجاه تردد شامبرز فى ذكر الأسماء. وبالنظر إلى أنه إعترف بالعمل كجاسوس للحلقات السوفييتية العاملة داخل الإدارة الأمريكية، وتبعاً لذلك كان يعرف هويات هؤلاء الجواسيس النافعين، فإن مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» كان يشك فى احتمالات أن يكون شامبرز يسعى إلى حماية صديق حميم.

وهذا الشك لم يصبح يقيناً إلا فى أغسطس ١٩٤٨ حينما وقف شامبرز أمام جلسة تنفيذية منبثقة عن لجنة أنشطة غير الأمريكيين التابعة لمجلس النواب الأمريكى، وألقى قذيفة: أحد الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» الذى حصل منه على معلومات إستخباراتية كان صديقه الحميم، ألجير هيس. وكان الإصرار على ذلك أمراً مثيراً، ذلك أن هيس، الذى كان مسؤولاً كبيراً فى قسم الشرق الأقصى التابع لوزارة الخارجية الأمريكية حتى ١٩٤٤، ثم رئيساً لجمعية كارينجى الخيرية، كان أحد أعمدة مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية.

وحين إبلاغه بهذا الزعم، طلب هيس من اللجنة منحة وقتاً كافياً لعقد جلسة علنية من أجل نفى الاتهام، وأصر بشدة على القول إنه لم يكن يعرف وايتيكر شامبرز من قبل. وعملت قضية هيس على إثارة جدل علنى فى التجسس مازال الدخان ينبعث منه حتى اليوم.

وواجهت اللجنة مأزقاً: بدا من الصعب الاعتقاد أن شامبرز يمكن أن يخاطر بتعريض نفسه لتهمة الحنث باليمين من خلال تأكيده الزعم بشأن هيس، كما أن نفى هيس للاتهام كان مباشراً وصريحاً حتى بات من الصعب الاعتقاد باحتمال أن يكون هذا الشخص المعروف جيداً كاذباً.

ولكن مهما بدا هيس مقتنعاً، فإن أحد أعضاء اللجنة، عضو الكونجرس ريتشارد نيكسون عن ولاية كاليفورنيا، كان واثقاً من أن هيس كان كاذباً. ومن خلال محاولة لإثبات ذلك، جعل شامبرز يعود إلى الجلسة التنفيذية ويذكر من جديد كل ما يستطيع أن يتذكر فى فترة الثلاثينيات وهى الفترة التى عرف فيها هيس. ثم جرى إستدعاء

هيس إلى جلسة مماثلة، وطلب منه أن يتحدث عن تفاصيل حياته خلال الفترة ذاتها. وتطابقت كل تفاصيل الحكايتين تقريباً، ولذلك فلم يكن هناك شك: شامبرز كان يعرف هيس جيداً. وهنا، بدأ هيس نفسه يشعر بالارتباك، وقال إنه بات يتذكر الآن أنه كان يعرف رجلاً يدعى جورج كروسلى، الذى قال عنه إنه كان يشبه شامبرز.

ومع هذا، فإن مشكلة الدليل بقيت على حالها: شامبرز زعم أن هيس أعطاه وثائق تخص وزارة الخارجية الأمريكية من أجل نقلها إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وقال شامبرز إنه قام بتصوير هذه الوثائق، ثم أعاد الأصول إلى هيس، ولكن كلمته التى لم يكن لها سند يؤكدها بلغت مرتبة الدليل المنقوص. وبعد بضعه شهور، قدم شامبرز الدليل، وكان عبارة عن مجموعة أشرطة ميكروفيلم لوثائق تخص وزارة الخارجية الأمريكية مخبأة فى طاولة صغيرة موجود قرب المائدة، وربما كان الأشد إثارة من ذلك أن هناك كانت مجموعة أخرى من وثائق مخبأة بين أغصان نبات اليقطين فى مزرعة شامبرز. وتضمنت هذه المجموعة عدة ملاحظات بخط يد هيس، هذا بالاضافة إلى معلومات أخرى تبين فى وقت لاحق أنها مطبوعة على آلة كاتبة قديمة كانت زوجة هيس تملكها من قبل.

وفى غاية الأمر، جرى إتهام هيس بالحنث باليمين، ولكن أهمية القضية إمتدت إلى ما هو أبعد من ذلك. وبالاضافة إلى إسهامها فى صنع مهنة نيكسون السياسية، فإن الجدل العلنى الغاضب أوجد فورة النشاط الأولى لما أصبح هيستريا معادية للشيوعية على مستوى البلد كله، وبلغ ذلك ذروته فى تجاوزات السيناتور جوزيف ما كارثى.

وجملة القول، فلم تكن هذه هى النتيجة التى كانت تدور فى رأس شامبرز، ولكن أحداً لم يكن يتنبأ بالانفجار الذى أحدثه فى ذلك اليوم الذى جلس فيه مع وولتر كريفيتسكى. وحتى موته فى ١٩٦١ ظل شامبرزمقتنعاً بأنه نجح فى تحقيق هدفه الرئيسى، وهو إفشاء أسرار الحلقات المتعددة للشيوعيين الأمريكيين الذين كانوا يعملون فى الحكومة. وجرى إفشاء أسرار أكثر من ثلاثين جاسوساً نافعاً فى غاية الأمر. وحتى

هذا اليوم، ليس هناك أحد يعرف يقيناً الأبعاد الدقيقة لخدماتهم للاستخبارات السوفييتية، غير أنه من المعروف أن ثلاثة من هؤلاء الجواسيس على الأقل كانوا يعملون فى مكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب، وهناك جاسوس آخر، لاشلين كيورى، خدم كمستشار للرئيس روزفيلت.

والأهم من هذا كله، ربما، هو أن شامبرز يمكن إعتباره بمثابة الأب الروحى للحركة المحافظة الأمريكية، ذلك أن حملته العنيفة الإنفرادية هى التى أثرت تأثيراً كبيراً فى نشوء جيل كامل من المحافظين. ومن بين هؤلاء كان رئيس نقابة الفنانين السينمائين، الذى تحرك فى ١٩٥٠ لتطهير النقابة من الشيوعين. وبعد ستة وثلاثين عاماً، قام رئيس النقابة، وهو الرئيس الأمريكى رونالد ريجان بعدئذٍ، بمنح وايتيكر شامبرز ميدالية الحرية، وهى أرفع وسام مدنى فى الولايات المتحدة، تقديراً لهذا الرجل الذى قال فيه ريجان: «التاريخ برهن على أنه كان على صواب».

الجواسيس الأساطير

ليبا دومب

الأوركسترا الحمراء

الأسماء الرمزية: العم ، أوتو

الأسماء المستعارة: آدم ميكلر، ليوبولد تريبار، ليوبولد دوونتر، جان جيلبرت، إيفانوسكي

١٩٠٦ - ١٩٨٣

ليبا دومب كان يردد دائماً: أنا شيوعى لأننى يهودى». وكان ذلك بمثابة تفسير معيارى من جانب هؤلاء اليهود الأوربيين الشرقيين الذين إعتبروا الماركسية خلاصهم الوحيد فى أوروبا المرواغة والمعادية للسامية فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية، حينما كان اليهود يجلسون عند شفا الكارثة. وأوجد الإحساس بمحرقة وشيكة فى نفس دومب نزعة ثورية عميقة، وكما اكتشفت الغالبية العظمى من وكالات الاستخبارات فى بلدان مختلفة، فهو كان واحداً من أشد الجواسيس عناداً وتصميماً فى كل العصور.

وحينما كان فى التاسعة عشرة من العمر فى ١٩٢٥، كان دومب ناشطاً ثورياً مطروداً من الخدمة فى مصنع للجلود فى بلده بولندا بسبب أفعاله التحريضية بين العمال. وفى ذلك العام، إنضم دومب إلى الحزب الشيوعى البولندى، حيث جعلته

حماسته الثورية وقدراته الاستخباراتية العالية ومواهبه الريادية الطبيعية رجلاً يطمح إلى تحقيق الشئ الكثير. والسلطات البولندية أيضاً لاحظت ذلك، وفى ١٩٢٨ ألقت القبض عليه بسبب «أنشطته الثورية»، وطلبت منه مغادرة البلاد بدلاً من عقوبة السجن. وذهب دومب أولاً إلى مرسيليا فى فرنسا، ثم هاجر إلى فلسطين.

وحينما وصل إلى فلسطين، شرع دومب أولاً فى تأسيس خلايا شيوعية، وهو نشاط سرعان مالفت إنتباه سلطات الانتداب البريطانى. وقررت هذه السلطات إعادته مرة أخرى إلى فرنسا، حيث أصبح شخصية بارزة فى قسم العمال المهاجرين اليهود فى الحزب الشيوعى الفرنسى. وأدت ديناميكيته ومهارته التظيمية إلى جعله محلاً لاهتمام مجموعة أخرى من السلطات الحكومية، ولكن قبل أن يتمكن الفرنسيون من التصرف، قرر الحزب إبعاده عن طريق الأذى، وذلك بإرساله إلى موسكو، حيث تلقى «تدريباً حزبياً عالياً» فى «جامعة الأقليات الوطنية» التابعة للكومنتيرن (منظمة ستالين للأحزاب الشيوعية الدولية التى تشرف على الأنشطة الحزبية فى كل أنحاء العالم).

وجين ترجمة هذا كله إلى أفعال، فهذا يعنى أن دومب، الذى كان يعتبر واحداً من ألمع نجوم الحزب، تلقى تدريبات من أجل القيام مستقبلاً بدور ريادى. ولكن مستقبله كزعيم حزبى لم يتحقق، وذلك لأن قدرات دومب كانت متأثرة بمنظمة كان لها التأثير الأعمق على حياته: وكاله الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو».

وكانت الصفات ذاتها التى جعلت زعامة الحزب الشيوعى تنظر بعين الرضا إلى دومب، الجرأة والديناميكية والالتزام التام والذكاء الحاد، هى التى لفتت أيضاً إنتباه جان بيرزين، رئيس وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو». ومن خلال ما يعرف عنه من قدرة على إكتشاف وتجنيد أبرع العملاء، فإن بيرزين رأى فى دومب تلك المجموعة المؤتلفة من الصفات المميزة التى إعتبرها رئيس وكالة الأستخبارات السوفييتية «جى أر يو» ضرورية جداً للعملاء الممتازين: «رأس بارد، وقلب دافئ، وأعصاب فولاذية».

وبدا دومب كأنه يتميز بهذه الصفات. ومن واقع كونه قصير القامة وممتلئ

الجسم، فهو كان يشع طاقة شخصية هائلة ويملك روح مغامرة عالية، الأمر الذى أوجد إنطباعة ذهنية عنه بأنه رجل يمكن أن يجعل رأسه يخترق حائطاً، حين الاقتضاء، من أجل تحقيق ما يريد. وهو أظهر أيضاً مسحة من اللاخوف المطلق، وحتى فى عالم الحزب الشيوعى الجامد والنظرى، فهو كان معروفاً باستعداده لتحدى الأفراد والمبادئ الخاطئة.

ومن واقع سنوات خبرته الطويلة فى العمل الحزبى السرى، فإن دومب برهن على ميل حقيقى نحو التجسس. وبعد فترة قصيرة من العمل مع شبكة صغيرة فى فرنسا فى أوائل الثلاثينيات من أجل صقل مواهبه التجسسية، أصبح دومب جاهزاً للقيام بالدور الحقيقى الذى كان يدور فى عقل بيرزين: موظف مقيم. وفى حسابات بيرزين، فإن وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» كانت فى حاجة ملحة للاستعداد للحرب التى كان واثقاً من أنها سوف تندلع لا محالة فى غضون سنوات قليلة. وكانت ألمانيا هدفاً مقصوداً، غير أنه فى ظل قيام هتلر بتمزيق الحزب الشيوعى الألمانى وكل شبكات الاستخبارات السوفييتية تقريباً، كان من الضرورى إعادة بناء هيكل إستخبارات جديد تقريباً بحيث يقوم بمراقبة العدو الأشد خطورة للاتحاد السوفييتى.

وكانت خطة بيرزين تقوم على تجنب أخطار محاولة بناء شبكات فى الدولة البوليسية النازية، وبدلاً من ذلك بناء سلسلة من الشبكات خارج حدو ألمانيا مباشرة، وأهمها يجب أن يقع فى بلچيكا وفرنسا، وكان ينبغى أن يتولى بومب مسؤولية عملية البناء.

وفى مايو ١٩٣٩، وصل دومب إلى بروكسيل ثم ذهب إلى العمل. وكان ينبغى عليه أن يبنى سلسلة من الأغطية التمويهية التجارية فى كل أنحاء أوروبا بحيث يصل تأثيرها إلى ألمانيا النازية ذاتها. وتحت هويته الجديدة كرجل أعمال مولود فى كندا يدعى جان جيلبرت، بدأ دومب فى بناء شركة غطاء تجارى تدعى سيميكسكو، وبعد عام، بنى شركة سيميكس فى باريس. وبدأ على نحو ناشط فى تجنيد الجواسيس النافعين، ومع إندلاع الحرب العالمية الثانية بنى سلسلة من حلقات ذات أقسام مستقلة

تضم عملاء محترفين وجواسيس نافعين مدنيين وشيوعيين محليين. وامتدت حلقاته من بحر الشمال إلى سويسرا، واشتملت حتى على حلقات صغيرة داخل المانيا النازية ذاتها تضم مجموعة من الشيوعيين الألمان المتعصبين الذين حرصوا على إخفاء تعاطفهم السياسي وحصلوا على وظائف فى المانيا النازية.

وكانت الغالبية العظمى من المائتى جاسوس نافع الذين كانوا يعملون مع دومب متواجدين فى أو بالقرب مما أطلق عليها «نقاط التحويل»، وهى عبارة عن مفارق طرق لهيئات بيروقراطية حكومية حديثة حيث كان يمكن تبادل المعلومات الضرورية. واعتقد دومب أن المعلومات الاستخباراتية الحيوية يمكن إيجادها حتى فى المكاتب الحكومية المغمورة، شريطة أن يكون الجواسيس النافعين عارفين ما يبحثون عنه.

وبرهن دومب على كيفية نجاح تلك النظرية فى فرنسا، حيث كان يتواجد معظم أفضل جواسيسه النافعين. وبعد الغزو النازى، إكتشف أن أفضل طريقة للحصول على المعومات الاستخباراتية حول ترتيب القوات الألمانية فى فرنسا، وهو سر حرص الالمان على كتمانه، تأتى عن طريق وكالة مغمورة معروفة باسم مكتب الإيواء الفرنسى، وهى عبارة عن وكالة فرنسية تقوم بأعمال الإيواء لقوات الاحتلال الالمانى الموجودة فى قواعد الجيش الفرنسى والتسهيلات المدنية الأخرى. ومع مرور الوقت، بالطبع، أصبحت الوكالة عارفة بهويات وتحركات كل الوحدات القتالية الالمانية فى البلد. وبالمثل، كانت هناك شبكة من العاملين فى خطوط السكك الحديدية الفرنسية، الذين عملوا كحلقه إرتباط مع الألمان لتنظيم حركة القطارات العسكرية الألمانية وفق النظام الفرنسى، عارفة بالضبط بالمستويات اللوجستيكية الألمانية والوحدات العسكرية التى تدخل إلى وتخرج من فرنسا. وبالاضافة إلى ذلك، كانت هناك هيئة بيروقراطية حكومية مغمورة أخرى برهنت على كونها منجماً من الذهب على صعيد المعلومات الاستخباراتية. وهذه الهيئة تولت مهمة المدفوعات المالية وفق إتفاق فرنسى – ألمانى قضى بقيام فرنسا بدفع تكاليف احتلالها. وكان الألمان الميالون إلى التدقيق فى التفاصيل شديدى التشكك فى أية مدفوعات مالية، الأمر الذى أدى إلى الكشف عن الأعداد الحقيقية لقواتهم الموجودة فى فرنسا.

وكان الأفضل من هذا كله هو ذلك الإلهام العظيم الذى نزل على دومب: دمج شركته التمويهية مع الشركة الالمانية «تودت»، وهى هيئة بيروقراطية المانية كبيرة تولت مهمة كل أعمال البناء العسكرى والتفاصيل اللوجستيكية الأخرى المتصلة بماكينة الحرب الألمانية. وحصل المندوبون فى شركة سيميكس، كمحاولة لتسهيل قيامهم بعملهم مع الشركة الألمانية، على جوازات مرور نفيسة من السلطات العسكرية الألمانية التى سمحت بالدخول إلى المناطق العسكرية المحظورة. وكان هذا بمثابة حلم لأى جاسوس.

وخلال الثمانية عشر شهراً الأولى من الحرب، لم يكن الألمان عارفين بشبكات دومب المنتشرة فى كل أنحاء أوروبا المحتلة. وكان دومب متيقظاً، وإدراكاً منه أن الراديوهات التى يستخدمها فى إرسال المعلومات إلى موسكو تشكل الحلقة الأضعف فى عمله، ذلك أن الفريق الالمانى «الباحث عن الراديوهات» كان خبيراً فى إكتشاف الراديوهات السرية، حرص على جعل الإرساليات تستغرق فترة زمنية قصيرة، ثم يتم نقل الراديوهات إلى مواقع جديدة. وأدى الحرص على الإيجاز فى الإرساليات، الذى لم يسمح للباحثين عن الراديوهات بوقت كاف لاكتشاف الاشارات اللاسلكية، إلى جعل عملياته المتزايدة آمنة، ولكنه تسبب فى حدوث مشاكل حينما كشف أحد أعظم أسرار الحرب.

وحققت مراقبة دومب الدقيقة لتحركات القوات الألمانية فى فرنسا وبلچيكا أهدافها فى أواخر ١٩٤٠، وذلك حينما اكتشفت جواسيسة النافعون التغيير المفاجئ فى تحرك القوات العسكرية الألمانية إلى ناحية الشرق. ولأن بولندا لم تكن محلاً لأخطار حدوث هجوم وشيك، إنتهى دومب إلى إستنتاج، على نحو صائب، مؤداه أن هتلر، بسبب عجزه عن تحقيق تقدم فى المعركة ضد بريطانيا، يمكن أن يتجه نحو الاتحاد السوفييتى. واعتماداً على معلومات إستخباراتيه أخرى، فإن دومب فى ديسمبر ١٩٤٠ كان قادراً على إرسال كميات هائلة من المعلومات الاستخباراتية عن طريق راديوهاته ذات المواقع المتغيرة. وقام دومب بتزويد معلومات دقيقة عن «عملية باربا روسا»، وهى خطة هتلر لغزو الاتحاد السوفييتى فى وقت ما فى ربيع ١٩٤١، بما فيها أيضاً

ماهية تلك الوحدات الألمانية التى جرى تخصيصها للعملية، الأمر الذى أعطى موسكو صورة واضحة عن ترتيب الوحدات القتالية الألمانية.

وكان ينبغى بذل جهود هائلة لإرسال كل هذه المعلومات الاستخباراتية من خلال إرساليات قصيرة المدة، ولكن دومب كان يشعر أن هذا العمل يستحق مثل هذه الجهود، وذلك لأن الاتحاد السوفييتى تلقى فى تلك الأثناء تحذيرات بأخطار الهجوم. ولكن ما أثار شعوراً بخيبة الأمل عنده هو أن ستالين رفض أن يصدق ذلك. واقتناعاً منه بأن الالمان لن يقوموا بغزو الاتحاد السوفيتى، كتب ستالين بعجلة على أحد تقارير وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» حول أنشطة دومب الاستخباراتية: يجب معرفة مؤلف هذه المعلومات الاستفزازية ومعاقبته عليها». (ولحسن حظ دومب، فإن مقر وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» تحمل المخاطرة الكبرى فى تجاهل هذا الأمر).

ولم يتراجع دومب، وواصل عمله، واستمر فى تزويد موسكو بتيار متدفق من المعلومات الإستخباراتية حول البناء العسكرى الألمانى للغزو الوشيك، ولكن ستالين تجاهل ذلك. وتغير كل هذا فجأة فى صباح ٢٢ يونيو ١٩٤١ حينما قامت المانيا بغزو الاتحاد السوفييتى. ولما تبين أنه على صواب، تلقى دومب وابلاً من الطلبات من مركز موسكو لإرسال كل قصاصة من المعلومات الاستخباراتية التى يمكنه الحصول عليها حول ماكينة الحرب الألمانية. واستجابة إلى ذلك، أخذت راديوهات دومب تعمل على مدار الساعة وتضخ معلومات إستخباراتية إلى ناحية الشرق. وقام بإرسال تيار من المعلومات الاستخباراتية دقيقة بدقيقة حول ترتيب الوحدات العسكرية الألمانية، وكان قادراً على التحذير من خطط ألمانية للهجوم على موسكو (هذا الهجوم أمكن صده من جانب فرق عسكرية روسية قامت بإلحاق الهزيمة الأولى فى صفوف القوات الالمانية المتجهة نحو الشرق). وفى نوفمبر، تمكن دومب من معرفة تفاصيل الخطة الألمانية للقيام بهجوم فى القوقاز، وهو الهجوم الذى إنتهى فى ستالينجراد.

وفى غضون ذلك، إنتهى دومب إلى إستنتاج مؤداه أن الوقت بدأ ينفذ فيما

يتصل بعملياته. وكما كان يعرف قبل غيره، ففى ثنايا نجاحه كانت تكمن عوامل فنائه، ذلك أنه كلما إستمرت راديوهاته مدة أطول فى إرسال معلومات إستخباراتية حيوية على الهواء مباشرة إلى موسكو، كان هناك إحتمال أكبر فى نجاح الألمان الباحثين عن الراديوهات فى اكتشافها. وكانت المشكلة غير قابلة للحل: فى تلك الساعات الحاسمة، حينما كان الاتحاد السوفييتى فى حاجة ماسة إلى المعلومات الاستخباراتية التى كان دومب يقوم بإرسالها، لم يكن أمامه خيار آخر غير إبقاء راديوهاته على الهواء لمدة ساعات فى وقت واحد. وهذا يعنى، وعلى الأخص فى وقت بدأ جواسيسه النافعون فى إرسال المزيد من المعلومات الاستخباراتية، أن الألمان الباحثين عن الراديوهات بهوائياتهم المميزة كانوا يقتربون أكثر فأكثر من الراديوهات.

وكان الألمان يقتربون بالفعل أكثر فأكثر. ومنذ أوئل ١٩٤١، إكتشفت محاطتهم لاعتراض الراديوهات وجود راديوهات تعمل بالشيفرة وترسل إشارات لاسلكية إلى ناحية الشرق من عدد من الراديوهات فى أوروبا الغربية. وتبين أن الرسائل غير قابلة للحل، ولذلك إنتهى الألمان إلى إستنتاج مؤداه أن هناك راديوهات تقوم بالتنصت على الشيفرة الألمانية، وربما كانت هذه الراديوهات تخص الاستخبارات السوفييتية. ومع أنه لم يكن من الممكن حل رموز الشيفرة، فإن الالمان كان يمكنهم اكتشاف أماكن وجود هذه الراديوهات. وبدأت عملية مشتركة لمكافحة التجسس من جانب الجستابو وجهاز الاستخبارات الألمانى.

وحقق الألمان تقدماً فى يونيو ١٩٤١، حينما بدأت الراديوهات فجأة فى إرسال المعلومات الاستخباراتية لعدة ساعات فى المرة الواحدة، الأمر الذى أتاح الفرصة أمام الألمان الباحثين عن الراديوهات مزيداً من الوقت لمتابعة الإشارات اللاسلكية. ومن خلال طريقتهم المميزة فى إستخدام المصطلحات الموسيقية فى وصف الراديوهات السرية، قرروا أن يطلقوا على الشبكة الجديدة من الراديوهات المكتشفة حديثاً اسم «الاوركسترا الحمراء»، وهو الاسم الذى أصبح يطلق على شبكة دومب فى عالم التجسس فى غاية الأمر.

وحينما أخذ الألمان فى الاقتراب أكثر فأكثر، بدأ دومب فى إتخاذ إجراءات لحل شبكته والهروب. وقام بشطب أفعاله المقرونة بأسمائه المستعارة المختلفة، بما فيها الاسم المستعار الذى ظل يستخدمه فى معظم الأحيان، وهو جان جيلبرت. وكان «المونسنيور جيلبرت» مات فجأة موتاً طبيعياً، ثم قام دومب بعمل شاهد قبر مزيف بهذا الاسم ووضعه على قبر فارغ فى مقبرة فى باريس.

وكان دومب يعقد الأمل على إمكانية إستكمال حل شبكته مع حلول يناير ١٩٤٢، ولكن فى ١٣ ديسمبر ١٩٤١، تمكن الألمان من اكتشاف أحد راديوهات دومب الأكثر أهمية فى أحد البيوت فى بروكسيل. وتمكنت إحدى الغارات الألمانية من إلقاء القبض على عدد من أعضاء الشبكة ومشغل الراديو أثناء قيامهم بعمليات الإرسال. ومن المثير للإنتباه هو أن دومب نفسه كان موجوداً فى ذلك البيت أثناء تلك الغارة، غير أنه، بعد التفكير بسرعة، تمكن من الإفلات كبائع أرانب متجول من عملاء الجستابو الذين كانوا يراقبون الطريق.

وكشفت أعمال التعذيب العاجلة التى تعرض لها العملاء الذين جرى إلقاء القبض عليهم عن الهوية الحقيقية لبائع الأرانب المتجول، ثم بدأت عملية مطاردة على مستوى القارة الأوروبية فى الحال. وفى غضون ذلك، بدأ الألمان فى إلقاء القبض على أعضاء الاوركسترا الحمراء فى كل أنحاء أوروبا، ومع حلول منتصف ١٩٤٢، تعرضت شبكة دومب إلى إنهيار تام. ولكن دومب كان حراً طليقاً فى ذلك الوقت، ولأنه كان حريصاً على الانتقال الدائم من مكان إلى آخر، تمكن من الإفلات من القبض عليه حتى اكتوبر ١٩٤٢، حينما عرف الألمان واحداً من أسمائه المستعارة العديدة، وتمكنوا من إلقاء القبض عليه فى مكتب طبيب أسنان فى باريس.

وقال دومب بكلمات المحترف التى تدل على الاحترام والتقدير لعملاء الاستخبارات الالمانية المحترفين الذين ألقوا القبض عليه: «تمنياتى لكم بالتوفيق، أنتم قمتم بواجبكم على خير وجه».

وما حدث بعد ذلك يبقى مسألة محلاً للجدل. وعلى حد قول الألمان، فإن جهاز

الاستخبارات الإلمانى كانت لديه خطة طموحة فى العقل. وفى تقديرهم، فمع أن موسكو كانت تعرف أن الاوركسترا الحمراء كانت تحت الاعتداء، فلم يكن الروس عارفين يقيناً أى الفروع التى كانت تتعرض للخطر أكثر من غيرها، ومن المؤكد كذلك أنهم لم يكونوا عارفين حتى ذلك الوقت بإلقاء القبض على دومب نفسه. وكانت خطة جهاز الاستخبارات الألمانى تقوم على إستخدام دومب كأداة لتمرير معلومات إستخباراتية مخادعة إلى موسكو. وزعم الألمان أن دومب لم يوافق طواعية على ذلك فحسب، وإنما وافق أيضاً على خيانة البقية الباقية من أعضاء الاوركسترا الحمراء، بالإضافة الى خيانة أعضاء المقاومة الفرنسية.

الذين خدموا كجواسيس نافعين لحساب شبكته. وفى حديث دومب اللاحق حول هذه الأحداث، مع ذلك، زعم أنه وافق على المضى قدماً مع الألمان فى لعبة الراديو الصغيرة بهدف تحذير موسكو فى أول فرصة سانحة، وكما أنه نفى أيضاً أية خيانة للجواسيس النافعين فى الاوركسترا الحمراء.

ومهما يكن من أمر، فمن خلال إستخدام أحد المشغلين للراديو المستولى عليه الخاص بالاوركسترا الحمراء (الذى وافق أيضاً على التعاون)، بدأ الألمان فى نقل الرسائل إلى موسكو، موقعين الرسائل باسم دومب. وبدت إستجابة موسكو تشير إلى أن موسكو أخذت الطعم، ولكن الحقيقة هى أن وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» منذ اللحظة الأولى، وربما تلقت تحذيراً بذلك من خلال إشارة سرية أرسلها مشغل الراديو عند إلقاء القبض عليه، عرفت إن دومب بات يعمل تحت رقابة جهاز الاستخبارات الألمانى. وقام الروس بدورهم فى تحقيق غايتهم من اللعبة، مطالبين بالمزيد من المعلومات الدقيقة من دومب حول الخطط العسكرية الألمانية. ومع حلول يونيو ١٩٤٣، عرف جهاز الاستخبارات الألمانى أن الروس يقومون بدورهم فى اللعبة بطريقة ما، وانتهت لعبة تمرير معلومات مخادعة إلى موسكو تبعاً لذلك.

وأياً كانت درجة الانتقام التى ربما خطط لها الألمان ضد دومب، فمن الواضح أنه أمكنه تجنبها بهروبه المفاجئ من الحبس المرن الذى فرضه جهاز الاستخبارات

الألمانى، وذلك عن طريق الحجة البسيطة القائمة على المطالبة بالذهاب إلى صيدلية لشراء دواء للقلب، ثم الخروج من الباب الخلفى اثناء قيام عملاء جهاز الاستخبارات الالمانى بمراقبة الباب الأمامى. واختفى دومب فى باريس، ولم يظهر إلى العلن إلا بعد التحرير. وبعد بضعة شهور، جرى استدعاؤه إلى موسكو لإجراء «مناقشات» غير محددة.

وعند وصوله إلى موسكو، إرتكب دومب غلطة الشكوى من كيفية تجاهل معلوماته الاستخبارية حول عملية بارباروسا، وكيف أدى إصرار موسكو على جعل الراديوهات تواصل العمل لفترة طويلة إلى تمكين الألمان من اكتشافها. واتهم دومب على الفور بإفشاء أسرار الاوركسترا الحمراء إلى الألمان، وحكم عليه بالسجن لمدة ١٠ سنوات. وأطلق سراحه فى أعقاب موت ستالين فى ١٩٥٣، وسمح له بالهجرة إلى موطنه الاصلى بولندا.

وفى ظل تخلصه فى ذلك الوقت من أوهام الشيوعية، تحول دومب إلى مناصرة قضية أخرى: الصيونية. وأصبح زعيماً للبقية من الجالية اليهودية البولندية، وسرعان ما أدى تحريضه لليهود فى مواجهة رفض الحكومة البولندية السماح لهم بالهجرة الحرة إلى إسرائيل إلى جعله يخوض نزاعاً ضد السلطات الحكومية. وحين مواجهته التهديد بحكم آخر بالسجن، تمكن دومب من الإفلات من العقوبة نتيجة تدخل من جانب الاستخبارات السوفييتية. وبشروعهما فى حملة إعلامية لتحسين صورتيهما، بدأ جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» ووكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» فى نشر الأعمال البطوليةالتى قام بها أشهر الجواسيس. ومن بين هؤلاء الجواسيس كان دومب، الذى كرمته المؤسسة ذاتها التى عاقبته.

وأدت هذه الحملة الإعلامية إلى إنقاذ دومب من السجن فى بولندا، ولكن السلطات البولندية إستمرت فى عدم السماح له بالهجرة إلى إسرائيل لقضاء سنواته الأخيرة. وأخيراً، تحت ضغوط من موسكو، سمح له بالمغادرة فى ١٩٧٤، ومات فى ١٩٨٣ فى القدس.

ويلهلم واسموس

لورانس الألمانى

١٨٨٠ - ١٩٣١

فيما يتعلق برجل أصبح يطلق عليه «لورانس الألمانى»، فإن ويلهلم واسموس لم يكن مظهره الخارجى، أوحتى فى جزء منه، يشبه مظهر نظيره البريطانى الشهير بأثوابه العربية الواسطة ورحلاته الجريئة على ظهر جواد فى الصحراء. وكان واسموس قصير القامة وممتلئ الجسم، بوجه مستدير وعيون ضيقة خلف نظارة طبية سميكة، وبدا كأنه يملك كل مزايا الجاذبية الشخصية المميزة لشخصية مندوب التأمين.

ومع ذلك، فهذا الرجل، الذى بلغ ثمن رأسه ٥٠٠,٠٠٠ دولار حياً أو ميتاً فى فترة معينة، وشغل بال الجيش البريطانى كله، كان بمثابة الملك الفعلى لرجال القبائل فى المناطق الجبلية، وأصبح قاب قوسين من تغيير التاريخ. ومع أنه لم يتدرب على ذلك أبداً، فهو كان عميلاً من الدرجة الأولى فى مجال الأفعال التجسسيه الخفية: جاسوس لا يقوم بجمع المعلومات الاستخباراتية، وإنما يعمل من أجل إعادة توجيه سياسات البلدان الأخرى لخدمة مصالح بلده. وفى السنوات اللاحقة، أصبحت الوسائل التى إستخدمها واسموس مصادر مألوفة للأفعال التجسسية فى الحرب الباردة الرامية إلى زعزعة إستقرار الدول: الرشوة والدعاية والتلاعب السياسى.

ولم يكن واسموس يملك أية فكرة حول دوره المستقبلى حينما كان مخصصاً للقيام بمهمة مندوب القنصل الألمانى فى بو شهر، فارس، فى ١٩٠٩. وحينما بلغ

التاسعة والعشرين من العمر، وأصبح واحداً من النجوم اللامعين فى السلك الدبلوماسى الألمانى، وصل واسموس إلى هناك فى زمن مثير للحساسية على وجه الخصوص وفى مكان لا يقل حساسية عن ذلك. وكانت فارس بمثابة ميدان معركة بين المانيا وبريطانيا العظمى فى سبيل الجائزة المتوهجة للامتيازات النفطية الفارسية. وكانت الجائزة لا تقدر بثمن، ذلك أن البلد الذى يتمكن فى غاية الأمر من الحصول على تلك الامتيازات سوف يكون قادراً على دعم قاعدة صناعية عريضة، فى حين أن البلد الخاسر سوف ينزل إلى مرتبة دنيا دائمة. ولم تكن مملكة فارس، بمجتمعها الذى بدا موجوداً فى القرن الثانى عشر الميلادى، فى وضع يسمح لها بالدخول فى جدل مع أى من الجانبين. وكانت فارس ضعيفة، ذلك أنها كانت واقعة بين الامبراطورية العثمانية فى الغرب، وروسيا فى الشمال، وأرض التاج الامبراطورى البريطانى، الهند، فى الجنوب الشرقى. وكان حاكمها، الشاه، رئيساً لمحكمة إقطاعية، غير أن نفوذه قلما إمتد إلى بضعة إميال خارج طهران، بينما كانت الأجزاء الباقية من البلاد فى أيدى زعماء رجال القبائل فى المناطق الجبلية.

وكانت التعليمات التى تلقاها واسموس تتصل بخدمة المصالح الألمانية فى تلك المنطقة الحيوية. وتحقيقاً لهذه الغاية، تسلح واسموس بمبالغ كبيرة من الذهب، العملة الشائعة فى تلك المنطقة، لشراء ولاء زعماء القبائل. وفى غضون ذلك، كان البريطانيون يحاولون أيضاً شراء الزعماء وايجاد سوق مزدهر للولاء. وكان يمكن أن تبقى هذه المنافسة عملية بسيطة لبسط النفوذ، ولكن فى ١٩١٤ ذهبت المانيا وبريطانيا العظمى إلى الحرب، الأمر الذى أدى إلى إشتداد المنافسة بينهما.

ومثله كمثل الدبلوماسيين الآخرين فى بو شهر، فربما كان باستطاعة واسموس المغادرة إلى المانيا. وقبل كل شئ، فإن احتمالات المستقبل بالنسبة الى المانيا فى فارس كانت غير واضحة: موقع فارس بين العراق والهند واقترابها من تركيا أدى إلى جعلها منطقة نفوذ حيوية للبريطانيين، الذين بدأوا فى تحريك قواتهم المسلحة. أما المانيا، التى لم تكن تملك قوة عسكرية مماثلة فى المنطقة، فلم تكن فى وضع يسمح لها بالجدل.

ولكن واسموس لم يكن مستعداً للاعتراف بالهزيمة. وأبلغ رؤساءه فى برلين عن إعتزامه البقاء فى فارس والدخول فى قتال ضد الاحتلال البريطانى من الجبال. وفى الوقت نفسه، أبلغ الاستخبارات الالمانية أنه يريد أن يعمل كأنه عيونهم فى المنطقة. وتقبلت برلين هذا العرض، مع أنهم أعربوا عن دهشتهم تجاه ما يمكن أن يأمل هذا الدبلوماسى الألمانى الوحيد بتحقيقه فى منطقة باتت تخضع تماماً للسيطرة البريطانية.

ولكن واسموس، الذى لم يكن لديه غير مساعد قنصلى ومبلغ من النقود الذهبية تقدر بحوالى ١٤٠,٠٠٠ مارك ألمانى، سرعان ما برهن على ما يمكن أن يفعل رجل واحد عاقد العزم ومتميز بطاقة كامنة وقدرات تنظيمية. وفى ظل معرفته للغة الفارسية واللهجة المحلية التانجستانية، إستطاع فى غضون شهور تنظيم القبائل الجبلية إلى قوة معادية للبريطانيين، حتى أن القوات البريطانية وجدت نفسها تحت هجوم منذ اللحظة التى تحركت فيها بعيداً عن قواعدها الساحلية. وقام أيضاً بتنظيم حملة دعائية معادية للبريطانيين إمتدت إلى كل منطقة الخليج الفارسى، مستخدماً فى ذلك شبكة عريضة من المواطنين الفارسيين العاديين لنشر الإشاعات حول التدنيس البريطانى المزعوم للأماكن الاسلامية المقدسة. (مثل هذه الحملة الدعائية كانت فعالة على وجة الخصوص بين الجماعة الاسلامية الفارسية، ومن بينهم طالب متدين شاب يدعى الخمينى).

ومع حلول ١٩١٦، أصبح واسموس يشكل خطراً حقيقياً بالنسبة إلى البريطانيين، ذلك أنه لم يعمل على تحويل فارس إلى عش دبور فحسب، وإنما كان مشغولاً فى أماكن بعيدة مثل أفغانستان، حيث كان يقوم بتحريض القبائل المحلية على مهاجمة البريطانيين. ومع أن ذلك لم يكن شيئاً مؤثراً بدرجة كافية، فإن البريطانيين عرفوا أن واسموس أصبح شخصية ذات مكانة هامة بين الفارسيين، وعلى الأخص بين المحاربين منهم الذين غالباً ما أعبوا عن إعجابهم الشديد بهذا المحارب الذى قلما استطاع أن يمتطى جواداً. ولكنه كان بمثابة الرجل الذى كسب قلوبهم واحترامهم. وكان للذهب الذى قام بدفعه من التيار المتدفق للمعدن النفيس القادم من برلين تأثير

واضح، غير أنهم أعربوا أيضاً عن تقديرهم لاهتمام واسموس فى أن يصبح عارفاً للغة الفارسية واللهجة المحلية التانجستانية. وبالإضافة إلى ذلك، فمن خلال ما أطلق عليه زواج من الحكم، قام واسموس بالزواج فن إبنة أحد أقوى زعماء القبائل الفارسيين، وكان حفل الزفاف، الذى دعا واسموس إليه الآلاف من الفارسيين العاديين كضيوف، حديث الناس لعدة شهور. (الكثيرون من هؤلاء الضيوف جرى تجنيدهم للعمل لحساب مضيفهم فى شبكة تجسس واسعة أطلق عليها «العيون الألف»).

وقرر البريطانيون أن يجعلوا واسموس عاجزاً عن الحركة، غير أن الحملات العسكرية العديدة فشلت، وذلك لأن شبكة التجسس التى أوجدها واسموس أعطته قدراً كافياً من الإنذار باقترابها. وهذه الشبكة ذاتها، كما اكتشف البريطانيون، أصبحت ناشطة فى الهند، وكانت هناك دلائل على أن الالمان باتوا يملكون صورة تامة عن كل التحركات العسكرية البريطانية من بغداد إلى بومبى. وفى ظل شعورهم باليأس، عرض البريطانيون جائزة قيمتها ٥٠٠,٠٠٠ دولار لكل من يستطيع إلقاء القبض على واسموس. ولم يأخذ أحد تلك الجائزة.

وعلى الرغم من مواهب واسموس غير العادية، فهو لم يستطيع أن يقلب تيار الحرب. ومع حلول أوائل ١٩١٧، حينما تحولت الحرب ضد الألمان، بدأ الفارسيون بالبحث فى خياراتهم: من الواضح، برغم مزاعم واسموس، أن المانيا لم تكن على وشك إلحاق الهزيمة بالبريطانيين، وربما كان الأهم من هذا كله هو أن إمدادات الذهب من الراعى الألمانى بدأت فى النضوب. وحاول واسموس أن يوقف تراجعه من خلال المزيد من الحملات الدعائية الخبيثة، بما فيها الزعم أن القيصر الألمانى إرتد إلى الاسلام.

ولكن المسألة كلها كانت عبارة عن مسألة وقت. ومع حلول أوائل ١٩١٨، بدأت قوات قوامها ١٠٠,٠٠٠ رجل واسطول من السفن الحربية، بعد تلقيها أوامر بوضع حد لأفعال واسموس، هجوماً رئيسياً لإنهاء المشكلة مرة وإلى الأبد. وتمكن واسموس من الافلات من المصيدة، وهرب إلى تركيا، حيث ألقى البريطانيون القبض عليه بعد

توقيع إتفاقية الهدنة. وبعد وضعه فى السجن، كان واسموس مصدراً لانهائياً للدهشة فى نظر السجانين البريطانيين الذين وجدوا صعوبة فى الاعتقاد أن هذه الشخصية السمينة يمكن أن تكون الأسطورة «لورانس الألمانى».

وبعد إطلاق سراحة فى ١٩٢٠، عاد واسموس إلى حياة الفقر والقلق فى بلده الأصلى المانيا، وكان يعرف أن فارس ونفطها النفيس وقعت تحت سيطرة أعدائه، وربما تبقى كذلك لأربعة عقود قادمة. وحاول إستغلال مواهبه فى التجارة، غير أن العبقرية التى برهن عليها فى جبال فارس الجرداء لم تكن عوناً له فى ظل التدهور الاقتصادى فى المانيا. ومات واسموس، فقيراً ومريضاً، فى ١٩٣١، ومنسياً على ما يبدو من أهل بلده.

إيان فليمنج

الفن يقلد الحياة

الاسم الرمزى: ١٧ إف

١٩٠٨ - ١٩٦٤

حتى فى نظر هؤلاء الرجال العقلاء القائمين على إدارة الاستخبارات البريطانية فى زمن الحرب العالمية الثانية، فهذا شئ تجاوز حدود المألوف فى التصرف. وهناك فى ستوديو الإذاعة البريطانية، قام المذيع بوصف ونستون تشرشل بأنه «يهودى ممتلئ الجسم ومصاب بالسفلس»، وذلك بلغة ألمانية عامية جعلت هذا الوصف يبدو بذيئاً. من كان هذا الرجل المسؤول عن هذا كله؟

وربما كان يمكن أن يعرف هؤلاء الرجال العقلاء أن المتحدث هو إيان فليمنج، ذلك أن هذا المسؤول فى دائرة الاستخبارات البحرية البريطانية بدا كأنه وراء كل الأشياء المثيرة، وحين يحدث شئ مثير للمتاعب من هذا القبيل فى أية مرحلة من مراحل الاستخبارات البريطانية، فلابد أن يكون إيان فليمنج هو الشخص الذى فكر فى إثارتها.

وحينما طلب منه أن يقدم تفسيراً لذلك، أعرب فليمنج عن تحمله مسؤولية كاملة، وشرح ذلك من خلال القول إنه فى الحملات الدعائية المغرضة، فمن الضرورى أن يكون المصدر الحقيقى خفياً على نحو محكم. وهكذا، عكف فليمنج على

تنفيذ فكرة بناء محطة إذاعة ذات أهداف دعائية مغرضة ضد العسكريين الألمان. ومن الناحية الظاهرية، فهذه المحطة الإذاعية السرية كانت تبث برامجها من مكان ما في أوروبا، غير أنها في واقع الأمر كانت موجودة في لندن. واستخدمت المحطة مذيعين يتكلمون بلغة المانية عامية، على أساس أنهم رجال عسكريون ألمان سابقون بنوا محطة إذاعة خاصة بهم، وبدأوا في بث إشاعات مغرضة عن القيادة العليا العسكرية الالمانية وأخباراً أخرى تحظى باهتمام القوات العسكرية الألمانية، مقرونه بتعليقات ساخرة عن زعماء الحلفاء وسياساتهم.

ومع أن الحكومة البريطانية إعتبرت هذه الفكرة بغيضة في بادئ الأمر، فإنها إعترفت بأن الحملة الدعائية المغرضة التي يقوم بها فليمنج ناجحة جداً. وكان الأسرى الألمان ذكروا كيف كانت البرامج الإذاعية تحظى بشعبية عالية، وبالمصداقية أيضاً، وعلى الأخص حين سمعوا عن حكاية جنرال إسمه كذا وكذا إشترى معطفاً لإحدى الحسناوات أثناء وجود قواته في روسيا متجمدة من البرد حتى الموت، وصدقوا الحكاية. وكان تأثير محطة الإذاعة على معنويات العسكريين الإلمان مدمراً.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن عمليات فليمنج الدعائية دخلت إلى عالم الكتب باعتبارها عمليات ناجحة. وكانت هناك مجموعة كبيرة منها قبل نهاية الحرب، ذلك أن عقل فليمنج المبدع، حتى وإن كان غريباً، كان يغزل دائماً شبكات من الأفعال القذرة.

أما كيف توصل فليمنج إلى مثل هذه الفكرة، فربما كان أمراً حتمياً لا مناص منه. فليمنج جاء لأبوين ثريين، واكتسب في سنوات حياته الأولى صفة «تلميذ المدرسة المواظب»، وشخصية الشاب المثير للأقاويل والإشاعات الذي أحب الإثارة والحركة الدائمة. وفي صيف ١٩٣٩، حينما بلغ من العمر ٣١ عاماً، إنهمك فليمنج في عمليات السمسرة في الأسهم المالية التي تشتغل بها عائلته، ثم زهق منها، غير أن شيئاً واحداً أدى إلى تغيير مجرى حياته، وهو أنه اجتمع ذات يوم إلى الأدميرال جون جودفري، الذي كان في ذلك الوقت رئيس دائرة الاستخبارات البحرية البريطانية. وكان

جودفرى، الواثق من حتمية الحرب فى أية لحظة، يحرص كثيراً إعادة بناء دائرة الاستخبارات البحرية البريطانية إنتظاراً للصراع القادم. وكان يتطلع إلى شباب يملكون عقولاً ذكية ونشاطاً دائماً. وفى شخصية فليمنج وجد جودفرى الشخصية التى يبحث عنها. وأعطى جودفرى هذا السمسار رتبة ضابط فى البحرية، وجعله «مساعداً خاصاً»، وهذا يعنى أنه سوف يكون صاحب الأفكار الجديدة المبدعة. وأوضح جودفرى أن التشدد فى المواقف أمر مطلوب.

وحينما إندلعت الحرب، بدأ فليمنج فى طرح أفكاره. ومن بين أفكاره الأشد إثارة تلك الخطة التى إقتراحها، وتقوم على تكوين وحدات كوماندوس خاصة قادرة على تنفيذ «عمليات مستحيلة» خلف خطوط العدو. وحملت هذه الوحدة اسم «وحدة هجوم رقم ٣٠»، وذهبت إلى فرنسا، البلد الذى إجتاحته القوات العسكرية الألمانية، وتمكنت من تنفيذ عمليات رائعة، من بينها الإستيلاء على قاعدة رادار المانية وأسر حاميتها التى تتألف من ٣٠٠ رجل فى ١٩٤٤.

ولكن فكرة «وحدة هجوم رقم ٣٠» لم تكن غير واحده من أفكار فليمنج. وهناك فكرة أخرى أشد إثارة من سابقتها، وتقوم على إعداد خطة لإثارة الشقاق بين أعضاء الزعامة النازية، وذلك عن طريق حمل أحد الأعضاء البارزين على الإرتداد إلى الجانب الآخر. وكان الهدف المقصود هو رودولف هيس، نائب هتلر وأقدم رفيق له فى السلاح. وكان البريطانيون يعرفون أن هيس شخصية مبهورة فى علم الفلك، ولذلك قام فليمنج باختيار اثنين من علماء الفلك السويسريين اللذين يقدمان بصورة دائمة نصائح إلى الزعيم النازى. وبتأثير من جداول فلكية، من إعداد فليمنج نفسه، تعاظم الاعتقاد عند هيس بأن «اللحظة الحاسمة» إقتربت، واستقل طائرة بنفسه إلى إنجلترا من أجل التفاوض لتحقيق السلام بين بريطانيا والمانيا، ذلك السلام الذى ربما يجعله، وفق الجداول الفلكية، أعظم الرجال فى هذا القرن. وفى حقيقة الأمر، فربما كان هيس أغبى الرجال على الاطلاق، ذلك أن ذهابه إلى انجلترا لم يعمل إلا على تعزيز معنويات البريطانيين. (هيس، الموجود فى السجن، إتهم أخيراً بأنه مجرم حرب. ومات هيس فى السجن فى ١٩٨٩).

وفى ١٩٤١، إنتقل فليمنج إلى محطة جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى نيويورك، وانهمك هناك فى العمل محاولاً إقناع الولايات المتحدة بالاشتراك فى الحرب. وكجزء من العملية، نشأت علاقة إتصال وثيقة بين رئيس محطة الاستخبارات البريطانية، وليام ستيفنسون، وبين وليام دونوفان، مستشار الرئيس الأمريكى روزفيلت لشؤون المعلومات. ودونوفان، الذى أصبح فى وقت لاحق رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجية، إقتنع بوجهة نظر البريطانيين المفضية إلى ضرورة الحاجة إلى وكالة إستخبارات مركزية مدنية. وطلب من فليمنج تقديم مساعدة إلى دونوفان فى وضع خطة لهذه الوكالة، وفق النموذج البريطانى. وقرر روزفيلت عدم تبنى الخطة، ولكنها أصبحت فيما بعد نواة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه».

ومن واقع حقيقة أنه ليس بذلك الرجل الذى يمكن أن يجلس وراء مكتبه لفترة طويلة فى وقت واحد، إستخدام فليمنج جزءاً من وقته فى نيويورك للقيام على نحو شخصى بأفعال قذرة فى مكتب القنصل العام اليابانى. وقامت مجموعة من فاتحى الخزائن الحديدية، الذين جرى تجنيدهم من بين الصفوة المختارة من المجرمين، بفتح خزانة حديدية من أجل قيام فليمنج بتصوير أوراق رموز الشيفرة. ولأسباب معينة خطرت على باله، قام باعداد نسخة عن كل المفاتيح التى عثر عليها فى ذلك المكان.

ومع انتهاء الحرب، إنهمك فليمنج فى عمليات شملت هيكل الاستخبارات البريطانية برمته، غير إن أحداً لا يعرف على وجه اليقين ماهية الأفكار التى خرجت من عقله. وكان فليمنج كأنه موجود فى كل مكان: فى شمال أفريقيا، حيث كان يعد لسرقة سجلات بحرية إيطالية وأجهزة تنصت متطورة، وفى فرنسا، حيث وقف على عملية سرقة محركات طائرة عسكرية متطورة، وفى المانيا، بعد انتهاء الحرب، حيث أعد لعملية سرقة قسم الارشيف البحرى الالمانى كله وسجلاته التى يعود تاريخها إلى العام ١٨٧٠، وفى لشبونة، حيث شهد على عملية إفلاس رئيس محطة الاستخبارات الالمانية على طاولة القمار فى أحد الكازينوهات.

وبدت هذه الأفعال فى مجموعها كأنها تصلح كمادة جيدة للروايات الخيالية،

وهذا ما حدث بالضبط مع فليمنج بعد انتهاء الحرب. وبالنظر إلى أنه رجل نشيط، فإن عودته إلى الإشتغال فى أعمال السمسرة سرعان ما تضاءلت أهميتها فى مواجهة تلك الحياة التى عاشها لمدة سبع سنوات. وليست هناك حرب عالمية جديدة وشبكة يمكن من خلالها أن يعود مجدداً لممارسة هوايته. وأصبح فليمنج كاتباً روائياً، وعن طريق هذا المجال من العمل أصبح شخصية معروفة جيداً فى تاريخ التجسس.

وكان القصد من رواياته فى المغامرة، كما إعترف فليمنج نفسه، أن تكون موضوعاً فى التسلية. وكانت الشخصية الرئيسية فى رواياته، العميل جيمس بوند (الاسم الرمزى رقم ٧)، بمثابة مجموعة مؤتلفه من عملاء كان فليمنج يعرفهم ويعمل معهم (علاوة على فليمنج نفسه)، بينما كانت شخصية رئيس جيمس بوند فى العمل، المستر «إم»، معتمدة على حياة ماكسويل نايت الحقيقية، وهو صائد جواسيس معروف جيداً وواحد من كبار رجال جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥». ولم يكن فليمنج يفكر فى أن كلماته يمكن أن تنطوى على ميزة أدبية، ولكن لدهشته، فإن مسلسلات جيمس بوند القائمة على المغامرة أصبحت محبوبة على نطاق واسع، وعلى الأخص وفق ما جاءت عليه فى الافلام السينمائية. وحتى متوته فى ١٩٦٤، أصر فليمنج على القول إنه لم يكن جيمس بوند، غير أن هؤلاء الذين عرفوا أعماله البطولية فى زمن الحرب لديهم كل مبرر للاعتقاد بغير ذلك.

داسكو بوبوف

جيمس بوند الحقيقى

الأسماء الرمزية : ترايساكل، سكوت،

إن دى - ٦٣، إيفان

١٩١٢ - ١٩٨١

منذ اللحظة الأولى التى دخل فيها المكتب الموقر الخاص بمدير مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى»، جى. إدجار هوفر، فى ذلك اليوم من أغسطس فى ١٩٤١، عرف داسكو بوبوف أنه ربما يلقى ترحيباً شبيهاً بنوبة جرعة السم. وهذا ما حدث بالضبط، ذلك أن هوفر لم يشأ حتى النهوض من مقعده والترحيب به.

ومن وجهة نظر هوفر، فإن المشكلة لم تكن أعمال بوبوف البطولية فى التجسس. وكان بوبوف، النجم والعميل المزدوج فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥»، جرى إرساله من جانب الجهاز البريطانى إلى هوفر من أجل مناقشة جزء من شريط ميكروفيلم مثير للاهتمام كان حصل عليه من جهاز الأستخبارات الألمانى قبل بضعة أسابيع فى البرتغال. وكان جهاز الأستخباراتية الألمانى، تحت وهم أن بوبوف عميلهم، أرسل بوبوف إلى الولايات المتحدة حاملاً معه قائمة بالمعلومات الاستخبارتية المطلوبة: معلومات عن الإنشاءات العسكرية الأمريكية التى يفترض أن يعرف بوبوف عنها أكبر قدر ممكن.

وكان هوفر يبدى إستعداداً للإعراب عن إحترامه لتقدير جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» لشخصية بوبوف كنجم وعميل مزدوج، غير أن نزعته القوية المفضية إلى التمسك الشديد بالفضيلة والمبادئ الأخلاقية الحميدة حملته على إبداء تحفظات شديدة تجاه شخصية بوبوف. وكان لهذا الموقف المعادى نتائج خطيرة.

وكان بوبوف يمثل كل ما يكره هوفر. ومن واقع دفاعه الخالص عن القول إن اللذة هى الخير الأوحد فى الحياة، قرر جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» منحة الاسم الرمزى ترايساكل، تعبيراً عن الإعجاب بنزعته إلى أخذ إمرأتين إلى غرفة النوم فى المرة الواحدة. وكان ذلك مجرد واحدة من عدد من الرذائل التى ارتكبها بوبوف فى حياته التى كرسها إلى الخمر والنساء والطرب، وذلك على الرغم من حقيقة إن مهنته الظاهرية تتصل بالقانون التجارى. وكان بوبوف، المولود لأسرة غنية إلى حد ما فى يوجوسلافيا، درس القانون فى المانيا، وفى ١٩٣٩ إستأجرته مجموعة البنوك اليوجوسلافية لتمثيل مصالحها فى لشبونة، البرتغال.

واستقر بوبوف، المحامى الشاب البالغ من العمر ٢٧ عاماً وقتئذٍ، فى لشبونة، التى كانت فى الأصل، باعتبارها عاصمة محايدة، بمثابة مفترق طرق للتجسس الدولى. وفى ظل فصاحته اللغوية فى لغات عديدة، واتصالاته التجارية فى كل أنحاء أوروبا، كان بوبوف مجنداً طبيعياً لأى من عشرات وكالات التجسس العاملة فى ذلك الوقت فى المدينة. وقام جهاز الاستخبارات الألمانى بالمفاتحة الأولى، ذلك أن أحد زملائه القدامى فى الجامعة، الضابط وقتئذٍ فى جهاز الاستخبارات الألمانى، قام بتجنيده لأغراض جمع المعلومات الاستخباراتية السياسية والاقتصادية عن بريطانيا. ولم يكن الألمان يعرفون أن بوبوف بدأ يشعر بالكراهيه تجاه النازيين، وبعد تجنيده مباشرة، فاتح البريطانيين وتطوع كعميل مزدوج.

وكما إكتشفت الجانبان فى وقت لاحق، فإن بوبوف كان مسألة باهظة التكاليف. ومع أنه كان يتمتع باكتفاء إقتصادى، فهو كان فى حاجة إلى المزيد من النقود لتغطية مصاريف أسلوب حياته على المطاعم والنساء والنوادى الليلية. وتعهد

الجانبان طواعية بتقديم العون المالى لمثل هذا المستوى المرتفع من الحياة، والسبب فى ذلك هو أنه، فى نظرهما، نجم سوبر فى عالم التجسس. وفى نظر جهاز الاستخبارات الألمانى، فإن الجاسوس النافع الذى اختاروا له الاسم الرمزى إيفان كان كنزاً وينبوعاً من المعلومات الاستخباراتية حول كل شئ، ابتداء من الأحداث السياسية فى لندن وانتهاء بالخطط العملياتية العسكرية. (وكلها كانت مقترحة باهتمام، و «مطبوخة» بلغة إستخباراتية، من جانب الاستخبارات البريطانية، ومعدة بذكاء من مزيج من المعلومات الحقيقة والزائفة). وفى نظر البريطانيين، فإن بوبوف كان يشكل تياراً متدفقاً إلى واحدة من أهم المحطات الاستخباراتية التابعة لجهاز الاستخبارات الألمانى، وكمصدر خاضع للرقابة فى الأصل، فمن الممكن إستخدامه فى تمرير كافة أنواع المعلومات الاستخباراتية المخادعة إلى الاتجاه العام للاستخبارات الألمانية، وفى وقت نفسه فهو فى وضع يمكنه فيه من معرفة جميع رجال الاستخبارات الالمان الذين يتعامل معهم.

وفى هذه المرحلة، إجتاز بوبوف بنجاح واحدة من عمليات مكافحة التجسس على الاطلاق، وهى العملية المعروفة باسم «نظام المقاصد المتعارضة» الخاصة بجهاز الاستخبارات الريطانى «إم أى ٥».

وقامت هذه العملية على الاستفادة من ميزة السر العظيم عند الاستخبارات البريطانية والمصدر الأعظم لقوتها: القدرة على حل رموز الشيفرة الألمانية. وهذا الإنجاز الفذ، المعروف بالاسم الرمزى «أولترا» جعل البريطانيين قادرين على قراءة حركة المعلومات الاستخباراتية الالمانية وتحقيق ميزة مزدوجة. الميزة الأولى هى أن البريطانيين عرفوا من الرسائل ذات الرموز المحلولة أسماء العملاء والجواسيس النافعين الذى يجرى إرسالهم إلى أية نقطة معينة. والميزة الثانية هى أن البريطانيين تمكنوا من قراءة تقارير العملاء الذاهبة إلى مقر الاستخبارات الالمانية فى برلين. وفيما يتعلق بدور عميل مزدوج مثل بوبوف، فإن البريطانيين تمكنوا من مراقبة مدى التأثيرات التى تحدثها المعلومات الاستخباراتية المخادعة فى برلين.

وهذه الميزة الثانية أفضت إلى فكرة رائعة: إذا كان البريطانيون قادرين على

مراقبة المعلومات الاستخباراتية الذاهبة إلى برلين، فلماذا لا يحاولون حمل العملاء والجواسيس النافعين الألمان على الإرتداد بدلاً من مجرد إلقاء القبض عليهم وإعدامهم؟ ومن هنا، جاء نظام المقاصد المتعارضة إلى حيز الوجود. وكان جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٥» قادراً على معرفة كل عميل أو جاسوس نافع يتم إرساله من المانيا. وكان هؤلاء الذين يرسلون إلى الأراضي البريطانية يتعرضون للملاحقة والتقييم كجواسيس مزدوجين، وكل من كان يرفض منهم أو يبدو غير مناسب للمهمة يتم إعدامه. (كان هناك إثنان من نجوم الجواسيس النافعين، أحدهما يدعى والف شميدت، والآخر جوان باجول وشميدت، الذي ألقى القبض عليه بعد هبوطه بالمظلة في بريطانيا في الليل في ١٩٤٠، جرى حمله على الأرتداد واستخدامه في إرسال معلومات إستخباراتية مضللة عن طريق الراديو الخاص به إلى المانيا. وجاء إنتصاره الأعظم في ١٩٤٤ حينما أرسل معلومات إستخباراتية مزيفة عن مكان إنزال الصواريخ الألمانية من طراز «في ٢٠٠»، وأدت «تعديلاته» إلى جعل الألمان يعيدون توجيه صوارايخهم بعيداً عن الأهداف الأشد قابلية للتعرض للأخطار في لندن. وباجول، الاسباني العامل في لشبونه، جرى إكتشاف عمله لحساب جهاز الاستخبارات الالماني عن طريق نظام أولترا لحل رموز الشيفرة. وبعد نجاح جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٥» في حمله على الإرتداد، عكف على إرسال معلومات إستخباراتية مضللة إلى جهاز الاستخبارات الألماني حتى ١٩٤٥. ومن بين هذه المعلومات هناك معلومة خطيرة جداً: باجول تمكن من إقناع جهاز الاستخبارات الألماني بأن عمليات الإنزال التي تقوم بها دول الحلفاء على الشاطئ الغربي في أوروبا سوف تكون في ممر كاليه وليس في شاطئ الغربي في أوروبا سوف تكون في ممر كاليه وليس في شاطئ النورماندي. ونتيجة لذلك، أبقى هتلر قوات الاحتياط أربعة أيام حاسمة بالقرب من ممر كاليه، مقتنعاً بأن عمليات الإنزال في النورماندي مجرد خدعة).

وكان بوبوف يعتبر بمثابة النجم اللاعب في نظام المقاصد المتعارضة. وبسبب تمتعه بثقة الألمان التامة، حرص جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٥» على إستخدامه بحذر شديد، وعلى الأخص في مجال الاستخبارات السياسية رفيعة المستوى.

واتصلت أعظم إنجازات بوبوف بإقناع الألمان، عن طريق وثائق مطبوخة، بأن البريطانيين أقوياء عسكرياً بأكثر مما يظن الألمان (مع أن الحقيقة هى أن البريطانيين لم يكونوا يملكون قوة حقيقة لصد غزو ألمانى فى ١٩٤٠). وقامت هذه المعلومة بدور غير صغير فى قرار هتلر النهائى بالتخلى عن «عملية أسد البحر»، وهى الغزو المخطط له للجزر البريطانية.

وعمل هذا الانتصار الاستخباراتى المتصور على تعزيز مكانة بوبوف لدى جهاز الاستخبارات الألمانى، الذى قرر فى ١٩٤١ إستخدامه فى عملية رئيسية: التسلل إلى الولايات المتحدة لجمع المعومات الاستخباراتية عن القوة العسكرية للدولة التى إعتقد جهاز الاستخبارات الألمانى أنها سوف تدخل الحرب قريباً. وجرى إعطاء بوبوف قائمة بالمعلومات الاستخباراتية المطلوبة التى قدمها بدوره إلى هوفر فى وقت لاحق.

ولكن هوفر المتزمت، الذى لم يعجبه مظهر بوبوف الخارجى، بملابسه المرتدية على عجل وحاملته للسيجارة المصنوعة من العاج ومجوهراته الماسية وروائحة الحادة، لم يلتفت باهتمام شديد لقائمة المعلومات الاستخباراتية المطلوبة. وكان ينبغى أن يفعل، ذلك انها إشتملت على دلائل إستخباراتية حيوية: بناء على طلب من الاستخبارات اليابانية، فإن جهاز الاستخبارات الألمانى أراد من بوبوف أن يعرف اكثر ما يمكن عن بيرل هاربر، وعلى الأخص أنظمة الدفاع المضادة للطائرات وماهية السفن الحربية الراسية فى العادة هناك. وقام هوفر على نحو روتينى بتمرير الرسالة إلى الاستخبارات العسكرية دون التوقف للتفكير فى الأسباب التى جعلت اليابانيين مهتمين على هذا النحو فى مسألة بيرل هاربر. (وكما تبين فى وقت لاحق، فإن الاستخبارات العسكرية لم تتوقف أيضاً للتفكير فى هذا الأمر الذى إنطوى على نتائج مدمرة).

وفى ظل تزمت هوفر، فلم تكن هناك أية وسيلة من شأنها تمكين جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» من ضمان تعاونه فى عملية إستخباراتية مدروسة: تسهيل مهمة بوبوف فى إرسال معلومات إستخباراتية مضللة عن الإستعدادات العسكرية

الأمريكية إلى المانيا. وتوقف جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٥» عن المحاولة، وعاد بوبوف إلى لشبونة، حيث عكف على تلفيق حكاية مدروسة حول فشله فى تنفيذ مهمته فى الولايات المتحدة. وعلى ما يبدو، فإن جهاز الاستخبارات الألمانى كان يصدقه، مع أنه كانت هناك إشارة خفية للشك: هل يمكن أن يكون بوبوف يعمل لحساب البريطانيين؟ وكمحاولة لتسوية هذه المسألة، قرر الألمان إرسال بوبوف إلى لندن، حاملاً تعليمات بجمع معلومات إستخباراتية رفيعة المستوى حول خطط البريطانيين الحربية. وعند وصوله إلى بريطانيا، بدأ بوبوف فى إرسال تيار ثابت من تقارير الاستخبارات المطبوخة إلى لشبونة، ولكن كما عرف خبراء أولترا فى حل رموز للشيفرة من قراءة حركة الرسائل اللاحقة عبر لشبونة - برلين، فإن الألمان بدأوا فى اعتبار بوبوف رجلاً غير موثوق به. ومع هذا، إستمرت اللعبة حتى إنتهاء الحرب، وعلى الرغم من شعور الألمان بالقلق، فإن برلين إستمرت على الأقل فى تصديق بعض الرسائل التى كان بوبوف يرسلها.

ومع انتهاء الحرب، إنتهت مهمة بوبوف، ورفض عرضاً بالحصول على المواطنية من الحكومة البريطانية الشاكرة، واستقر فى جنوب فرنسا لكتابة مذكراته المسلية جداً (ولكنها غير الدقيقة). ولم تمض بضع سنوات على انتهاء الحرب، حين الكشف عن بعض السجلات، حتى كشف النقاب عن دور بوبوف كنجم فى «نظام المقاصد المتعارضة». وفى وقت لاحق أيضاً، ترامى إلى الأسماع كيف قدم بوبوف دلائل حيوية كان يمكن أن تمنع حدوث عملية بيرل هاربر، لو أن الأمريكيين إلتفتوا إليها.

وتوقفت سنوات حياة الترف التى عاشها بوبوف فى غاية الأمر فى ١٩٨١، حينما مات، رجلاً سعيداً، كما قال أصدقاؤه عنه.

إف. دبليو. وينتربوثام

الجاسوس فى السماء

١٨٩٧ - ١٩٩٠

فى ظل مواجهته فترة مملة فى معسكر المانى لأسرى الحرب، كان هناك أمام أحد طيارى سلاح الجو الملكى البريطانى البالغ من العمر ٢٠ عاماً مقدار وافر من الوقت للتفكير فى مشكلة ظلت تزعجه لفترة طويلة من الوقت. وتساءل وينتربوثام، أثناء تجوله متمهلاً فى أرض المعسكر فى صيف ١٩١٧، عن الكيفية التى يمكنه من خلالها إلتقاط صور فوتوغرافية جوية من إرتفاعات تزيد عن ٨,٠٠٠ قدم.

ومن المسلم به هو أن هذه لم تكن مشكلة تدور فى عقول زملائه الأسرى، أو حتى فى عقل أى منهم، ولكنها كانت شيئاً شغل فكر وينتربوثام وحده. وفى ظل إهتمامه بالصفة الرومانسية للتحليق فى الجو، قرر وينتربوثام، عند اندلاع الحرب، تجنيد نفسه فى فيالق سلاح الجو الملكى. وفى وقت مبكر، أصبح وينتربوثام منبهراً بمشكلة الاستطلاع الجوى. وفى مراحله الأولية فى ذلك الوقت، كان الاستطلاع الجوى يتضمن فى معظمه التحليق بطائرة فى الجو على ارتفاعات منخفضة فوق خطوط العدو، وتثبيت كاميرا فى ركن الطيار، والتقاط صور فوتوغرافية قليلة قبل السقوط والارتطام فى الأرض. ومن جانبه، فكر وينتربوثام فى وجوب أن تكون هناك طريقة أفضل من ذلك، وهو استنتاج توصل إليه حين إسقاط طائرته وأخذه إلى الأسر أثناء قيامه باستطلاع جوى فوق الخنادق الألمانية فى الجبهة الغربية.

وبعد الحرب، ترك وينتربوثام الخدمة العسكرية، وعاد إلى مزرعة العائلة بالقرب من سوزيكس. ولكن الاستطلاع الجوى لم يكن بعيداً عن عقله، وظل مقتنعاً بأنه فى أية حرب مستقبلية، فإن النصر يمكن أن يذهب إلى الدولة التى تطور قدرتها على التحليق فوق ساحة القتال ورؤية العدو قبل تحركه. واعتقد وينتربوثام أيضاً أن التصوير الفوتوغرافى الجوى يمكن أن يكون أمراً حاسماً فى الاستخبارات الحديثة، ذلك أن الصور الفوتوغرافية من شأنها تقديم الدليل الموضوعى وغير القابل للجدل عن القدرات الفعلية للدولة.

وظل وينتربوثام يتحدث فى غالب الأحيان عن هاجسه الدائم تجاه الأشياء الطائرة، وعلى الأخص تلك الأشياء ذات الصفة العسكرية. وما كان يتحدث عنه أثار إنتباه جهاز الاستخبارات البريطانى «ام أى ٦»، الذى كان لديه نوع المهمة المناسبه لمعتقداته. وفى ١٩٢٩، جرى تجنيده لخدمة الجهاز، وبعد عام عهدت إليه مهمة تكوين أول قسم للبحوث الجوية فى جهاز الاستخبارات البريطانى «ام آي ٦».

وكانت التعليمات إلى وينتربوثام بسيطة: إيجاد أول عملية تجسس جوى فى العالم، بحيث تغطى معظم أنحاء العالم، مع تركيز خاص على المانيا. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، قام بتكوين شركة وهمية للبحوث الجوية كغطاء للتمويه، واشترى عدة طائرات، واستعد لتصوير كل شئ يستحق التصوير فى كل أنحاء أوروبا.

ولكن وينتربوثام واجه على الفور المشكلة ذاتها التى اعترضت سبيل التجسس الجوى فى ١٩١٧: قوانين الفيزياء التى تقضى بأن أية عدسات كاميرا على ارتفاع يزيد عن ٨,٠٠٠ قدم تصبح مغطاة بالضباب بسبب إنخفاض درجة حرارة الجو. وأى تحليق على ارتفاع يقل عن ٨,٠٠٠ قدم يعنى أن الطائرات ليست قابلة للاكتشاف بسهولة فحسب، وإنما يمكن أن تكون أيضاً قابلة للتعرض لأخطار نيران الدفاعات الأرضية من الانشاءات العسكرية المتطورة. وكان الحل الوحيد هو جعل هذه الكاميرات تعمل على ارتفاعات عالية، ولكن كيف؟

وجاء الجواب بمحض المصادفة، ذلك أن وينتربوثام تمكن من إقناع جهاز

الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» بالاستثمار فى أحدث تكنولوجيا الطائرات، وهى طائرة لوكهيد الأمريكية «١٢ إيه» ذات المحركين التى يمكنها التحليق على ارتفاع ٢٢,٠٠٠ قدم. وقام بعد ذلك باستئجار الطيار سيدنى كوتون، وهو طيار استرالى متشرد (وربما كان مجنوناً إلى حد ما) للتحليق بالطائرة. واخترع كوتون، الذى إفترض إمكانية اللجوء إلى إستخدام حيلة لالتقاط صور فوتوغرافية تجسسية من تحليق على مستوى منخفض، نظاماً ساذجاً: عمل فتحات فى جسم الطائرة، مغطاة بغطاءات متحركة أمام عدسة كاميرا يتم تشغيلها عن طريق مفاتيح تحكم داخل الطائرة. والفكرة هى أن الطائرة حين قيامها بالتحليق فوق الهدف، يتم فتح الغطاءات المتحركة والتقاط الصور الفوتوغرافية عن طريق مفاتيح التحكم داخل ركن الطيار، ثم يجرى إغلاق الغطاءات المتحركة بعد التقاط الصور الفوتوغرافية. وكل من ينظر إلى الطائرة يمكن أن يرى جسماً مصمتاً فقط، بدون كاميرا مرئية.

وبعد تركيب النظام، إستقل كوتون ووينتربوثام الطائرة لاختبار النظام فوق الريف البريطانى، وتوصل الاثنان إلى اكتشاف مذهل: فى الارتفاعات العالية، حينما يتم فتح الغطاءات، يمر هواء ساخن من داخل الطائرة فوق عدسات الكاميرا، الأمر الذى يحول دون تراكم الضباب على العدسات. وبهذا، ظهر إلى حيز الوجود التجسس الحديث من ارتفاعات عالية.

ومن خلال تسلحهما بهذا السر، بدأ الأثنان رحلة إلى أوروبا، حيث قاما بالتحليق المرتفع فوق أشد المناطق حساسية فى ظل الافلات من العاقبة، ذلك أن كل واحد إفترض عدم إمكانية التصوير الفوتوغرافى الجوى من ارتفاعات تزيد عن ٨,٠٠٠ قدم. وأبدى وينتربوثام إهتماماً خاصاً نحو المانيا، وأدت سلسلة الطلعات الجوية، تحت غطاء عقد صفقات تجارية لحساب شركة وينتربوثام، إلى تصوير كل منشأة عسكرية هامة فى ذلك البلد، وفى وقت مناسب حينما شرع هتلر فى برنامجة لإعادة التسلح. وأصبح وينتربوثام معروفاً لدى سلاح الجو الألمانى، وفى ١٩٣٩ طلب الجنرال فى سلاح الجو الالمانى ألبيرت كيسيلرينج وبعض كبار الضباط الالمان من الرجل الانجليزى إمكانية قيامهم بجولة فى طائرته الأمريكية. ووافق وينتربوثام شاكراً، ولكن

أثناء التحليق توقف قلبه تقريباً حينما إستفسر كيسيلرينج بصوت مرتفع عن سلسة الأضواء الخضراء المتقطعة الموجودة في جهاز القيادة في الطائرة. وكانت تلك الأضواء بمثابة مؤشرات توضح إستمرارية تعرض كاميرات «ليكا» الاوتوماتيكية للعوامل الجوية، ولكن وينتربوثام، بعد تفكير سريع، أبلغ الألمان أن هذه الأضواء عبارة عن أجهزة مراقبة خاصة توضح «تدفق البنزين إلى الماكينات».

وكان ذلك بمثابة إشارة واضحة الدلائل، وعرف وينتربوثام أنه في ظل تجمع سحب العاصفة، فربما حان الوقت لإنهاء العمليات فوق أوروبا. وعاد إلى بريطانيا، حيث عهد إليه جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» بمهمة جديدة: تكوين حلقة إتصال بين الجهاز وعمليات نظام أولترا لحل رموز الشيفرة. واخترع وينتربوثام نظاماً كان من شأنه حل مشكلة رئيسية تواجه نظام أولترا. وبطريقة ما، كان ينبغي تمرير معلومات حيوية تكتشفها عمليات نظام أولترا إلى قوات عسكرية في ساحات القتال دون الكشف عن أن هذه المعلومات جاءت عن طريق عمليات نظام أولترا لحل رموز الشيفرة الالمانية. وكان يمكن أن تؤدي أية تلميحات طفيفة عن حل رموز الشيفرة الألمانية إلى القضاء على عمليات نظام أولترا، ذلك أن الالمان سوف يقومون بتغيير كل أنظمتهم لرموز الشيفرة.

وكان حل وينتربوثام يكمن في تكوين وحدات إتصال خاصة تتألف من عملاء معنيين بعمليات نظام أولترا ومخصصين لجيوش مختلفة في ساحات القتال لتمرير المعلومات الاستخباراتية التي تكشف عنها عمليات نظام أولترا. وكان هذا النظام ناجحاً على نحو رائع: خلال الحرب، تمكن الجنرالات في دول الحلفاء من إعادة نشر قواتهم على الفور، إستجابة إلى معلومات قامت بتمريرها وحدات الاتصال الخاصة حول خطط الالمان ومواقعهم العسكرية. ولم تكن هناك ثغرة أمنية واحدة في عمليات نظام أولترا، وهي عمليات بقيت سراً حتى ١٩٧٤. (في ذلك العام قرر البريطانيون القيام بكشف محدود عن ذلك السر العظيم، وكان ذلك بمثابة جزء من محاولة لإعادة تأهيل الصورة الممزقة للاستخبارات البريطانية. وتلقى وينتربوثام تعليمات بكتابة تقرير للاستهلاك المحلي حول تاريخ ومجال عمليات حل رموز الشيفرة. وحين نشر هذا

التقرير تحت عنوان «أسرار نظام أولترا» أثار ضجة على مستوى العالم) .

ومع ذلك، فعلى الرغم من تلك الإسهامات العظيمة فى خدمة الاستخبارات البريطانية، فمع انتهاء الحرب قام جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» بصرف وينتربوثام من الخدمة، ووفق نظام جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» القائم على البخل، بدون معاش تقاعد أيضاً. وبالنظر إلى أنه لم يكن رجلاً غنياً، عاد وينتربوثام إلى مزرعته، وهناك، فى سنوات لاحقة، أخذ يتأمل فى الجدل الناشط حول طائرة التجسس «يو – ٢» وأقمار التجسس. ولم يقل أبداً إن كان شعر بالرضا حينما عرف أن «الوسائل الفنية» الحديثة (وهو تعبير يميل الدبلوماسيون إلى إطلاقه بأدب على وسائل التجسس) جاءت فى مجموعها من هواجسه الرائعة قبل عدة سنوات. وفى ظل قناعته بما عنده من أوراق بنكنوت ودواجن، مات وينتربوثام فى ١٩٩٠ .

آمى ثورب باك

الجاسوسة الساحرة

الأسماء الرمزية : ئى - ١١ ، سينثيا

الأسماء المستعارة : إلزابيث توماس

١٩١٠ - ١٩٦٣

لم يستمتع الكثيرون من الذين عاشوا بالقرب من السفارة البريطانية فى سنتياجو، شيلى، بفصل الربيع المعتدل فى ١٩٣٩ ، والسبب فى ذلك هو آمى ثورب باك، زوجة أحد كبار الدبلوماسيين البريطانيين فى السفارة. ولأسباب لم يستطع أحد أن يفهمها، أصرت آمى ثورب على التدريب، لمدة ساعة يومياً، تحت إشراف الملحق البحرى البريطانى، بعد أن حدد لها مكان التصويب على الهدف داخل السفارة.

وأخيراً، إضطرت آمى ثورب إلى التوقف عن التدريب بسبب الشكاوى المتزايدة من جيران السفارة. وبعد تردد، تركت آمى ثورب مسدسها الجديد، وحاولت التكيف مع عالم البروتوكولات الدبوماسية والمضايقات فى السفارة. ولم تبذل آمى ثورب جهداً كبيراً لإخفاء شعورها بعدم الارتياح، وهو شعور يجد معظم أعضاء السفارة البريطانية تبريراً له فى أسلوب تنشئة هذه الفتاة الأمريكية المتحررة التى ظهرت للمرة الأولى إلى الحياة الاجتماعية المثيرة.

ولكن الشئ الذى لم يكن أحد يعرفه هو أن آمى ثورب كانت جاسوسة نافعة تعمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطانى «ام أى ٦» قبل عامين، وكانت منهمكة من قبل فى عدد من المغامرات التجسسية الحقيقية. وبعد تلك التجربة فى ١٩٣٩، أصبحت حياتها مملة فى نظرها.

وكانت آمى ثورب، البالغة ٢٩ عاماً، إمرأة جميلة على نحو مذهل، وهى صفة مميزة لها جعلتها جاسوسة حقيقية. ولو شئت فى قول أقرب إلى حقيقتها، فإن آمى ثورب أسرت قلوب الرجال بجمالها، وتميزت بذكاء حاد جعلها قاب قوسين أو أدنى من الرجال الذين حالوا ملاحقتها. وعاشت آمى ثورب، إبنة الضابط فى البحرية الأمريكية الذى عمل محامياً فى واشنطن فى وقت لاحق، حياة الجاه والنفوذ. وما أثار دهشة أصدقائها فى ١٩٣٠، بعد عام واحد من ظهورها للمرة الأولى إلى الحياة الاجتماعية الأمريكية، هو أنها تجاهلت إهتمام عدد من الرجال البارزين بها، وتزوجت رجلاً دبلوماسياً بريطانياً مغموراً يدعى آرثر باك.

واكتشفت آمى ثورب إن زواجها من آرثر باك يفتقر إلى العاطفة، وبدأت تبحث عن الرجال، وذلك كوسيلة لإذكاء نار طاقتها المفعمة بالحيوية والإثارة. ولأنها كانت إمرأة رائعة الجمال، بمختلف المقاييس، فهى رغبت بشدة فى أن تفعل شيئاً نافعاً فى حياتها، غير أن كل الأشياء التى حاولت أن تفعلها فشلت فى إشباع رغبتها. وأخيراً، فى ١٩٣٦، إكتشفت آمى ثورب مجال اهتمام ينطوى على التحدى الذى تتطلع إليه: التجسس.

وأثناء مرافقة زوجها فى مهمة له فى إسبانيا، إقترب منها ذات ليلة خمسة من الجنود الوطنيين اليائسين الذين وقعوا فى مصيدة خلف حواجز الجنود الموالين للحكومة، وسألها أحدهم: هل يمكنك تقديم المساعدة إلينا فى عبور هذه الحواجز؟ ووافقت. ومن خلال فتنتها وجمالها، تمكنت من تخبئة الجنود الخمسة فى شاحنة وعبور مراكز التفتيش التابعة للجنود الموالين للحكومة. وكانت تلك حادثة بسيطة، ولكن آمى ثورب إكتشفت مدى تأثير أنوثتها فى ظروف تتميز بالأخطار

والمفاجآت. وأخيراً، وجدت آمي ثورب ضالتها.

وفي العام التالي، في ١٩٣٧، إنتقل زوجها إلى سفارة بريطانيا في وارسو، بولندا، وهناك فاتحت آمي ثورب رئيس محطة الاستخبارات البريطانية، وأعلنت عن إستعدادها للقيام بعمليات إستخباراتية. وكان تأثير أنوثتها هو الذي جعل رئيس المحطة يستبعد أي خيار آخر غير قبولها، كما أن أية تحفظات كان يمكن أن يبديها تجاه ضم هذه المرأة الأمريكية جرى إستبعادها في الحال. وفي غضون بضعة أسابيع، برهنت آمي ثورب على موهبة طبيعية في مجال لم تتلق فيه أيه تدريبات. وقامت آمي ثورب بإغواء مسؤول في وزارة الخارجية البولندية، وقام بدوره بتزويدها بمعلومات إستخباراتية من الدرجة الأولى حول خطط بولندا في التعامل مع هتلر وستالين. وتابعت آمي ثورب الأمر بانقلاب مذهل في عالم المعلومات الإستخباراتية: من خلال مسؤول حكومي آخر، عرفت آمي ثورب أن هناك مجموعة من علماء الرياضيات البولنديين الذين أمكنهم حل الرموز الغامضة في الشيفرة الألمانية. (هذه المعلومات الإستخباراتية حققت الفائدة منها بالنسبة للاستخبارات البريطانية في وقت لاحق، بعد قيام الألمان باجتياح بولندا ومحاولة البولنديين إعطاء أسرار حلولهم للشيفرة الألمانية إلى عملاء الاستخبارات البريطانية. وكانت هذه المعلومات الاستخباراتية بمثابة الخطوة الأولى على طريق نجاح البريطانيين في حل رموز الشيفرة الألمانية).

وبعد عام، في أعقاب إنتقال زوجها في مهمة إلى براغ، تشيكوسلوفاكيا، سعت آمي ثورب إلى الحصول على معلومات عن الخطط الالمانية لغزو تشيكوسلوفاكيا. وكانت تلك آخر عملية تجسس قامت بها آمي ثورب في غضون عامين، وذلك بسبب عودة زوجها مرة أخرى إلى سنتياجو. وعادت مع زوجها، وهناك أوشكت على الموت من الزهق. وربما يفسر ذلك بالقول إن زواج آمي ثورب مات في سنتياجو. وفي ١٩٤١، بعد إنفصالها عن زوجها آرثر باك، ذهبت آمي ثورب إلى نيويورك للبدء في حياة جديدة. وما أن وضعت أقدامها في الأراضي الأمريكية حتى أجرى وليام ستيفنسون، رئيس محطة الاستخبارات البريطانية، إتصالاً تليفونياً معها، ذلك أنه سمع من قبل الشئ الكثير عن هذه المرأة الأمريكية الجميلة التي تملك أعصاباً فولاذية.

وعقد ستيفنسون الأمل على أن تعمل معه لصالح الاستخبارات البريطانية.

وفى واقع الأمر، فإن وليام ستيفنسون لم يشأ أن تعمل معه آمى ثورب فى نيويورك، ذلك أنه شعر أن قدرتها المذهلة فى التغلغل إلى السفارات الأجنبية يمكن الاستفادة منها بصورة أفضل فى السلك الدبلوماسى فى واشنطن، حيث مجالات الأهداف متعددة. وتلقت آمى ثورب مجموعة عامة من الارشادات فى أصول التغلغل إلى السفارات التى تحظى باهتمام الاستخبارات البريطانية، وعلى الأخص السفارة الألمانية والايطالية وفيشى الفرنسية. وعرف ستيفنسون أن قدرات آمى ثورب الشخصية المذهلة لا تستدعى إثقالها بمجموعة من الارشادات الكاملة. وفى ظل مواهبها الخاصة بها، كان ينبغى فقط التلميح إليها حول الاتجاه الصحيح، ثم تتولى هى الأمر كله.

وبعد فترة قصيرة من وصولها إلى واشنطن، تحقق ستيفنسون، الذى يملك موهبة فائقة فى الحكم على قدرة الأشخاص، من صحة ثقته بقدرات آمى ثورب. وبعدما وضعت آمى ثورب السفارة الإيطالية فى واشنطن أمام عيونها، وفى غضون فترة زمنية محدودة، تمكنت من إغواء رئيس محطة الاستخبارات الإيطالية فى السفارة. وحينما سألها عن الأشياء التى تأمل أن تحققها فى حياتها، قالت له بجرأة متناهية «إنها رموز الشيفرة البحرية الإيطالية». ولأنه كان مولعاً بها على نحو لا يصدقه عقل، وافق على تزويدها باسم كاتب رموز الشيفرة فى السفارة، وقال لها إن هذا الكاتب فى أشد الحاجة إلى النقود، وربما يبدى إستعداداً لبيع رموز الشيفرة. واتفقت آمى ثورب على عقد الصفقة، وحصل البريطانيون على رموز الشيفرة الإيطالية.

وفى الوقت الذى كانت فيه البحرية الإيطالية متفوقة على نحو كبير على البحرية الملكية البريطانية من حيث العدد فى البحر الأبيض المتوسط، كان البريطانيون مسلحين برموز الشيفرة الإيطالية، وتمكنوا من قراءة الرسائل الإيطالية، الأمر الذى مكنهم من معرفة كل تحركات قطع موسيلينى البحرية. والأهم من هذا كله، ففى مارس ١٩٤١، وبسبب قراءة الشيفرات الريطالية، تمكن البريطانيون من

تدمير جزء كبير من الاسطول البحرى الايطالى فى معركة «كيب ماتابان»، وانتهى بذلك إلى الأبد التهديد البحرى الايطالى لخطوط الامدادات البريطانية فى البحر الأبيض المتوسط.

وهذا الإنجاز العظيم وحده كان يمكن أن يضع آمى ثورب فى سجل عمالقة التجسس فى العالم، ولكن يبدو أنها كانت تفكر فى تغلغل مذهل آخر إلى إحدى السفارات، وهى عملية أصبحت واحدة من أعظم حكايات التجسس فى الحرب العالمية الثانية.

وجاءت هذه العملية فى وقت مبكر من ١٩٤٢، ذلك أن آمى ثورب، بعد حصولها على موافقة ستيفنسون للعمل لصالح مكتب الخدمات الاستراتيچية الأمريكية، وبخاصة بعد هجوم اليابانيين المفاجئ على بيرل هاربر، تلقت تعليمات بالتغلغل إلى سفارة فيشى الفرنسية. وكان مكتب الخدمات الاستراتيجية منهمكاً على وجه الخصوص فى كيفية الحصول على رموز شيفرات فيشى، قبل البدء فى غزو أراضى فيشى فى شمال افريقيا، ذلك أن معرفة رموز مثل هذه الشيفرات كانت على جانب كبير من الأهمية. وكما هى عادتها دائماً، فإن طريقة آمى ثورب فى العمل كانت مباشرة: بعد اتخاذها صفة الصحفية التى تدافع عن قضايا فيشى، بدأت آمى ثورب تدريجياً فى كسب ثقة وقلب تشارلز بروس، الملحق الصحفى فى السفارة والشخصية السياسية الهامة. وفى غضون شهر، تمكنت آمى ثورب من اختياره جاسوساً نافعاً يعمل لحساب مكتب الخدمات الاستراتيچية، وبعدئذٍ بدأت المعلومات الاستخباراتية فى التدفق من السفارة.

وكانت الخطوة التالية هى الأشد صعوبة: الإطلاع على رموز الشيفرات، ولكن دون علم من السفارة بذلك. وكان «كتاب رموز الشيفرات» موجوداً داخل خزانة حديدة كبيرة، ولذلك جرى إعداد خطة متكاملة، بحيث تقوم آمى ثورب بدور رئيسى فيها. وتضمنت الخطة قيام آمى ثورب وتشارلز بروس بدخول مبنى السفارة ذات ليلة فى موعد لقاء منتظر بينهما. وبعد دخولهما، يقوم أحدهما بفتح أحد الشبابيك، ثم يدخل أحد

خبراء فتح الخزائن الحديدية التابع لمكتب الخدمات الاستراتيچية الأمريكية، ويفتح الخزانة، ويأخذ كتاب رموز الشيفرة. وكان من المقرر أن يكون هناك فريق عمل من مكتب الخدمات الاستراتيچية خارج مبنى السفارة من أجل أخذ الكتاب، ونقله إلى شقة مجهزة، مثل ستوديو تصوير، تمهيداً لتصوير كل كتاب رموز الشيفرة، ثم إعادته إلى مكانه. وكان ينبغى الانتهاء من العملية قبل طلوع الفجر، وهو موعد مجئ رجال الأمن فى السفارة للبدء فى عملية التفتيش المبكرة.

وفى مساء أحد الأيام فى يونيو ١٩٤٢، دخلت آمى ثورب وتشارلز بروس إلى مبنى السفارة، وغمز بروس بعينه إلى الحارس، وألمح إلى أنه يجب أن يكون فى السفارة مع هذه المرأة الحسناء بعض الوقت لمناقشة «قضايا السياسات الدولية». ومن خلال غمزة جوابية، أعرب الحارس عن تمنياته لهما بقضاء ليلة سعيدة. وبعد فترة قصيرة، وبينما كان خبير فتح الخزائن الحديدية على وشك الدخول من الشباك، وقعت كارثة مفاجأة: الحارس المتشكك أراد الإطمئنان على العاشقين. وحينما اقترب من باب الغرفة، وقبل أن يلمح الشباك مفتوحاً وخبير فتح الخزائن الحديدية واقفاً على الدرجة العليا من السلم، سارعت آمى ثورب إلى تولى الأمر بنفسها. ولما اقترب الحارس من باب الغرفة، خلعت آمى ثورب ملابسها، ورآها الحارس عريانة، وهمس بكلمات فرنسية معتذراً، ولكنه مالبث أن شعر بالبهجة، وليس من الصعب أن يتصور أحد ما حدث بين الجنسين.

وبعد خروج الحارس من الغرفة، بدأت فصول العملية، واستغرقت ست ساعات، وبعد إعادة كتاب رموز الشيفرة إلى مكانه فى الخزانة الحديدة قبل طلوع الفجر، لم يكن هناك أى أثر بأن أحداً لمس الخزانة الحديدية. وحتى تتأكد آمى ثورب من ذلك، قامت بمسح كل بوصة من الخزانة الحديدية قبل خروجها من الغرفة. وفى طريقها إلى الباب الخارجى بصحبة تشارلز بروس، نظرت آمى ثورب إلى الحارس بعيون الخجل، ورد عليها بابتسامة.

وربما من الصعب المبالغة فى أهمية عملية سفارة فيشى. ولكن صور كتاب

رموز الشيفرة الغامضة طارت إلى لندن فى غضون ٢٤ ساعة، وفى أقل من بضعة أيام، تمكن خبراء تحليل رموز الشيفرة الغامضة فى مقر قيادة الاتصالات الحكومية فى بريطانيا من قراءة كل الرسائل الخارجة من قواعد فيشي العسكرية فى شمال أفريقيا. وحينما قام الحلفاء بغزوها بعد شهور قليلة، كان من السهل تحييد أية مقاومة عسكرية.

وقال ستيفنسون فى وقت لاحق إن جهود آمى ثورب أدت إلى انقاذ حياة حوالى ١٠٠,٠٠٠ رجل من الحلفاء. وهو غير واثق من الرقم الصحيح، ولكنه على يقين أن جهودها غير العادية ساعدت الحلفاء فى حربهم ضد قوات المحور. وكانت إنجازاتها الرائعة فى عملية سفارة فيشي بمثابة آخر مهمة لها فى عالم التجسس. وما يثير الشعور بالدهشة هو أن آمى ثورب وقعت فى حب حقيقى مع تشارلز بروس، الرجل الذى أغوته بالتجسس. وبعد طلاقها الرسمى من آرثر باك، تزوجت من هذا الفرنسى. وفى ١٩٤٤، ذهب الاثنان إلى فرنسا للإقامة فى أحد القصور الفخمة.

وفى سنواتها الأخيرة، لم تكن الجاسوسة المعروفة باسم سينثيا تناقش مهمتها التجسسية. ومن واقع إستقرارها فى ظل حياة الرغد مع الرجل الذى أحبته فى حياتها، فضلت تكريس اهتمامها فى تفاصيل إدارة شؤون القصر الفرنسى. ومن حين إلى آخر، كان الأصدقاء القدامى فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» ومكتب الخدمات الاستراتيجية الأمريكية «أو إس إس» يأتون إليها لزيارتها، وفى بعض الأحيان يدعونها إلى كتابة مذكراتها. وبدأت فى نهاية الأمر فى الكتابة، ومع أنها إنتهت منها قبل موتها بالسرطان فى ١٩٣٦، فلم تنشرها أبداً، ذلك أنها لم تكن تتصور أن أحداً يمكن أن يبدى إهتماماً فى تلك الأشياء التى أصرت على كونها «مغامرات متواضعة» معدودة فى حياتها.

ريتشـارد سورج

أعظم الجواسيس علي الإطلاق

الأسماء الرمزية : سونتر ، رامزى ، فيكس

الأسماء المستعارة : وليام جونسون

١٨٩٥ - ١٩٤٤

يميل معظم عملاء مكافحة التجسس إلى القول إن الأشياء البسيطة ، أو ذلك الضعف الناشئ عن الإهمال عند الجنس البشرى ، هو ذلك الذى يجعل حتى أشد الجواسيس حذراً يرتكبون أخطاءاً فادحة . وهذا ما حدث مع ريتشارد سورج ، أحد أعظم الجواسيس فى التاريخ ، وذلك حينما ارتكب غلطة انسانية بسيطة ، ودفع حياته ثمناً لها .

وفى إحدى الليالى من أكتوبر ١٩٤١ ، كانت كل غريزة وموهبة طبيعية فى مهنة تجسس استمرت عشرين عاماً تلح على سورج بأن الوقت حان للهروب من طوكيو . وفى غضون فترة تزيد قليلاً عن أربع سنوات ، استطاع سورج تنظيم شبكة تجسس سوفييتية تمكنت من معرفة كل سر عند الحكومة اليابانية ، وبعدها وافق رؤساؤه فى وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» على أن الفائدة من الشبكة لم تعد قائمة . وفى الوقت الذى اقتنع فيه سورج بهذه النتائج كان البوليس السرى اليابانى يراقبه عن كثب ، وكان ألقى القبض على اثنين من أعضاء شبكته قبل ساعات ، وربما شرع فى تعذيبهما ، ولم تمض ساعات قبل إلقاء القبض على سورج وكشف حقيقته كرئيس

للشبكة. ومع ذلك، فإن سورج تردد، والسبب فى ذلك هو راقصة يابانية جميلة، وكان سورج ارتبط بها بعلاقة غرامية ملتهبة منذ أكثر من عام. وفى هذه الأثناء، ترك سورج الغارق فى الحب، قلبه يحكم عقله: رغم الأخطار المتزايدة، لم يستطع أن يتحمل عناء الهروب دون آخر موعد لقاء لكلمة وداع. وأمضى سورج بعض الوقت معها فى الملهى الليلى، ثم ذهب الاثنان سوياً إلى الشقة، حيث ظن أنه سوف ينام آخر ليلة فى اليابان، ثم يبدأ فى الهروب فى الصباح الباكر من هذا البلد إلى الصين، ثم إلى الاتحاد السوفييتى. وكان سورج يبدو كئيباً، ومع أنه لم يحدثها عن الأسباب، لكنها شعرت أنه يتعرض لضغوط شديدة، وهى ضغوط جعلته ينتهك أبسط قواعد مهنة التجسس، وكانت غلطة دفع حياته ثمناً لها.

وكان سورج يحمل ورقة أرسلها إليه قبل فترة قصيرة أحد أعضاء شبكته، وحذره فيها من أن اليابانيين يشددون الخناق، وأنه يجب أن يهرب بأقصى سرعة. وفى الطريق إلى شقة الحبيبة اليابانية، مزق سورج، الحبيب المشغول، هذه الورقة، وبدلاً من أن يحرقها، رمى القطع الممزقة على الطريق. ومن مكان غير بعيد من ورائه، التقط عملاء الاستخبارات اليابانية القطع الممزقة، وجمعوا أجزائها، وهنا فقط أصبح سورج متهماً. وبعد ساعات، ألقى اليابانيون القبض عليه بينما كان فى أحضان حبيبته.

وهكذا، ألقى اليابانيون القبض على رئيس الشبكة فى آخر الأمر، ولكنهم لم يكونوا يملكون أية فكرة عن طبيعة نشاطها. وكل ما كان يعرف اليابانيون هو أن هناك شبكة تجسس رئيسية تعمل داخل اليابان منذ فترة طويلة. وكانت أعمالهم الهادئة فى متابعة نشاط هذه الشبكة التى استمرت عامين قادتهم إلى طريق سورج. ولكن لصالح من كان يعمل سورج؟

وبالنظر إلى أن سورج، من الناحية الرسمية، كان مواطناً ألمانياً يعمل فى اليابان كمراسل لعدة صحف ألمانية بارزة، فإن اليابانيين ظنوا فى بادئ الأمر أنه إما يعمل لحساب جهاز الاستخبارات الألمانى أو لحساب وكالة الاستخبارات النازية. ولكن

الألمان كانوا متشددين فى نفيهم لذلك: على الرغم من علاقة سورج الوثيقة مع السفير الألمانى، فلم يكن سورج عميلاً ألمانياً. ومضى حوالى العام قبل أن يتمكن اليابانيون أخيراً من تكوين صورة تامة عن سورج وشبكته، ولكن النتيجة أصابتهم بالذهول: هناك سبب لذلك، وهو أن سورج كان عميلاً سوفييتياً. والسبب الثانى، وهو السبب الأهم، هو أن عملياته الاستخباراتية لم تتصل بالدرجة الأولى باليابان، وإنما اتصلت ببلده ألمانيا، وكانت ألمانيا هى التى عانت كثيراً من الأضرار البالغة.

وكان كلما بحث اليابانيون بعمق أكثر، أصبحوا أكثر تأثراً بحقيقة سورج وعملياته الاستخباراتية، ذلك أنهم واجهوا واحدة من أشد العمليات إثارة للانتباه فى تاريخ التجسس. وكانت عمليات قادها واحد من أشد الرجال إثارة للانتباه.

ويكمن مفتاح فهم شخصية سورج فى قناعاته الشيوعية الراسخة التى يمكن اعتبارها قناعات وراثية إلى حد ما، ذلك أن جده اشتغل سكرتيراً خاصاً للمفكر الألمانى كارل ماركس، وحينما كان سورج صغيراً، كان كتاب «رأس المال» واحداً من الكتب التى قرأها بعد أن أهداه إليه جده.

وسورج ولد فى ١٨٩٥ فى القوقاز الروسية، وكان أبوه مهندساً ألمانياً يعمل فى التنقيب عن النفط. وانضم سورج الشاب إلى الجيش الألمانى عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأصيب بجروح مرتين، وأمضى الجزء الأكبر من عزلته فى قراءة النظرية الشيوعية. ومع حلول ١٩٢٠، أصبح سورج عضواً فى الحزب الشيوعى الألمانى، وحصل على دكتوراة الفلسفة فى العلوم السياسية فى جامعة هامبورج.

وكانت صفة سورج النادرة فى الحماسة الثورية والذكاء الحاد والرغبة الشديدة فى خدمة قضية الشيوعية أثارت انتباه المسؤولين فى الكومنتيرن، الذين قرروا إرساله إلى موسكو لتلقى تدريبات فى مدارس الحزب العليا التابعة للكومنتيرن. وفى ١٩٢٧، جرى إرساله إلى هوليوود للمساعدة فى تكوين خلايا حزبية داخل صناعة الأفلام السينمائية، وهى مهمة استهدفت اختبار قدراته كمنظم حزبى. وعاد إلى موسكو بعد عام للحصول على مزيد من التدريبات، وفى غضون ذلك برهن على قدرات لغوية

مذهلة. (وبالإضافة إلى لغته الألمانية الأصلية، أصبح بارعاً فى اللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية، ثم أضاف أخيراً اللغتين الصينية واليابانية). ومع حلول ١٩٢٩، تصور الكومنتيرن مستقبل سورج كمنظم حزبى رفيع المستوى فى أوروبا الغربية.

ولكن رئيس وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو»، جان بيرزين، المعروف بقدرته على اكتشاف أصحاب المواهب، لاحظ أيضاً ذلك الشيوعى الألمانى اللامع، وجرى تجنيد سورج لمستقبل مختلف تماماً. وكما فعل مع أحد المجندين اللامعين الآخرين، ليبادومب، فإن بيرزين كان يخطط لشئ خاص آخر لهذا المجند الجديد. وبعد عام من التدريب، عهد بيرزين إليه القيام بمهمة موظف مقيم فى شينغهاى، علاوة على تعليمات بإحياء شبكات وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» فى الصين. وخلال فترة زمنية قصيرة، تمكن سورج، الذى كان يعمل تحت غطاء كونه صحفياً ألمانياً تارة وصحفياً أمريكياً يدعى وليام جونسون تارة أخرى، من تكوين سلسلة من شبكات امتدت إلى كل أنحاء البلاد، و جعلت موسكو عليمة بشيئين : التحول اليمينى التدريجى عند شيانج كاى شك، وتعاظم قوة الزعيم الشيوعى ماوتسى تونج فى شمال الصين. ولكن أهم اكتشافاته الاستخباراتية تعلقت بتطور اهتمام موسكو فى شئ واحد: ألمانيا كانت تنوى التخلى عن علاقتها التقليدية الوثيقة مع الصين، والتحالف، بدلاً من ذلك، مع اليابان. وفى نظر موسكو، فإن هذا التحول كان يعد بمثابة كابوس ينذر بوجود دولتين عظميين معاديتين للاتحاد السوفييتى فى الشرق والغرب.

ويبدو أن هذه المعلومات الاستخباراتية الحاسمة لم تأت ضمن ملاحظات رئيسى محطة طوكيو التابعين لوكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وحين استدعائهما إلى موسكو لشرح أسباب هذا الفشل الفادح، اعترف الاثنان بأخطائهما وجرى إعدامهما فى الحال. وهذا بدوره أدى إلى وجود فراغ فى المعلومات الاستخباراتية فى موسكو، ووضع بيرزين خطة جريئة لملء هذا الفراغ. وفى نظر بيرزين، فإن اليابان كانت فى الواقع هدفاً ثانوياً، ولكن فى ظل تلك العلاقة الجديدة بين ألمانيا واليابان، أصبحت طوكيو بمثابة موقع جيد

للتنصت على الخطط الألمانية، والسبب فى ذلك هو أن الألمان أصبحوا فى حاجة إلى التشاور والتنسيق مع حلفائهم الأسيويين. وهكذا، تقرر القيام بعمليات استخباراتية فى طوكيو بحيث تكون موجهة ضد الهيكل الدبوماسى الألمانى برمته، وهو منهج فى العمل قام على تجنب القيام بعمليات فى ألمانيا ذاتها، حيث جعل البوليس النازى عمليات التجسس أمراً صعباً.

وقامت فكرة بيزرين على إرسال سورج فى مهمة إلى طوكيو، مع تفويضه بصلاحيات تامة لتجنيد كل من أراد والعمل بمعزل عن أية تعليمات من مركز موسكو. وكان ذلك بمثابة إجراء لم يسبق له مثيل فى عالم الاستخبارات السوفييتية الخاضع للرقابة الشديدة، ولكن أداء سورج فى الصين كان رائعاً جداً، حتى بات من المتفق عليه جيداً أنه يمكن أن يعمل بطريقة أفضل حينما يحصل على حرية تامة فى العمل.

ووضع سورج خططه باهتمام بالغ. ومن شبكته فى الصين، اختار اثنين من عملاء وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» القدامى للعمل معه فى اليابان: «ماكس كلوسين، وهو شيوعى ألمانى قديم ومشغل راديو لامع، وبرانكو دوفوكليتش، وهو ضابط سابق فى الجيش اليوجوسلافى وخبير فى الاستخبارات العسكرية. واختار سورج أيضاً اثنين من الجواسيس النافعين التابعين لوكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» وهما شيوعيان يابانيان قام سورج بتجنيدهما من قبل فى ١٩٣٣ : أوساكى هو سومى، وهو مراسل سياسى لجريدة يابانية بارزة ولديه اتصالات كثيفة فى كل أنحاء الحكومة اليابانية والمؤسسة السياسية، ومياجى يوطوكو، وهو شخصية بارزة من عائلة يابانية محترمة ولديه اتصالات كثيفة مع مجموعة السياسيين الليبراليين المعارضين لسياسات الحكومة اليمينية.

وكانت خطة سورج التالية هى أن يجعل من نفسه أسطورة جديدة. وهكذا، عاد سورج إلى ألمانيا وأصبح نازياً متحمساً. وبالنظر إلى تميزه بنعمة الجاذبية الشخصية العظيمة، تمكن سورج من عقد صداقة وثيقة مع بعض الشخصيات البارزة فى وزارة جوبلز للدعاية، وهى صداقة هامة استخدمها فى الحصول على وظيفة كمراسل فى

اليابان لصحف ألمانية بارزة عديدة. ويبقى سراً حتى اليوم كيف تمكن سورج من الإفلات من مراقبة الجستابو، الذى كان يقوم بفرض رقابة شديدة على كافة أشكال الارتداد السياسى. وحين الأخذ فى الاعتبار ظهوره السابق كناشط شيوعى، فلا يبدو أن هناك تفسيراً معقولاً للأسباب التى جعلت رجلاً بهذه الخلفية لا ينضم إلى الحزب النازى فحسب، وإنما يصبح أيضاً مرتبطاً على نحو وثيق مع السلطة الحاكمة.

وأياً كانت التفسيرات، فإن سورج، الذى اتخذ مظهر المراسل الصحفى الأجنبى النازى، وصل إلى طوكيو فى أبريل ١٩٣٨. واتخذ سورج على الفور خطوتين هامتين. الخطوة الأولى هى أنه عقد صداقة حميمة مع الكولونيل يوجين أوت، الملحق العسكرى الألمانى فى السفارة الألمانية. وإدراكاً منه لحقيقة أن أوت، الذى لم يكن يتحدث اليابانية، كان يفترض فيه أن يجمع معلومات استخباراتية فى اليابان، قام سورج بمساعدته، من خلال تقديم معلومات استخباراتية قليلة ومختلفة ومتدنية الدرجة، من أجل تمكين أوت من إدراجها فى تقاريره إلى برلين. وكان أوت، ضابط الاستخبارات غير الموهوب، شاكراً جداً، وبدأ فى تمرير معلومات مثيرة وقليلة إلى سورج بعد سماعها من رؤسائه. (هذه العلاقة برهنت على كونها ذات فائدة كبيرة حينما أصبح أوت فى وقت لاحق السفير الألمانى لدى اليابان).

وكانت الخطوة الثانية هى أن سورج عكف على توسيع شبكته. وقامت مجموعته التى تتكون فى الأصل من أربعة أشخاص بتجنيد مجموعة قليلة من العلماء النافعين، حتى أصبحت الشبكة تتكون من ٢٠ شخصاً، وكلهم فى مناصب رئيسية، وكانوا قادرين على جعل سورج عارفاً بكل شئ هام يحدث فى منطقة جغرافية تمتد من منشوريا إلى الطرف الشمالى من اليابان.

وما جعل شبكة سورج غير عادية، وفاعلة بدرجة عالية، هو دور رئيسها فيها. وبدلاً من مجرد جمع المعلومات الاستخباراتية وتمريرها إلى موسكو، فإن سورج قام أيضاً بدور المحلل الرئيسى للمعلومات الاستخباراتية فى الشبكة. وكان يقوم بجمع كل معلومة استخباراتية تأتى بها الشبكة، وتجميعها مع بعضها البعض فى وحدة متلاحمة،

ثم إضافة تحليلاته واستنتاجاته الخاصة. وكان درب نفسه كخبير فى كافة المسائل اليابانية، واحتفظ بمكتبه تضم ١,٠٠٠ كتاب من الكتب اليابانية التى تعكس معرفته العميقة بشؤون البلاد. وجملة القول، فإن سورج كان بمثابة وكالة استخبارات تتكون من رجل واحد.

وبعد شهر من وصوله إلى طوكيو، تمكن سورج من جعل موسكو عليمة بالمناقشات الجارية داخل الحكومة اليابانية حول السياسات المستقبلية. ومن الناحية المبدئية، فإن اليابانيين قرروا الذهاب إلى الحرب، ولكن فى أى اتجاه يضربون؟ فئة جديدة واحدة، مؤيدة للألمان، أرادت ربط اليابان مع أهداف الحرب الألمانية، التى تتضمن، كما اكتشف سورج، غزواً نهائياً للاتحاد السوفييتى. وفئة حزبية أخرى، مع ذلك، جادلت بأن حاجة اليابان إلى المواد الخام تستدعى الضرب جنوباً فى اتجاه النفط وموارد المطاط فى الملايو وجزر الهند الشرقية. وهذه الفئة الحزبية بدأت تكتسب اليد الطولى، مع أن أعضاءها اعترفوا بأن هذه السياسة تعنى الدخول فى حرب مع الولايات المتحدة.

وكان جواسيس سورج النافعون قادرين على جعله عارفاً بالمناقشات اليابانية الجارية. وفى غضون ذلك، حرص سورج على الاهتمام الشديد بالطرف الألمانى من المعادلة، حيث كان يوجين أوت، المنقذ دائماً، يسعى إلى طلب النصيحة حول آخر قرارات هتلر السياسية. وفى أواخر ١٩٤٠، عرف سورج معلومة استخباراتية تقيم الدنيا ولا تقعدها: فى اجتماع سرى مع جنرالاته، أعلن هتلر عن قراره بغزو الاتحاد السوفييتى.

وفى هذا الصدد، يبقى من الأشياء غير القابلة للتصديق أن يميل ستالين، مثلما فعل مع التقارير الاستخباراتية الآتية من مصادر أخرى حول الغزو الألمانى الوشيك، إلى إسقاط تقرير سورج من حسابه وإعرابه عن استغرابه الشديد تجاه الأسباب التى جعلت سورج يقع ضحية مثل تلك المعلومات الاستخباراتية «المخادعة». وشعر سورج بغضب شديد، ولكنه قرر اللجوء إلى جمع المزيد من المعلومات الاستخباراتية الكافية

لتغيير رأى ستالين. ولكن لم تكن هناك أية معلومة استخباراتية حملت موسكو على تغيير رأيها، حتى حينما، فى مايو ١٩٤١، أرسل تحذيراً بأن الغزو الألمانى للاتحاد السوفييتى سوف يبدأ عند الفجر فى يوم ٢٠ يونيو (الغزو الفعلى، المخطط له فى ذلك اليوم، جرى تأجيله لمدة ٤٨ بسبب سوء الأحوال الجوية). ومع هذا، ظل ستالين يتجاهل هذا التحذير.

وفى هذه الأثناء، عكف سورج على إرسال قدر هائل من المعلومات الاستخباراتية، الأمر الذى أثار معه ظهور مشكلة جعل الراديو على الهواء لفترة زمنية طويلة. وإدراكاً منه لحقيقة أن عمليات اليابانيين لمكافحة التجسس تقوم على خدمات كثيفة لمراقبة الراديوهات، قام سورج بخطوات ثابتة لإخفاء إرسالياته عن الآذان الصاغية. وفى بادئ الأمر، جعل الراديو ينتقل من بيت إلى آخر، ثم خطرت على باله فكرة استخدام قارب بحرى كقاعدة راديو. وفى هذه الحالة، يتم إرسال المعلومات الاستخباراتية من القارب، ثم ينتقل القارب إلى موقع آخر. واستخدم كلاوسين، مشغل الراديو، أجهزة إرسال بالغة السرعة للبقاء على الهواء أقصر فترة ممكنة.

ومع هذا، فإن اليابانيين كانوا يعرفون أن هناك راديو سرياً يعمل فى مكان ما داخل البلاد. ولم يتمكنوا من اكتشاف موقعه، غير أن ذلك القدر الهائل من المعلومات الاستخباراتية أشار إلى أن الراديو ربما يخدم شبكة تجسس. وفى وقت مبكر من ١٩٣٨، وتحديداً فى ذلك الوقت الذى وصل فيه سورج إلى طوكيو، اكتشف اليابانيون دلائل وجود شبكة تجسس، ولكنهم لم يكونوا يملكون أية فكرة عن حجمها ومجالها والجهة التى تعمل لحسابها. وفى أواخر ١٩٣٩، تمكن جهاز الاستخبارات اليابانى من التوصل إلى دلائل أولية: جهاز الاستخبارات اليابانى ألقى القبض على ريتسو إيتو، زعيم فئة متطرفة ومؤيدة متحمسة للاتحاد السوفييتى وتابعة للحزب الشيوعى اليابانى ومحظورة منذ سنوات عديدة. وتمكن جهاز الاستخبارات اليابانى، المعروف بأساليبه التى لا ترحم فى التعذيب، من انتزاع من إيتو معلومة استخباراتية مثيرة وهى أن الحزب لديه مجموعة سرية معنية بالتجسس لحساب الاتحاد السوفييتى. ولم يكن إيتو يعرف يقيناً أسماء الأعضاء المنهمكين فى عمليات التجسس، ولكنه أعطى القائمين

على استجوابه قائمة بأسماء أعضاء الحزب المعنيين بالأعمال السرية. ومن بين هؤلاء، هناك أوساكى هوسومى وميـاجى يوطوكو، أهم جاسوسين نافعين يابانيين يعملان مع سورج.

وبعدئذٍ، شرع اليابانيون فى عملية شاقة تضمنت البحث عن أكثر من ١٠٠ اسم ممن كشف عنهم إيتو. وكانت العملية أشبه بعملية البحث عن إبرة فى كومة من القش، غير أن البحث المتواصل عن الأسماء كلها أدى إلى نتيجة مثيرة : البحث عن أوساكى وميـاجى كشف النقاب عن ارتباط وثيق من جانب مراسل صحفى ألمانى يدعى ريتشارد سورج. وربما حان الوقت للقيام بحملة مراقبة شديدة لأفعال سورج.

ومن قبيل المصادفة، فإن محطة وكالة الاستخبارات النازية فى السفارة الألمانية فى طوكيو شرعت أيضاً فى حملة مراقبة شديدة لأفعال سورج. ولم تشك وكالة الاستخبارات النازية فى أن يكون سورج جاسوساً سوفييتياً، والسبب فى ذلك هو تلك العلاقة الوثيقة التى كان يقيمها مع الدبلوماسيين الألمان، وعلى الأخص السفير يوجين أوت. وتركز اهتمام وكالة الاستخبارات النازية، على احتمال أن يكون سورج يعمل لحساب منافسها المكروه، وهو جهاز الاستخبارات الألمانى.

وكانت الحاسة السادسة حذرت سورج خلال تلك الشهور الحاسمة من ١٩٤١ من احتمالات تعرضه مع أعضاء شبكته للأخطار. ومع ذلك، فإن حاجة الاتحاد السوفييتى للمعلومات الاستخباراتية فى ذلك الوقت كانت أشد من أى وقت مضى، وعلى الأخص فيما يتعلق بأى شئ يمكن أن ينقله إلى الاتحاد السوفييتى عن نوايا الألمان. وفى وقت مبكر من ١٩٤١، حينما بدأت القوات الألمانية فى إحكام حصارها على موسكو، خرج سورج بمعلومة استخباراتية كان لها تأثير دراماتيكى على مجرى الحرب، وهى معلومة كان يمكن أن تضعه فى مقبرة عظماء التجسس فى الاتحاد السوفييتى.

وخلال عدة شهور، عكف مجلس الوزراء اليابانى على مناقشة مكان توجيه الضربة العسكرية الأولى. وبينما مارس الألمان ضغوطاً من أجل قيام اليابانيين بغزو الاتحاد السوفييتى، فإن مجلس الوزراء اليابانى قرر التحرك جنوباً، من أجل الاستيلاء

على مصادر المواد الخام الضرورية للصناعات اليابانية. وهذا القرار، الذى جرى تمريره إلى الألمان الذين خاب ظنهم بحلفائهم، أصبح معروفاً فى الحال لدى سورج. ومن خلال سلسلة من ثلاث إرساليات طويلة جرى نقلها من قاربه البحرى المتحرك، أرسل كلاوسين هذه الأخبار الخطيرة إلى موسكو، بما فيها نصوص القرارات التى اتخذها مجلس الوزراء.

وما حدث بعد ذلك كان شيئاً لم يسبق له مثيل: اعتماداً على سجل سورج فى توخى الدقة فى هذا المجال، قرر السوفييت القيام بمغامرة استثنائية، وهى نقل جميع جنود خط الجبهة الموجودين فى حالة تأهب فى الشرق لصد أى غزو يابانى محتمل إلى ناحية الغرب، حيث باغتوا الألمان المذهولين الذين كانوا يشقون طريقهم إلى ضواحى موسكو. وتمكنت الفرقة العسكرية السيبيرية، التى لم تشارك فى قتال، ولم تتأثر بالطقس البارد منذ ٥٠ عاماً، من إلحاق الهزيمة الأولى بالقوات الألمانية، وهى صدمة جعلت هتلر يضطر إلى طرد معظم كبار جنرالاته فى الجهة الشرقية وتولى مسؤولية توجيه دفة الحرب بنفسه، مع ما صاحب ذلك من نتائج مأساوية.

وفى هذه الأثناء، جرى إلقاء القبض على مياجى وأوساكى، وبينما كان جهاز الاستخبارات اليابانى يحكم خناقه، كان سورج يعد نفسه لإرسال رسالته الأخيرة: اليابانيون سوف يبدأون مسيرتهم جنوباً بتوجيه ضربة قاضية ضد الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر خلال نهاية هذا العام. وما عمل على تخفيف حدة توترهم العصبى هو أن اليابانيين تمكنوا من إلقاء القبض على كلاوسين قبل قيامه بإرسال هذه المعلومات الاستخباراتية من سورج (الذى كان من الممكن أن يتمكن من الهروب لولا عبثه القاتل مع حبيبته اليابانية).

وما عانى منه سورج على أيدى جهاز الاستخبارات اليابانى غير معروف، وتشير السجلات اليابانية المتاحة إلى أنه أظهر رغبة واضحة فى التعاون، وقال كل شئ إلى اليابانيين. وقاوم اليابانيون طلباً ألمانياً عاجلاً بتسليم سورج، مفضلين بدلاً من ذلك الإبقاء عليه لتبادل لاحق للأسرى. وفى ١٩٤٣، اقترح اليابانيون عقد صفقة

تبادل للأسرى مع موسكو، مقدمين سورج مقابل عدد من الجواسيس اليابانيين الذين ألقى السوفييت القبض عليهم. ولكن موسكو لم ترسل رداً جوابياً أبداً، وعلى ما يبدو، فإن ستالين لم يكن راغباً فى وجود شاهد آخر من حوله على تجاهله للتحذيرات الواضحة بالغزو الألمانى.

وأبقى اليابانيون على سورج حياً لمدة ثلاث سنوات، مثابرين على بذل الجهود من أجل معرفة المزيد من الأسرار التى قام بإفشائها إلى موسكو فى أكثر من ٣٠,٠٠٠ صفحة من المعلومات الاستخباراتية. وأخيراً، فى ١٩٤٤، حينما لم يكن هناك شئ يمكن انتزاعه من سورج، جرى إعدامه.

وبعد ذلك بعدة سنوات، ظلت الحبيبة اليابانية تقوم بزيارات منتظمة إلى قبر سورج الذى لم يكن يحمل شاهداً، وظلت تضع عليه الأكاليل من زهرة الأقحوان، وهى زهرة معروفة بقدرتها على النمو فى ظل ظروف صعبة.

روث كوتشنسكي

الراديو فى مزهرية باقة الزنبق

الأسماء الرمزية : سونيا

الأسماء المستعارة : روث ورنر

١٩٠٨ - ؟

ربما كان رجال البوليس، الذين قرعوا باب بيت متواضع بالقرب من مدينة أوكسفورد الجامعية فى صباح أحد أيام الربيع فى ١٩٤١ على يقين من أنهم كانوا يتعقبون طريدة ساذجة. وكان رجال البوليس تلقوا واحدة من تلك المكالمات التليفونية التى كانت عادية فى تلك الأزمنة شديدة العصبية، حينما كان الرجل العادى، الذى تلقى تحذيرات بالبقاء متيقظاً تجاه وجود جواسيس أعداء، يميل إلى إجراء مكالمة تليفونية مع رجال البوليس عند كل شعور بحد أدنى من الشك.

وقلما كان هذا البيت المتواضع يبدو كأنه بيت للتجسس. وكان هذا البيت مستأجراً من جانب عريف فى سلاح الجو الملكى البريطانى يدعى ليون بيرتون وزوجته روث، اللذين كانا يعيشان مع طفليهما الصغيرين. ومع أن أحد الجيران قام بإبلاغ رجال البوليس عن رؤية جهاز راديو متطور فى ذلك البيت (ملكية جهاز راديو متطور كان ينبغى تسجيلها بموجب لوائح أوقات الحرب)، فلم يكن من المتصور، من أول وهلة، أن يكون عريفاً فقيراً فى سلاح الجو الملكى قادراً على ملكية مثل هذه

القطعة المتطورة من التكنولوجيا.

وكانت المرأة التى فتحت باب البيت قصيرة القامة وممتلئة وبمريلة، بينما وقف طفل صغير على ساق واحدة ملقياً نظرة محدقة إلى رجال ببذلاتهم العسكرية. وبدت السيدة بيرتون مرتبكة حينما شرح أحد رجال البوليس الأسباب التى جعلتهم يأتون إلى هنا. ومن خلال لهجة منطوقة، ولكنها لهجة أوروبية غامضة، دعت الرجال إلى الدخول، وقدمت لهم راديو لعبة الأطفال. هل هذا هو «الراديو ذو الموجة القصيرة» الذى رآه أحد الجيران؟

ربما، وهذا ما قال أحد رجال البوليس مبتسماً. وأعرب رجال البوليس عن إعتذارهم بسبب إزعاج هذه المرأة الجميلة، وغادروا. وكانت تلك مجرد واحدة من مجالات الذعر التى يتسبب الجواسيس فى حدوثها، وربما حاول رجال البوليس نسيانها فى حينها. وفى وقت لاحق فقط عرف هؤلاء الرجال أنهم كانوا يقفون أمام واحدة من ألمع عملاء الاستخبارات السوفييتية فى كل بريطانيا العظمى.

وكما هو الأمر عادة، فإن روث كوتشنسكى بيرتون قامت بدورها على نحو بارع. ومن واقع حقيقة ذلك المظهر العام المحافظ لأم شاعرة بإنزعاج دائم من تربية طفل صغير، فربما كان من الطبيعى أن يغفر لرجال البوليس عدم محاولتهم إجراء المزيد من عمليات التفتيش. ولم تكن تلك المرة الأخيرة التى تنجح فيها هذه الممثلة البارعة فى خداع أعدائها.

وساعد مظهر كوتشنسكى العام على إخفاء حقيقة امرأة شيوعية مخلصة مولودة لعائلة شيوعية جداً: أبوها، رينيه، الاقتصادى البارز، كان واحداً من أوائل الأعضاء فى الحزب الشيوعى الألمانى، وكذلك كان أخوها يورجين. والابنة روث، انضمت إلى حركة الشبيبة فى الحزب فى ١٩١٧ حينما كانت فى التاسعة فقط. وفى ١٩٢٦، انضمت إلى الحزب كفتاة راشدة. وفى ذلك العام، ذهبت إلى نيويورك لتسيير شؤون مكتبة، وقابلت رودلف هامبيرجر، الذى كان يدرس الهندسة فى الولايات المتحدة. ووقع الاثنان فى الحب، وتزوجا، وذهبت معه إلى شينغهاى عام ١٩٣٠، حيث اشتغل

مهندساً.

ولم يكن هامبيرجر شيوعياً، وبينما تسامح مع قناعات زوجته السياسية المتطرفة، لكنه أعرب عن اعتراضه حينما أفصحت عن نواياها تجاه «العمل لحساب الحزب» في منطقة الاستيطان الأجنبي في شينغهاي. ولم يكن واثقاً من معنى هذا كله، غير أن فكرة مشاركة زوجته في مظاهرات، ومراوغة رجال البوليس، وإقامة حواجز، لم تكن ذلك الشئ الذي كان يتصوره في زوجة ألمانية مطيعة. وتجاهلت روث اعتراضه، وسرعان ما أصبحت مشغولة داخل شركة الاستيطان الأجنبي التي تقوم بتنظيم الشغيلة في المدينة، وقامت بعدد من الأعمال الأخرى. وبعد ذلك بفترة قصيرة أصبحت شخصية لامعة في عالم الشيوعيين، متميزة بذكائها الحاد، وقدرتها اللغوية (كانت تتحدث أربع لغات بطلاقة)، وجرأتها الواضحة. وجملة القول، فإنها كانت تلك الشخصية التي تميل إلى إثارة انتباه القائمين على تجنيد الأشخاص في وكالات الاستخبارات، حتى أن ريتشارد سورج، الموظف المقيم التابع لوكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آر يو» في الصين، في وقت ما في أواخر ١٩٣٣، قام بتجنيدها للعمل لحساب وكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آر يو».

وقام سورج، الذي أوصى بها متحمساً كعميلة عظيمة محتملة، بإرسالها إلى موسكو للتدريب على كتابة رموز الشيفرة واستخدام جهاز الراديو. وبرهنت على كونها تلميذة رائعة، وحينما عادت إلى الصين بعد عام، عهد إليها سورج بمسؤوليات متزايدة تضمنت إدارة شبكات مختلفة.

وفي ١٩٣٥، تلقت كوتشنسكي أمراً من وكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آر يو» بوجوب طلاقها من زوجها، رودلف هامبيرجر، بسبب عدم صلاحيته، وهو أمر التزمت بتنفيذه عن طيب خاطر. وبعد ذلك تزوجت من ألفريد شولتز، عميل وكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آر يو»، الذي كان يعمل أيضاً في الصين. (وبعد عامين، اختفى شولتز ضمن حملة ستالين للتطهير، وقالت زوجته بهدوء، بعد إبلاغها أن زوجها الثاني كان خائناً، أن إعدامه له ما يبرره، وهكذا أصبحت أرملة لديها طفل

واحد.

وفى ذلك الوقت، كانت مكانة كوتشنسكى عالية فى وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو»، التى كانت لديها خطط عظيمة مخصصة لها. وبعدئذٍ، وفى غمرة تنظيم سلسلة من شبكات فى أوروبا موجهة ضد ألمانيا النازية، وهى شبكات كانت عبارة عن أخطبوط عملاق أطلق عليه الألمان «الأوركسترا الحمراء»، قررت وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» أن تقوم كوتشنسكى بدور رئيسى. وفى أعقاب مهمة قصيرة فى دانزينج لصقل مواهبها، جرى إرسالها فى ١٩٣٨ إلى سويسرا حاملة أوامر بتجنيد جواسيس نافعين يعملون لحساب وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» من بين المحاربين القدماء من الشيوعيين البريطانيين الذين شاركوا فى الحرب الأهلية الإسبانية. وكان مجندها الجائزة هو ألكسندر فوت، الذى شارك فى الحرب وبرهن على قدرته كمشغل جهاز راديو. (فوت فى وقت لاحق عهدت إليه مهمة فى شبكة كبيرة تابعة لوكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» فى سويسرا أطلق الألمان عليها «الثلاثة الحمر»).

وكانت مهمة كوتشنسكى التالية بمثابة تحديات حقيقية: كوتشنسكى تلقت أمراً بالذهاب إلى انجلترا لتكوين فرع بريطانى للأوركسترا الحمراء. وكان هذا أمراً غير قابل للتصديق، ذلك أنها، كمواطنة ألمانية، لا تستطيع دخول بريطانيا بدون جواز سفر، وهى شئ لم تكن الحكومة النازية تمنحه إلى أى شيوعى معروف. وقامت بحل هذه المشكلة بطريقة سهلة، وهى مفاتحة عدد من الشيوعيين البريطانيين الموجودين فى سويسرا بطلب الزواج منهم حتى تتمكن من الحصول على المواطنية البريطانية عن طريق الزواج. وخذلها فوت، ولكن ليون بيرتون، الشيوعى الشاب والمحارب القديم فى الحرب الأهلية الإسبانية، وافق على زواج المصلحة. وفى ١٩٤٠، حين استدعاء زوجها للخدمة فى سلاح الجو الملكى البريطانى، ذهبت إلى بريطانيا، واستقرت فى كيدلينجتون، وهى بلدة صغيرة فى أكسفورد. ووجهت وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» لها أمراً بالعمل كنائمة، فى ذلك الوقت على الأقل.

أما كيف تمكنت كوتشنسكى من القيام بهذا كله، فذلك يشكل تقديراً لإخلاصها لنداءات الواجب واحتراماً لهذا الواجب. وكانت كوتشنسكى وضعت طفلاً من زواجها من شولتز، وعلى نحو لم يكن متوقعاً، وضعت طفلاً آخر من بيرتون. وهكذا، كان لديها فى ذلك الوقت طفلان للاعتناء بهما. وحينما وجهت وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو»، فى مايو ١٩٤١، لها أمراً بالبدء فى العمل، كان يتعين عليها بطريقة ما أن تقوم بتنفيذ هذا الأمر، بالإضافة إلى أعبائها المنزلية.

ونجحت كوتشنسكى على نحو لافت للنظر. وبدأت فى بناء شبكة ضمن نطاق عائلتها، التى هربت إلى بريطانيا بعد مجىء هتلر إلى السلطة. وبالنظر إلى أنهم كانوا شيوعيين مخلصين، فإنهم كانوا مستعدين للاستجابة إلى نداء الواجب فى خدمة القضية. وأصبح والدها، أستاذ العلوم الاقتصادية فى أوكسفورد فى ذلك الوقت، مرتبطاً على نحو وثيق بالمؤسسة البريطانية، وبدأ فى جمع معلومات استخباراتية سياسية رفيعة المستوى. وأخوها يورجين، وهو اقتصادى أيضاً، كان يعمل محللاً فى وزارة الطيران البريطانية، وقدم معلومات استخباراتية عسكرية رفيعة المستوى. (وفى وقت لاحق بعد دخول الولايات المتحدة الحرب، انضم إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية الأمريكية «أو إس إس»، وخدم ضمن مجموعة العاملين فى مشروع دراسة القصف الاستراتيجى، الأمر الذى عمل على إعطائه حرية أعظم فى الوصول إلى معلومات استخباراتية رفيعة المستوى). ومع أنها كانت قريبة من البيت، فإن زوجها جعلها على اتصال مع ضابط كبير فى سلاح الجو الملكى البريطانى الذى كان شيوعياً فى السر، وقدم هذا الضابط عينات من أحدث تكنولوجيا سلاح الجو البريطانى، بالإضافة إلى تقارير فنية قامت روث بشحنها فى الباخرة إلى موسكو.

وهكذا، عكفت روث على الانتقال بين أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى المبعدين الذين يعيشون فى بريطانيا. واكتشفت أنهم، كشيوعيين مخلصين، ما زالوا يدفعون إسهاماتهم المالية الحزبية ويعقدون اجتماعات منتظمة على مستوى الخلية. وبعد الغزو الألمانى للاتحاد السوفييتى فى يونيو ١٩٤١، كانوا تواقين إلى مساعدة موسكو، وقامت روث كوتشنسكى بتنظيمهم فى شبكات من الجواسيس النافعين بدرجات

متباينة من الأنشطة المفيدة. وكان الجزء الأعظم منهم يتولى مهام وظيفية متدنية الدرجة، ولكنهم مع ذلك قدموا معلومات استخباراتية سرية، حتى أن وكالةالاستخبارات السوفييتية «جي آر يو» وجدتها مفيدة. ومع ذلك، فإن جهودها اللاحقة في تجنيد الجواسيس النافعين كانت مثمرة.

وفي أواخر ١٩٤١، قابلت كوتشنسكي عالماً ألمانياً مهاجراً شاباً هرب من ألمانيا في ١٩٣٣ حينما جاء هتلر إلى السلطة. وبالنظر إلى أنه كان شيوعياً متطرفاً، فهو استمر في حضور اجتماعات حزبية في المنفى، وأبلغ كوتشنسكي عن توقه الشديد إلى مساعدة الاتحاد السوفييتي بكل ما يستطيع. ولم يكن في وضع وظيفي يسمح له بتقديم الكثير، وبعد عام في معسكر اعتقال الغرباء عند اندلاع الحرب، قام البريطانيون بتجنيده للعمل في شئ أطلق عليه «مشروع نفق الخير والشر». وحينما لم تظهر كوتشنسكي اهتماماً كبيراً، أبلغها كلاوس فوتش أن المشروع كان اسماً تمويهياً للسر الفني الأعظم في الحرب: بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تعكفان على تطوير قنبلة ذرية. هل يبدي الروس اهتماماً في ذلك؟

وكان الروس بالفعل يبدون اهتماماً، وجرى تجنيد فوتش كجاسوس نجم نافع في شبكة كوتشنسكي. وفي غضون ذلك، واجهت مشكلة كيفية إرسال كل هذه المعلومات الاستخباراتية إلى المحطة الرئيسية التابعة لوكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آر يو» في السفارة السوفييتية في لندن. وكان يمكن إرسال الجزء الأعظم من المعلومات الاستخباراتية التي تقوم بجمعها عن طريق جواسيس وسطاء، غير أن المعلومات الاستخباراتية «الساخنة» كان ينبغي إرسالها عن طريق الراديو. واحتاجت إلى جهاز إرسال، وما كان يمكنها أن تأخذ معها واحداً إلى السوق ثم تعيده معها إلى البيت. وكان الحل صريحاً وواسع الحيلة. خلال فترة امتدت إلى بضعة أسابيع، كانت كوتشنسكي تقوم بجولات فترية بالقطار إلى لندن مع ابنها الصغير. وبدا الاثنان عاديين جداً: أم مع ابنها الصغير، والابن يحمل مزهرية باقة من الزنبق، في طريقهما إلى لندن. وحين وصولهما إلى هناك، تقوم كوتشنسكي بمقابلة عميل من وكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آر يو» في حديقة عامة. ويقوم هذا العميل بتسليمها حقيبة

صغيرة، ثم تقوم هى بأخذ أجزاء الراديو من الحقيبة وتضعها فى مزهرية باقة الزنبق. وفى طريق عودتها إلى البيت، كانت تبدو هى وابنها عادية مع ابنها مسافرين فى قطار.

وحينما كانت تقوم بإرسال المعلومات الاستخباراتية على الهواء، كانت كوتشنسكى تحرص على أن تكون مدة الإرسال قصيرة جداً، ذلك أن رجال مكافحة التجسس فى بريطانيا كانوا فى حالة تأهب قصوى فى مواجهة أية دلائل على وجود راديوهات سرية. وكانت طلبت حتى من أحد الجيران مساعدتها فى مد الهوائى، وأبلغته بأنه حبل غسيل. وكان هذا كله جزءاً من مظهر كاذب من صورة اعتيادية عائلية اهتمت بالابقاء عليها. وكان هذا مظهراً كاذباً خدم أغراضها جيداً، ذلك أنه برغم ذلك القدر الهائل من المعلومات الاستخباراتية الذى كانت تقوم بإرساله إلى موسكو خلال الحرب، فلم يتم اكتشاف أمرها مطلقاً. وكانت تمكنت حتى من الإفلات من تطور آخر كان يمكن أن يعنى نهايتها: فى ١٩٤٥، جرى إلقاء القبض على فوتش فى بريطانيا بتهمة التجسس، وقدم اعترافاته، ولكنه تجنب ذكر كوتشنسكى، وبقيت آمنة تبعاً لذلك.

وبعد مضى ما لا يقل عن عامين، وتحديداً فى ١٩٤٧، جرى اكتشاف أمرها أخيراً، ذلك أن ألكسندر فوت، الشيوعى البريطانى الذى قامت كوتشنسكى بتجنيده قبل عشر سنوات، ارتد إلى البريطانيين، وكشف عن أسماء جميع عملاء وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» الذين أجرى معهم أى إتصال، ومن بينهم كوتشنسكى، مع أنه زعم أنه توقف عن العمل لحساب وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» فى ١٩٤٠. ولأسباب لم يعلن عنها أبداً، فإن فوت كان على ما يبدو يقصد بذلك الكشف الجزئى حماية كوتشنسكى بطريقة ما. وهذا ما حدث بالفعل: عملاء جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» وقفوا أمام بيتها، وبدأوا فى طرح أسئلة حول ارتباطها مع الاستخبارات السوفييتية. ولكنها لجأت إلى استخدام مظهر آخر من مظاهر الأفعال النسائية التمويهية، وبعد مغادرة عملاء جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» المكان، أخذوا يسألون أنفسهم إن كان فوت مخطئاً بشكل من الأشكال. ولم يكن من

الممكن أن تكون مثل هذه المرأة ذات الجسم الممتلئ والعيون الواسعة البريئة التى لا تظهر أية معرفة بتلك الأشياء الشائنة، كالتجسس، هى التى زعم فوت أنها كذلك، حتى لو كان ذلك قبل ١٩٤٠، حينما كان معروفاً عن وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» أنهما يقومان بتنجيد «كل واحد» يوافق على تقديم المساعدة لهما.

وقبل أن يتمكن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» من اتخاذ قرار بشأن ما يمكن عمله بعدئذ، عرفت كوتشنسكى أن الوقت حان للرحيل. وغادرت هى وزوجها وطفلاها البيت، فيما أبلغت جيرانها أنها جولة لزيارة الأقارب فى ألمانيا. ولكن هؤلاء الجيران لم يروا كوتشنسكى مرة أخرى، ذلك أن عائلة بيرتون والطفلين اختفوا فى ألمانيا الشرقية، ثم أعقبهم بعد ذلك بفترة قصيرة جميع أفراد عائلة كوتشنسكى.

ولم يكن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» يشعر بالقلق تجاه هذا الاختفاء، وافترض، فى ظل أسوأ الظروف، أنها كانت جاسوسة نافعة متواضعة المستوى عملت لحساب موسكو منذ سنوات مضت، وعلى أية حال، فربما لم تلحق ضرراً بالأمن البريطانى، ذلك أنها لم تدخل البلاد قبل ١٩٣٩. وفى ١٩٥٩ فقط، حينما ظهرت عملية حل رموز الشيفرة «فينونا» إلى النور، عرف جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» أنه كان مخطئاً. وكشفت عملية حل رموز الشيفرة بشأن الرسائل الصادرة من محطة وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» إلى موسكو خلال الحرب، عن بحر صغير من المعلومات الاستخباراتية من مصدر، وربما كان هذا المصدر رئيس الشبكة، كان يحمل الاسم الرمزى «سونيا». ومن خلال الدلائل العديدة التى ظهرت فى الإرساليات، فلم يكن من الصعب على جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» أن يستنتج أن «سونيا» كانت فى الحقيقة هى روث كوتشنسكى، ربة البيت الصغيرة التى خدعته بمظهرها الكاذب لسنوات عديدة من قبل.

وكوتشنسكى، فى غضون ذلك، استقرت فى ألمانيا الشرقية، حيث أصبحت موالية مخلصة للنظام، واشتغلت فى وظيفة حكومية ربما لم تكن تمت بصلة إلى

الاستخبارات. (ومن غير المعروف ما إذا كانت على قيد الحياة حتى الآن). وفى ١٩٨٢، نشرت مذكراتها وعاشت فى نعيم حرارة تقدير الاستخبارات السوفييتية، التى قالت عنها: «لو كان لدينا خمس سونيات، فربما كانت الحرب انتهت فى فترة أقصر».

هيربرت ياردلى

الغرفة المظلمة الأمريكية

١٨٩٠ - ١٩٥٨

هذا الشاب البالغ من العمر ٢٢ عاماً، عامل التلغراف السابق فى هيئة السكة الحديدية، الذى وصل إلى بناية فيكتورية ضخمة مظلمة فى جادة بنسلفانيا فى واشنطن العاصمة فى ١٩١٢ لتولى مهام وظيفته الجديدة ككاتب رموز شيفرة فى وزارة الخارجية الأمريكية، عرف فى الحال إن افتراضه القائل إن هذه الوظيفة الجديدة تستبع بالضرورة عنصر الإثارة كان افتراضاً خاطئاً. وكان هذا المكان كأنه ضريح، ذلك أنه فى ظل سبات واشنطن فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى فإن وزارة الخارجية ووزارة الحرب والبحرية الموجودتين فى البناية الضريح نفسها كانتا تتميزان بكل عناصر الدراما والإثارة فى نظر هؤلاء الذين من عادتهم الميل إلى الهدوء والتأمل.

وكان هيربرت ياردلى وصل من ولاية إنديانا، مفترضاً القول إن مركز السلطة الأمريكية لابد أن يعج بالخداع والنشاط. وبدلاً من ذلك، فإن وزارة الخارجية الأمريكية عكست حالة مزاجية عامة عند الأمريكيين، ولم تكن تملك أية فكرة عن ما كان يجرى فى الحقيقة فى بقية أنحاء العالم، كما لم تكن تبدى أى اهتمام على وجه الخصوص.

وانهمك ياردلى فى الروتين الممل لوظيفته، وأمضى الساعات التى لا قيمة لها،

وكان هناك منها الكثير، فى ممارسة هوايته فى دراسة رموز الشيفرة. وكان يذهب إلى مكتبة الكونجرس، فى كل لحظة فراغ، من أجل قراءة كل ما يعثر عليه حول الموضوع، ومع بداية ١٩١٤، أصبح كاتب رموز الشيفرة الذى يتقاضى ٩٠٠ دولار فى العام واحداً من أبرع الخبراء الأمريكيين فى كتابة رموز الشيفرة. ولم يكن هذا عملاً فذاً على وجه الخصوص، ذلك أن كتابة رموز الشيفرة الأمريكية كانت متخلفة حوالى ٣٠ عاماً بالمقارنة مع أوروبا.

وكان كلما درس ياردلى موضوع رموز الشيفرة الأمريكية المستخدمة فى ذلك الوقت، أصبح مقتنعاً أكثر فأكثر بسهولتها وإمكانية استخدامها على نحو مفيد فى مجال الاتصالات الرمزية الحديثة. وبمواجهته صداً من رؤسائه لدى إعرابه عن تذمره تجاه رموز الشيفرة، قرر ياردلى الإصرار على المضى قدماً فى أمر اعتبره ملحاً: خلال فترة امتدت إلى بضعة شهور، تمكن ياردلى من حل كل رموز الشيفرة الأمريكية الموجودة، وكتب تقريراً تحت عنوان «شرح تفسيرى حول حل رموز الشيفرة الدبلوماسية الأمريكية». وانتهى ياردلى إلى استنتاج مؤداه أن الدول الأوروبية، المعروفة بقدرتها على كتابة رموز شيفرة من الدرجة الأولى، تملك بلا شك القدرة على قراءة رموز الشيفرة الأمريكية البسيطة بكل سهولة. وقام ياردلى، على نحو غير مهذب، بعرض هذا التقرير على رئيسه، الذى صادف أن كان الرجل الذى وضع رموز الشيفرة فى بادئ الأمر. ومن أجل تعزيز فكرته، ذهب ياردلى إلى مكتب هذا الرجل، وفتح خزانته الحديدية، التى كان رقمها التوافقى، كما اكتشفت ياردلى، قائماً على أساس رقم تليفون خطيبة الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون.

وأنتقلت كلمة ياردلى حول أعماله الفذة إلى المؤسسة العسكرية الأمريكية الصغيرة، وفى ١٩١٧، حينما دخلت أمريكا الحرب، قام الكولونيل رالف فان ديمان، رئيس إدارة الاستخبارات العسكرية فى الجيش بتجنيده وقتئذٍ. وفى أعقاب محادثة استغرقت ١٥ دقيقة مع ياردلى، انتهى فان ديمان إلى استنتاج مؤداه أنه الرجل الذى يمكن أن يجعل الولايات المتحدة فى مقدمة الدول فى موضوع كتابة رموز الشيفرة. وجرى تكوين وحدة استخبارات عسكرية جديدة، أطلق عليها «إم آى ٨»، من أجل

ياردلى، الذى حصل على تفويض عسكرى بتجنيد وتدريب مجموعة من أفضل العقول، ثم إرسالهم إلى فرنسا.

وبعد ذلك، بدأ ياردلى واحدة من أشد الأعمال إثارة فى تاريخ الاستخبارات الأمريكية، وأشدها مأساوية أيضاً.

وبالنظر إلى كونه رجلاً نشيطاً جداً، فإن ياردلى، خلال فترة زمنية قصيرة، تمكن من تكوين مجموعة من كتاب رموز الشيفرة المدربين فى منظمة وضع خطوطها العريضة وفقاً لنموذج «الغرفة المظلمة» الفرنسية الشهيرة فى زمن الحرب، وكانت واحدة من ألمع منظمات كتابة رموز الشيفرة فى العالم. ومع حلول ١٩١٨، أضاف ياردلى سجلاً رائعاً من خلال القيام بجهود أسفرت عن حل رموز الشيفرة الألمانية المستخدمة فى الاتصال مع الجواسيس فى فرنسا، وبالنتيجة، أمكن إلقاء القبض على كل جاسوس ألمانى جرى إرساله إلى فرنسا.

وفى نهاية الحرب العالمية الأولى، تقرر الاستغناء عن خدمات «إم آى ٨» ضمن موجة تقليص الخدمات اللاحقة على الحرب، غير أن ياردلى وأعمال مجموعته البطولية كانت معروفة جيداً عند المستويات العليا من الحكومة، حتى أن ترتيبات لم يسبق لها مثيل جرى إعدادها: «إم آى ٨» يمكن أن تستمر فى العمل تحت غطاء شركة تجارية مدنية صانعة للرموز، وتتلقى الأموال على نحو سرى من وزارة الخارجية الأمريكية. وبالنظر إلى حقيقة بناء مقرها فى مدينة نيويورك بالحجر الأسود، فإن ياردلى أطلق، على نحو غير رسمى، على مجموعته «الغرفة المظلمة»، تقديراً للمنظمة الفرنسية التى علمت الأمريكيين الشئ الكثير.

وبدأ ياردلى فى تقليب نهر من أوراق صفراء جاء فيها: «نحن نتعلم من مصدر كان يعتبر موثوقاً به فى الماضى..»، واستمر مع نص الرسائل الفعلية وفق منهج «الغرفة المظلمة» فى حل رموز الشيفرة. وأصبحت رموز شيفرة عدد كبير من الدول صفحة ومعروفة أمام جهود ياردلى، وفى أواخر ١٩١٩، وبناء على أوامر من وزارة الخارجية، لجأت «الغرفة المظلمة» إلى تركيز جهودها على رموز شيفرة اليابان، التى

كانت تعتبر عدواً محتملاً للولايات المتحدة. ومن واقع صعوبة اللغة اليابانية وتعقيدات رموزها، فإن الغرفة المظلمة استغرقت حوالى عامين فى حل رموز الشيفرة، ووفق ما جاء على لسان ياردلى فى وقت لاحق، فإن الحل جاء إليه ذات ليلة فى حلم.

وعلى أية حال، فإن الحل جاء فى الوقت المناسب القيام بدور فى واحدة من أشد الظواهر الدبلوماسية إثارة فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية، وهى ظاهرة جعلت ياردلى بطلاً ومنبوذاً معاً.

وفى ١٩٢١، بدأ مؤتمر واشنطن للحد من القطع البحرية، بهدف تخفيض الأساطيل البحرية فى العالم عن طريق نظام النسبة والتناسب: كل دولة يمكن أن يسمح لها بعدد معين من القطع البحرية الرئيسية يتناسب مع حجم الأساطيل البحرية الأخرى. والافتراض من وراء ذلك هو أن الدول البحرية مثل الولايات المتحدة يمكن أن تحتاج إلى أساطيل أكبر لحماية مصالحها بالمقارنة مع الدول الأصغر. وكانت اليابان مشاركة فى هذا المؤتمر، ولكنها كانت عاقدة العزم على الحصول على نسبة قريبة جداً من نسبة الأسطول الأمريكى.

وكان المفاوضون اليابانيون تلقوا تعليمات بالتمسك فى موقفهم عند نسبة ١٠ :٧ (٧٠٠,٠٠٠ طن سفينة حربية يابانية مقابل ١,٠٠٠,٠٠٠ طن سفينة حربية أمريكية)، ولكنهم تلقوا أيضاً تعليمات أخرى بالتوصل إلى حل وسط عند نسبة ١٠ :٦ لو اتخذ الأمريكيون موقفاً متصلباً فى الرأى. وهذا بالضبط ما سعى المفاوضون الأمريكيون إلى التمسك به فى موقفهم، وذلك على ضوء المعلومات الاستخباراتية التى قدمها ياردلى من رسائل الشيفرة المتبادلة بين المفاوضين اليابانيين ورؤسائهم فى طوكيو، التى أفادت أن الأمريكيين يتمسكون بموقفهم بشدة. وفى نهاية الأمر، أذعن اليابانيون، وبرهنت النتائج على كونها مذهلة. وبعد حوالى ١٥ عاماً، قام اليابانيون بإلغاء المعاهدة من جانب واحد، ولكن فى ذلك الوقت سبق السيف العذل، وفى الفترة القصيرة السابقة على عملية بيرل هابر. لم تستطع اليابان التعويض عن الوقت الضائع وبناء قوة بحرية قادرة على تحدى التفوق البحرى الأمريكى.

الشيفرة، ولكن هذا لم يعمل على إنقاذ الغرفة المظلمة: فى ١٩٢٩، عرف وزير الخارجية الأمريكى الجديد، المحافظ هنرى ستيمسون، مصدر تلك الأوراق الصفراء التى كشفت بالضبط عن ما يدور فى فكر الدبلوماسيين فى الدول الأخرى. وفى ظل شعوره بالصدمة، قرر ستيمسون إغلاق الغرفة المظلمة من خلال كلمات فلسفية ظلت تنتابه خلال بقية حياته : «يا أيها السادة، لا تقرأوا رسائل بعضكم بعضاً».

وخلال فترة وجوده بدون عمل، عانى ياردلى من ضربة أخرى، حينما ضاعت النقود التى استثمرها فى سوق الأوراق المالية بسبب الانهيار العام فى الأوضاع الاقتصادية. ومن خلال محاولة للإنفاق على عائلته، كتب ياردلى كتاباً شعبياً جداً تحت عنوان : «الغرفة المظلمة الأمريكية» وأثار هذا الكتاب غضب الحكومة الأمريكية، وحينما حاول ياردلى كتابة كتاب آخر تحت عنوان : «الأسرار الدبلوماسية اليابانية»، ذهب النائب العام الحكومى إلى المحكمة، وحصل على حكم كان بمثابة نقطة تحول وقام على تأييد حق الحكومة فى قراءة كتابات عملاء الاستخبارات قبل نشرها. وكانت الحكومة الأمريكية شعرت بغضب شديد من جراء كتاب «الغرفة المظلمة الأمريكية»، ولا عجب فى ذلك: هذا الكتاب كشف النقاب عن السر الأعظم عند الاستخبارات الأمريكية، وهو كشف جعل كل الدول التى قرأ ياردلى شيفراتها تلجأ إلى ضبط نظامها فى كتابة رموز الشيفرة بإحكام (ومن بين هذه الدول كانت اليابان، حيث كان كتاب ياردلى من أكثر الكتب رواجاً. وفى ظل شعورها بالصدمة حينما عرفت مدى سهولة قراءة رموزها للشيفرة، قررت الحكومة اليابانية إصلاح نظامها لرموز الشيفرة، وفى نهاية الأمر صنعت ماكينة شيفرة معقدة أطلق عليها الأمريكيون الاسم الرمزى «بيربل». وهذه الماكينة جعلت خبراء رموز الشيفرة فى الجيش الأمريكى يبذلون جهوداً عملاقة من أجل حل رموز الماكينة، ونتيجة لذلك، تمكن الأمريكيون من قراءة كل الرسائل الدبلوماسية اليابانية رفيعة المستوى قبل وخلال الحرب العالمية الثانية).

واعترف ياردلى بأنه لم يعد يبدى اهتماماً تجاه كل هذا الجدل، مفضلاً استغلال طاقاته فى عمل تجارى. ولكن أياً كانت مواهبه فى حل رموز الشيفرة، فلم يكن

ياردلى رجل أعمال ناجحاً. وكل مشروع حاول البدء به، كان مصيره الفشل، بما فيه ذلك الفشل الدراماتيكى الذى تضمن اختراعه حبراً سرياً غير قابل للاكتشاف، وعلى الأخص فى وقت اتضح فيه أن سوق هذا الحبر كان غامضاً.

وفى ١٩٣٨، حينما كان فى حاجة ماسة إلى النقود وقتئذ، اضطر ياردلى إلى العودة إلى ذلك المجال الذى جعله يكتسب شهرة كبيرة، ووافق على قبول وظيفة للعمل لحساب الزعيم الصينى شيانج كاى – تشك فى حل رموز الشيفرة العسكرية اليابانية. و هذا التعيين فى تلك الوظيفة آثار غضب اليابانيين، الذين بدأوا فى اعتبار ياردلى خصماً رهيباً. وبعد عملية بيرل هاربر، عرض ياردلى خدماته على واشنطن، ولكن الحكومة الأمريكية، التى كانت غاضبة منه بسبب كتابه فى ذلك الوقت. لم توافق على عرضه. وحاول الكنديون، من واقع اهتمامهم الخاص بهم فى تطوير جهودهم فى حل رموز الشيفرة، استخدام ياردلى، ولكنهم سرعان ما تخلوا عن المحاولة تحت ضغوط قوية من الحكومة الأمريكية.

وفى ظل شعوره بالمرارة، اضطر ياردلى خلال الحرب إلى قبول وظيفة متواضعة فى مكتب إدارة الأسعار. وبعد الحرب، اختفى فى عالم الغموض، وكتب كتاباً عن عمله فى الصين، ثم كتب كتاباً آخر، وفى هذه المرة كان عبارة عن دراسة حول لعبة البوكر، وما زال هذا الكتاب فى مرتبة أعظم الأعمال التى كتبت حول هذا الموضوع. وبالنظر إلى كونه سكيراً كبيراً، فإن عادة الشرب بدأت فى التأثير على صحة ياردلى، ومات فى ١٩٥٨. واتجه الرأى العام الأمريكى إلى نسيانه، ولكن الحكومة الأمريكية لم تفعل ذلك، وذلك على الرغم من أن حقدها الطويل أصبح فاتراً فى المدة الأخيرة إلى حد ما. وهكذا، فإن الملازم السابق هيربرت ياردلى، الرئيس السابق لوحدة الاستخبارات «إم آى ٨»، التابعة لدائرة الاستخبارات العسكرية فى الجيش الأمريكى، الرجل الذى أحدث ثورة على نحو مخلص فى نظام الشيفرة الأمريكية، وأوجد القاعدة الأساسية للانتصارات العظيمة التى حققتها الولايات المتحدة فى حل رموز الشيفرة فى الحرب العالمية الثانية، جرى دفنه فى مقبرة أرلينجتون الوطنية مع كل أوسمة الشرف العسكرية.

إريك إريكون

الخائن الزائف

١٨٩١ - ١٩٨٣

فى أحد أيام الخريف البارد فى ١٩٤٤، كان هناك سلاح جعل ألمانيا النازية مقتنعة بأنه سوف يغير مجرى الحرب العالمية الثانية تدريجياً عند انطلاقة من موقعه فى أحد المطارات العسكرية فى جنوب ألمانيا. وهذا السلاح هو الطائرة المقاتلة من طراز «إم ئى - ٢٦٢» التى كانت جاهزة للقيام بأول تحليق لها فى الجو.

وكانت ألمانيا مقتنعة بأن هذه الطائرة فى حالة نشرها، سوف تعمل على تغيير مجرى الحرب الجوية الآخذة إلى تحطيم ألمانيا إلى أجزاء. وهذه الطائرة المقاتلة الجديدة، وهى أسرع من الطائرات المقاتلة التى كانت ترافق الطائرات القاذفة البطيئة التابعة للحلفاء، من شأنها إسقاط القاذفات البطيئة. ولو أمكن تجنيب ألمانيا من هجمات طائرات الحلفاء القاذفة، فربما كان من الممكن أن تنجح الصناعة الألمانية فى صنع هذا «السلاح العجيب» وجعل ألمانيا تنتصر فى الحرب فى نهاية الأمر.

ولكن الظروف التى أحاطت بعملية ظهور الطائرة «إم ئى - ٢٦٢» فى المطارات العسكرية أكدت الأسباب التى جعلت ألمانيا لا تعقد الأمل على الانتصار فى الحرب، ناهيك عن الانتصار فى الحرب الجوية. وكان انتصار العقلية التكنولوجية الألمانية يتوقف على وجود مجموعة من الثيران لاستخدامهم فى جر هذه الطائرة فى

المطارات العسكرية. وحتى لو تمكنت من الإقلاع، فيمكنها أن تحلق في الجو لبضع دقائق فقط، ذلك أن ألمانيا كانت تعاني من نقص حاد في مخزون وقود الطائرات. وعلى مسافة بضعة أميال، كان المصنع الذى ينتج الطائرات «إم ئى - ٢٦٢»، يجد صعوبة في الحصول على قطع الغيار والمواد الخام، وذلك بسبب أن الشاحنات التي تقوم بنقلها لا تجد وقوداً كافياً. وحتى لو كان من الممكن تحقيق الحد الأقصى من الإنتاج، فلم تكن هناك كميات كافية من الوقود لجعل هذه الطائرة محمولة جواً.

وكل هذه المشاكل لحقت بألمانيا بينما كانت في وضع لا تحسد عليه في ١٩٤٤ : الافتقار إلى النفط. وكان الافتقار إلى وجود كميات كافية من النفط عاملاً حاسماً في تحطيم ماكينة الحرب الألمانية. وهناك رجل واحد مسؤول عن هذه الحقيقة، وهو رجل تمكن من تحويل إمدادات ألمانيا من النفط إلى مجرد قطرات، إنه الرجل الذى لم يشك الألمان به لحظة واحدة، ويدعى إريك إريكسون.

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية، كان إريكسون في الثامنة والأربعين من العمر، ويعمل في تجارة النفط، ويسافر باستمرار إلى معظم أنحاء العالم لعقد صفقات مختلفة، ومثله كمثل معظم رجال الأعمال، فإن إريكسون أحب عالم النفط الغامض والمتقلب. وكان إريكسون ولد في بروكلين، وهاجر إلى السويد في ١٩٢٤، حيث بدأ في تأسيس شركة خاصة به لإنتاج النفط. وكان يلقب «الرجل الأحمر» بسبب شعره الأحمر، وهو رجل قوى البنية، وهادئ الطبع، وربما كان أفضل ما يروق له هو تلقيه دعوة من أصدقائه من رجال صناعة النفط لتبادل الحديث معهم حول آخر عمليات التنقيب عن النفط في الخليج.

ولكن المظاهر الخارجية كانت تخفى وراءها رجلاً داهية يؤمن بقناعات أخلاقية ثابتة. وهذا هو السبب الذى جعل أصدقاءه حائرين في ١٩٣٩، بعد وقت قصير من إندلاع الحرب، تجاه تحوّل إريكسون المفاجئ نحو الدفاع عن القضايا النازية. وما زاد من حيرتهم أكثر من ذلك هو أن إريكسون، الذى لا يعرف عنه أى تحامل ضد أحد، بدأ في إتخاذ مواقف صريحة معادية للسامية، وتوقف عن التحدث

مع أصدقائه اليهود، حتى أنه حاول ذات يوم توجيه إهانة علنية إلى أحد رجال الأعمال اليهود فى أحد المطاعم. ولو أضيف إلى ذلك إعجابه الواضح بشخصية هتلر، فمن السهل التأكد من أن هذا التحوّل أدى إلى إبتعاد جميع أصدقائه عنه، واعتباره رجلاً غريب الأطوار. وبالنتيجة، حرص الجميع على تجنب الذهاب إلى بيته فى ستوكهولم، خشية سماعهم عبارات التقريع بكونهم يهوداً قذرين أو عبارات المديح لشخصية وسياسات أدولف هتلر.

وكانت هناك مجموعة واحدة من الرجال فى ستوكهولم الذين لم يجدوا غرابة فى مثل هذا السلوك. وفى واقع الأمر، فهذه المجموعة كانت تراقب بسعادة بالغة إهتمام إريكسون المتزايد بالأيديولوچية النازية. ولاحظ الرجال فى محطة وكالة الاستخبارات النازية فى السفارة الألمانية فى ستوكهولم تحوّل إريسكون المفاجئ نحو اليمين. وهذه الملاحظة أثارت إحتمالات: المانيا فى حاجة ماسة إلى النفط، وإريكسون، أحد الخبراء البارزين فى العالم فى هذا المجال، يمكن أن يكون جاسوساً نافعاً. وجرت معه مفاتحة مترددة وحذرة: هل يبدى الهر إريكسون إهتماماً فى مساعدة النظام النازى؟ وكان رد إيكسون بالإيجاب.

وهكذا، أخذ الألمان الطعم المنتظر. وفى حقيقة الأمر، فإن إريكسون كان يشعر بالإشمئزاز تجاه النازيين، ولكنه تلقى تعليمات بوجوب تكوين صورة ظاهرية مؤيدة للنازية كسبيل إلى حمل وكالة الإستخبارات النازية على إختيارة جسوساً نافعاً. وقبل بضعة شهور، كان أحد الدبلوماسيين الأمريكيين، وهو لورانس شتينهارت، تحدث إلى إريكسون وهو فى طريقة إلى موسكو لتولى مهاّم أعماله كسفير للولايات المتحدة لدى الاتحاد السوفييتى. وانتهى شتينهارت، الخبير فى شؤون النفط، فى حديثه مع إريكسون، إلى قناعة مؤداها أن الحرب بين الدول الصناعية الكبرى سوف تكون مرتبطة بقضية النفط إلى حد كبير، وأن الدولة التى تملك كميات كافية من النفط لتزويد طائراتها ودباباتها بالوقود وتحافظ على إستمرارية دوران عجلة صناعاتها، سوف تنتصر فى الحرب. واقترح شتينهارت خطة جريئة: إذا ما إتخذ إريكسون مظهراً مؤيداً للنازية، فإنه بذلك يسمح للألمان باختياره خبيراً معيناً لهم ومستعداً لتقديم

النصيحة إلى النظام الألمانى حول إنتاج النفط. وربما يؤدى هذا، فى مرحلة معينة، إلى قيام إريكسون بالاطلاع على التسهيلات الالمانية لانتاج النفط.

وهذا ما أرادت الاستخبارات الأمريكية معرفته. ومنذ الحرب العالمية الأولى، حقق الألمان تقدماً كبيراً فى مجال تكنولوچيا النفط الصناعى من بين دول العالم، وهى عملية صناعية تقوم على تحويل الفحم إلى نفط صناعى. وهذه العملية تؤدى إلى تقليص الإعتماد على النفط الخام المستورد الذى يحتمل توقف تدفقة بسهولة فى أيام الحرب، وذلك على الرغم من أن تكاليف هذه العملية الصناعية باهظة. وأراد الأمركيون أن يعرفوا مدى تطور صناعة النفط الصناعى فى المانيا، ثم، وهذا هو الأهم، وكان وجود المصانع (هذه المصانع كانت خاضعة لرقابة أمنية مشددة، حتى أن الاستخبارات البريطانية والأمريكية لم تكن لديها معلومات كثيرة عنها).

ومع نهاية ١٩٣٩، بدأ إريكسون فى القيام بجولات مكوكية منتظمة إلى المانيا النازية من أجل التشاور مع خبرء النفط. وفى ظل تميزّه بذاكرة قوية، إستطاع إريكسون أن يتذكر كل تفاصيل رآها أو سمع عنها: فى كل عودة إلى ستوكهولم، كان إريكسون يجلس مع مسؤولين فى وزارة الخارجية الأمريكية، وينقل إليهم هذه التفاصيل.

وفى واقع الأمر، كما إكتشف إريكسون نفسه فى وقت لاحق، فلم يكن هناك الشئ الكثير الذى يمكن أن يقدمة إريكسون إلى الالمان فى هذا المجال، ذلك أن صناعة النفط الصناعى فى المانيا كانت متطورة جداً، وذلك إلى الحد الذى جعل هتلر يعتقد أنه يمكنه تغطية كل احتياجات ماكينة الحرب الالمانية من النفط عن طريق مصانع النفط الصناعى. ولكى يجعل اللعبة ماضية فى طريقها، إقترح إريكسون فكرة جديدة، وشعر رئيس وكالة الاستخبارات النازية هينريش هيملر بالارتياح تجاهها: السويديون سوف يقومون ببناء مصنع ضخم لانتاج النفط الصناعى فى السويد، مستخدمين فى ذلك رأس المال الألمانى. وبذلك، ففى حالة تعرض المصانع الالمانية للتدمير أو إصابتها بأضرار مادية بالغة، يكون لألمانيا مصدر آخر للنفط.

وكما توقع إريكسون، فإن هذه الفكرة جعلت الألمان يوافقون على قيام إريكسون بسلسلة متواصلة من جولات تفقدية إلى مصانعهم النفطية، والغرض من ذلك هو جعل إريكسون عارفاً بالتكنولوچيا الألمانية، تمهيداً لبناء مصنع فى السويد. ومع حلول ١٩٤٣، أصبح إريكسون يملك صورة كاملة عن مواقع المصانع الالمانية. وليس من قبيل المصادفة فى شئ القول إن مواقع هذه المصانع بدأت بعدئذٍ تتعرض لهجمات القاذفات الأمريكية المركزة. ولم تكن القاذفات الأمريكية تعرف بالظبط مواقع هذه المصانع فحسب، وإنما كانت أيضاً دقيقة فى إصابة أهدافها، وعلى الأخص بعد قيام الالمان بإعادة تشغيل هذه المصانع.

ولم يفكر الألمان فى ذلك الارتباط القائم بين هجمات القاذفات الأمريكية الدقيقة وبين حضور إريكسون إلى مواقع هذه المصانع. وفى هذه الأثناء، عكف إريكسون على بينما كان الألمان يدفعونه إلى إستكمال الترتيبات اللضرورية لبناء مصنع جديد فى السويد. وكان شعورهم بالقلق أمراً مفهوماً جيداً، ذلك أنهم بدأوا يعرفون أن إنتاجهم من النفط الصناعى بدأ فى التناقص التدريجى.

ومع حلول منتصف ١٩٤٤، بدأ إنتاج المانيا من النفط الصناعى فى النضوب، وبدأت ماكينة الحرب الالمانية تحصل على إحتياجاتها من مخزون النفط الاحتياطى الاستراتيچى مباشرة. ومع نهاية ذلك العام، إنهارت صناعة النفط الصناعى فى المانيا على آخرها.

وهكذا، إنتهت مهمة إريكسون. ولم تعد هناك أية جدوى من قيامة بالمزيد من الجولات التفقدية إلى المانيا، وذلك لعدم وجود شئ يمكن أن تهاجمه القاذفات الأمريكية. وبينما عكف الالمان على إعداد مجموعة من الثيران لجر أعجوبة التكنولوچيا، الطائرة «إم ئى – ٢٦٢»، على مدرج الطائرات، كان إريكسون ضيف الشرف فى حفل غداء فى ستوكهولم أقامة تكريماً له أصدقاؤه الأمريكيون. وأثناء حفل الغداء، جرى الإعلان صراحة عن أن إريكسون لم يكن مؤيداً للنازية، وإنما إتخذ مظهراً مخادعاً للقيام بذلك «العمل العظيم» لحساب الحلفاء. وظل هذا العمل العظيم غير

محدد بدقة، ولكن الحقيقة الهامة هى أن إريكسون أعاد علاقته الطيبة مع أصدقائه القدامى الذين تعامل معهم باحتقار مقصود من أجل توفير غطاء محكم لمهمته.

ومع انتهاء الحرب، عاد إريكسون إلى تجارة النفط، ووصفه دوايت إيزنهاور بأنه الرجل الذى عمل على «تقصير مدة الحرب بعامين على الأقل». وكتب إريكسون كتاباً عن دوره فى الحرب، وكان واحداً من اكثر الكتب رواجاً، غير أن إريكسون أخذ معه إلى القبر سراً واحداً حينما مات فى ١٩٨٣: قائمة بأسماء السويديين الذين وافقوا فى السر على التعاون مع الحكومة النازية فى حالة قيام المانيا بغزو السويد. وبناء على رغبة إيزنهاور، حرق إريكسون تلك الوثيقة من أجل إحباط أية محاولة ضد المنشقين.

إلزبيث شراجموللر

الدكتورة الحسناء

الأسماء المستعارة : هينريشسن،

كريستيانسن، رينموللر

١٨٩٤ - ١٩٣٩

أظهر ذلك الرجل الذى كان فى قبضة اثنين من رجال البوليس العسكريين الأقوياء شعوراً عاطفياً بائساً ومحزناً معاً حينما عرف أنه فى طريقه إلى إطلاق النار عليه لكونه جاسوساً. وبمواجهته مسؤولاً بريطانيا متجهم الوجه جالساً وراء مكتب فى وقت أخذت فيه الأمطار الشديدة فى ذلك الصيف الرطب من ١٩١٥ فى الهطول على الخيمة من غير انقطاع، حاول الرجل تجنب النظر إلى مجموعة الأوراق التى تحمل فى طياتها دلائل أفعاله التجسسية: رسالة بريئة المظهر تضمنت كتابة غير مقروءة مكتوبة بين السطور، وبطاقة هوية بلچيكية تبين أنها بطاقة مزيفة، وقصاصات صغيرة من أوراق مكتوبة بكلمات رمزية جرى العثور عليها فى باطن حذائه.

وقدم المسؤول البريطانى عرضاً: إذا قال الجاسوس كل ما يعرف، فسوف يعامل كأسير حرب، ويوضع فى أحد مخيمات السجون، وإذا لم يقل، فسوف يطلق عليه الرصاص فى غضون ٢٠ دقيقة. ولم يتردد هذا الجاسوس، المولود فى بلچيكا والمجنّد

لحساب الألمان لحظة واحدة، وبدأ فى الكشف عن حكايته.

وفى نظر مسؤول الاستخبارات فى الجيش البريطانى، فإن حكايته كان لها رنين مألوف، والسبب فى ذلك هو أنه إستمع إلى عشرات الحكايات المماثلة من قبل. وكانت الحكايات كلها واحدة: عرض بالتجسس لحساب الألمان، واستدعاءات غامضة فى سكون الليل، وجولة فى سيارة تحت ظلال الأشجار، ووصول إلى بناية فى أنتويرب البلچيكية الواقعة تحت الاحتلال الألمانى، وترحيب من إمرأة أعلنت أنها سوف تكون المدربة فى مدرسة التجسس. وكانت إمرأة طويلة، شقراء، بعيون زرقاء ثلجية لم ير مثلها من قبل. ومثلها كمثل الرقيب المعنى بالتدريب العسكرى، أعلنت بصوت عال عن الأوامر التى سوف تحكم تصرفاته خلال الشهور الثلاثة القادمة: سوف يعرف فقط باسم رمزى، ولن يتحدث مع آخر فى المدرسة، وسوف يتدرب لمدة ١٢ ساعة فى اليوم على فنون التجسس، وسوف يمضى بقية ساعات اليوم محبوساً فى غرفة، وإذا ما تبين أنه خريج ناجح فى هذا النظام، فسوف يرسل خلف الخطوط البريطانية للعمل كجاسوس، وأية انتهاكات لهذه القيود سوف ينشأ عنها تنفيذ حكم الإعدام ضده فوراً.

ومثله كمثل معظم الجواسيس الذين تلقوا تدريبات فى مدرسة التجسس، فهو شعر بالرعب من هذه المرأة الشقراء التى تصرخ وتزعق على المجندين. ولم يكن يعرف إسمها، غير أن هناك كانت إشاعة بأنها إكاديمية وحاملة شهادة الدكتوراة فى العلوم الاقتصادية. وكما هى العادة عند الالمان، التى تقضى بوجوب مخاطبة الذكور الحاملين لشهادة الدكتوراة بلقب الهر الدلتور إحتراماً لهم، فإن هذه المرأة معلمة الجواسيس، غير المتزوجة كما يعرف عنها، كانت معروفة عند المتدربين بلقب «الدكتورة الحسناء».

وكانت دكتورة حسناء بالفعل، حتى أنها أصبحت خالدة الذكر فى عالم التجسس. ولم يحدث حتى بعد إنتهاء الحرب أن اكتشف البريطانيون أن اسمها الحقيقى كان إلزبيث شراجموللر، وعلى الرغم من سمعتها كمعلمة صارمة (علاوة على التلميح

بخلفية عسكرية محتملة)، فإن تاريخها الحقيقى كان عادياً إلى حد بعيد.

وفى ١٩١٤، كانت شراجموللر، البالغة من العمر ٢٠ عاماً وقتئذٍ، إنتهت لتوها من دراستها العليا فى العلوم الاقتصادية فى جامعة فريبيرج (أطروحتها كانت حلول نقابات التجار والصناع فى القرون الوسطى)، وحينما إندلعت الحرب، قدمت خدماتها متطوعة. ومن واقع كونها وطنية ألمانية متحمسة، فإن شراجموللر كانت إقترحت فى الواقع على مجنديها العسكريين وجوب تلقيها تدريبات فى صفوف قوات المشاة وارسالها للقتال كجندى عادى فى خطوط الجبهة. وكان هذا أمراً ممكناً، ولكن بسبب قدرتها على التحدث بأربع لغات بطلاقة، تقرر إرسالها إلى مكتب رقابة المطبوعات التابع للجيش فى بروكسيل الخاضعة للاحتلال الالمانى، وهو عبارة عن موضع خلفى منعزل حيث تقوم مجموعات من الرجال والنساء بمراقبة الرسائل البريدية.

وتمكنت شراجموللر الممتلئة حيوية من تحويل مهمتها المملة إلى عملية إستخبارات ناشطة ومتجددة. وكان مما أثار دهشة رؤسائها هو أنها أوضحت كيفية إستخدام الرسائل البريدية من جانب جواسيس أذكياء حاولوا إرسال قدر هائل من المعلومات الاستخباراتية من خلال رسائل لا تثير شكوكاً من حولها. وقالت شراجموللر إن رجلاً كتب إلى إبن اخته رسالة عن مزرعة العائلة، وهذا الرجل ربما كان جاسوساً، ذلك أنه ذكر حكايات تفصيلية عن عدد الخنازير والدجاج والابقار فى المزرعة. ومن الواضح أن هذه الحكايات كانت تشير إلى أنواع وأعداد الوحدات العسكرية الألمانية التى شاهدها. وهناك رسالة أخرى من إمرأة ذكرت فيها عدد القوارب البحرية التى شاهدتها حين قيامها بجولة إلى شاطئ البحر. ومن الواضح أنها كانت فى الحقيقة تتحدث عن عدد السفن الحربية الالمانية التى شاهدتها فى المنطقة. وبرهنت شراجموللر، من خلال طريقة خاصة بها فى عرض المعلومات الاستخباراتية أذهلت بها الحاضرين، على كيفية نجاحها فى تطوير نظام تحليل النصوص المكتوبة وتغيير معانيها من كونها معلومات عن تشكيلات عسكرية المانية الى كونها معلومات عن إشاعات عائلية عديمة الجدوى.

وسرعان ما وصلت كلمة عن هذه الأعمال الفذة إلى المستويات العليا فى الاستخبارات العسكرية الألمانية، التى إستنتجت أنه من الأفضل إستغلال مواهب شراجموللر فى مهمة ذات مسئوليات أعظم. وكان لدى شراجموللر مهمة فى عقلها: أرادت أن تشتغل فى مدرسة التدريب على الاستخبارات العسكرية فى أنتويرب. وأعربت شراجموللر عن تذمرها من أن المدرسة ليست جيدة فى التدريب: ضباط الجيش لديهم حد أدنى من الخبرة فى الشؤون الاستخباراتية يقومون بتدريب مجندين بطريقة غير مدروسة جيداً على أساليب التجسس، ثم يتركونهم وشأنهم، كل وفق طريقته الخاصة به، وفى الأعم الأغلب، لا يسمع أحد عنهم شيئاً.

وفى ظل تأثرهم بتصميمها وجرأتها، قرر المسؤولون فى الإستخبارات العسكرية الالمانية تقديم المهمة لها. وفى غضون شهر، أصبحت البناية الضخمة فى ١٠ شارع بيبينيه (وهو عنوان تعلم البلجيكيون الخوف منه بسبب إمكانية إلقاء القبض عليهم لو أظهروا إهتماماً بالمكان) تعج بالنشاط. وأدخلت شراجموللر منهجاً جديداً للدراسة، تراوح عند العدو وبين دروس حول كيفية كتابة رموز الشيفرة. ولم يكن هناك أحد من بين المئات من المجندين الذين تلقوا المنهج الجديد فى الدراسة كان يمكن أن ينسى تلك المرأة التى اطلقوا عليها «عيون النمر»، المرأة الشقراء فى لباس الجيش الالمانى، التى تحمل مسدساً وسوطاً صغيراً، ولا تتردد فى إستخدامهما ضد الطلاب الأغبياء. وفوق هذا كله، فهم عرفوا أن شراجموللر ليست المرأة التى يمكن أن يمزح معها أحد، ذلك أنها يمكن أن تلقى نظرة حاقدة إلى طالب شارد الذهن، وحينما يتعاظم غضبها على وجه الخصوص، تميل إلى التلويح بمسدسها مهددة.

وسرعان ما عرف المسؤولون فى دائرة مكافحة الاستخبارات البريطانية فى الجبهة الغربية أن هناك قوة جديدة دخلت عمليات الاستخبارات الالمانية. وبدأ هؤلاء المسؤولون يظهرون دلائل على أن الجواسيس الالمان تمكنوا من التغلغل إلى بعض القنوات، ومما جعل الأشياء أشد صعوبة هو أنه كانت هناك مجموعة كبيرة من المتدربين الممتازين. وشيئاً فشيئاً، سمع البريطانيون أيضاً عن «الدكتورة الحسناء»، وقاموا بتنفيذ سلسة عمليات من أجل التغلغل إلى عملياتها والتعرف عليها. ولكن

البريطانيين لم ينجحوا أبداً، ذلك أن شراجموللر كانت خبيرة فى تغيير هوياتها، وعاشت فى عناوين مختلفة تحت مظاهر كاذبة متعددة، بما فيها شخصية المرأة الخادمة فى البيوت.

وفى غضون ذلك، ظلت شراجموللر تحرك بعنف الجواسيس الالمان المدربين جيداً، ويرجع الفضل فى ذلك إلى منهجها فى الدراسة الذى جعلها معروفة جيداً فى تاريخ الاستخبارات الحديثة، وفى واقع الأمر فإن كل وكالات التجسس الحديثة إستعانت بأفكارها ونظامها فى التدريب. وهى معروفة أيضاً بفكرتها الساخرة الخاصة بها التى أسهمت بها فى هذا المجال: «المنبوذ»، وهو عميل تجرى التضحية به على نحو مقصود كجزء من جهود لإخفاء عميل آخر، وهو عميل أكثر أهمية منه بالطبع. وكان أحد هؤلاء «المنبوذين» أكثر شهرة من معلمته.

وفى ١٩١٥، تقرر إرسالها لتدريب مجندة جديدة على عمليات التجسس النهائية على أعلى المستويات فى المجتمع الفرنسى، وهى إمرأة هولندية ممتلئة الجسم إكتسبت شهرة كراقصة غريبة تدعى ماتا هارى. ولم تخلف ماتا هارى (مارجريتا زيل) تأثيراً فى نفس شراجموللر، وبدت كأنها تواجه صعوبة فى فهم حتى أسهل الأفكار. وقالت شراجموللر عنها إنها «صدفة عديمة القيمة»، حتى أنها فقدت الأمل فى إمكانية أن تصبح ماتا هارى شيئاً ما فى المستقبل. (وتبين فى وقت لاحق أنها على صواب، ذلك أن شراجموللر هى التى زرعت تلميذتها الغبية فى دائرة مكافحة التجسس الفرنسية).

وفى ١٩١٨، فى أعقاب تحرير بلجيكا، عادت شراجموللر إلى المانيا، وهناك اختفت فى غموض مطلق. وفى تلك الأثناء، وفى ظل محاولات العملاء فى الاستخبارات البريطانية إفشاء الكثير من أسرار الحرب، أصبحت «الدكتورة الحسناء»، وماتا هارى أيضاً، واحدة من ألمع الجواسيس فى التاريخ. ورفضت شراجموللر كافة العروض فى المانيا لكتابة مذكراتها، مفضلة الحياة الهادئة وتوفير الرعاية إلى أمها العجوز (شراجموللر لم تتزوج أبداً)، والعمل كمحاضرة فى العلوم الاقتصادية فى جامعة ميونيخ. وظهرت لفترة قصيرة إلى الأضواء فى ١٩٣٢ حينما زعمت إمرأة فى

مصحة سويسرية للمدمنين على المخدرات أنها «الدكتورة الحسناء» الاسطورة. وكانت هناك جهود مفاجئة ناشطة فى الصحافة، حيث احتلت الحكايات عن شراجموللر صدر صفحاتها. وكانت بعض الصحف نشرت صورة، زاعمة أنها «الدكتورة الحسناء»، وهى صورة شقراء مثيرة تضع طاقية الجيش على رأسها وتلوح بالسيجار فى فمها.

وكانت هناك حكايات تجاوزت حدود المألوف، وفى غاية الأمر اضطرت شراجموللر إلى الخروج عن صمتها، ونفت حكاية إدمانها على المخدرات، وهى واحدة فقط من بين الحكايات الفاضحة التى نشرت فى ذلك الوقت. وعادت شراجموللر مرة أخرى إلى حياة الغموض، وماتت فى ١٩٣٩. وربما من الممكن أن يتصور المرء ماهية رد الفعل عند شراجموللر، قبل ٢٩ عاماً، لو كانت شاهدت الفيلم المثير للإعجاب «الدكتورة الحسناء»، الذى صور شخصيتها كمدمنة مخدرات سحاقية.

مارجريتا زيل

ماتا هارى ، عين الفجر

الاسم الرمزى: إتش ٢١

الاسم المستعار: ماتا هارى

١٨٧٦ - ١٩١٧

قال قاضى المجلس العسكرى، بحركة شبه مسرحية القصد منها إحداث تأثير فى حكم المجلس العسكرى، وملوحاً بأوراق تضمنت تحويلات مالية كثيرة من بنوك ألمانية إلى حسابات سويسرية خاصة بالمتهمة: وكيف يمكن لهذه المتهمة أن تفسر موضوع إستلامها ٣٠,٠٠٠ مارك المانى من مسؤول فى الاستخبارات الألمانية؟

وقالت مارجريتا زيل، بحركة هز الكتفين تعبيراً عن الاستهجان واللامبالاة: «كان هذا حبيبى، وكان ذلك ثمن خدمات».

وقال قاضى المجلس العسكرى «هذا المبلغ يبدو أكثر بكثير من قيمة أية هدية». وكان قال كلمة «هدية» بعد فترة انتظار قصيرة.

وردت زيل بحدة: «ليس بالنسبة لى». وفى تلك اللحظة صدر حكم ضدها، ولم يكن كبار الضباط فى العالم الذين يشكلون المجلس العسكرى الفرنسى على إستعداد لتصديق أنفسهم بأن ماتا هارى، أو زيل حين إستخدام اسم الشهرة، تتقاضى مثل ذلك

المبلغ الضخم مقابل ليلة رومانسية مثيرة واحدة. وقام هؤلاء الضباط بالتصويت بالإجماع بأن زيل جاسوسة تتقاضى الأموال من الألمان.

وبعد بضعة شهور، فى ١٥ أكتوبر ١٩١٧، تقرر أخذها للوقوف فى مرمى البندقية، وبعد رفضها وضع عصابة للعينين، وقفت أمام فرقة الإعدام عند الفجر، وجرى تنفيذ حكم الاعدام رمياً بالرصاص ضدها. وعلى الفور، أصبحت أسطورة. وخلال فترة إمتدت إلى أكثر من ٧٥ عاماً منذ ذلك الفجر، ظلت ماتا هارى محاطة بأوهام كونها أعظم وأجمل وأشهر جاسوسة فى كل العصور. وكانت موضوعاً لكتب ومقالات وأفلام سينمائية أكثر من أية جاسوسة أخرى. وهى تبقى الاسم المعترف به تلقائياً فى عقول العامة حينما يتصل الأمر بالجاسوسية.

ومع ذلك، فإن الحقيقة المثيرة للسخرية بدرجة كافية هى أن ماتا هارى لم تكن لغزاً مثيراً، ولم تكن جاسوسة عظيمة، وحين قول الحق، فلم تكن جميلة جداً، وجرى تكوين أسطورتها لأسباب تتصل بفنون إدارة شؤون الدولة، ذلك أنها حققت أهدافاً سياسية معينة، ولم تتصل كثيراً بفنون التجسس.

وخلال فترة طويلة، تركزت أسطورتها حول جذورها، التى يعرف عنها أنها تعود إلى جزيرة جاوا الأندونيسية، حيث أدى إرتباط بين رجل هولندى مغامر وإمرأة جاوية راقصة إلى ولادة إبنة جميلة. وكفتاة صغيرة، هكذا جاءت الرواية، تعملت الرقص الحسى، وأختارت اسم الشهرة ماتا هارى («عين الفجر» فى اللغة الجاوية) لنقل هذه الرقصات إلى العالم.

وفى حقيقة الأمر، فإن جذورها كانت عادية جداً. وكانت مارجريتا زيل ولدت فى ١٨٧٦ لأسرة هولندية من الطبقة المتوسطة. ودخلت مدرسة الراهبات، وفى الثامنة عشرة تزوجت من قبطان بحرى اسكتلندى يدعى ماكلويد. وذهبت معه إلى جزر الهند الشرقية، حيث إتضح أن ماكلويد كان سكيراً مزعجاً ورجلاً عنيفاً. وفى ١٩٠١، حين إنهيار الزواج، عاد الإثنان إلى هولندا، حيث جرى الاتفاق على الطلاق.

وبعد ذلك، أصبحت مارجريتا زيل الراقصة ماتا هارى. وفى كل أنحاء أوروبا،

قدمت دلائل على أن «الرقص الجاوى السرى المثير للشهوة الجنسية» يقوم فى الحقيقة على المحاكاة أكثر من كونه فناً من فنون جزر الهند الشرقية. ومهما يكن من أمر، فهى أثارت ضجة، وفى وقت كان فيه العرى العلنى أمراً نادراً، فإن زيل قدمت رقصات عَرّت فيها نفسها من سبع قطع من الملابس، وكشفت عن جسم عريان، فيما اعتبر عدد من الارستقراطيين والزعماء السياسين وكبار الضباط العسكريين ذلك أمراً مغرياً. وخلال فترة زمنية قصيرة، لم تصبح راقصة إستعراضية فحسب، وإنما كانت أيضاً عاهرة مرتفعة الأجر فى الاوساط الحاكمة فى أوروبا.

وهذه الحرية فى الوصول إلى الأوساط الحاكمة جعلتها مجندة طبيعية للاستخبارات، وقام الألمان، الذين لديهم جيوب عميقة، بتجنيدها بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبرهنت على كونها بارعة، ولذلك جرى إرسالها إلى مدرسة التجسس الالمانية الشهيرة فى أنتويرب، التى كانت تديرها «الدكتورة الحسناء» إلزبيث شراجمولار، وبعد ذلك تقرر إرسالها إلى فرنسا لإغواء المسؤولين الفرنسيين وجمع المعلوماتالاستخباراتية.

ولكن المسؤولين فى الاستخبارات الفرنسية كانوا يعرفون من قبل حقيقة ارتباطاتها مع الالمان. وحاول الفرنسيون إبعادها عن البلاد، غير أن زيل فاجأتهم من خلال الاعتراف بأنها على علاقة وثيقة مع بعض المسؤولين الألمان، مع أنها نفت أن تكون تجسست لحساب الألمان. وعرضت بعد ذلك أن تصبح عملية مزدوجة للفرنسيين. ولم يكن الفرنسيون يثقون بها، ولكن كمحاولة لاختبارها، قاموا بإرسالها إلى بلجيكا مع قائمة بأسماء سته عملاء ممن ينبغى الاتصال معهم. وفى غضون أسبوعين، قام الألمان بإلقاء القبض على أحد هؤلاء الستة واعدامه تبعاً لذلك.

وفى هذه الفترة، فمع أنها كشفت عن اسم جاسوس نافع فرنسى، فإن الالمان لم يكونوا يثقون بها أيضاً. وأصبحت شراجمرللر مقتنعة بأن محاولة زيل الكشف عن العميل الفرنسى لاتعدو أن تكون عملية كشف عن منبوذ لإخفاء عميل آخر أكثر أهمية، وذلك من أجل تعزيز مكانتها، وهى جزء من عملية فرنسية أعظم للتغلغل فى صفوف

الاستخبارات الالمانية. وبناء على ذلك، قام المسؤولون فى الاستخبارات الالمانية بإعادتها إلى فرنسا، وأعلنوا عن هذه الخطوة عن طريق رسالة منقولة بالراديو إلى جواسيس نافعين آخرين فى فرنسا، وهى رسالة عرف الالمان أن الفرنسيين قاموا بحل رموزها. وحينما عادت زيل إلى فرنسا، جرى إلقاء القبض عليها بتهمة التجسس، ذلك أن الرسالة التى أمكن حل رموزها ألمحت إلى وصول «إتش ٢١» الوشيك (وهو اسم زيل الرمزى عند الاستخبارات الالمانية)، كما كانت هناك تفاصيل كافية أخرى جعلت أى مسؤول فى مكافحة الاستخبارات الفرنسية يستدل على أن الاسم الرمزى كان يشير إلى زيل.

ولم يكن هناك وقت أسوأ من ذلك بالنسبة لها لإلقاء القبض عليها. وكان الفرنسيون، الغارقون فى ذلك الوقت فى حركة تمرد فى الجيش، فى حاجة إلى كبش فداء مناسب لتبرير كوارثهم العسكرية فى الجبهة. وكانت ماتا هارى كبش الفداء المناسب، ذلك أنها وصفت فى ذلك الوقت من جانب الفرنسيين على أنها الجاسوسة الأعظم فى كل العصور، المرأة التى تمكنت من الحصول على كل أسرار القيادة العليا الفرنسية من ضباط أغوتهم بجمالها. وفى الرواية الفرنسية، كان يمكن بالفعل رد كل النكسات العسكرية فى الجبهة الغربية إلى أفعال تلك المرأة الجاسوسة. وحاول الرأى العام الفرنسى، الذى كان قابلاً للتأثر بفكرة المصيدة الرومانسية باعتبارها سبباً لمعظم الأحداث العالمية، أن يطوى هذه الصفحة. وفى غضون ذلك، وجد الجنرالات الفرنسيون الأغنياء الذين أرسلوا رجالهم إلى المذبحة عذراً، وظهرت أسطورة ماتا هارى إلى حيز الوجود.

وهكذا، كان الحكم فى قضية زيل مسألة مؤكدة، ولكن زيل لم تساعد نفسها حينما قدمت تفسيرها الأحمق للأسباب التى جعلت بعض المسؤولين الالمان يقدمون لها هذه النقود. ثم إنها لم تساعد نفسها حينما زعمت أنها خدمت الاستخبارات الفرنسية بكشفها عن أماكن تزودالقوارب الالمانية بالوقود فى المغرب. وحينما سبق السيف العذل، عرفت أنها أوقعت نفسها فى المصيدة، ذلك أن قاضى المجلس العسكرى طرح عليها السؤال الطبيعى: حين الأخذ فى الاعتبار حقيقة أنها لم تذهب إلى المغرب أبداً

فى حياتها، فكيف أمكنها إذن أن تعرف مثل هذه المعلومات الحيوية إذا لم يكن الألمان قاموا بإبلاغها بها؟

ولم يكن لديها رد مقنع، باستثناء الاصرار على ترديد القول خلال المحاكمة: «عاهرة، نعم.ولكن خائنة، لا».

وهذا القول ربما كان أقرب إلى الحقيقة مما عرف أى واحد فى فرنسا، غير أن أحداً لم يكن فى حالة مزاجية لاستخدام ذكائه. وكان هذا كافياً فى نظر الجميع للاعتقاد بخرافة الجاسوسة السوبر ماتا هارى.

واستدعى الأمر، أخيراً، إنقضاء بعض السنوات لتصحيح أخطاء الماضى، ولكن عملية التصحيح، وقتئذ، لم تكن شيئاً ملحاً. ومارجريتا زيل، الفتاة الراهبة الهولندية التى رقصت عريانة، ووقعت فى غلطة الاشتغال فى عالم التجسس الخطير، ذهبت بقدميها إلى عالم الفجور، وهى هناك باقية، ذلك أن أحداً من قبل لم يفعل مثلها لإضفاء صفة الإفتنان إلى عالم التجسس.

وولفجانج لوتس

الأسماء المستعارة: راستى بيه، زئيف جور - أبيه

١٩٢١ - ١٩٩٣

**

إلياهو كوهين

الأسماء الرمزية: اليكس، العميل ٨٨، مينيشيه

الاسم المستعار: كارمال أمين

١٩٢٨ - ١٩٦٥

عيون إسرائيل

فى فجر يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، حلقت الطائرات الإسرائيلية على ارتفاع منخفض، وقصفت، بدقة متناهية، عدداً من المطارات العسكرية فى مصر وسوريا. وأسفرت هذه الضربة الجوية الأولى، وهى الضربة الأشد تدميراً فى التاريخ العسكرى، عن تدمير

القوات الجوية فى أشد دولتين عداءً لإسرائيل وهى جاثمة على الأرض. وفى غضون ٢٤ ساعة، قامت القوات الإسرائيلية بإعادة احتلال سيناء، ودمرت ست فرق عسكرية فى مرتفعات الجولان.

وفى نهاية حرب الأيام الستة، حينما وضعت الهدنة حداً للقتال، حقق الإسرائيليون إنتصاراً مذهلاً، وهو انتصار يعود الفضل الأكبر فيه إلى أجهزتهم المتطورة فى الاستخبارات. وتعرضت الطائرات والدبابات والتحصينات العربية إلى القصف من الطيارين الإسرائيليين ومدافع الدبابات الإسرائيلية، وهذا كله حدث وفق خرائط ورسومات توضيحية حددت مواقع الأهداف بدقة متناهية.

ويرجع الفضل، فى الواقع، فى هذه الإنتصارات إلى الاستخبارات الإسرائيلية، ويعود نصيب الأسد فى هذا كله إلى رجلين غير عاديين، والاثنان معاً، تمكنا من تقديم معلومات إستخباراتية عملت على تأكيد حتمية الانتصارات، وبرهنت أفعالهما التجسسية على مدى فاعلية الموارد البشرية فى الاستخبارات حين تدريبها جيداً ودفعها إلى العمل. وهى أيضاً ساعدت فى وضع هذين الرجلين فى مكانين مناسبين من جانب وكالة إستخبارات عرفت كيفية استغلال الموارد البشرية فى الاستخبارات على نحو أفضل.

وأحد هذين الرجلين هو وولفجانج لوتس، وهو مولود فى ألمانيا، وكان يبلغ ١٢ عاماً حينما جاء هتلر إلى السلطة فى ١٩٣٣. وكانت أمه يهودية، وكان أبوه مسيحياً. ونشأ الطفل فى أسرة غير متدينة، ولم تهتم الأم بختان إبنها، الأمر الذى أنقذ حياته لعدة سنوات لاحقة.

ومات والدلوتس فى ١٩٣٢، وبعد عام، وإدراكاً منها لما يمكن أن يفعل هتلر باليهود فى أوروبا، قررت الأم الهجرة مع إبنها إلى فلسطين. ولما بلغ الابن ١٦ عاماً، إنضم إلى الهاجانا السرية، وقام بحراسة غابة «بن - شيمن» بالقرب من القدس، وهى مهمة أتاحت له القيام بأعمال الدورية فوق ظهر حصان. وبالنظر إلى كونه بارعاً فى ركوب الخيل، فإن أصدقاء لوتس أطلقوا عليه لقب «صاص» (حصان بالعبرية).

وتزوج لوتس ثلاث مرات، وطلق زوجاته الثلاث، وكان فى ذلك الوقت فى العشرين، ولاحق النساء بتوق شديد، وعاش حياة النعيم.

وظن لوتس أنه يمكن أن يقضى بقية حياته فى إسرائيل، وملاحقة النساء، وركوب الخيل. ولكن فى ١٩٥٦، طلب منه جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلى (أمان) التطوع فى مهمة غيرت مجرى حياته كلها.

وفى ذلك الوقت، تعاظمت مشاعر القلق عند الإسرائيليين تجاه محاولة الرئيس المصرى جمال عبد الناصر توظيف علماء صواريخ ألمان وخبراء عسكريين آخرين لبناء قوة عسكرية قادرة على القيام بالضربة العسكرية الأولى ضد إسرائيل، وأحتاج جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلى إلى عميل قادر على التغلغل فى هذا الكيان المحاط بحراسة مشددة والتعرف على جميع المعنيين بالأمر (من أجل قيام الإسرائيليين باغتيالهم جميعاً فى غاية الأمر). والمشكلة، بالطبع، هى أن هذا العميل يجب أن يقوم بدور رجل ألمانى لا ترقى إليه الشبهات.

وبدا لوتس مناسباً لهذا الدور، ذلك أنه رجل أشقر الشعر، وعيونه زرقاء، ولا يبدو يهودياً، ويتحدث الألمانية بطلاقة، ويملك قدرة فائقة على تكوين صداقات جديدة، حتى بين أفراد المجموعة الالمانية العاملة فى مصر.

ولكى يعد جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلى لوتس لهذه المهمة، بمساعدة جهاز الاستخبارات الالمانى الغربى بالطبع، كان عليه أن يقوم بتغيير هويته، فبدلاً من كونه يهودياً هرب من هتلر، ينبغى أن يصبح الآن جندياً ألمانيا سابقاً حارب مع روميل فى شمال أفريقيا، ولم يكن نازياً، وإنما متعاطف مع الأهداف والأيديولوچية النازية، وبعد الحرب، أصبح مربى خيول غنياً، وبات يتطلع الآن إلى توسيع نطاق عمله فى الشرق الأوسط، وبخاصة فى مصر.

ومع حلول ١٩٥٩، كان الإسرائيليون مستعدين، وظهر لوتس الألمانى حربى الخيول فى القاهرة، ومن خلال تسليحة برأس مال كبير، فتح مزرعة لتربية الخيول وإسطبلاً للفروسية خارج القاهرة، وشرع فى العمل فوراً.

وكان لوتس صبوراً، وكما توقع بالضبط، إنتشرت كلمة مدرسة الفروسية بين كبار الضباط العسكريين المصريين، وشيئاً فشيئاً بدأ البعض منهم فى الانضمام إلى مدرسة تعليم الفروسية، وأثار ذلك الفارس الالمانى الذى حارب مع روميل فى الصحراء إعجاب الغالبية العظمى منهم. وروميل شخصية عسكرية ألمانية تحظى بإعجاب شديد عند المصريين. وقام لوتس بتعزيز علاقته مع المصريين من خلال تعليقاته المعادية لإسرائيل والسامية. وجملة القول، فإن غطاءه كان قوياً، وتعاظم قوة بوجود «زوجته»، الألمانية الشقراء، الجاسوسة المنتدبة لتسهيل مهمته. (هذه الخطوة تمت بقبول متردد من جانب زوجته الحقيقية، وهى إمرأة إسرائيلية جداً).

وكان المصريون حذرين، مثل لوتس تماماً، ولكن بعد التحقق من شخصيته فى المانيا الغربية، شعروا بالارتياح. ومضى لوتس فى إقامة حفلات سخية دعا إليها كبار المسؤولين والعسكريين المصريين. وبعدما رسخت صورته كألمانى ثرى منغمس فى الملذات، تحرك لوتس إلى المرحلة الثانية: التغلغل فى معقل العلماء الألمان والخبراء العسكريين. وسرعان ما اتضح له أن المهمة أسهل بكثير مما كان يظن، ذلك أن بعض الضباط العسكريين المصريين الذين أصبحوا أصدقاء له كانوا يعملون مع علماء الصواريخ الألمان. ومن واقع شعور العلماء الألمان بالغبطة تجاه لقاء زميل ألمانى لهم، وواحد يشاركهم تعاطفهم تجاه النازية، رحبوا به أخاً عزيزاً لهم. وكان من عادتهم مناقشة مدى تقدم عملهم فى مصر، وهذا كله نقله لوتس إلى إسرائيل. وخلال فترة من الزمن، كان ينبغى على لوتس أن يعد صورة كاملة عن حجم وماهية الحضور الألمانى فى مصر، وبعدئذٍ يقوم جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلى بالباقى: القيام بحملة من الرسائل الملغومة، وممارسة الضغوط على الأقارب، وإرسال تهديدات شخصية. وهذه الأفعال أقنعت العلماء الألمان والخبراء العسكريين بأن الوقت حان لعودتهم إلى أرض الوطن. وكانت مهمة لوتس ناجحة، ولكن جهاز الاستخبارات الإسرائيلى (الموساد) رأى أن هناك فائدة من وجود لوتس فى مصر. وفى ١٩٦٣، إنضم لوتس رسمياً إلى الموساد للقيام بمهمة أخرى، وهى تكوين صورة دقيقة عن الهيكل العسكرى المصرى برمته.

وبدأت جولة أخرى من الحفلات السخية، وارتفعت المصاريف، ولكن لوتس لم يكن يبدى إهتماماً بحجم المصاريف. وكشفت محادثاته المستفيضة مع كبار الضباط العسكريين المصريين النقاب عن ماهية الخطط العسكرية والتدريب والتنظيم وحجم القوات المسلحة المصرية. ولم يكن المصريون أشد عوناً لصديقهم الألمانى من توجيههم الدعوة له لزيارتهم فى مواقع قواعدهم العسكرية، حيث تحدثوا بحرية عن أوضاع قواتهم ونوعية تحصيناتهم وقدرات طائراتهم، وعن كل ما أراد الإسرائيليون معرفته عنهم. واعتقاداً منهم بأنه ضابط المانى سابق شارك فى حرب الصحراء، ذهب بعض المصريين إلى حد طلب نصيحته حول تكتكاتهم العسكرية الموضوعة لحرب الصحراء ضد الإسرائيليين.

وأدى هذا الحجم الهائل من المعلومات الاستخباراتية إلى حدوث المشكلة التى تواجه جميع الجواسيس منذ طويلة: مشكلة الراديو. وحتى فى ظل وجود راديوهات حديثة ذات سرعة هائلة فى نقل كمية كبيرة من المعلومات فى فترة زمنية قصيرة، كان لوتس معرضاً للإكتشاف. وجاءت اللحظة التى ظل لوتس يخشى من حدوثها فى ١٩٦٥، وذلك حينما بدأت كثرة التشويش على راديوهاتهم العادية. وظن المصريون أن هذا التشويش ربما كان ناشئاً عن جهاز إرسال غير مسموح به، وتشاوروا فى الأمر مع السوفييت، وجاء فريق من الخبراء السوفييت إلى القاهرة، وخلال فترة زمنية قصيرة إكتشفوا أن هناك جهاز إرسال موجوداً فى مزرعة لتربية الخيول خارج القاهرة، وداهم المصريون المزرعة، وعثروا على جهاز الارسال، وألقوا القبض على لوتس وزوجته المزعومة.

وكانت المهمة الأولى عند جهاز مكافحة التجسس المصرى هى معرفة الجهة التى يعمل لوتس لحسابها. وفى بادئ الأمر، إستبعد المصريون أن يكون لوتس عميلاً إسرائيلياً، ذلك أنهم إكتشفوا أنه لم يختتنّ بعد، وظنوا أنه ربما كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات الالمانى الغربى، ولكن جهاز الاستخبارات الالمانى الغربى تظاهر بالخجل المقصود، ومع أنه رفض الإعتراف بأن يكون لوتس رجله، فإنه لم يتبرأ منه أيضاً. وفى محاولة لتأكيد ظنونهم، قام المصريون بإخضاع لوتس لتعذيب مكثف، بما فيه

حرمانه من الإحساس وبلوغه حد الجنون، ولكنه صمد، وأصر على القول إنه ألمانى. وأخيراً، جرت محاكمة لوتس بتهمة التجسس لحساب إسرائيل، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة مع زوجته الجاسوسة.

ولم يعرف المصريون يقيناً أن لوتس كان جاسوساً إسرائيلياً إلا بعد حرب الأيام الستة، وذلك حينما عرضت إسرائيل مبادلة ٥٠٠ أسير حرب مصرى مقابل لوتس وزوجته. ووافق المصريون، الذين كانوا مترددين فى إطلاق سراح جاسوس إسرائيلى ومصممين فى الوقت نفسه على تحرير جنودهم من الأسر، على هذه الصفقة. وعندئذٍ فقط، عرف المصريون حجم الأضرار التى ألحقها بهم لوتس، ذلك أنه بفضل معلوماته الاستخباراتية، تمكن الإسرائيليون من معرفة ترتيب الوحدات المقاتلة المصرية، وحتى أسماء الطيارين الذين يقودون أياً من الطائرات. وحينما ضرب الإسرائيليون ضربتهم فى يونيو ١٩٦٧، كان معلوماتهم عن المصريين دقيقة، حتى على مستوى الفصيلة الواحدة من الجنود.

وبعد الحرب بفترة قصيرة، عاد الجاسوس الإسرائيلى لوتس إلى إسرائيل، حيث اعتبر واحداً من أعظم الجواسيس فى التاريخ. ومع هذا، فسرعان ما ظهر إلى السطح مشروع جديد، وذلك حينما تبيّن أن لوتس وقع فى حب زوجته الالمانية التى اعتنقت اليهودية. وطلق لوتس زوجته الحقيقية، وسافر إلى كاليفورنيا، ثم إلى المانيا، لكى يصبح رجل أعمال ثرياً مرة أخرى. ومات لوتس فى ١٩٩٣، وتعلم الإسرائيليون الدرس القاسى، مثلما تعلم غيرهم من قبل، وهو أن البطل الأسطورة يبقى، قبل كل شئ، محكوماًبإنسانيته.

***

وبينما كان لوتس يقوم بعمله فى مصر، كان هناك ما يمكن إعتباره إنقلاباً عظيماً فى عالم التجسس على بعد مئات الأميال إلى الشرق، فى قلب واحدة من أشد الدول العربية عداء لإسرائيل: سوريا. والجاسوس الإسرائيلى هنا هو إلياهو كوهين، وهو شخصية مختلفة عن لوتس، فهو رجل هادئ الطبع، ويميل دائماً إلى التفكير والتأمل

فى دوافعه ومشاعره. وكوهين مولود فى مصر فى ١٩٢٨، وفى سنوات شبابه كان ناشطاً فى عمليات الهجرة السرية غير القانونية لليهود من مصر، وهذا يعنى تهريب اليهود المصريين الذين حرموا من الخروج من مصر إلى فلسطين. وهذا العمل الخطير كان بمثابة تدريب جيد على عمليات سرية، ولذلك، ففى ١٩٥٢، قام جهاز الاستخبارات الإسرائيلى (الموساد) باختياره لعمليات فى مصر. وفى أعقاب دورة تدريبية فى التجسس إستمرت عاماً واحداً فى إسرائيل، عاد كوهين إلى مصر، وكانت عودته غلطة كبيرة، ذلك أن المصريين كانوا يعرفون من قبل أنه يهودى ناشط. ومن حسن حظه، فى ذلك الوقت، أنه لم ينهمك بشدة فى عمليات تجسس، وفى ١٩٥٨ قام المصريون بطرده من مصر.

وبعد عامين، إخترع الموساد، عملية طموحة لكى يقوم بها كوهين. ووفق الخطة يجب أن يعمل كوهين فى سوريا، حيث يفترض أن تكون هويته الحقيقية غير معروفة، وهذا يعنى القيام بعملية تغلغل معقدة: كوهين يجب أن يتقمص شخصية رجل سورى ثرى، ومستهتر، ومنغمس فى الملذات، ويدعى كمال أمين ثابت، ثم يبدأ فى إجراء إتصالات مع العسكريين السوريين والصفوة المختارة فى الحكومة، وعند اكتمال التغلغل، يبدأ فى معرفة أسرار الاستخبارات العسكرية والخطط السياسية السورية.

وبعد عام من التدريب المكثف، طار كوهين إلى زيوريخ فى سويسرا، ودخل بوابة الدخول فى المطار تحت اسم إلياهو كوهين، وعند بوابة الخروج إستقبله رجل غريب، ودون أن ينطبق بكلمة واحدة، أعطاه مجموعة من الأوراق، وأخذ منه جواز السفر وكل ورقة تحمل اسم كوهين. وبهذا التبادل فى الأوراق، أصبح كوهين يحمل اسم كمال أمين ثابت.

وبعد ذلك، طار كوهين إلى بيونس أيرس، حيث أقام علاقات صداقة مع الجالية السورية الكبيرة فى العاصمة الأرجنتينية، وأقام حفلات سخية تميزت بوجود نساء سوريات جميلات ومثيرات، وحرص على أن يصبح صديقاً حميماً للملحق

العسكرى فى السفارة السورية، وهى علاقة أدت إلى الخطوة التالية: التعرف على أسماء أصدقاء الملحق العسكرى فى النظام السورى فى دمشق.

وفى يناير ١٩٦٢، ذهب كوهين إلى دمشق، حيث سبقت سمعته خطواته، وعلى الفور، إستطاع تكوين سلسلة عريضة من الأصدقاء العسكريين والحكوميين السوريين. وتقلصت الحيطة والحذر بسبب الحفلات السخية، والنساء الجميلات، والهدايا الثمينة، حتى أن العسكريين السوريين دعوا كوهين إلى قواعدهم العسكرية، حيث كشفوا عن أحدث أسلحتهم. وكانت أفضل إتصالات كوهين على إطلاقها مع الكولونيل السورى المسؤول عن التحصينات الدفاعية فى مرتفاعات الجولان، ذلك أنه بسبب إعتزازه بخطوط الدفاع «غير المرئية»، التى أقامها فى مواجهة أى غزو إسرائيلى محتمل، أطلع كوهين على كل شئ. (كوهين أرسل معلومات إستخباراتية كاملة عن كل ما رآه، الأمر الذى أتاح للإسرائيليين تكوين فكرة واضحة عن مرتفعات الجولان تشتمل على تحديد كل موقع عسكرى وكل خندق دفاعى فى الجبهة السورية).

ومع حلول ١٩٦٤، لم يكن هناك شئ عن العسكريين السوريين لا يعرفه كوهين، حتى أنه كان يعرف أسماء جميع الطيارين فى سلاح الجو السورى، وكانت تلك معلومات إستخباراتية إستخدمها العسكريون الإسرائيليون جيداً فى حرب الأيام الستة، وذلك حينما قاموا بتزييف إشارات الطيارين وحملهم على الذهاب إلى الموت بطائراتهم. ومع ذلك، فعلى الرغم من هذا القدر الهائل من المعلومات الاستخباراتية، فإن مشاعر القلق بدأت فى التسرب إلى كوهين. وبعد الاعتذار إلى السوريين عن غياب لأغراض القيام بجولة تجارية، ذهب كوهين إلى إسرائيل طلباً للراحة من عناء حياته المزدوجة المثيرة للأعصاب.

وفى أثناء تقديم معلومات إستخباراتية إلى الموساد، أعرب كوهين عن شعوره بالقلق، وكان مقتنعاً بوجوب عدم العودة إلى سوريا. وهناك بالطبع أسباب لذلك: أولاً، كوهين ألمح إلى أن حجم المعلومات الإستخباراتية يجعله على الهواء مع الراديو لفترة طويلة، وهذا الراديو موجود فى شقته فى منطقة حيه تقع بين سفارات أجنبية، وتتمثل

الخطورة فى أنه ربما يشوش على راديو سفارة، الأمر الذى يحمل السفارة على الشكوى من وجود جهاز إرسال غير مسموح به. وثانياً، كوهين إستطاع أن يجذب. جميع أعضاء النظام السورى، باستثناء واحد منهم، وهو الكولونيل أحمد سويدانى، رئيس الاستخبارات العسكرية. وكان كل سورى يشعر بالخوف من سويدانى، وذلك لما يعرف عنه قسوته فى وسائل التعذيب. وعلى ما يبدو، فبسبب غيرة الكولونيل سويدنى من وصول كوهين إلى كبار المسؤولين العسكريين والحكوميين، ظل سويدانى يتشكك صراحة فى أمر كوهين، وكان يعمل بنشاط لتقييد نشاطة.

ولكن الموساد كان فى حاجة شديدة إلى مثل هذا النوع من المعلومات الاستخباراتية التى يقدمها كوهين. وبينما كانت إسرائيل منهمكة فى صراع شديد مع النظام الراديكالى فى سوريا، فإن الحرب كان يمكن أن تندلع فى أية لحظة، وبالنتيجة وافق كوهين على العودة إلى سوريا.

وفى هذه الأثناء، ركز الكولونيل سويدانى تفكيره على كوهين، وتشكك فى أن هناك شيئاً لا يبعث على الارتياح فى أمر هذا الرجل المستهتر المنغمس فى الملذات. وكما تنبأ كوهين من قبل، فإن إرسالياته المطولة عن طريق الراديو أدت إلى حدوث مشاكل، ذلك أن السفارة الهندية إشتكت من وجود تشويش، وجاء فريق سوفييتى لمكافحة التجسس، ولم يجد السوفييت صعوبة فى اكتشاف جهاز الإرسال. وبينما كان كوهين مع جهازه، إندفعت مجموعة من رجال البوليس السرى السورى إلى داخل الشقة.

وهكذا، بدأت مرحلة عذاب كمال أمين ثابت، وقام سويدانى، الحاقد، بتعريضه إلى سلسلة كاملة من أنواع التعذيب، بهدف إجباره على تشغيل الراديو أمام عيون السوريين. ورفض كوهين، وفى ١٨ مايو ١٩٦٥، جرى إعدامه شنقاً فى ساحة عامة فى دمشق. وهناك حوالى ٢٠٠ سورى من بين الذين إستمتعوا بكرم كوهين إعتبروا خائنين، وتعرضوا للتعذيب، وأعدموا فى زنزانات سويدانى فى وقت لاحق.

ولكن هذا كله حدث بعد فوات الأوان، وما قام كوهين بإرساله إلى الإسرائيليين

كان سبباً فى هزيمة السوريين، ذلك أن الجنود والطيارين الإسرائيليين، فى حرب الأيام السته، قتلوا الآلاف من العسكريين السوريين، إنتقاماً لإعدام كوهين ورغبة منهم فى تغيير مجرى التاريخ فى الشرق الأوسط.

الجواسيس الخائنون

لارى وتاى شين

الجاسوس فى الكازينو

١٩٢٣ - ١٩٨٦

ما كان يمكن أن يكون هناك شئ يدخل السعادة إلى نفوس مدراء أحد الكازينوهات في لاس فيجاس أكثر من رؤيتهم ذلك الرجل الأسيوى الخجول الهادئ الطبع موجوداً فى الكازينو من حين إلى آخر. وهذا الرجل بدا كأنه ذلك النوع من الرجال المفضلين عند أصحاب الكازينوهات كزبائين دائمين : رجال أعمال أسيويون أغنياء، وفى الأعم الأغلب من هونج كونج، لديهم الكثير من النقود لتبديدها. وهم أيضاً مقامرون على نحو لافت للنظر.

وكان لارى وتاى شين واحداً من بين هؤلاء الخاسرين الدائمين كلما كان يجىء إلى هذا المكان من أجل لعب القمار. ولهذا السبب، فهو كان يحرص على وجود خط ائتمان فى عددٍ من الكازينوهات التى كانت تعرف جيداً أن شين لم يسمع شيئاً عن قانون الاحتمال فى علم الحساب من قبل.ولم يكن أحد يعرف يقيناً من أين يأتى شين بهذه النقود التى تعينه على مثل هذه الحياة، ولكن هذا لم يكن ذا أهمية: إنه مقامر مثابر، ولا يبدى على ما يبدو انزعاجاً من الخسائر الكبيرة. وفى حالة الربح أو الخسارة، يظل ذلك الوجه خلف النظارة الطبية السميكة فاقد الحس دائماً.

ولكن شين لم يكن رجل أعمال غنياً من هونج كونج، ولم يكن أى رجل أعمال

آخر أيضاً. وفى حقيقة الأمر، فهو كان رجلاً بيروقراطياً فيدرالياً عادياً. من أين إذن كان يأتى بتلك النقود التى تسمح له بالمراهنة على ١٠٠,٠٠٠ دولار أو أكثر على طاولة القمار؟ النقود كانت تأتى من دائرة الارتباط الخارجى المركزية «سيلد» التابعة لجهاز الاستخبارات فى جمهورية الصين الشعبية. وكان شين يستأهل كل سنت من تلك الهبات السخية، ذلك أنه كان الجاسوس النافع الأعظم الذى قام جهاز الاستخبارات الصينى بتجنيده فى الولايات المتحدة. وفى الواقع، فإن الصينيين كانوا يشعرون بالارتياح تجاه عادة شين فى لعب القمار، والسبب فى ذلك هو أنه طالما ظل فى حاجة إلى النقود للإبقاء على عادته، فسوف يظل مواظباً على خيانة ذلك البلد الذى اختار العيش فيه.

أما كيف وصل شين إلى هذه المرحلة، فذلك يمثل تعاقباً غريباً للأحداث فى الانتقال من شخصية الرجل المثالى السياسى إلى شخصية الرجل المرتزق. وكان شين ولد فى بكين فى ١٩٢٣ لأسرة غنية على نحو معتدل، وكان طالباً جامعياً فى ١٩٤٣ حينما اشتغل مترجماً لحساب كتيبة فى الجيش الأمريكى. وبالنظر إلى أنه لغوى موهوب، فإن شين تمكن من إتقان ثلاث لهجات صينية، وكان يجيد الإنجليزية أيضاً. وكان لدى شين طموح فى أ ن يصبح بعد الحرب مترجماً محترفاً. وسجل نفسه فى جامعة ينشينج فى ١٩٤٥ لتهذيب مهارته. وفى أحد الأيام، اقترب منه أحد الطلاب الزملاء، وهو أوكومينج، وبدأ يتحدث إليه حول العلاقات الصينية - الأمريكية. وكان شين بدأ فى الشعور بالميل إلى الأمريكيين نتيجة اشتغاله معهم كمترجم فى زمن الحرب، وأبلغ كومينج عن حزنه الشديد تجاه النفور المتعاظم بين الشيوعيين الصينيين والولايات المتحدة. وأعرب شين عن قناعته بأنه من خلال التفاهم الصينى - الأمريكى يمكن ضمان تحقيق السلام العالمى، واعتبر مثل هذا التقارب بمثابة «رسالة شخصية» فى الحياة.

واتفق كومينج فى الرأى مع هذا القول على نحو متحمس، وأبلغ شين عن شعوره بالأسف تجاه حقيقة عدم وجود تفاهم بين الصينيين والأمريكيين، وعن حقيقة وجود بعض الصينيين الذين يمكنهم من خلال مواقعهم العمل على تعزيز مثل هذا

التفاهم. وقال كومينج إن المشكلة تكمن فى الافتقار إلى المعلومات، ذلك أن الصينيين، ببساطة شديدة، لا يعرفون شيئاً عن الطريقة التى يفكر بها الأمريكيون، كما أنه ليس هناك صينيون كثيرون فى مواقع قريبة من الأمريكيين بحيث يمكنهم «تفسير» مواقف الأمريكيين إلى الصينيين، وتعزيز تفاهم أعظم بينهم تبعاً لذلك.

وكان هذا بمثابة تجنيد مهذب، ذلك أن كومينج كان فى واقع الأمر شاباً ناشطاً يعمل لحساب دائرة الارتباط الخارجى المركزية «سيلد» التابعة لجهاز الاستخبارات الصينى، ويقوم بمهمة تجنيد طلاب الجامعة الصينيين الشباب كجواسيس نافعين يقيمون اتصالات مع الأمريكيين أو فى طريقهم إلى ذلك مستقبلاً. وكان كومينج حريصاً على عدم الكشف عن حقيقته على نحو واضح جداً، وأبلغ شين ببساطة أن لديه «أصدقاء مخلصين» فى مواقع تمكنهم من التأثير فى السياسة الصينية تجاه الولايات المتحدة. وهؤلاء الأصدقاء، كما زعم كومينج، يرغبون فى إقامة علاقة صداقة وثيقة مع الأمريكيين، وإذا ما أبدى شين استعداداً لتقديم المساعدة، فمن الممكن عندئذ تحقيق رسالته الشخصية الخاصة به.

وهكذا، ابتلع شين الطعم. وفى أعقاب تخرجه فى ١٩٤٦ فاتح الأمريكيين، مقدماً خدماته كمترجم. ومع حلول ١٩٤٨، أصبح المترجم البارز فى القنصلية الأمريكية فى شينغهاى، التى كانت فى ذلك الوقت مركزاً رئيسياً للتنصت الأمريكى فى الصين. وكانت شينغهاى بمثابة القناة الرئيسية للجزء الأعظم من تقارير الاستخبارات الأمريكية حول الصين، التى بدأ شين فى تمريرها إلى كومينج. وبالنسبة إلى شين، فهو لم يكن يقوم بأعمال تجسس، ذلك أنه كان يقوم فقط بتمرير تقارير استخباراتية من طريق الرغبة فى إقامة الدليل أمام كومينج وأصدقائه على مدى جهل الأمريكيين تجاه حقيقة الحرب الأهلية التى كانت محتدمة فى الصين فى ذلك الوقت.

وفى عام ١٩٥٢، حققت دائرة الارتباط الخارجى المركزية «سيلد» التابعة لجهاز الاستخبارات الصينى أهدافها من التجنيد، وذلك حينما عثر شين على منجم ذهبى من

الاستخبارات: شين عهدت إليه مهمة ترجمة كل أعمال الاستجواب التى قام بها الأمريكيون مع أسرى الحرب من العسكريين الصينيين خلال الحرب الكورية. وحين تمريرها إلى كومينج، فإن هذه الترجمات كشفت للصينيين ليس فقط على ماهية المعلومات الحساسة التى قدمها أسرى الحرب للأمريكيين، وإنما أيضاً عن أسماء الأسرى الذين كانوا متعاونين على وجه الخصوص. ونتيجة لذلك، وجد الآلاف أنفسهم بعد الحرب موجودين فى معسكرات الاعتقال من أجل «إعادة التثقيف الفكرى» بينما جرى تنفيذ حكم الإعدام ضد عدد غير معروف منهم.

وفى هذه الفترة، اكتسب شين شهرة بأنه اللغوى صانع المعجزات، الرجل الذى يستطيع معالجة كل اللهجات الصينية تقريباً بطلاقة، والأستاذ اللغوى الذى يستطيع أن يكتشف التباين فى التعبير اللغوى بين الكلمة الصينية المقروءة والمكتوبة. ولم يعمل لحساب وزارة الخارجية الأمريكية فحسب، وإنما عمل أيضاً لحساب وكالات حكومية أخرى مختلفة، ومن بيها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه».

ولم يكن شين يعرف فى هذه الفترة إن كان يعمل لحساب الاستخبارات الصينية من عدمه. ومع ذلك، فمن المعروف جيداً فى تلك الفترة أن كامينج أعطى شين مبلغاً كبيراً من النقود من أجل «المصروفات». وكما تنبأ كامينج، فإن شين، الذى كان يعيش على راتب ضئيل من الحكومة الأمريكية، ربما شعر بالدهشة تجاه ذلك التدفق المفاجئ للنقود. وهذا التدفق للنقود فتح آفاقاً جديدة أمامه: مصاريف باهظة فى المطاعم، ومصاريف سفر وإجازات، وملاحقة النساء، ولعب القمار، وهذه فى مجموعها رذائل اكتشف شين فجأة أنه لم يعد يستطيع مقاومتها.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أصبح شين جاسوساً مرتزقاً، وكان كلما قام بتمرير معلومات استخباراتية أكثر فأكثر إلى الصينيين، أصبحت المدفوعات أكثر فأكثر. وهكذا، أصبح شين يعيش حياة مزدوجة: فى النهار، رجل بيروقراطى حكومى متواضع، وفى الليل، رجل مترف يشتغل فى العقارات والاستثمارات الأخرى. واشترى ذات مرة عقاراً (وجمع فى غاية الأمر ثروة تزيد قمتها عن ٧٠٠,٠٠٠ دولار)،

وأودع أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ دولار فى بنوك هونج كونج، وحصل على مبلغ كبير من النقود مقابل تقاعده. ومع ذلك، فإن الجزء الأعظم من هذه النقود ذهب إلى طاولة القمار. وكان خاسراً مثابراً، حتى أن الكازينوهات كانت تقدم له غرفاً مجانية فى الفنادق وخدمات أخرى باعتباره واحداً من الرجال القادرين جيداً على الدفع.

وفى ١٩٧٠، بلغ تجنيد شين أخيراً ذروته: وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» استأجرته وجعلته مسؤولاً عن معالجة جملة من أعمال الترجمة اليومية للمعلومات الاستخباراتية الآتية من الصين. ومن خلال هذا الموقع، تمكن شين من رؤية كل التقارير الواردة من الجواسيس النافعين العاملين لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» فى الصين، وتقارير عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» الموجودين فى تايون (معظمهم من الجواسيس النافعين الذين جندتهم الصين الوطنية)، وإلى حد كبير، معظم التقارير الدبلوماسية الأشد حساسية حول الصين. وبكلمات أخرى، فإن شين وقتئذ كان فى المكان المناسب. وكان الصينيون يملكون نافذة على كل معلومات الأمريكيين عن الصين، وهى ميزة أتاحت للصينيين فرصة معرفة مبكرة لبرنامج وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» الأشد حساسية، وهو طلعات طائرة التجسس الأمريكية «يو – ٢» فوق الصين باستخدام طيارين وطنيين (ونتيجة لذلك، أمكن إسقاط معظم الطائرات).

وجاء الانقلاب الأعظم الذى قام به شين فى ١٩٧٢، وذلك حينما تمكن من تقديم تفاصيل كاملة عن التغيير الدراماتيكى فى السياسة الأمريكية، وهو «انفتاح» نيكسون – كيسنجر على الصين. وكميزة أخرى، فإن شين كان يملك حرية الوصول إلى تقارير كيسنجر بشأن انطباعاته عن زعماء صينيين.

ومن واقع كونها غير عارفة بحقائق هذا التسرب فى المعلومات الاستخباراتية، قامت الحكومة الأمريكية بمكافأة نجمها الخبير فى اللغة الصينية بمنحه المواطنية الأمريكية، وفى عام ١٩٨١، حينما تقاعد شين رسمياً من وكالة الاستخبارات المركزية

الأمريكية «سى آى إيه» تقرر منحه جائزة الاستخبارات. ولم يكن شين يجد عناءاً فى إبلاغ مستخدميه أن جهاز الاستخبارات الصينى منحه واحدة من ميدالياته فى الوقت نفسه تقريباً، الأمر الذى جعله واحداً من عظماء التجسس القلائل: شين منح ميدالية من جانب دولة كان يفشى أسرارها، بينما تسلم ميدالية من دولة كان يخون أسرارها.

وحتى بعد تقاعده، ظلت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» محتفظة به كمستشار لها، متيحة أمامه فرصة حرية الوصول إلى المعلومات الاستخباراتية الحساسة. وبالنظر إلى عدم وجود أدنى تلميحات الشك تجاهه وقتئذ، فربما كان يمكن أن يستمر شين على هذا النحو لفترة غير محدودة، غير أن هناك حادثة واحدة لم يتوقع حدوثها. وفى ١٩٨٣، كان الرجل القائم على أعماله، كومينج، تخلص من أوهامه تجاه النظام الشيوعى، وارتد إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه». ومن بين المعلومات التى قام بإفشائها أولاً، وكانت تلك بمثابة صدمة قاتلة: شين جاسوس نافع يعمل لحساب الاستخبارات الصينية.

وحينما قام مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى آى» باستجوابه، استمع شين على نحو كئيب، بينما ذكر العملاء قائمة تفصيلية بخياناته. وقال فى نهاية الأمر بعدما عرف حقيقة اكتشاف أمره من خلال ما اعتبره ارتداداً من جانب كومينج: «أنتم لديكم تفاصيل لا يعرفها إلا كومينج». وبعد إلقاء القبض عليه بتهمة التجسس، لم يذهب شين إلى المحاكمة أبداً. وفى ٢١ فبراير ١٩٨٦، ربط رقبته بحبل من البلاستيك وانتحر.

كلاوس فوتش

الرجل الذى سرق القنبلة الذرية

١٩١٣ - ١٩٨٨

فى نظر وليام سكاردون، بدا ذلك الرجل الجالس أمامه كأنه صورة كاريكاتورية هزيلة لما يفترض أن يكون عليه شكل عالم الفيزياء النووية: رجل طويل القامة، ونحيف الجسم بنظارات طبية سميكة، ولهجة ألمانية واضحة، وجبهة عريضة. ولكن مهما بدا شكل كلاوس فوتش قريب الشبه من هذه الصورة المبتذلة، فإن سكاردون كان يعرف شيئاً أشد أهمية وأقل وضوحاً: فوتش كان جاسوساً سوفيتياً.

وكان سكاردون، الذى يعتبر واحداً من أبرع المحققين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥»، يواجه تحديات رئيسية فى يناير ١٩٥٠. وبطريقة ما، كان ينبغى عليه أن يجعل فوتش يعترف بما كان يعرف من قبل كل من قسمى مكافحة التجسس البريطانية والأمريكية. وكان برنامج القنبلة الذرية السرى تعرض للتغلغل من جانب الاستخبارات السوفيتية، وعلى الأخص من طريق جهود كلاوس فوتش. ولكن مع أنهم كانوا واثقين من معرفتهم، فإنهم لم يكونوا قادرين على استخدام مصدر معلوماتهم فى قضية محكمة تتصل بالتجسس، ذلك أن تنفيذ حكم الإعدام ضد فوتش على أساس ذلك المصدر الذى يؤدى إلى وجوب الكشف عن السر الأعظم فى الاستخبارات الغربية.

وكان الاسم الرمزى «فينونا» هو الاسم الذى أطلق على العملية الصبورة لحل

رمز شيفرة المعلومات الاستخباراتية السوفيتية الهائلة خلال الحرب العالمية الثانية. ومع حلول ١٩٤٩، وجد خبراء حل رموز الشيفرة خيوط الجهود السوفيتيية الهائلة للحصول على أسرار القنبلة الذرية. وكان أحد المصادر الرئيسية، الذى جاء ذكره ضمن سلسلة من الإشارات الشخصية الواردة فى الرسائل الاستخباراتية، هو كلاوس فوتش. وهكذا، جرى اتخاذ قرار بوجوب مواجهة فوتش وعقد الأمل على قدرة سكاردون فى انتزاع الاعتراف منه. وبدون ذلك، كما كان سكاردون يعرف، فلن تكون هناك قضية قانونية ضده.

وقرر سكاردون، المعروف بقدرته على «معرفة» المشبوهين، أن يقوم بلعبة خداع مع فوتش. وبطريقته الهادئة، التى يميل فيها فى العادة إلى نفث الدخان على غليونه، ألمح إلى أن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» لدى مجموعة من الدلائل التى تجعل أخطاء فوتش مسألة مفروغاً منها، ولذلك فإن «تعاونه» يؤكد فقط معلومات جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» ويجعلها حقيقة مؤكدة. واستمع فوتش بهدوء، ولكن سكاردون شعر أنه كان «يرتعش»، ويمر فى مرحلة مراجعة أفكاره فى عقله، وقام سكاردون بعدئذ بلعب ورقته الرئيسية، معرباً عن تفهمه للأسباب التى تجعل رجلاً فى موقع فوتش يعتبر إفشاء الأسرار أسلوباً تكتيكياً لتعزيز قضية السلام العالمى. وقال سكاردون بنغمة أبوية تقريباً إن المرء يمكن أن يفهم الأسباب التى تجعل رجلاً مثل فوتش ينتهى إلى الاعتقاد بأن أفضل طريقة لخدمة هذه القضية الرائعة تأتى من خلال ضمان مشاركة الاتحاد السوفييتى فى أسرار صنع القنبلة الذرية.

ونجح سكاردون، ذلك أن الأفكار المثالية العاطفية التى تعايشت فى عقل فوتش مع قناعاته الشيوعية ظهرت إلى السطح فى هذه الأثناء. وحينما انتهى، اعترف بتحقيق إنجاز يشعر باعتزاز شديد تجاهه: إعطاء الاتحاد السوفيتى القنبلة الذرية بعناد إلى حد كبير.

وبعد عام، كان يمكن أن يؤدى اعتراف فوتش إلى صدور حكم ضده بالسجن لمدة ١٤ عاماً بتهمة التجسس، ولكن فى ذلك الوقت، كانت عملية «فينونا» العظيمة

للتجسس مرت من جانبه، وكانت غارقة فى بحر من معلومات سرية غامضة جداً، حتى أن فوتش نفسه كان يشكل جزءاً صغيراً من جبل من الثلج.

وكان فوتش جزءاً من هذه المعلومات السرية الغامضة، ولأنه مولود لأسرة من الكويكرز الألمان، الذين كانوا فى معظمهم يساريين ملتزمين، فإن فوتش انضم إلى الحزب الشيوعى الألمانى فى عام ١٩٣٢ حينما كان فى التاسعة عشرة من العمر. وحينما كان يدرس فى جامعة كييل، كان يعتبر واحداً من ألمع الطلاب الدارسين للعلوم الفيزيائية بمستقبل باهر فى البحوث أو التدريس الجامعى. ولكن مثل هذه المهنة المستقبلية لم تصبح أمراً ممكناً فى ١٩٣٣ حينما هدد مجىء هتلر إلى السلطة بجعل حياة الشيوعيين الألمان مستحيلة. وهرب فوتش إلى بريطانيا العظمى، حيث اشتغل فى بعض الأعمال العلمية المملة، وانضم إلى مجموعة الحزب المبعدين فى بريستول. وفى ذلك الوقت كان فوتش، الشيوعى العنيد الذى كرس نفسه لخدمة الاتحاد السوفييتى، يبحث بنشاط عن طرق لمساعدة موسكو. ولم يكن يملك أية طريقة تمكنه من الوصول إلى أى شئ ذى أهمية، ولكن فى ١٩٤١ جرى تجنيده للعمل فى شئ أطلق عليه مشروع نفق الخير والشر. وقيل له فقط إنه يعمل فى مشروع علمى سرى فى أوقات الحرب، ولكن فى اليوم الأول الذى بدأ فيه العمل فى المختبر التابع للمشروع، عرف أن مشروع نفق الخير والشر عبارة عن اسم للتمويه ظاهره الخير لما يمكن أن يكون فى الحقيقة عملاً يتصل بصنع قنبلة ذرية.

واستنتج فوتش، على ما يبدو، أن البريطانيين والأمريكيين قاموا بخطوات عظيمة نحو التغلب على العقبات العلمية والهندسية التى تعترض طريق صنع القنبلة الذرية. وعرف فوتش أيضاً أن البريطانيين والأمريكيين يحتفظون بهذا السر العظيم بعيداً عن حليفهم، وهو الاتحاد السوفيتى .والآن، أخيراً، أصبح يملك شيئاً يمكنه من المشاركة فى خدمة القضية. ومن واقع كونه مجنداً من قبل من جانب روث كوتشنسكى، الجاسوسة السوبر العاملة لحساب وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» فى بريطانيا العظمى، فإن فوتش نقل إليها هذه الأخبار. وفى غضون أيام قليلة، بدأ فى سرقة وثائق من المشروع حتى تقوم كوتشنسكى بتصويرها فى ميكروفيلم، مضيفاً

إلى ذلك رأيه العلمى الخاص به.

وفى تلك الفترة فقط نشأت دلائل الغموض الأولى على أفعال فوتش. وفى ظل حقيقة كونه شيوعياً ملتزماً شارك صراحة فى أنشطة مجموعة المبعدين التابعين للحزب الشيوعى الألمانى، فكيف كان من الممكن إذن منحه ترخيصاً أمنياً للعمل فى مثل هذا المشروع المحاط بطبيعته بهواجس أمنية كالقنبلة الذرية؟ وقام قسم خاص فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» فى تلك الأيام بفرض مراقبة مشددة على أنشطة الشيوعيين فى بريطانيا، ولكن كيف تمكن فوتش إذن من الإفلات من هذه المراقبة؟ وبعد بضع سنوات، قامت مجموعة من صائدى الجواسيس العاملين فى الظلام فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» ببحث تطور هذه الأحداث، وتوصلت إلى استنتاج مفاده أن هناك جاسوساً عاملاً فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» داخل جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» تمكن من التستر على ميول فوتش الشيوعية. وهذا الجاسوس العامل فى الظلام (الذى لم تحدد هويته بالضبط) ربما كان مسؤولاً أيضاً عن عمليات غامضة أخرى تتصل بأفعال فوتش.

وفى ١٩٤٥، تمكنت الاستخبارات البريطانية من الاستيلاء على كل ملفات الجستابو من المكتب الرئيسى للوكالة فى كييل. وتضمنت الأشياء المخبوءة سجلات تفصيلية عن جميع الشيوعيين المعروفين فى كييل، وهى سجلات جرى إعدادها قبل فترة طويلة من مجىء هتلر إلى السلطة. ومن بين هذه السجلات هناك ملف ضخم عن كلاوس فوتش. وقام جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» بالبحث فى هذه السجلات فى محاولة لمعرفة الشيوعيين الذين هاجروا إلى بريطانيا خلال الثلاثينيات وذهبوا إلى العمل لحساب الاستخبارات السوفييتية. ومن المثير للدهشة هو أنه لم يكن هناك سجل يبين أن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» أجرى بحوثاً تتصل بأفعال فوتش، وهى هفوة غريبة ليس لها ما يبررها.

وظهرت هذه الأنواع من الهفوات واضحة جلية على ضوء الأضرار التى كان

فوتش سبباً فيها. وفى ١٩٤٣، عهدت إليه مهمة فى مشروع مانهاتن فى لوس ألموس، نيومكسيكو، حيث كان يفترض أن تكون هناك كاميرا أمنية لاكتشاف العملاء الأعداء الذين يحاولون التغلغل إلى المشروع. ولكن هذه الكاميرا لم تكن ذات فائدة فى مواجهة رجل مثل فوتش، الذى كان يحمل ترخيصاً أمنياً من جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٥» يسمح له بحرية الوصول إلى كل أقسام المشروع. ومع حلول ١٩٤٤، قام بتزويد السوفييت بالأسرار الرئيسية للقنبلة، وأهمها أسرار ذلك الانفجار الضمنى الذى يؤدى إلى حدوث القوة التدميرية الهائلة لهذا السلاح. ولكن فى هذه اللحظة من النجاح، ارتكبت الاستخبارات السوفييتية غلطة قاتلة، وهى هفوة برهنت فى غاية الأمر على كونها باهظة الثمن.

وبالنظر إلى حاجتها الشديدة إلى المعلومات الاستخباراتية التى كان فوتش يقوم بتزويدها، قررت وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» تعيين أحد جواسيسها النافعين الأمريكيين، وهو هارى جولد، فى مهمة استلام بعض المعلومات من فوتش عن طريق اتصال سريع بالقرب من لوس ألموس. ولكن بعد ست سنوات، حينما كان فوتش يقدم اعترافاته، كشف النقاب عن اتصاله مع جولد. وكان هذا الكشف ينطوى على فائدة كبيرة بالنسبة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى آى» الذى كان يشك من قبل فى أفعال جولد.

ومرة أخرى، قامت عملية «فينونا» لحل رموز الشيفرة بدور رئيسى. وكانت هذه العملية أشارت إلى وجود ثلاث خلايا تجسس رئيسية تقوم بمهمة الحصول على أسرار مشروع القنبلة الذرية. وكانت الخلية الأولى تعمل فى جامعة شيكاجو حيث نظم انريكو فيرمى أول رد فعل تجاه الأسلحة النووية فى العالم. والخلية الثانية كانت تعمل فى مختبر الاشعاعات فى جامعة كاليفورنيا، بيركلى. والخلية الثالثة، وهى الخلية الأكبر، كانت تتألف من ٢٢ شيوعياً أمريكياً، الذى جرى تجنيدهم قبل سنوات من أجل سرقة الأسرار الصناعية والتكنولوجية الأمريكية. وكانت هذه الخلية تعمل فى نيويورك، ثم تحولت فى ١٩٤٣ للتجسس على الأسرار الذرية.

وكانت هذه هى الخلية التى كان جولد يعمل فيها كجاسوس وسيط بالدرجة الأولى. وكان مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» يملك بعض الدلائل على وجود مثل هذه الخلية، وعلى الأخص من خلال تحقيقاته فى سرقة تكنولوجيا الرادارات فى بداية الحرب. وفى وقت لاحق، فى ١٩٤٥، قامت إليزابيث بنتلى، وهى شيوعية تخلصت من الأوهام، بمفاتحة مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» وإبلاغه بأنها كانت تعمل كمساعدة لرئيس مجموعة من الخلايا التابعة للأستخبارات السوفييتية، من بينها تلك الخلية التى قامت بسرقة تكنولوجيا الرادارات. ولم تكن تعرف أعضاءها، ولكنها ذكرت أن رئيسها اتصل هاتفياً مع أحد أعضاء الخلية، وهو رجل يدعى «يوليوس».

وقدمت عملية «فينونا» دلائل أخرى، من بينها الكشف بأن هناك جاسوسين نافعين، وهما الزوج وزوجته، منهمكان فى عملية تجسس على الأسرار الذرية، ولديهما أحد الأقارب الذى يعمل فى مشروع مانهاتن. وهذه الدلائل، كما اتضح فى وقت لاحق، تنطبق على يوليوس وإيثيل روزنبيرج. وكان لديهما أخ يدعى ديفيد جرينجلاس، وكان يعمل فنياً فى لوس ألموس.

وقام فوتش بالكشف عن العقدة الأخيرة. وحين تقديم مجموعة من الصور الفوتوغرافية إليه الخاصة بالجواسيس النافعين الأمريكيين المشبوهين العاملين لحساب وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» التقط فوتش صور جولد على أساس أنه الرجل الذى كان يسلم إليه المعلومات فى لوس ألموس. وانقض مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» على جولد، الذى اعترف، الأمر الذى قاد مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» إلى إلقاء القبض على أعضاء الخلية الآخرين. وهكذا، فإن غلطة وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» العملياتية فى استخدام جولد فى خدمة مجموعتين مختلفتين من الجواسيس النافعين أدت إلى حدوث نتائج مريرة. (ومن خلال مهزلة مأساوية، فإن العضوين الأقل شأناً فى الخلية، وهما روزنبيرج وزوجته، جرى اتهامهما بالتجسس وإعدامهما فى ١٩٥٣ تبعاً لذلك. والجواسيس النافعون الأعلى شأناً جرى إرسالهما إلى ناحية الشرق من جانب وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر

يو: ألفريد سارانت وجوئيل بار، اللذان ذهبا إلى العمل في المعهد السوفيتي للتكنولوجيا المتطورة، وموريس ولينا كوهين،اللذان ظهرا مجدداً في ١٩٦٢ على أنهما بيتر وهيلين كروجر، اللذان يعملان لحساب خلية تجسس سوفييتية هامة في بريطانيا العظمى).

وإذا كان فوتش شعربالانزعاج بسبب الأضرار التي نشأت عن اعترافاته، فربما لم يشأ أن يظهر مثل هذه الشعور. وأمضى فترة السجن بهدوء، وقام خلالها بتدريس الزملاء مبادئ العلوم. وحين إطلاق سراحه في ١٩٥٩، هاجر إلى ألمانيا الشرقية، وذهب إلى العمل في معهد الفيزياء النووية، حيث اشتغل بعيداً عن الأضواء حتى تقاعده في ١٩٧٩ (ومات بعد تسع سنوات). وفي ١٩٩٣، ومن خلال شهادة تقدير متأخرة، اعترف العلماء النوويون السوفييت بأنهم صنعوا أول قنبلة ذرية للاتحاد السوفيتي من واقع اعتمادهم إلى حد كبير على المعلومات التي قدمها لهم كلاوس فوتش.

ألفريد ريدل

وليمة مع النمور

١٨٦٤ - ١٩١٣

ربما كان من الممكن القول إن هانز واجنر، لو شارك فى مباراة مع فريق ستورم لكرة القدم فى ٢٥ مايو ١٩١٣، ما كان يمكن لأحد أن يعرف هوية ذلك الخائن الأعظم فى التاريخ، وواحدة من أعظم أفعال التستر فى كل العصور.

وكان واجنر بمثابة اللاعب النجم فى فريق ستورم للهواة، وهو أحد أقوى الفرق الرياضية فى براغ. وحينما كان من المقرر، وفق جدول المباريات، أن يخوض ستورم مباراة ضد فريق يونيون القوى فى يوم الأحد من ذلك الربيع، كان فريق ستورم يعتمد اعتماداً كبيراً على مستوى أداء واجنر الرفيع فى المباريات، وعلى مواهبه فى تحقيق الفوز. ولكن واجنر، صانع الأقفال، جرى استدعاؤه للقيام بمهمة عاجلة قبل وقت قصير من موعد المباراة، الأمر الذى أثار غضب زملائه اللاعبين فى الفريق، وخسر ستورم ٧ – ٥ تبعاً لذلك.

وكان واجنر يستعد للمشاركة فى مباراة كرة القدم بعد ظهر ذلك اليوم حينما وصل كابتن وجنرال فى الجيش النمساوى – الهنغارى، بملابسهما العسكرية الكاملة، إلى بيته فجأة، وطلبا منه ضرورة الحاجة للقيام بمهمة على نحو عاجل: فتح أقفال الأبواب المغلقة فى بيت. وحينما أعرب واجنر عن اعتذاره بأنه فى طريقه اليوم

للمشاركة فى مباراة هامة فى كرة القدم، قيل له إن المهمة «ذات مهمة وطنية ملحة». وذهب بصحبة الضابطين إلى بيت فى قطاع ممتاز من البلدة، وفتح قفل الباب الأمامى، وبعد الدخول، تلقى تعليمات بفتح عدد من أقفال الخزائن المغلقة والغرف الصغيرة. وقام واجنر بهذه المهمة بسهولة بالغة، ولكنه أظهر استهجاناً تجاه الأسباب التى جعلت كل جزء فى هذا البيت يعج بالخرائط والوثائق والرزم السميكة من النقود الورقية. وعلى ما يبدو، فمن خلال توقعهم اشتداد الرغبة فى حب الاستطلاع عند واجنر، اضطر الضابطان إلى تحذيره من مغبة التحدث إلى أى شخص عما رآه فى هذا البيت. وفى حقيقة الأمر، فهو تعهد بعدم ذكر أنه كان هناك فى يوم ما. وكمحاولة لضمان التزامه المستقبلى بالسرية، قام الضابطان بوضع مبلغ من النقود بسخاء فى يد واجنر.

وكان يمكن أن يبقى واجنر ملتزماً بالصمت لولا حدوث مشاجرة غاضبة فى تلك الليلة مع زملائه اللاعبين الغاضبين. وأراد هؤلاء الزملاء أن يعرفوا الأسباب التى جعلته يمتنع عن المشاركة فى المباراة. وأجاب واجنر ببساطة أنه ذهب للقيام بمهمة. وحينما لم يعمل ذلك على تهدئتهم، أخبرهم عن لقائه غير المتوقع مع ضابطين فى الجيش، وعن ذلك البيت والمجموعة النفيسة من الأوراق والنقود الموجودة فيه. وأشار واجنر إلى ذلك التحذير الذى تلقاه بعدم التحدث عن أى شئ، وذلك على الرغم من أنه استنتج على ما يبدو أن البيت يخص أحد الضباط من زملاء هذين الضابطين اللذين قاما باستئجاره للقيام بهذه المهمة. وعندئذٍ، تنبه أحد الزملاء اللاعبين بحذر شديد: قبل يومين، سمع عن انتحار الكولونيل ألفريد ريدل من رئاسة الأركان العامة للجيش النمساوى – الهنغارى. وكان الجيش بذل جهوداً كبيرة لجعل أخبار الانتحار بعيدة عن العامة. هل كان هناك ارتباط بين الانتحار والتفتيش فى هذا البيت الذى يعج بالوثائق؟

ولم يكن هذا واحداً عادياً من لاعبى كرة القدم يطرح سؤالاً، وكان فى الحقيقة واحداً من محررى جريدة «براغر تاجبلات» اليومية الواسعة الانتشار فى براغ. وذهب فوراً إلى العمل، ومع حلول اليوم التالى كان لديه تقرير مكتوب بعناية، وهو تقرير أثار ضجة علنية عامة، ذلك أنه ذكر أن ريدل كان جاسوساً روسياً. (والمكافئ

الحديث لذلك هو القول إن الجنرال الأمريكى كولن بوويل جاسوس يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى») . وكان الاحتمال بإمكانية أن يكون ريدل، وهو أحد نجوم المؤسسة العسكرية النمساوية - الهنغارية، والرجل الذى شكلت مهنته اللامعة مصدراً للإلهام فى نظر جيل كامل من الضباط الشباب، ارتكب خيانة احتمالاً لا مجال للتفكير فيه.

وفى حقيقة الأمر، فإن الظروف المهنية التى لازمت ريدل جعلت إمكانية فهم خيانته أمراً بالغ الصعوبة. وكان ألفريد ريدل الصغير واحداً من بين ١٤ ولداً من أولاد موظف نمساوى فقير فى هيئة السكة الحديدية، وذهب إلى المدرسة العسكرية فى الرابعة عشرة فى ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش فى وقت لاحق، على أمل أن يصبح ضابطاً، وذلك برغم حقيقة أن كوادر الضباط تقوم على نظام اجتماعى قوامه التمييز الطبقى على أساس المنزلة الأرستقراطية والثروة. ولكن ريدل كان واحداً من أفضل العقول اللامعة التى شهدها الجيش : إجادة ست لغات وعبقرية تنظيمية، ومع حلول ١٩٠٠ اعتبر مرشحاً لمنصب رئيس الأركان العامة.

وفى ذلك العام، جرت تسمية ريدل لتولى منصب رئيس دائرة مكافحة التجسس فى الجيش النمساوى - الهنغارى «كى إس»، بأوامر لإعادة تنظيمها وتنشيطها. وسرعان ما استجابت دائرة مكافحة التجسس فى الجيش النمساوى - الهنغارى «كى إس» لتوجيهات ريدل، وبدأت فى ملاحقة عدد من الشبكات التى يديرها «أوخرانا»، وهو جهاز الاستخبارات التابع للدولة المعادية لامبراطورية النمسا - هنغاريا، وهى روسيا القيصرية. وكان المسؤولون فى دائرة مكافحة التجسس فى الجيش النمساوى - الهنغارى «كى إس» مسلحين بسلسلة من الأدوات التى اخترعها ريدل، وهى فى معظمها أصبحت فى وقت لاحق أدوات معيارية لمكافحة التجسس : البصمات، وملفات صور جميع الجواسيس النافعين المشبوهين، ومراقبة المنشقين السياسيين، والتنصت على غرف الاجتماعات. (فى زمن ريدل كان التنصت يتم عن طريق استخدام سلندرات فونوغرافية من الشمع).

وأبدى الروس، الذين لم يشعروا بالارتياح تجاه مجرى الأحداث، اهتماماً كبيراً بعمليات ريدل، وقرروا معرفة الحلقة الأضعف فى ريدل نفسه: الشئ الذى بعث عل الشعور بالرضا عند جهاز الاستخبارات القيصرى «أوخرانا» هو أنه عرف أن الكولونيل النمساوى – الهنغارى مولع بمغازلة الأولاد الأطفال. وفى ظل معرفته لهذه المعلومة التى لا تقدر بثمن، قام جهاز الاستخبارات القيصرى «أوخرانا» بتدبير لقاء بين ريدل وولد صغير، وجرى التقاط بعض الصور الفوتوغرافية المشبوهة، وهكذا وقع الكولونيل فى المصيدة.

وفى بادئ الأمر، ساد الاعتقاد أن هذه الصور الفوتوغرافية تحمل فى طياتها كل مبررات عمليات الابتزاز الكلاسيكية. ولكن تبين فى وقت لاحق أن الكولونيل ريدل يحب النقود كثيراً أيضاً، وهكذا بدأ الروس بسعادة فى دفع مبالغ نقدية هائلة، حتى أن الرقم وصل إلى أكثر من ١ مليون دولار فى ١٩١٣. وحصل الروس على أفضل صفقة، ذلك أن ريدل أعطاهم كل شئ باستثناء مجوهرات التاج. وقام بإعطائهم جميع أسماء العملاء النمساويين – الهنغاريين العاملين فى روسيا، والتفاصيل الكاملة عن عمليات دائرة مكافحة التجسس فى الجيش النمساوى – الهنغارى «كى إس» والخطط العسكرية الكاملة لحركة السكة الحديدية النمساوية الموضوعة للاستخدام فى حالة نشوب الحرب، وأنظمة الشيفرة العسكرية النمساوية – الهنغارية، والرسومات التخطيطية للتحصينات والمنشآت العسكرية، ولكن الأشد ضرراً من هذا كله هو الخطة الثالثة الكاملة، وهى الخطة التفصيلية للتعبئة العامة ونشر القوات النمساوية الهنغارية الموضوعة للاستخدام فى حالة نشوب الحرب مع الروس.

وكان ريدل يملك حرية الوصول إلى كل شئ، والسبب فى ذلك هو أنه فى ١٩٠٥ جرى ترفيعه إلى منصب رئيسى الأركان للفيلق الثامن، وهو الوحدة العسكرية الأهم فى الجيش النمساوى – الهنغارى. ومن خلال هذا المنصب، كان ريدل منهمكاً فى كافة مجالات خطط التعبئة العسكرية والاستخبارات الهامة الأخرى، وهذا كله وجد طريقه إلى الروس. وفى ١٩٠٨، كان ريدل قادراً على تحذير روسيا من الضم النمساوى الهنغارى للبوسنيا والهيرسك، وهو فعل أدى إلى التحالف بين روسيا وصربيا

الغاضبة، مع ما نشأ عن ذلك من نتائج ما زالت أصداؤها تتردد حتى اليوم.

ومع هذا، فإن التحالف النمساوى - الهنغارى لم يكن يعرف أن أسراره أصبحت كتاباً مفتوحاً أمام الروس. ولم يتأكد من حدوث الكارثة إلا فى مارس ١٩١٣ حينما لاحظ عدد كبير من عملاء دائرة مكافحة التجسس فى الجيش النمساوى - والهنغارى «كى إس» الذين كانوا مخصصين لمراقبة الرسائل البريدية عبر مناطق الحدود، شيئاً مثيراً للانتباه. وكان هؤلاء العملاء عثروا على رسالتين، وكل منهما كانت معنونة إلى صندوق بريد فى فيينا ومرسلة من إيديتكوهنين فى بروسيا الشرقية بالقرب من الحدود الروسية. وقام عملاء دائرة مكافحة التجسس فى الجيش النمساوى - الهنغارى «كى إس» بفتح الرسالتين، ووجدوا ٦,٠٠٠ كرونين فى واحدة، و٨,٠٠٠ كرونين فى الأخرى (حوالى ٢,٧٠٠ دولار، وهو متوسط الراتب السنوى للعامل فى تلك الأيام). ولم تكن هناك رسالة مكتوبة، أو ملاحظة صغيرة، وكانت هناك نقود فقط. وقام هؤلاء العملاء بإغلاق الرسالتين وإرسالهما فى البريد مع التوصية بتكوين مجموعة مراقبة لمعرفة الشخص الذى يقوم باستلام الرسالتين.

واقتفى عملاء دائرة مكافحة التجسس فى الجيش النمساوى - الهنغارى أثر الرجل بملابس مدنية الذى وصل أخيراً لاستلام الرسالتين. وقام هؤلاء العملاء بتعقب خطواته إلى أحد الفنادق، وكشفت عملية التحقق من السجل أن اسم الضيف هو ألفريدريدل. واتصل العملاء هاتفياً مع المسئولين فى مقر القيادة، الذين شعروا بالصدمة، الكولونيل ريدل؟ لابد أن هناك غلطة ما.

ولكن لم تكن هناك غلطة. وحينما وصلت كلمة إلى رئاسة الأركان العامة عن خيانة ريدل، جرى وضع خطة عمل، وهى خطة بلغت حد التستر على الأفعال. وقامت هذه الخطة على إعطاء ريدل مسدساً لاستخدامه وفق الطريقة العسكرية التقليدية: الانتحار. وبعدئذ، يصار إلى شرح الأمر إلى العامة من خلال القول إن ريدل انتحر تخلصاً من «عناء العمل المفرط». وتقرر أن يعرف عشرة من كبار ضباط الجيش فقط ماهية الظروف الحقيقية التى أفضت إلى موت ريدل. وبحلفهم اليمين التزاماً

بالسرية، ما كان من الممكن أن تتسرب كلمة عن خيانة الكولونيل. ولم يتم حتى إبلاغ الامبراطور فرانز جوزيف بحقيقة الموت المشرف لهذا الكولونيل.

وبعد أيام قليلة، ذهب أربعة ضباط، بنظرات متجهمة وملابس كاملة، إلى الغرفة فى الفندق التى كان ريدل ينزل فيها. وقال ريدل: «أعرف الأسباب التى جئتم من أجلها». وطلب مسدساً، وقام أحد الضباط بإعطائه إياه. ومن خلال انحناءة دالة على الشكر، طلب ريدل أن يترك وشأنه وحيداً فى الغرفة، وانتظر الضباط خارج الباب الأمامي. وفى غضون برهة قصيرة، سمعوا صوت طلقة نارية. ولما دخلوا مجدداً الغرفة، وجدوا ريدل متمدداً باسطاً ذراعيه وقدميه أمام مرآة كبيرة. وكان ريدل وقف أمام المرآة، وراقب نفسه أثناء إطلاق النار على دماغه.

وبدأت المرحلة التالية من أفعال التستر على الأفعال حين دخول بيت ريدل من أجل تأكيد الدلائل. وحينما لم يستطع الضابطان المخصصات للمهمة العثور على مفاتيح ريدل، قاما باستئجار صانع أقفال. وكان يمكن أن تنجح فكرة هذا العمل لولا أن هانز واجنر، صانع الأقفال، اضطر إلى شرح أسباب غيابه عن المباراة أمام زملائه اللاعبين الغاضبين. وكان التقرير الأول الذى نشر على صفحات الجريدة لم يعمل إلا على تعاظم الرغبة عند العامة فى طلب المزيد، وفى غضون بضعة أيام، كانت هناك فضيحة كاملة أمام الحكومة النمساوية – الهنغارية. ومثلها كمثل القوة العسكرية المتقهقرة أمام جيش قوى من الأعداء، فإن القيادة العليا العسكرية قدمت تقريراً بعد آخر، وكل تقرير كان يتضمن معلومات جديدة. وشيئاً فشيئاً، ظهرت الحقيقة كلها، ولكنها أصبحت غير ذات أهمية إلى حد ما مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

وعندئذ فقط أصبح تأثير خيانة الكولونيل ريدل واضحاً. ومع أن القيادة العليا النمساوية – الهنغارية كانت تعرف أن الروس يملكون الخطة الثالثة، فإن مثل هذه الخطة، التى اشتملت على برامج التعبئة العامة وتحريك الجنود وتموينهم وإيوائهم، كانت معقدة جداً ومكتوبة فى الغالب فى عدة مجلدات. ولم يكن من السهل تغيير الخطط، ولذلك فإن النمساويين والهنغاريين ذهبوا إلى الحرب فى مواجهة عدو كان

يعرف خططهم الرئيسية، ونتيجة لذلك، عانى النمساويون والهنغاريون من كارثة عسكرية فى جاليسيا، وتكبدوا خسائر فى الأرواح بلغت ٥٠٠,٠٠٠ رجل، وهى هزيمة لم يكتب لهم الشفاء منها. وبعد أقل من أربع سنوات، انهارت الامبراطورية النمساوية -الهنغارية فى صندوق زبالة التاريخ.

وأدى انتحار ريدل إلى الحيلولة دون القيام ببحوث كاملة للعملية الفعلية التى انتهت به إلى الخيانة .وترك ريدل فقط ملاحظة انتحار قصيرة شرحت القليل جداً : «دمرنى الطيش والهوى، صلوا من أجلى، وإننى أدفع حياتى الآن ثمناً لذنوبى».

الجـواسـيـس الـسـوبـر

كانج شينج

الاسم المستعار : زهانج شوبينج

١٨٩٨ - ١٩٧٥

* * *

تاى لى

١٨٩٥ - ١٩٤٦

رعب فى الصين

لم تكن شينغهاى فى ١٩٢٧ مدينة يصاب فيها القلب بالإغماء. وفى ظل ذلك الاستيطان الدولى الكبير، حيث مقار معظم الأعمال التجارية الرئيسية فى الصين، وتلك الأحزاب السياسية الصينية المتنازعة، فإن المدينة كانت فى حالة اهتياج دائم. وكانت أيضاً بمثابة مفترق طرق على جانب كبير من الأهمية، فيما يتصل بالتجسس الدولى وميدان صراع رئيسى من غير هوادة بين الشيوعيين وغير الشيوعيين فى سعيهم لتولى السلطة فى البلاد.

وأدى هذا الغليان الهائج إلى ظهور اثنين من الجواسيس السوبر اللذين أمضيا أكثر من ٢٠ عاماً فى معركة مميتة أسفرت فى غاية الأمر عن قتل الملايين من الأشخاص. وكان ينبغى أن ينتصر أحدهما، وذلك على الرغم من أن كلمة الانتصار

ينبغي استخدامها بحذر شديد في دولة حيث الثمن في الدم لمثل هذا الانتصار باهظ جداً، وفي حقيقة الأمر، فإن الشعب الصيني كان في مواجهة الاختيار بين أهون الشرين، ذلك أن أحدهما كان معروفاً عنه بأنه «بيريا» الصين، والآخر «هيملر» الصين.

وكان المنتصر النهائي هو كانج شينج، الجاسوس السوبر الشيوعي الذي يعتبر واحداً من أكثر الرجال إثارة للانتباه في تاريخ التجسس الصيني الطويل. وعلى العكس من معظم زملائه الشيوعيين الثوريين، وعلى الأخص صديقه الحميم ماوتسي تونج، فإن شينج جاء من خلفية غنية. وكان شينج ولد في ١٨٩٨ تحت اسم زهاو يانج، إبن صاحب الأراضي الغني، ولكنه في سن المراهقة، انصرف عن عائلته، وتبنى الاسم كانج شينج، احتجاجاً على أفعال والده في استغلال الفلاحين. ومع حلول ١٩٢٢، أصبح شينج ثورياً، وبعد عامين، حينما كان طالباً جامعياً، أصبح واحداً من الأعضاء الأوائل في الحزب الشيوعي الصيني. وبعد فترة قصيرة، أثار شينج انتباه زعماء الحزب من خلال البرهنة على ميوله في التجسس، وقام بتنظيم عملية تجسس غير رسمية لتخليص الحزب من الجواسيس التابعين للبوليس السري، وهي عملية امتدت حتى شملت التجسس على «المنشقين» في الحزب الذين فشلوا في البرهنة على حماسة كافية في الالتزام الشديد بالخط الحزبي.

وفي ١٩٢٧، كان ينبغي على شينج الدخول في صراع تنافسي مع الرجل الذي أصبح منافسه المكروه. وكان تاي لي، المولود في ١٨٩٥، في القرية نفسها التي ولد فيها شيانج كاي شك، ابن فلاح فقير. ومثله كمثل شينج، فإن لي أيضاً أصبح ثورياً، ولكن حماسته اتخذت منعطفاً متبايناً تماماً. وفي الرابعة عشرة، انظم إلى جيش المولعين بالقتال، وفي وقت لاحق انضم إلى منظمة شيانج كاي شك. ومن واقع كونه موالياً متعصباً للزعيم شيانج، فإن لي كرس طاقاته نحو التجسس، وأنشأ شبكة قامت بمراقبة أتباع شيانج لمعرفة أية دلائل على حدوث أي ارتداد.

وفي ١٩٢٧، وقع صدام عنيف بين شينج وبين لي في شينغهاي، حيث زلزلت

المدينة انتفاضة شيوعية. وكان شينج، وهو أحد زعماء المنظمة السرية الشيوعية في المدينة، قام في الوقت نفسه بتنظيم عمليات تجسس ضد رجال البوليس السرى في شينغهاى، مفسحاً المجال أمام عهد من إرهاب ضد المرتدين عن القضية الشيوعية. والكثيرون منهم قتلوا عن طريق مجموعة صغيرة من القتلة الذين قام شينج بتجنيدهم من بين عالم الرذيلة والإجرام في المدينة.

وفي غضون ذلك، كان لى مسؤولاً عن عمليات إخماد الانتفاضة. ومن خلال البرهنة على نوع من قساوة في القلب جعلت اسمه سيء السمعة مثل سمعة شينج، فإن لى أخضع المدينة إلى عهد من إرهاب خاص به. وقام بدور بارز في قمع الثورة، وهو دور تميز باختراع فنون تحديد مصائر الأشخاص المقبوض عليهم من الشيوعيين الثوريين: رميهم في غلايات القاطرات البخارية.

وهكذا، اتضحت في ذلك الوقت خطط المعركة بين شينج وبين لى. وكان كل من الرجلين نهض إلى أعلى مراتب التسلسل الهرمي في سلطة الحركتين السياسيتين لكل منهما. وفي ١٩٣١، قام شيانج بتسمية لى رئيساً لمكتب المعلومات والإحصاء، وهو وكالة الاستخبارات التابعة للحركة الوطنية. وقام لى بتجنيد أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ عميل وتغطية الصين بشبكة من المخبرين والعملاء الذين كرسوا كل طاقاتهم نحو الهاجس الذى استحوذ على فكر لى، وهو الشيوعيون. وحرص لى على إيجاد انطباعة ذهنية بأن وكالته لديها عيون وآذان في كل مكان. وامتدت يده حتى إلى العاهرات. وأوجد لى شبكة من بيوت الدعارة التى تضم نساءً متدربات على فنون انتزاع الأسرار من زبائنهن. وكانت بيوت الدعارة ذات تخصصات رفيعة المستوى، واشتملت هذه التخصصات على كل فنون الأذواق الجنسية الممكنة. وكان هناك ما أطلق عليه «بيت الألف عاهرة»، وهذا البيت كان يقدم خدمات إلى الزبائن الشاذين جنسياً، وذلك بهدف الحصول على معلومات من هؤلاء الزبائن حول ما يمكنهم معرفته عن الشيوعيين أو أى موضوع آخر مثير للاهتمام.

وفي غضون ذلك، تقررتسمية شينج رئيساً لقسم حزبى خاص معروف باسم

«دائرة المهام الخاصة»، وهو جهاز الاستخبارات الشيوعى الصينى. وقام شينج المفعم بالحيوية والنشاط بتنظيم شبكاته من المخبرين وتنفيذ عمليات مكثفة من أجل تغلغل عملائه فى صفوف وكالة لى للاستخبارات. وكانت النتيجة نشوب حرب خفية بين الرجلين، حتى أن جثث الأفراد من الجانبين كانت مبعثرة على نحو روتينى فى الشوارع. وفى حرب تجسسية غير معلنة، قام كل من الجانبين بالدور نفسه: أى رجل يشتبه فى أمره بعمله لحساب الجانب الآخر كان يعذب حتى الموت، ثم تترك جثته أمام عيون الجميع تحذيراً لهم. وقلما كان لى يشارك فيها. ومن واقع حقيقة كونه سادياً، فهو كان يستمتع بالمشاركة فى أشد عمليات التعذيب رعباً، حتى أنه أصبح معروفاً بين مساعديه المقربين على أنه «ملك العذاب» بسبب تلذذه بإنزال صنوف العذاب على البشر.

وكانت هناك أيضاً عيوب أخلاقية جعلت بعض زعماء الحزب يشعرون بالانزعاج تجاه شينج، ذلك أنه كان مستخدماً مفرطاً للأفيون، وانتهازياً، ومحباً للسلطة، وعديم الرحمة. ولكن بسبب صداقته الوثيقة مع ماوتسى تونج، فلم يكن هناك أحد قادراً على توجيه الانتقاد إلى ذلك الرجل الذى ظن ماو أنه ضرورى للمحافظة على أمن الحركة الشيوعية المحفوفة بالأخطار. (وشينج أيضاً حرص على تعزيز صداقته مع ماو من خلال تزويد زعيم الحزب بإمدادات ثابتة من النساء الجميلات لإشباع شهية ماو اللامتناهية من لحوم البشر).

ومع حلول ١٩٣٨، كان نفوذ شينج داخل زعامة الحزب كبيراً جداً. وكان انتخب إلى عضوية الجنة المركزية للحزب، ومن خلال هذا الدور جرى إرساله إلى الاتحاد السوفييتى بناء على دعوة من ستالين لتلقى تدريبات على عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وبرهن وجوده فى الاتحاد السوفييتى على كونه على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن شينج، الحكم الداهية على الرجال، استنتج أن الروس ليسوا فى الحقيقة المؤيدين المتحمسين للشيوعية الصينية كما كانوا يزعمون. وسجلت ظنون شينج، التى نقلها إلى ماو، البداية الحقيقية للانشقاق الصينى – السوفييتى. ومن أجل إقامة الدليل على ظنونه، قام عملاؤه بجمع قدر هائل من المعلومات الاستخباراتية

حول كيفية قيام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بتجنيد الأفراد من الحزب الشيوعى الصينى لتنظيم مجموعات من الجواسيس النافعين للتجسس على أفعال ماو وزعماء الحزب الآخرين.

وعاد شينج بسرعة إلى الصين للمساعدة فى التصدى للغزو اليابانى، ولكن لم يخطر على باله أبداً ضم صفوف قواته إلى صفوف قوات لى باسم القتال ضد عدو مشترك. وخلال فترة الحرب، كان كل من شينج ولى يمضى معظم وقته فى محاولات التغلغل وتحييد الأفعال المتناقضة التى يقوم بها كل من جهاز الاستخبارات التابع لكل منهما. وكان الرجلان يتطلعان قدماً إلى ذلك اليوم الذى تتحقق فيه هزيمة اليابانيين، وهى غاية اعتبرت حتمية فى ذلك الوقت، وعندئذ يمكن أن تبدأ المعركة النهائية فى حربهما الخاصة بهما.

وسعى لى إلى تحسين فرصه المتاحة من خلال تحالف مع الأمريكيين استهدف القيام بحملة دعائية مكثفة لتصوير الحركة الوطنية على أنها الممثل «الحقيقى» للشعب الصينى. وقام بتوسيع نطاق عمليات مكتبه على المستوى العالمى، وتجنيد عدد من الصينيين – الأمريكيين البارزين الذين شكلوا نواة ما أصبح «اللوبى الصينى» الذى يتمتع بنفوذ واسع. وكانت النتيجة تعاظم أواصر الصداقة الوطنية – الأمريكية، الأمر الذى أدى إلى حدوث مشاكل جادة فى وقت لاحق حينما قررت الولايات المتحدة تقديم دعم كامل للوطنيين فى الحرب الأهلية الصينية. وخلال الحرب العالمية الثانية، أقام لى ارتباطات وثيقة مع المؤسستين العسكرية والاستخباراتية الأمريكية، وبلغت هذه الارتباطات ذروتها فى ١٩٤٣ حينما جرت تسميته مديراً لمنظمة التعاون الصينية – الأمريكية، وهى عملية مشتركة لتنظيم وحدات كوماندوس معادية لليابانيين.

ولكن مصدر الشعور الدائم بالقلق عند لى هو الأمريكيون، وخلال فترة الحرب ظل هو وشينج فى حالة صراع. وكل منهما قام على نحو روتينى بقتل عملاء الآخر كمحاولة للمناورة على منزلة بارزة بعد الحرب. وبدأ شينج، الأفضل تنظيماً وتخطيطاً،

فى اكتساب اليد الطولى، وهى ميزة برهن عليها فى ١٩٤٤ من خلال الحصول على معلومة استخباراتية كانت لها فى وقت لاحق نتائج بالغة الأهمية.

وعمل كل من لى وشينج بنشاط من أجل التغلغل إلى صفوف المجموعات من الجواسيس النافعين الذين جندتهم الاستخبارات الأمريكية فى الصين، وعلى الأخص مكتب الخدمات الاستراتيجية «أو إس إس». وتمكن شينج من تطوير مصدر، لم يكشف النقاب عنه مطلقاً، قام بتمرير المعلومة الاستخباراتية المذهلة، وهى معلومة أمكن الحصول عليها من مسؤول بارز ثرثار فى مكتب الخدمات الاستراتيجية «أو إس إس»، التى أفادت بأن الولايات المتحدة تعكف على صنع قنبلة ذرية من شأنها وضع حد للحرب فى مناطق المحيط الهادى. ولم يشأ شينج، عن قصد، تمرير هذه الجوهرة الاستراتيجية إلى الروس، ووضع خططه الخاصة به. وبدأ عملية عاجلة لتجنيد العلماء الصينيين العاملين فى الولايات المتحدة، وعلى الأخص هؤلاء المنهمكين فى الفيزياء النووية. ونجح فى حمل اثنين منهم على العودة إلى الصين، حيث ذهبوا إلى العمل فى صنع قنبلة ذرية صينية. وبعد بضع سنوات، حينما قررت الحكومة الصينية الشروع فى برنامج شامل لصنع أسلحة نووية، كان لدى شينج فى الأصل نواة علماء عكفوا على حل هذه المشكلة منذ بعض الوقت.

ولم يكن لى حقق انتصاراً استخباراتياً مماثلاً، ولكنه كان يتمتع بميزة يفتقر إليها شينج: الولايات المتحدة. ومع تعاظم قوة العلاقة بين الأمريكيين والحكومة الوطنية، بدأت خطوط الإمدادات الأمريكية من الأسلحة والمعدات فى النشاط والمساعدة فى هزيمة قوات ماو. وحرص لى، الذى عالج الكثير من الإجراءات، على توفير المزيد من الفرص لتعزيز العلاقة مع الاستخبارات الأمريكية. ومن جانبهم، حرص الأمريكيون، من خلال براجماتيتهم السياسية، على التغاضى عن أفعال لى الأقل جاذبية، من بينها شبكة معسكرات الاعتقال التى أقامها من أجل حبس «أعداء الدولة»، وهو تعبير يقصد به أى مواطن صينى يوجه حتى أقل الانتقادات إلى شيانج كاى شك.

ومع حلول أوائل ١٩٤٦ ، وفى وقت انتشرت فيه الحرب الأهلية إلى كل أنحاء الصين، قرر شينج وجوب التخلص من لى. ولم تكن هذه مهمة سهلة، ذلك أن لى كان يحيط نفسه دائماً بإجراءات أمنية مشددة، ويجعل تحركاته سرية ويتجنب النوم فى مكان واحد لأكثر من ليلتين فى المرة الواحدة. ولكن بعض عملاء شينج تمكنوا أخيراً من التغلغل إلى حلقة لى الداخلية، واكتشفوا شيئاً مثيراً للانتباه: لى متيم بحب ممثلة جميلة تدعى واى. وحدث أن كانت واى متزوجة، وتلك كانت عقبة تمكن لى من إزالتها عن طريق إعطاء زوجها رشوة كبيرة للابتعاد عن الطريق. وبإزالة هذه العقبة من الطريق، بدأ لى فى تحديد سلسلة من اللقاءات مع الممثلة واى، وكان يذهب بالطائرة سراً إلى بيتها فى شينغهاى (حيث كانت تمثل فى أفلام سينيمائية صينية) من قاعدة عملياتية فى شانكينج.

وفى ظل معرفته لهذه المعلومة الاستخباراتية، قام شينج بعدئذٍ بمفاتحة طيار لى الخاص بعرض غير عادى: مقابل مهمة انتحارية تقوم على جعل الطائرة تغوص فى الأرض فى المرة القادمة التى يركب فيها لى الطائرة، فإن جميع أفراد عائلة الطيار سوف يتم تعويضهم بسخاء خلال بقية حياتهم. ووافق الطيار، وذات ليلة فى مايو ١٩٤٦ غاص بالطائرة فى الأرض بعد دقائق قليلة من الإقلاع. وهكذا، قتل لى والطيار فى الحال. ومع ذلك، فإن أفراد عائلة الطيار لم يحصلوا أبداً على تعويضاتهم. ولكن عملاء لى، الذين ظنوا أن هناك مؤامرة قتل فى تحطم الطائرة، عرفوا ما حدث بالضبط فى نهاية الأمر، وقاموا باختطاف جميع أفراد عائلة الطيار، ثم تعذيبهم حتى الموت.

وبعد التخلص من الجاسوس السوبر لى، هوى صرح مكتب المعلومات والإحصاء الخاص به. وبحرمانها من زعامتها الناشطة، فإن مصير هذه الوكالة انتهى إلى الانهيار أمام اعتداءات شينج وعملائه المتكررة. وفى ١٩٤٩، حينما انتصرت قوات ماو، أصبح شينج المعلم الأكبر للاستخبارات فى كل أنحاء الصين. وكل من كان يظن أن إحلال شينج محل لى فى هذا الدور كان يمكن أن يؤدى إلى تقليص حجم أعمال القمع سرعان ما تخلص من أوهامه. وقام شينج بتنظيم حملات التطهير الواسعة التى

اجتاحت الصين، وفتح معسكرات الاعتقال، وهى معسكرات أطلق عليها «مراكز إعادة التوجيه الفكرى»، حيث كان يتم تصحيح الأفكار فى ظل ظروف أفضل. ونتيجة لذلك، بدأ زعماء الحزب فى وصف شينج من وراء ظهره بأنه «بيريا» الصين.

وكانت هناك أفعال أشد قساوة لائحة في الأفق. وفى ١٩٥٨، قام شينج، بناء على توصيات ماو، بتنظيم «قفزة عظيمة إلى الأمام»، وهى عبارة عن حملة تصنيع قامت على تحويل الصين إلى كثبان من النمل وقمع النزعة الفردية باسم «الفكر الماوى»، وفى وقت لاحق، قام بتنظيم «الثورة الثقافية العظيمة» وهذه أدت إلى القضاء على آخر بصيص من الأمل فى الحرية الفردية فى الصين. ومن المؤكد أن الرقم الإجمالى للضحايا فى كل هذه الأفعال القمعية لن يكون معروفاً أبداً، ولكن التقديرات ربما تصل إلى عشرات الملايين.

ومع مرور الزمن، أصبح شينج رجلاً أيديولوجياً متعصباً، وأقام علاقات صداقة وثيقة مع ماو. وكان شعور شينج المعروف عنه برهاب الروس هو الذى كان له التأثير الأعظم فى قرار ماو بالانشقاق عن الكتلة السوفييتية. وأصبح شينج لا غنى عنه بالنسبة إلى ماو، ولكن خدماته انتهت فى ١٩٧٠، حينما أصيب بالسرطان. ومات بعد خمس سنوات، غير أن الأشياء بدأت فى التغيير فى الصين. وفى ١٩٨٠، قامت الزعامة الصينية الجديدة بطرد شينج من الحزب الشيوعى، وأطلقت عليه «عدو الشعب الصينى».

ماركوس وولف

ساعة كارلا

- ١٩٢٣

فى أحد أيام الربيع الدافئة فى ١٩٧٩، عبر عميل جهاز الاستخبارات الألمانى الشرقى إتش فى إيه، يدعى ويرنر ستيللر نقطة تفتيش تشارلى فى برلين الشرقية وأعلن ارتداده. وفى ذلك المنعطف من عمليات التجسس فى الحرب الباردة، لم تكن محاولات الارتداد أمراً نادراً، ولكن هذه المحاولة التى نحن بصددها على وجه الخصوص كانت مختلفة جداً، ذلك أن ستيللر جرى الترحيب به كأنه الرجل القادم بالكأس المقدسة.

وكان ذلك الاهتمام الشديد فى أمر ستيللر من جانب أجهزة مكافحة التجسس فى كل من ألمانيا الغربية وأمريكا وبريطانيا وفرنسا يرتبط جزئياً بحقيقة أنه كان يعرف هوية الجواسيس العاملين فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات الألمانى الشرقى «إتش فى إيه» وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى ألمانيا الغربية (ستيللر كشف أسماء ١٧ جاسوساً منهم، بينما هرب خمسة من الجواسيس الآخرين إلى الناحية الشرقية فى اللحظة التى أصبحوا فيها عارفين بارتداده).

وجاءت بؤرة الاهتمام الحقيقية فى أمر ستيلر بسبب حقيقة أن الغرب تمكن لأول مرة من النفاذ إلى ذلك الرجل الذى أطلقوا عليه «كارلا»، وهو الجاسوس المعلم الألمانى الشرقى الغامض الذى خدعهم لعدة سنوات.

ولم يكن «كارلا» الاسم الرمزى للجاسوس المعلم، وإنما كان يستخدم فى روايات جون لوكار لتمثيل جاسوس سوبر خيالى تعبيراً عن شخصية حقيقية، وهى شخصية ماركوس وولف، العامل لحساب جهاز الاستخبارات الألمانى الشرقى «إتش فى إيه». والآن أصبح باستطاعة ستيللر، الصديق الشخصى الحميم والمتمتع بحماية وولف، إلقاء بعض الضوء على الرجل الذى اعتبر فى مرتبة الجاسوس المعلم المثير للإعجاب فى تاريخ التجسس فى الحرب الباردة.

ومثله كمثل خطوط محيطة غير واضحة لصورة فوتوغرافية تصبح أكثر وضوحاً شيئاً فشيئاً فى صينية تحميض الصور الفوتوغرافية، فإن الأسرار التى أفشاها ستيللركست باللحم ماركوس وولف، من حيث كونه إنساناً وأيضاً من حيث كونه جاسوساً معلماً. وفيما يتعلق بخلفيته، فإن أفعال وولف السابقة كشفت عن نمط مألوف معين يتصل بالشيوعيين الألمان. وكان وولف المولود فى ١٩٢٣، ابن الكاتب المسرحى الشيوعى فريدريك وولف، الذى أدرك، كيهودى وشيوعى، عدم إمكانية وجود أى مستقبل فى ظل نظام هتلر. وبعد شهرين من تولى هتلر السلطة، هرب وولف وعائلته إلى الاتحاد السوفييتى.

ومن الناحية المبدئية، فإن ابن وولف كانت لديه طموحات فى أن يصبح دبلوماسياً. ودرس فى مدارس الكومنتيرن فى موسكو، ثم حصل على درجات جامعية فى الدبلوماسية. وفى ١٩٤٥، أصبح القنصل الأول فى البعثة الألمانية الشرقية الجديدة فى موسكو. وعلى العكس من الجهاز الحكومى المحايد الذى هيمن على الحكومة الألمانية الشرقية الأولى، فإن وولف كان شخصية مستقلة، وشاباً نشطاً ومتميزاً بقدرة مذهلة على فهم التفاصيل، ورجلاً ذكياً جداً. وهذه الصفات لفتت انتباه عدد من المسؤولين السوفييت الأصغر سناً الذين كانوا يترنحون تحت قبضة ستالين القاتلة، وفى

وولف وجدوا روح ابن البلد الذى يمثل مستقبل الشيوعية. وعلى رأس هؤلاء كان الكسندر بانيوشكين، وهو شخصية رفيعة المقام فى المؤسسة الدبلوماسية والاستخباراتية السوفييتية، ويورى أندروبوف، الدبلوماسى الذى وضع بصماته على عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». (بعد حوالى ٣٠ عاماً، أصبح أندروبوف رئيس جهاز الاستخبارات السوفيتى «كى جى بى») . وقرر هذان الرجلان أن مواهب وولف الرائعة تتلائم مع العمل الاستخباراتى فى ألمانيا الشرقية التى نشأت حديثاً. وفى ألمانيا على وجه الخصوص، كما جادل بانيوشكين، يمكن أن تقع المعارك العظيمة بين الاستخبارات الشرقية والغربية. وكما كان يعرف، فإن هيكل الاستخبارات الألمانى الشرقى الأول كان خاضعاً لهيمنة «المحاربين القدماء» من أيام هتلر، وهم الرجال الذين قضوا عقدين من الزمن فى أعمال سرية ضد النازية. وكان ذلك عملاً جديراً بالثناء، ولكنه لم يكن استعداداً جيداً لعالم التجسس المختلف جداً اللاحق على الحرب.

وإلى حد ما، فإن الحسابات السوفييتية أخذت فى اعتبارها شخصية مثيرة للأنتباه فى الجانب الآخر، ذلك أن رينهارد جيهلن، رئيس وحدة الاستخبارات العسكرية الألمانية فى الجبهة الشرقية، اكتسب سمعة فى كونه صاحب التقييمات المخلصة والدقيقة للقوة العسكرية السوفييتية، ومالك القدرة على إدارة هيكل ضخم. وبعد طرده من الخدمة فى ١٩٤٥ من جانب هتلر، الذى طالب أيضاً بوضعه فى سجن المجانين، لجأ جيهلن إلى الأمريكيين. وفى وقت لاحق، قام الأمريكيون بإرساله إلى ألمانيا الغربية بأموال سخية من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» من أجل إدارة ما أطلق عليه «الأورج»، وهو جهاز استخبارات مرن استهدف التغلغل إلى ألمانيا الشرقية وبقية الكتلة الشرقية.

وفى مواجهة هذا النوع من التحديات، لجأ جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» إلى وولف، وعهد إليه القيام بمهمة تكوين هيكل استخبارات فى ألمانيا الشرقية. وكان العنصر الرئيسى فى تركيبة هذا الهيكل شعبة أطلق عليها الدائرة الرئيسية الرابعة، التى أدارت عمليات الاستخبارات الخارجية، مع التركيز على ألمانيا الغربية. وحينما جرت تسمية وولف رئيساً لها فى ١٩٥٤ وهو فى الحادية والثلاثين،

كان ذلك بمثابة دلالة واضحة على الاحترام الذى كان يحظى به فى نظر جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». ورد وولف على هذه الثقة على نحو عاجل تقريباً، وذلك من خلال تنظيم عملية تغلغل واسعة النطاق ضد ألمانيا الغربية، وهى عملية أدت فى غاية الأمر إلى إضعاف الهيكل الحكومى فى ذلك البلد من خلال تلك الحلقات المتشابكة من الجواسيس النافعين الذين جعلوا جهاز الاستخبارات الألمانى الشرقى «إتش فى إيه» (وكذلك جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى») عارفاً بكل شئ يستحق المعرفة.

وبعد عامين، واعترافاً ببراعته، أصبح وولف رئيس جهاز الاستخبارات الألمانى الشرقى «إتش فى إيه». وفى ظل ما عرف عنه عند جهاز الأستخبارات السوفييتى «كى جى بى» من أنه رجل متغرض عن الهوى، اتضح أن لديه مجموعة من أفكار يمكن تدريسها لأساتذته. وكان من بين أفكاره المثيرة للانتباه مفهوم «التغلغل الخفى»، وهو عبارة عن أسلوب فى العمل يتضمن الحصول على جوازات سفر وأوراق أخرى تخص الألمان الغربيين الذين انتقلوا إلى بلدان أخرى، ويقوم وولف بعدئذٍ بتجنيد جواسيس نافعين من الألمان الشرقيين الذين تنطبق عليهم التفاصيل الشخصية فى هذه الأوراق إلى أقرب حد ممكن، وبعد ذلك يمكن لهؤلاء الجواسيس التغلغل إلى ألمانيا الغربية بخلفيات «نظيفة» بحيث يصعب على رجال مكافحة التجسس اكتشافهم.

وهناك فكرة أخرى وهى «الهجوم على السكرتيرات»، وتتضمن تجنيد الشباب الوسيمين من الألمان الشرقيين للقيام بمهمة التغلغل إلى ألمانيا الغربية تحت غطاء كونهم لاجئين، وعقد علاقات صداقة مع السكرتيرات الحكوميات، ولكن ليس أية سكرتيرة بالطبع، ذلك أن الفكرة تعتمد على قيام الشباب بالتودد إلى السكرتيرات العوانس ومتوسطات الجمال اللواتى يشكلن الجزء الأعظم من قوة السكرتيرات الحكوميات، ويقوم رجال وولف من الشباب بالتردد على الحانات والمنتجعات وأماكن التسلية الأخرى من أجل العثور على السكرتيرات غير المتزوجات وفى منتصف العمر اللواتى يمكن شد البساط من تحت أرجلهن عن طريق اهتمام الشباب العاشقين بهن، وحين استكمال عملية الإغواء، يتمكن هؤلاء الشباب من حمل السكرتيرات على إحضار

وثائق حكومية إلى البيت لتصويرها وإرسالها إلى الناحية الشرقية بشريط ميكروفيلم.

وفي الوقت نفسه، فإن وولف كان مشغولاً في الصراع ضد جهاز رينهارد جيهلن «الأورج» الذى أصبح وكالة الاستخبارات الألمانية الغربية «بى إن دى» في ١٩٥٥. ومن خلال حرب خفية في وقت لاحق جرى تخليدها في رواية جون لوكار «الجاسوس الذى جاء من البلاد الباردة» خاض وولف وجيهلن معركة الجواسيس العاملين في الظلام، والتغلغل، والتغلغل المضاد، والعميل المزدوج، والعميل الثلاثى. وكانت المعركة متكافئة إلى أن شرع وولف في العمل من نقطة الضعف الرئيسية عند جيهلن، وهى نزعته إلى استخدام عملاء وكالة الاستخبارات النازية وجهاز الاستخبارات الألمانى والجستابو السابقين دون محاولة التدقيق التفصيلى في خلفياتهم على افتراض أن مثل هؤلاء الرجال لا يحملون أفكاراً متعاطفة مع «الشيوعية».

وهذا الافتراض برهن على كونه افتراضاً خاطئاً فيما يخص هانز فيلف، المسؤول السابق في وكالة الاستخبارات النازية الذى عمل خلال الحرب في عمليات مكافحة التجسس ضد جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وكان فيلف نازياً متطرفاً، ولكنه كان أيضاً معادياً على نحو فعلى للأمريكيين والبريطانيين بسبب الدمار المخيف الذى أصاب مكان ولادته المحبوب، مدينة درسدن، خلال غارات القصف الجوى التى قام بها الحلفاء في ١٩٤٥. وإدراكاً من جانبه لهذه الشيزوفرينيا المثيرة، عكف وولف وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» على محاولة إقناع فيلف، وجرى تجنيده كجاسوس نافع. وكانت الخطوة التالية تتمثل في جعل فيلف يتغلغل في جهاز الاستخبارات الألمانى الغربى «بى إن دى»، وهذا التغلغل أمكن تحقيقه من خلال تزويد فيلف بقدر كبير من معلومات استخباراتية متدنية الدرجة (ولكنها مع ذلك مثيرة في مظهرها) حول جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» وجهاز الاستخبارات الألمانى الشرقى «إتش في إيه». وفي غضون ذلك، قام جيهلن بتجنيد هذا الرجل السابق في وكالة الاستخبارات النازية «إس دى»، وأصبح فيلف متمتعاً بحرية الحركة. وفي عملية جرى إعدادها على نحو رائع، تلقى فيلف سيلاً متدفقاً من المعلومات الاستخباراتية من الشرق، الأمر الذى عمل على تعزيز مكانته كرجل بارع في

مكافحة التجسس. وفي بعض الحالات، كان جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي بي بي» وجهاز الاستخبارات الألماني الشرقي «إتش في إيه» يقومان بالتضحية على نحو متعمد ببعض عملائهما الأقل أهمية في ألمانيا الغربية من أجل تعزيز مكانة فيلف على نحو أفضل. وبلغت عملية فيلف ذروتها في ١٩٥٨، حينما جرت تسميته رئيس قسم مكافحة التجسس السوفييتي في جهاز الاستخبارات الألماني الغربي «بي إن دي» ومسؤول الارتباط بين هذا الجهاز ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سي أي إيه» ووكالات الاستخبارات الغربية الأخرى.

وكان اكتشاف أمر فيلف في وقت لاحق كجاسوس نافع يعمل لحساب كل من جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» وجهاز الاستخبارات الألماني الشرقي «إتش في إيه» أدى إلى تدمير جيهلن، الذي اضطر إلى الاستقالة بسبب هذه الفضيحة والنتائج اللاحقة عليها. وبعد ذلك، انتقل وولف إلى عمليته التالية، التي أصبحت بمثابة الإنجاز الأعظم في مهنته (فيلف جرى اكتشاف أمره من جانب ميخائيل جولينفسكي، العميل في جهاز الاستخبارات البولندي «يو بي» والجاسوس النافع في جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» في ١٩٦١. وبعد إلقاء القبض عليه بتهمة التجسس، حكم عليه بالسجن لمدة ١٤ عاماً. وفي ١٩٦٩، جرى إطلاق سراحه في عملية تبادل الجواسيس، وذهب إلى ألمانيا الشرقية، واختفى).

وكانت الفكرة، بالدرجة الأولى، تتصل بكيفية التغلغل إلى مكتب المستشار الألماني الغربي ويلي برانت عن طريق إغواء سكرتيرة أو جاسوس نافع آخر متدني المرتبة، وإنما عن طريق زرع جاسوس عامل في الظلام رفيع المرتبة بحيث يمكنه الاتصال على نحو وثيق مع برانت والاطلاع على كل المعلومات التي تأتي إلى طاولة المستشار. ودرس وولف المشكلة لبعض الوقت، وانتهى إلى خطة أظهرت ماهية الصبر الضروري لعمليات جاسوس عامل في الظلام طويلة الأجل.

وعرف وولف أن برانت، في أيامه السابقة على الحرب الثانية حينما كان عضواً في خلية سرية معادية للنازية، تلقى علاجاً طبياً عند الطبيب الشيوعي، ماكس

جولوم، الذى هرب فى وقت لاحق من ألمانيا واستقر فى غاية الأمر فى ألمانيا الشرقية بعد الحرب. وظل ماكس جولوم شيوعياً ملتزماً، وأصبح ابنه جونثر، كما عرف وولف، شيوعياً مخلصاً أيضاً. وقام وولف بمفاتحة الرجلين، ونجح فى تجنيدهما لما وصفها «عملية طويلة الأجل» فى ألمانيا الغربية. وكانت الخطوة الأولى تتمثل فى أن يصبح جونثر جولوم لاجئاً، وذلك من خلال الهروب عبر الحدود والانتهاء إلى مخيم اللاجئين. والخطوة التالية: فى ١٩٥٦، كتب ماكس جولوم رسالة إلى صديقه القديم، طالباً فيها منح جولوم الصغير وظيفة. وأعرب الأب عن أسفه تجاه قرار الابن بالهروب إلى الناحية الغربية، ولكنه تفهم واحترم القرار. هل يستطيع برانت مساعدة ابن صديق قديم؟

وقام برانت بترتيب أمر خروج جولوم الصغير من مخيم اللاجئين و تعيينه كمساعد إدارى فى منظمة برانت السياسية. ولم تكن هذه هى الوظيفة المنشودة، ولكن وفق حسابات وولف، فإن المسئولين فى المنظمة كانوا يعرفون أن جولوم حصل على هذه الوظيفة من خلال ارتباطات مع برانت نفسه، وهى ظروف عملت على تعزيز مستقبل جولوم الوظيفى. ونجح جولوم فى دفع الأشياء قدماً من خلال البرهنة على مواهب تنظيمية وإدارية. وفى ١٩٦٩، جرى تعيينه سكرتيراً خاصاً للمستشار برانت، وانتهى الأمر عند هذا الحد. وأخيراً، بدأت العملية التى استغرقت ١٣ عاماً تحقق الغرض منها، ذلك أن جولوم أصبح فى منصب يمكنه الاطلاع على كل شئ يأتى إلى طاولة برانت (بما فيها تلك المعلومة المثيرة وهى أن المستشار برانت كان على جدول رواتب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» منذ ١٩٤٧.

وانتهت عملية جولوم فى ١٩٧٣، وذلك حينما تمكن البريطانيون من اكتشاف أمرها عن طريق حل رموز الشيفرة (جولوم حكم عليه بالسجن لمدة ١٣ عاماً)، ولكن الأضرار كانت بالغة: كل أسرار ألمانيا الغربية الدبلوماسية والعسكرية تدفقت إلى جهاز الاستخبارات الألمانى الشرقى «إتش فى يه» لمدة أربع سنوات متواصلة. وأصبح وولف، الرجل الواقف وراء العملية، فى ذلك الوقت شيئاً من الأسطورة فى عالم التجسس، بسجل لا تنافسه فيه أية وكالة استخبارات أخرى، وأضعف الجهاز

الرئيسى المنافس له، جهاز الاستخبارات الألمانى الغربى «بى إن دى»، وتغلغل إلى صفوف أكثر من ٣,٠٠٠ جاسوس نافع فى ألمانيا الغربية، مع عدة آلاف من الجواسيس النائمين، وأحبط عدداً من محاولات التغلغل إلى جهازه الخاص به، واختتم هذا كله بالتخطيط لوضع جاسوس عامل فى الظلام داخل مكتب المستشار الألمانى الغربى.

وكانت دوائر مكافحة التجسس الغربية تعرف ولف، ولكن بالنظر إلى أنه لم يخدم كعميل خارج بلاده، فربما كان من الصعب معالجة موضوعه. ولم يحدث قبل ١٩٧٩، حينما جاء مساعده (وخليفته المفترض) ويرنر ستيللر إلى ألمانيا الغربية، أن عرف أى من خصوم ولف حقيقة هذا الرجل. وكان ارتداد ستيللر سبباً رئيسياً فى كبح عمليات ولف، وتقاعد ولف فى ١٩٨٧، ولكنه لم يكن مستعداً للكرسى الهزاز فى ذلك الوقت. وبسبب علاقته الوثيقة مع جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، أصبح ولف منهمكاً فى عملية إحلال رجل «معتدل» محل زعيم ألمانيا الشرقية المريض، إريك هونيكر، بحيث يكون قادراً، كما افترضت موسكو، على إنقاذ النظام المترنح فى ألمانيا الشرقية. ومع ذلك، فربما كانت هذه العملية واحدة من عمليات ولف الفاشلة.

وفى ١٩٩٠، فى أعقاب انهيار ألمانيا الشرقية، هرب ولف إلى موسكو تحت حماية جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». ولكن هذه الحماية حجبت عنه حين انيهار الاتحاد السوفييتى نفسه، وعاد ولف إلى ألمانيا معلناً أنه على الرغم من أحداث العامين الماضيين المرهقة للأعصاب، فهو ما زال شيوعياً غير تائب. ولكن الحكومة الجديدة فى ألمانيا لديها ذاكرة قوية، وألقت القبض عليه بتهمة التجسس. وبعد إطلاق سراحه بكفالة قيمتها ١٥٠,٠٠٠ دولار، قدم سلسلة من الاقتراحات تحدى فيها حق الحكومة فى محاكمته، مفجراً بذلك جدلاً قانونياً معقداً ما زال قائماً حتى اليوم. وفى ١٩٣٣، ذهب إلى المحاكمة أخيراً.

وأياً كانت مواهبه فى التجسس، فإن ولف يبدو أنه لا يميل إلى استخدام

التعبيرات الساخرة. وفى قصة حياته، المكتوبة فى ١٩٩٢ ،أعرب عن تذمره على نحو مرير تجاه ظلم النظام القضائى فى ألمانيا الذى قرر محاكمته بتهمة التجسس، متجاهلاً بذلك على ما يبدو أنه يخضع لعملية قانونية لم يتمتع بها أحد غيره من الألمان الشرقيين.

وليام ستيفنسون

قصة الجرئ البطولية

الاسم الرمزى : الجرئ

١٨٩٦ – ١٩٨٩

كان أشد المسؤولين شعوراً بالإحباط فى كل حكومة الولايات المتحدة خلال ربيع ١٩٤١ هو مساعد وزير الخارجية أدولف بيرل. ومن واقع مسؤوليته الرئيسية فى ضمان التزام الولايات المتحدة بنصوص «قانون الحياد» وبقائها بعيداً عن الحرب المحتدمة فى أوروبا، فإن بيرل كان يجد يومياً تقريباً دلائل على وجود عميل استخبارات بريطانى قام بتجنيد الكثيرين من الأمريكيين من أجل انتهاك هذا القانون على نحو فاضح. ولم يكن هناك أحد فى الحكومة الأمريكية أراد أن يفعل شيئاً تجاه هذا الموضوع.

وكان اسم هذا الرجل هو وليام ستيفنسون. ومن الناحية الرسمية، فإن ستيفنسون كان رئيسى محطة جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، ولكن كما عرف بيرل فإن مهمة ستيفنسون اتخذت أبعاداً واسعة : مهمته لم تكن أقل من حمل الولايات المتحدة على دخول الحرب إلى جانب بريطانيا العظمى.

وكان مصدر شعور بيرل بالإحباط هو البيت الأبيض، ذلك أنه فى كل مرة

كان يقدم فيها دليلاً على آخر انتهاكات ستيفنسون، كان يسمع وعوداً بتسوية المشكلة على مستوى دبلوماسى رفيع مع بريطانيا. ولكن لم تكن تتخذ أية إجراءات، وبدأ بيرل فى الظن أن البيت الأبيض كان متآمراً مع ستيفنسون. وكان بيرل على حق على نحو قاطع.

وكان ستيفنسون يحتل مكانة منفردة فى الاستخبارات البريطانية، وهى مكانة لم يتمتع بها أحد من بعده. وعلى صعيد التجسس، فهو مطلوب منه القيام بمهمة مزدوجة : الأولى، مهمة استخباراتية تقليدية، وهى قيامه بمراقبة عمليات الاستخبارات الألمانية فى الولايات المتحدة بعناية. والثانية، مهمة استخباراتية خفية، وهى جعل الولايات المتحدة تدخل الحرب إلى جانب بريطانيا بأية وسيلة كانت، مشروعة أو مخادعة. ومن أجل هذه المهمة الثانية على وجه التحديد كان ستيفنسون معنياً بتكريس كل وقته وطاقته.

وجاءت تلك المهمة مباشرة من ونستون تشرشل، الذى أمر بإرسال ستيفنسون إلى نيويورك. وكان تشرشل يعرف ستيفنسون جيداً، ولو كان هناك رجل يمكن أن يقوم بهذه المهمة، فهذا الرجل هو صاحب الكنية «بيل الصغير» بسبب بنيته الجسمانية الضئيلة) . وتجاهل تشرشل التململ فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» حول التعيين، ذلك أن ستيفنسون لم يكن واحداً من رجال جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، كما أنه لم يكن يملك خبرة سابقة فى الاستخبارات. ولكن كما جادل تشرشل، فإن فهمه لهذه المهمة فى نيويورك يقوده إلى اعتبارها ذات طبيعة خاصة، وتستلزم رجلاً خاصاً تبعاً لذلك، وكان ستيفنسون بالتأكيد هو ذلك الرجل.

ومن المثير للانتباه هو أنه على الرغم من قناعة بيرل الحسية بأن ستيفنسون يمثل ذلك الرجل البريطانى المتكبر الذى ينتمى إلى الطبقة العليا، فإن الحقيقة هى أن ستيفنسون كان كندياً ومولوداً فى وينيبيج فى ١٨٩٦ . ومن واقع كونه شاباً مفعماً بالنشاط ومصمماً على عمل شئ فى حياته، فإن ستيفنسون اضطر الى الانقطاع عن الدراسة الجامعية من أجل الانضمام إلى الفيالق الجوية الملكية والمشاركة فى الحرب

العالمية الأولى. وبعد إسقاط طائرته فى ١٩١٧، هرب من مخيم الاعتقال فى ألمانيا، وشرع فى طريق العودة إلى خطوط الحلفاء مشياً على الأقدام. وبعد عودته، جلس ستيفنسون على الفور، وكتب تقريراً مطولاً عن كل شئ رآه فى ألمانيا، وكان بياناً تفصيلياً مثيراً من ذاكرة قادرة على الاحتفاظ بانطباعات حية.

وكان برهن على صفات ضرورية لجاسوس جيد، ولكن ستيفنسون كان لديه طموحات أكبر من التجسس. ومن واقع ولعه بالراديو، انهمك فى عالم الراديو واخترع عملية نقل الصور الفوتوغرافية عن طريق إشارات الراديو اللاسلكية، ولكن ستيفنسون، المولع بالعمل، كان مصمماً على التقدم أكثر من ذلك، وذهب إلى صناعات البلاستيك والفولاذ، ومن خلال المزيد من الاختراعات القليلة من جانب هذا الشاب الذى انقطع عن الدراسة الجامعية، تمكن من كسب الملايين.

وفى هذه الفترة، وبعد حصوله على المواطنية البريطانية، أصبح ستيفنسون رجلاً إنجليزياً وطنياً جداً. ومثله كمثل الكثيرين من أبناء جيله، فهو كان يشعر بالقلق تجاه ظهور هتلر. وما عمل على تعاظم شعوره بالإحباط هو أن الحكومة البريطانية لم تكن تظهر تفهماً للتهديدات التى يشكلها هتلر. ولكن أحد السياسيين البريطانيين، الذى كان خارج السلطة، كان متفهماً لتلك التهديدات. ونستون تشرشل. وحول تشرشل، احتشدت مجموعة من الرجال من أمثاله، ومن بينهم عدد من رجال الصناعة والتجارة. وهذه المجموعة الأخيرة، ومن بينها ستيفنسون، بدأت فى العمل كجهاز استخبارات خاص لحساب تشرشل. وفى ظل ارتباطاتها القوية مع الصناعة فى ألمانيا، كانت هذه المجموعة أول من حذر تشرشل من أن هتلر يعتزم إعادة تنظيم الصناعة الثقيلة الألمانية للإنتاج الحربى. وقام ستيفنسون، الخبير فى صناعة الفولاذ، بزيارة إلى التسهيلات الإنتاجية فى ألمانيا، ونقل إلى تشرشل أن خطوط الإنتاج كلها تقرر وضعها جانباً من أجل الشروع فى صناعة دبابات ومدفعية كافية لتسليح قوة عسكرية هائلة.

وتأثر تشرشل بأقوال ستيفنسون. وفى ربيع ١٩٤٠، إثر اتخاذ قرار حول خطة

جريئة لعملية خاصة يقوم بها جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى الولايات المتحدة بهدف حمل أمريكا على دخول الحرب، قام تشرشل باختيار ستيفنسون لهذه المهمة. وشرع ستيفنسون فى تكوين مراكز قيادته فى نيويورك فى الطابقين ٣٥ و ٣٦ فى مركز روكفللر حيث كانت رسمياً مكاتب الجوازات البريطانية. ولكن هذه المكاتب كانت تقوم بأعمال رسمية قليلة جداً، وبمساعدة ثلاثة من رجال جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، شرع ستيفنسون فى العمل فوراً. وقام بتكوين حلقة اتصالاته عن طريق الراديو مع لندن، وتسجيل اسمه الرمزى المختار على شريط، الجرئ، وتلك كانت الخطوة الأولى على طريق ما أصبح العملية الاستخباراتية الخفية الأكثر نجاحاً فى التاريخ.

ووصل ستيفنسون إلى نيويورك بورقتين قويتين: الأولى هى أن تعيينه جاء من تشرشل، وإلى تشرشل مباشرة ينبغى أن يقدم تقاريره، متجاوزاً بذلك بيروقراطية جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» وعدد من المسؤولين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» الذين كانوا مقتنعين بأن هذا الرجل الهاوى النشيط يمكن أن يكون سبباً فى حدوث كارثة. والثانية هى أن تشرشل والرئيس روزفيلت توصلا إلى «تفاهم خاص» يقضى بعمل كل ما من شأنه تجنب «قانون الحياد» الأمريكى وتقديم المساعدة إلى بريطانيا العظمى. وفى الواقع، فإن هذا جعل رئيس الولايات المتحدة متآمراً مشاركاً.

وكان ستيفنسون فى مياه مظلمة، غير أنه من خلال تشجيع الراعى رفيع المستوى، تمكن من تكوين امبراطورية. وتولى ستيفنسون مسؤولية كل العمليات الاستخباراتية البريطانية فى الولايات المتحدة ابتداء من مكافحة التجسس وانتهاء بالرقابة الروتينية. وحين الأخذ فى الاعتبار نطاق هذه العمليات، فمن الصعب تلخيص كل عمليات ستيفنسون. ومن واقع كونه رجلاً مغامراً خالصاً، فهو كان مناصراً لأية خطة عملية، ومن الأفضل لو كانت خطة جريئة: مجموعة من العاهرات الجميلات لإغواء الدبلوماسيين الألمان والسياسيين الأمريكيين المؤيدين لموقف ألمانيا، ومجموعة من المجرمين لتنفيذ عمليات الاختطاف، ومجموعة من الخبراء لفتح

وإغلاق الرسائل البريدية الدبلوماسية بدون ترك أثر ما، ومجموعة من فاتحى الأقفال والخزائن الحديدية للدخول إلى السفارات والقنصليات لسرقة أوراق رموز الشيفرة.

وكان مبدأ ستيفنسون الثابت هو أن رجلاً هاوياً مخلصاً يعمل فى ظل توجيهات صحيحة يمكن أن يعالج العمليات الاستخباراتية على نحو أفضل من المحترفين. وهناك سبب واحد لذلك، كما جادل ستيفنسون، وهو أن الهواة ليس لديهم سجلات كرجال استخبارات، وتبعاً لذلك فهم غير معروفين لدى وكالات مكافحة التجسس. وهناك سبب آخر، وهو أن الهواة أرخص ثمناً فى التعامل، وذلك لأنهم يعملون من أجل الوطنية وليس النقود.

وقام ستيفنسون بتجنيد حوالى ٣٠٠ شخص من الهواة، ابتداء من غير المعروفين وانتهاء بنجوم سينيمائيين مشهورين مثل جريتا جاربو، ومارلين ديتريش، وإيرول فلين. وكل من كان لديه حد أدنى من قيمة يمكن تجنيده من جانب ستيفنسون، ذلك الرجل الذى لا يعرف التعب. وكل هؤلاء جرى تجنيدهم للقيام بحملات دعائية كثيفة وعمليات تغلغل ضد هدفين رئيسيين: العمليات الاستخباراتية والدعائية التى تقوم بها ألمانيا وحلفاؤها فى الولايات المتحدة، وعمليات المنظمة الأولى الأمريكية وهى حركة سياسية هامة تمارس ضغوطاً على نحو ناشط لجعل الولايات المتحدة بعيدة عن الحرب. وقام ستيفنسون بشن حملة أفعال قذرة كثيفة ضد القائلين بالانعزالية من خلال مقالات ازدرائية فى الصحف اليومية والراديوهات عن طريق جواسيس نافعين مجندين من المستويات العليا فى الصحافة الأمريكية. وقام أيضاً بتجنيد كبار كتاب الأعمدة فى الصحف، من بينهم وولتر ليمان، وولتر وينشيل، ودو بيرسون، لكتابة مقالات تزعم بحماقة أعضاء مجلس الشيوخ القائلين بالانعزالية.

ومع حلول الشهور الأولى من ١٩٤١، كان ستيفنسون يملك جيشاً قوامه ٢,٠٠٠ رجل وامرأة ممن قاموا بتنفيذ حملاته الدعائية. ومن بين أهم جواسيسه النافعين كان هناك كاتب الرواية البوليسية، ريكس ستوت، الذى كتب كتيبات دعائية، وعبقرى الإعلانات المشهور، ديفيد أوجليفى، الذى عمل على تنشيط حركة الإعلانات فى

الصحف من خلال سلسلة مقالات لا تنضب حول آراء شخصيات مرموقة تدافع عن قضية التدخل الأمريكي في الحرب وتكسبها احتراماً في عيون الأمريكيين. وقرأ الأمريكيون أيضاً وابلاً من التقارير الصحفية المثيرة حول مؤامرات نازية مزعومة في مختلف أنحاء نصف الكرة الغربي. ولم يكن أي من هذه التقارير صحيحاً، ولكنها بدت كأنها كذلك: خطة نازية لتدبير انقلابات عسكرى في بوليفيا وبالتالي الاستيلاء على مصادر التنجستين (عنصر فلزى يستخدم لتنقية الفولاذ) الضرورى لصناعة الطائرات العسكرية، وتدريب جيش من الفاشيين الإسبان في معسكرات سرية في المكسيك على أيدى النازيين تمهيداً لغزو الولايات المتحدة، وخطة وضعها هتلر لتحريم المسيحية في أوروبا وإحلال الصليب المعقوف (شارة الحزب النازى الألماني) محل الصليب في الكنائس، ورائعة ستيفنسون نفسه، وهي عبارة عن خريطة، وقال إنه حصل عليها من «مصادر سرية» في ألمانيا، وتبين خطة وضعها الألمان للإطاحة بعدة حكومات لاتينية ضعيفة ثم توسيع نطاق النفوذ الألماني شمالاً، إلى الولايات المتحدة. وهذه الخريطة استخدمها روزفيلت في خطاب له دافع فيه عن مطلبه أمام الكونجرس بتعطيل «قانون الحياد» مؤقتاً.

وإدراكاً منه أن ستيفنسون كان وراء هذا كله، وربما وراء أشياء أخرى أكثر من ذلك، أصبحت شكاوى بيرل أكثر تعاظماً، وقرر ستيفنسون معالجة مشكلة بيرل من خلال القيام بعملية ملاحقة هائلة ضده، على أمل إيجاد عيوب فيه يمكن استغلالها للحط من قدر هذا المسؤول المزعج في وزارة الخارجية. ولم يجد عملاء ستيفنسون الكثير، باستثناء المعلومة الاستخباراتية التي تفيد أن بيرل يملك حوضين للاستحمام مجاورين في بيته حتى يتمكن هو وزوجته من الاستحمام في وقت واحد، حينما يتعين عليها أن تتحمل معاناة الاستماع إلى محاضرات زوجها السياسية التي لا تنتهي على ما يبدو.

وأدى الهجوم على بيرل هاربر، وإعلان الحرب ضد الولايات المتحدة من جانب ألمانيا بعد يومين إلى وضع نهاية فعلية لعملية ستيفنسون. وأمضى بقية الحرب في إدارة محطة جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، التي تقلص عملها إلى حد

كبير ودعوة الأمريكيين إلى تكوين وكالة استخبارات مدنية مركزية. وكان نفوذه فى هذا المجال كبيراً. ومن واقع كونه صديقاً مقرباً من وليام دونوفان، مستشار الرئيس روزفيلت للاستخبارات ثم رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجية فى وقت لاحق، فإن ستيفنسون كان بمثابة الروح المحركة وراء اقتراح دونوفان لتكوين وكالة استخبارات مركزية أمريكية. وهذه الخطة تعرضت للرفض من جانب روزفيلت، ولكن الجزء الأعظم منها جرى تبنيه فى وقت لاحق حين تكوين وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى أى إيه».

وفى ١٩٤٥، حصل ستيفنسون على جائزة وسام الفروسية من التاج البريطانى، وكتب تشرشل بخط يده على رسالة التسمية هذه العبارة: «هذا الفارس عزيز على قلبى». ولم تذكر الرسالة شيئاً عن خدمات ستيفنسون الفعلية التى قدمها إلى التاج البريطانى، وافترض معظم الناس القول إنه حصل على هذه الجائزة لأنه رجل صناعة بارز. والقليلون جداً هم الذين كانوا يعرفون أنه الجاسوس الأعظم الذى نظم العملية الخفية الواسعة التى قلبت الرأى العام الأمريكى رأساً على عقب خلال السنتين السابقتين على بيرل هاربر. وليس هناك أحد يمكنه أن يعرف يقيناً ما إذا كان ستيفنسون، فى غياب الهجوم اليابانى والإعلان الألمانى للحرب، يمكن أن ينجح فى حمل الولايات المتحدة على دخول الحرب .ولكن تبقى هناك حقيقة واحدة وهى أن ستيفنسون أوجد الظروف المناسبة لتطبيق «قانون الإعارة والتأجير» (قانون صدر فى مارس ١٩٤١ قدمت الولايات المتحدة بموجبه ضروب المساعدات المالية إلى الدول الحليفة المحاربة لألمانيا وإيطاليا) . وتقديم الإمدادات الأمريكية الهائلة التى جعلت بريطانيا العظمى على قيد الحياة. ولهذا وحده، فهو يستحق جائزة وسام الفروسية.

وكان ستيفنسون نفسه مقتنعاً بالبقاء فى الظل (قلما جرى تصويره، ويعرف أن هناك صورة واحدة التقطت له خلال السنوات من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥) . ومع نهاية الحرب، قرر التقاعد من الخدمة الحكومية، التى لم يأخذ منها جنيهاً واحد كراتب.

وكان أجرى اتصالاً واحداً، وهو اتصال على جانب كبير من الأهمية، مع عالم

التجسس فى ذلك العام، حينما أنقذ إيجور جوزينكو، كاتب الشيفرة السوفييتى المرتد فى كندا، وهو عمل شهد بداية مرحلة جديدة من التجسس فى الحرب البادة.

واعتزل ستيفنسون فى بيته الفخم فى برمودا. وظهر إلى الأضواء العامة فى ١٩٦٤ ، حينما كتب أحد مساعديه السابقين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» ، مونتجمرى هايد، كتاباً ذكر فيه لأول مرة لمحة مختصرة عن حكاية «الجرىء» وعملية نيويورك. وبعد بضع سنوات، تعاون ستيفنسون فى كتابة كتاب آخر تحت عنوان «رجل يدعى الجرىء» وكان بمثابة حكاية مستفيضة وضعته فى مرتبة عظماء التجسس.

وأصبح ستيفنسون شخصية عامة مرة أخرى حين ذيوع شعبيته فى أعقاب نشر كتابه، ثم هدأ كل شئ مع انحسار موجهة الاهتمام. ومات فى ١٩٨٩ ، محاطاً، كما كان منذ عدة سنوات، بماكينات وكالات الأنباء والتلكس التى فاضت بالسلعة الوحيدة التى لم يحصل منها هذا المليونير على الشئ الكثير : المعلومات.

كلود دانسى

ملك الزد

الاسم الرمزى: زد

الاسم المستعار: هايوود

١٨٧٦ - ١٩٤٧

وصف أحد الزملاء فى جهاز الاستخبارات البريطانى «م أى ٦» شخصية هذا الرجل الذى كان يعمل الكنية الهزلية «العم كلود» فى أوساط جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» بأنها «شخصية مقرفة». وعلى ما يبدو، فربما كان هذا التقييم دقيقاً، ذلك أنه ليست هناك دلائل توحى بأن كلود دانسى كان ينظر إليه بين زملائه على أنه يزيد عن حد كونه إنساناً بائساً. ولكن أحداً لم يكن يشك أبداً فى أن هذا الرجل المقرف كان واحداً من أعظم الجواسيس.

وجاءت شخصية دانسى سريعة الغضبة إلى حد كبير من حقيقة ما يطلق عليه الطب النفسى الحديث « الاختلال الوظيفى» فى العائلة. وحينما ولد فى ١٨٧٦ لأب ضابط فى الجيش، كان دانسى واحداً من تسعة أطفال عاشوا فى ظل ظروف عائلية من الانضباط العسكرى الصارم القائم على الضرب الدائم لأقل المخالفات. وبالنتيجة،

مال الإخوان والأخوات إلى الشعور بالكراهية تجاه بعضهم البعض وأيضاً تجاه الأب. وفى سن العشرين، انضم إلى الجيش، قاصداً مهنة عسكرية (ما كان يمكن أن يتسامح أبوه مع اختيار آخر)، وفى ١٩١٠، بسبب مرضه الناشئ عن تأثيرات الخدمة العسكرية فى بورنيو الشمالية، انضم إلى وحدة الاستخبارات العسكرية الجديدة بالمعروفة باسم «إم أوه». وهذا الجهاز، السابق على جهاز الاستخبارات البريطانى «إم إى ٦»، كان مهتماً على وجه الخصوص بالحركة الوطنية الإيرلندية. وتلقى دانسى تدريباً أثناء العمل حول تعقيدات الاستخبارات الحديثة خلال الصراع السرى الذى لا يلين بين البريطانيين والثوريين الإيرلنديين: عملاء مزدوجون، وعملاء ثلاثيون، وجواسيس عاملون فى الظلام، وعمليات تغلغل، وعمليات تنصت. وفوق كل هذا، فإن دانسى عرف قيمة الاستخبارات فى توقع نوع الكوارث التى يمكن أن تقوم بها أية حركة ثورية. وفى مناسبتين عى الأقل، تمكن الجواسيس النافعون الذين و ضعهم بين الثوريين من تحذير الاستخبارات البريطانية من وجود خطط لنسف قصر باكينجهام.

وفى ١٩١١، جرى إرسال دانسى إلى واشنطن لتنظيم عمليات ضد المؤيدين للحركة الثورية الإيرلندية فى الولايات المتحدة، وهى مهمة جعلته يجرى اتصالات مع منظمات استخباراتية صغيرة أمريكية. والأهم من هذا كله، فإن دانسى أجرى أيضاً اتصالات هامة أخرى مع رجال صناعة أمريكيين، ومنهم حصل على معلومات استخباراتية حول جهود الثوريين الإيرلنديين التنظيمية بين عمالهم الإيرلنديين. ومن واقع كونه إدارياً موهوباً، جرى إغواء دانسى بعيداً عن الجيش من خلال عرض لإدارة أحد الأندية الصغيرة الهادئة فى الجزء الشمالى من نيويورك، وهو عبارة عن مكان هادئ خاص بالمدراء التنفيذيين فى شركات أمريكية وبريطانية، حيث يمكن إجراء سلسلة من اتصالات على جانب كبير من الأهمية.

وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى، عاد دانسى إلى جهاز الاستخبارات العسكرية البريطانى «إم أوه ٥». وبسبب اتصالاته الأمريكية الواسعة، عهدت إليه مهمة فى واشنطن للعمل مع الأمريكيين فى مكافحة عمليات التجسس الألمانية فى الولايات المتحدة. وفى نهاية الحرب، جرى تجنيده من جانب عدد من الشركات كخبير عام.

ولكن مثله كمثل الكثيرين من الرجال الذين قاموا بأعمال الاستخبارات، فإن العمل مع الشركات يأتى متضائلاً من حيث الجاذبية مع حياة الإثارة والخداع المعروفة فى عالم التجسس. ولما شعر بالملل، عاد دانسى فى ١٩٢٩ إلى جهاز الاستخبارات العسكرية البريطانى «إم أوه ٥»، وفى هذا الوقت أعيدت تسمية الجهاد باسم جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦». وعهدت إليه مهمة رئيس محطة فى روما، بتعليمات لمراقبة حركة موسولينى الفاشية، التى تهدد المصالح البريطانية فى البحر الأبيض المتوسط.

ولم يكن دانسى متأثراً بما عرف عن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦». ومثله كمثل أى رئيس محطة، فهو حاصل على غطاء دبلوماسى فى السفارة البريطانية كمسؤول فى مكتب الجوازات. وكان جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» يستخدم هذا الغطاء منذ سنوات، وكما اكتشف دانسى، فحتى سائق التاكسى كان يعرف أن رئيس عمليات جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى أية بلدة هو دائماً مسؤول فى مكتب الجوازات. وكان هذا بمثابة جزء من المشكلة. وجرى تخفيض ميزانية جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» على نحو كبير ضمن إجراءات التقشف اللاحقة على الحرب، وأصبح الجهاز مجرد ظل لسمعته. وفى ظل وجود ميزانية تشغيل ضئيلة، اضطر الجهاز فى الغالب إلى استخدام ضباط عسكريين متقاعدين يتقاضون حداً أدنى من الرواتب، أو ربما لا يتقاضون رواتب على الإطلاق، ويعيشون على منحة حكومية. وكان الجزء الأعظم من هؤلاء الضباط بلا كفاءة. وكان الجهاز نفسه تحت إشراف أدميرال متقاعد يدعى هوج سينكلير، وهو رجل نصف مجنون ومصاب بجنون الارتياب فى الآخرين، الذى فضل الاتصال مع رجاله على وجه الخصوص عن طريق رسائل موضوعة فى صندوق مغلق، حتى أن أخته نصف المجنونة هى التى كانت تحمل نسخة أخرى من المفتاح.

ونتيجة لذلك، كما عرف دانيسى، فإن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، لم يكن يملك معلومات موثقة حول ما كان يجرى فى أوروبا، القارة التى كانت فى حالة إهتياج. ومن أجل تجميع معلوماته الاستخباراتية الخاصة به، لجأ دانسى إلى الاعتماد على شبكة اتصالاته مع الشركات التى تمكن من تكوينها من قبل. واكتشف

دانسى أن رجال الأعمال يعرفون الشئ الكثير عن حقيقة هذا العالم بأكثر مما يعرف رجال جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦». ومن واقع تعودهم على التقييمات الواقعية التى تهتم بالنتائج الأخيرة، فلم يكونوا مثقلين ببعض الأحكام السبقية التى أصابت رجال الاستخبارات. وعلاوة على ذلك، فهم كانوا يسافرون على نطاق واسع، وكانوا يعقدون اتصالات حميمة مع رجال الأعمال الأجانب، وكانوا أيضاً خبراء أنفسهم. وعلى سبيل المثال، فإن أى مدير تنفيذى فى شركة لصناعة الفولاذ كان يمكنه أن يذهب إلى مصنع أجنبى للفولاذ، ومن خلال نظرة واحدة كان يمكنه تقييم تكنولوجيا المصنع وطاقته الانتاجية ونوعية عماله. وكان رجل صناعة الطائرات، من خلال نظرة واحدة، يمكنه أن يقرر على نحو موثوق حالة التكنولوجيا المستخدمة فى صناعة طائرة أجنبية.

ونتيجة لذلك، بدأ دانسى فى وضع خطة. وكلما كان يعرف المزيد عن شبكات جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» العاملة فى أوروبا، ازداد اقتناعاً بأنه يبحث عن كارثة وشيكة الحدوث. وانتهى دانسى إلى استنتاج مفاده أنه فى حالة أ ى حرب، فإن كل محطات جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» والرجال المجانين القائمين على إدارتها يمكن إلقاء القبض عليهم فى لحظة واحدة. ولذلك، ينبغى أن يكون هناك هيكل بديل لجهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، أو هيكل آخر لجهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، بحيث يكون سرياً وقادراً على تولى المسؤولية حينما يحدث المحتوم.

وبدأ دانسى شيئاً فشيئاً فى بناء تلك الشبكة الظل. وعن طريق اتصالاته مع عالم رجال الأعمال، تمكن من تكوين شبكة من رجال الأعمال الراغبين فى تقديم العون، ومع حلول ١٩٣٦، كان لديه هيكل يتكون من ٢٠٠ مدير تنفيذى يقدمون المعلومات الاستخباراتية من كل أنحاء أوروبا. وكان البعض منهم مبتهجين بالمشاركة انطلاقاً من مجرد الرغبة الشديدة فى العمل بالتجسس. وكان انهماكهم فى العمل، وفق تعليمات دانسى الثابتة، ينطوى على أقل الأخطار: عدم اللجوء إلى كتابة أى شئ، أو محاولة التقاط أية صورة، أو محاولة حمل أية أداة تجسس. وكان المطلوب منهم فقط فتح

عيونهم وآذانهم، ثم إعادة تذكر ما أمكن رؤيته وسماعه (وهناك آخرون كانوا أشد طموحاً، وعلى الأخص المخرج السينمائى الكسندر كوردا، المولود تآمرياً، الذى استخدم شركته السينمائية كغطاء لتبرير زيارته إلى مناطق شديدة الحساسية فى أوروبا بحجة اكتشاف أماكن الفيلم) .

وأطلق دانسى على شبكته الخاصة به اسم منطقة «زد» تيمناً باسمه الرمزى «زد» . وجعل دانسى رجاله مستعدين للحرب التى كان واثقاً من اندلاعها قريباً . وفى غضون ذلك، جرت ترقيته إلى منصب رئيس العمليات الاستخباراتية السرية التى يقوم بها جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» من مراكز القيادة فى لندن. وما أن وصل إلى لندن حتى اندلعت الحرب، وهكذا وقعت الكارثة الاستخباراتية التى كان يتوقعها منذ فترة طويلة .

ووقعت الضربة الاستخباراتية فى لاهاى، التى كانت بمثابة نقطة الاتصال الرئيسية لكل عمليات جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى أوروبا . وكانت المحطة فى لاهاى تقوم بجمع المعلومات الاستخباراتية من المحطات الأخرى فى القارة وإرسالها إلى لندن. ولكن محطة لاهاى، التى كان يديرها ضابطان عسكريان متقاعدان بخبرة محدودة فى الاستخبارات، باين بيست وريتشارد ستيفنس، أمكن التغلغل إليها من جانب جاسوسها النافع، وهو رجل هولندى كان يعمل فى الواقع لحساب وكالة الاستخبارات النازية «إس دى» . وكشفت وكالة الاستخبارات النازية «إس دى» تدريجياً عن هويات جميع عملاء المحطة والجواسيس النافعين.

ولكن بدلاً من مجرد محاولة تحييد المحطة، قرت وكالة الاستخبارات النازية «سى دى» البدء فى خطة راديكالية من شأنها إصابة الاستخبارات البريطانية بالشلل التام، وفى الوقت نفسه تشويه سمعة الحركة السرية المعادية لهتلر فى ألمانيا . وهذه الخطة، وهى من بنات أفكار ضابط شاب فى وكالة الاستخبارات النازية «إس دى» يدعى وولتر شلينبيرج (الذى أصبح بعد بضع سنوات رئيساً لوكالة الاستخبارات النازية «إس دى») دعت إلى قيامه بالتظاهر كأنه ضابط عسكرى ألمانى منهمك فى العمل

السرى. وعن طريق جاسوسه النافع الهولندى، يمكنه أن يفاتح الرجلين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، اللذين يديران المحطة ويعرض عليهما تقديم معلومات استخباراتية مقابل قيام جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» بمساعدة الحركة السرية.

ورد بيست وستيفنس الغافلان باندفاع نحو الطعم، واتفقا على ترتيب لقاء محفوف بالأخطار أيضاً: الاجتماع مع هذا الضابط الألمانى فى بلدة «فيلنو»، عند حدود هولندا – ألمانيا. وفى ٩ نوفمبر ١٩٣٩، وصل الاثنان الى الاجتماع فى مطعم. وفى غضون دقائق من وصولهما، هدرت سيارة عسكرية تابعة لوكالة الاستخبارات النازية «إس دى»، عبر الحدود، واختطفت عميلى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، وعادت مسرعة إلى ألمانيا تحت وابل من نيران حراس الحدود الهولنديين.

وما أن وصل الاثنان إلى ألمانيا، وبعد بضعة أيام تحت رحمة أيدى رجال الجستابو الرحيمة، اضطر بيست وستيفنس إلى الكشف عن كل شئ. وكانت بذلك الكارثة الأعظم التى أصابت الاستخبارات البريطانية على الإطلاق. ولأن بيست وستيفنس كانا يشغلان المحطة الأهم فى لاهاى، فإنهما كانا يعرفان هويات كل عميل هام يعمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى أوروبا، وأيضاً هويات جميع الجواسيس النافعين. وفى غضون بضعة أيام، تعرض هيكل جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» برمته فى أوروبا إلى الانهيار.

ومن واقع حقيقة توقعه بحدوث مثل هذه الكارثة عكف دانسى على الفور على تنشيط منظمته «زد». وليس من قبيل المبالغة القول فى تلك اللحظة إن دانسى أنقذ جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦». ولكن مهما كان إسهامه عظيماً، فهو نال احتراماًمحدوداً جداً داخل جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، حتى على الرغم من ترقيته إلى نائب رئيس الجهاز الجديد، ستيوارت مينزيس. وكانت المشكلة هى شخصية دانسى: حاقد ومحب للانتقام وبمزاج غاضب، وكان يكره كل شخص يحمل شهادة جامعية ويعتبره هاوياً لا قيمة له، وكان يصر على القول إن أصدقاءه من

رجال الأعمال هم وحدهم الذين يقدرون حقيقة العالم الذى يعيشون فيه حق قدره . وخلاصة القول، فإن دانسى كان شخصية لا تطاق، وكان نصف أعمى من تأثيرات الأمراض التى أصابته خلال خدمته العسكرية، وكان يبدو كأنه يمضى كل وقته موبخاً العالم كله. وبدأ ميدنزيس فى الشعور بالكراهية تجاهه، وكذلك فعل جميع الرجال الآخرين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» الذين اضطروا إلى الاحتكاك به .

ولكن أحداً لم يكن يشك فى ذكائه كرجل استخبارات. وفى غضون بضعة أسابيع على كارثة «فينلو» ، بدأت منظمة «زد» . التى أشرف عليها الكثيرون من رجال جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» ، الذين اختارهم دانسى شخصياً، فى العمل، وقدمت معلومات استخباراتية بأفضل ما كان يمكن أن يقدم هيكل جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» القديم. وكانت قوة منظمة «زد» تكمن فى المجال الحيوى للاستخبارات الاقتصادية والتكنولوجية، ذلك أنه بفضل قيام رجال الأعمال، بخبراتهم المستقاة من مصادرها الأولى مباشرة، بزيارة الأماكن الصناعية فى ألمانيا، تمكن دانسى من تكوين صورة شاملة عن حجم ونطاق وقدرات الماكينة الصناعية الألمانية (وهى صورة أقنعته بأن تلك الماكينة ليست قادرة على تغطية مطالب الحرب الشاملة) .

وفى ١٩٤١ ، عهدت إلى دانسى مهمة بدت كأنها مستحيلة التطبيق، ذلك أنها أوجدت مشكلة معقدة على وجه الخصوص: بفضل نظام «أولترا» لحل رموز الشيفرة، انتهى البريطانيون إلى استنتاج مؤداه أن ألمانيا على وشك غزو الاتحاد السوفييتى، وبرغم إخفائهم المصدر الحقيقى، فإن البريطانيين قاموا بتمرير تلك المعلومة الاستخباراتية إلى ستالين، بالإضافة إلى معلومات أخرى تحدد بالضبط اليوم الفعلى للهجوم وقائمة بجميع الوحدات الألمانية المشاركة. ولكن ستالين، الذى رفض كل المعلومات الاستخباراتية من محطات التجسس الخاصة به التى ألبغته بالشئ نفسه، رفض المعلومات الاستخباراتية البريطانية، واعتبرها «استفزازاً» .

وأوجد الغزو، حين القيام به، مشكلة للبريطانيين، ذلك أنه بفضل نظام «أولترا»

لحل رموز الشيفرة، كانوا يملكون صورة شاملة ثمينة عن الخطط العسكرية الألمانية في الجبهة الشرقية، ولكنهم لم يكونوا راغبين في جعل ستالين يعرف أن هذه المعلومات الاستخباراتية جاءت من أعظم نظام لحل رموز الشيفرة في كل العصور. واتصل مصدر الشعور بالقلق عند البريطانيين بحقيقة مخاوفهم من أنه في حالة الكشف عن نظام «أولترا» أمام الروس، فربما يتسرب ذلك بطريقة ما إلى الألمان أيضاً. وفي واقع الأمر، فإن البريطانيين كانت لديهم خطط لاستخدام نظام «أولترا» في قراءة رسائل سوفييتية في وقت لاحق، وهي خطط كان يمكن أن ينتهي مصيرها إلى الفشل في حالة الكشف عن نظام «أولترا» قبل الأوان. ومن ناحية أخرى، فهناك كانت أشياء أخرى على المحك، ذلك أن الجزء الأعظم من القوة العسكرية الألمانية بعد يونيو ١٩٤١ كان منهمكاً في الجبهة الشرقية. ومهما يكن من أمر، كان ينبغي على الاتحاد السوفييتي الانهماك في الحرب، وعلى حد تعبير تشرشل الساخر، ولكنه الدقيق أيضاً، فإن العقربين منهمكان في استنزاف كل منهما الآخر حتى الموت. وهكذا، أصبحت فكرة إمكانية تحويل كل القوة العسكرية الألمانية الموجهة نحو الاتحاد السوفييتي ضد بريطانيا العظمى في حالة إلحاق الهزيمة بالسوفييت فكرة غير واردة.

ولذلك، فإن المسألة اتصلت بكيفية نقل المعلومات الاستخباراتية عن طريق نظام «أولترا»، مع الحرص على إخفاء حقيقة هذا السر العظيم، وفي الوقت نفسه إقناع ستالين بأنها لم تأت من البريطانيين، الذين يكرههم الدكتاتور الروسي ولا يثق بهم. وكان حل دانسي لهذه المسألة معقداً ورائعاً معاً.

وكان أحد رجال دانسي في سويسرا يعرف حقيقة وجود شبكة تجسس سوفييتية واسعة النطاق في ذلك البلد المعروف لدى الألمان بأنه بلد «الحمر الثلاثة»، وذلك بسبب استخدام ثلاثة راديوهات في إرسال المعلومات الاستخباراتية إلى موسكو. وكان أحد مصادر شبكة الاستخبارات مغترب ألماني يدعى رودولف روسلر، الذي كان لديه بعض الاتصالات في بلده لتزويده بمعلومات استخباراتية متدنية الدرجة. ومن خلال الاتفاق مع أصدقاء في الاستخبارات السويسرية، تمكن دانسي من تدبير أمر تزويد روسلر بجرعات من المعلومات الاستخباراتية من نظام «أولترا»، وكلها اتصلت بالخطط

الألمانية وترتيب الوحدات القتالية في الجبهة الشرقية. ويرغم شعوره بالارتياب في بادئ الأمر، فإن مركز موسكو بدأ في تقدير معلومات روسلر الاستخباراتية، وكانت معلومات دقيقة جداً على أي حال.

وانتهت العملية في ١٩٤٣، حينما لم يعد الروس، الذين تمكنوا من فرض اليد العليا عسكرياً، في حاجة إلى نظام «أولترا» السري. ومع أنهم لم يعرفوا حقيقة وجوده، فإن عملية دانسي كانت تقدم في الغالب الفرق بين النصر والهزيمة في الجبهة الشرقية.

وكانت تلك آخر الانجازات التي قدمها دانسي إلى جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦». وفي ظل تعاظم عزلته بين زملائه الكارهين لشخصيته الفظة، بدأت مهنة دانسي في الانحسار. وحينما أصبح من الواضح أكثر فأكثر أن هزيمة الألمان باتت حتمية، لم يعد هناك سبب يستدعي التغاضي عن عيوب دانسي في سبيل ذكائه في العمليات الاستخباراتية. وربما يمكن القول بصراحة إن دانسي أصبح عبئاً ثقيلاً. وفي ١٩٤٤، عهدت إليه وظيفة عديمة الأهمية، بدون عمل لتأديته، وبعد عام، أجبر على الاستقالة من جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» لأسباب صحية. وغادر بدون كلمة شكر (أو أي معاش تقاعدي) من المنظمة التي فعل الشئ الكثير من أجلها.

وعلى الرغم من مرضه، فهو حصل على وظيفة كمدير تنفيذي في ستوديو كورداليون للأفلام السينمائية. وفي ١٩٤٧، مات في بيت للمسنين من جراء نوبة قلبية. ولم يذهب أحد من جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦» لزيارته في أيامه الأخيرة، وكذلك لم يفعل أحد من أفراد عائلته. وشارك في تشييع جنازته عدد قليل من أصدقائه القدامى في منظمة «زد»، من بينهم نوئيل كوارد.

وقبل نهاية حياته، كان دانسي متضايقاً من حادثة غريبة، ذلك أنه في صباح أحد الأيام، استيقظ، واكتشف حرف «الزد» مكتوباً بخط كبير على باب بيته الخارجي. وبالنظر إلى أن مجموعة من الأفراد كانوا يعرفون اسمه الرمزي في جهاز الاستخبارات البريطاني «إم أي ٦»، فإن دانسي حاول أن يعرف من منهم قام بهذا

العمل المحيّر. ولم يعرف أبداً، وحتى قبل نهاية حياته، كان يتمنى لو يعرف، وانتاب رجل الاستخبارات العجوز شعور بالإحباط من جراء واحد من الألغاز القليلة التى لم يستطع حلها.

فيلكس دزرشنسكي

١٨٧٧ - ١٩٢٦

جـان بيرزيـن

١٨٨٩ - ١٩٣٧

منتصف الليل فى لوبيانكا

لم يكن هناك رجال كثيرون كان يمكنهم التقدم بمطالب إلى فلاديمير لينين ثم الحصول عليها، وكان فيلكس دزرشنسكى واحداً من بين هؤلاء القلائل. وذات ليلة من خريف ١٩١٧، اضطر لينين إلى الإيماء برأسه بعلامة الموافقة على مطالب تقدم بها دزرشنسكى لتولى مسؤولية مهمة أراد الزعيم البولشفى منه القيام بها.

وهذه المطالب كانت متشددة على نحو واضح: دزرشنسكى أبلغ لينين أنه يمكنه أن يترأس هيئة جديدة يطلق عليها «اللجنة الفرعية للأمن»، ولكن شريطة إعطائه سلطة كاملة وغير مشروطة وغير خاضعة لإشراف أحد. وكان إذعان لينين لهذه المطالب ناشئاً فى جزء كبير منه عن حقيقة احترامه لشخصية دزرشنسكى، أحد أقدم

رفاقه فى السلاح. وهذا يدل أيضاً على الثقة العالية فى قدرات دزرشنسكى، ذلك أنه من الواضح أن هذه المهمة كانت مستحيلة.

وفى نظر لينين، فإن اللجنة الفرعية للأمن يمكن أن تضطلع بمهام أمنية كبيرة بعد الانقلاب البولشفى القادم، وكما اعترف لينين لأول مرة، فإن المحاولة الانقلابية عبارة عن مغامرة جريئة محفوفة بالأخطار، ويمكن إحباطها فى أية لحظة من جانب قوات حكومة كيرينسكى الموجودة فى السلطة، أو من جانب العناصر المونشفية العديدة المناهضة، أو من جانب بقايا القوات القيصرية الكبيرة الموجودة فى معظم أنحاء البلاد، أو من جانب جهاز الاستخبارات القيصرى «أوخرانا»، أو من جانب مجموعة مؤتلفة من كل هذه العناصر فى مجموعها. وقال لينين ذات مرة إن «السلطة موجودة فى الشوارع، وهى تنتظر أحدهم لتوليها». ولكن الحقيقة هى أن فيلكس دزرشنسكى هو الرجل الذى جعل الانقلاب البولشفى أمراً ممكناً.

وتحرك دزرشنسكى بسرعة خاطفة، وألقى القبض على كل من وجدهم من ضباط كيرينسكى، وعرض عليهم القيام بدور ناشط مع البولشفيك، تحت التهديد بالقتل أو السجن. ومن قاعدة قوة البولشفيك فى سانت بطرسبورج استولى دزرشنسكى على كل وسائل الاتصالات، بما فيها البريد والتلغراف والتليفون. وكانت كل العناصر غير البولشفية محرومة من استخدام هذه الوسائل. ولذلك فعندما قام لينين بانقلابه، لم يكن الكثيرون فى حكومة كيرينسكى يعرفون ما حدث إلا بعد فوات الأوان. وعمل تعتيم الاتصالات أيضاً على شل حركة المناهضين لانقلاب لينين، ولما حاولوا تحريك انقلاب مضاد، كان البولشفيك تولوا بالفعل زمام السلطة.

ومع هذا، فهناك فرق كبير بين تولى السلطة وبين المحافظة عليها. وفى ديسمبر ١٩١٧، بعد شهر فقط من انقلاب البولشفيك، وفى وقت كانت فيه قبضتهم على روسيا غير واضحة المعالم، طلب لينين من دزرشنسكى تكوين قوة أمنية لحماية الثورة الناشئة، وتوسيع نطاق سلطتها فى كافة أنحاء البلاد. ومرة أخرى، تقدم دزرشنسكى بمطالب، وحصل عليها، وهى عبارة عن سلطة مطلقة لفعل ما يريد دون

أى توجيه من مصدر أياً كان. وبهذه السلطة، شرع دزرشنسكى فى تكوين جهاز الاستخبارات البولشفى «تشيكا»، وهو عبارة عن هيئة أصبحت أكثر وأوسع وأنجح منظمة استخباراتية فى التاريخ. وهذا الجهاز جعل دزرشنسكى رجلاً أسطورة وواحداً من أعظم الجواسيس فى كل العصور.

وفى الأيام السوداء من ديسمبر ١٩١٧، كنت احتمالات ارتفاع دزرشنسكى وجهازه إلى مثل هذه المستويات مطلباً بعيد المنال، ذلك أن جهاز الاستخبارات البولشفى «تشيكا» فى لحظة تكوينه، كان يضم عدداً محدوداً من الرجال، وليس هناك له مقر، ولا سيارات أو ناقلات، ولا ميزانية، ولا تجربة سابقة، سواء على صعيد الأمن الداخلى أو العمليات الاستخباراتية. ولكن هذا الجهاز كان يملك عقل وقلب دزرشنسكى، الرجل الذى جعل الروس يعتقدون أنه ولد جاسوساً.

وفى حقيقة الأمر، فعلى الرغم من ماضيه الثورى، فإن دزرشنسكى ولد فى ١٨٧٧ لعائلة بولندية أرستقراطية ثرية، ولكنه تحول عن حياة الرغد فى ١٨٩٧، وذلك حينما انضم، كطالب جامعى، إلى الحزب الشيوعى الاشتراكى. ولم يشرح دزرشنسكى الأسباب التى جعلته يمضى قدماً فى هذا التحول السياسى، ولكن يمكن أن تكون أسباباً باهظة الثمن. وبعد اشتغاله جاسوساً بين الخلايا الثورية الاشتراكية فى روسيا وبين المبعدين فى الخارج، ألقى رجال جهاز الاستخبارات القيصرى «أوخرانا» القبض عليه مرتين، وحكم عليه بالسجن لمدة عامين فى معسكرات الأشغال الشاقة فى سيبيريا، حيث اشتغل عاملاً من مناجم الفحم. وفى ١٩٠٣، حينما حدث الانقسام بين البولشفيك والمونشفيك، اتخذ دزرشنسكى قراراً مصيرياً، ذلك أنه ألقى بكل ثقته إلى جانب البولشفيك، واجتمع إلى لينين، ونشأت صداقة حميمة بين الرجلين، وهى صداقة استمرت مدى الحياة. وما أثار اهتمام لينين بهذه الشخصية البولندية النحيفة ذات اللحية الصغيرة تلك الصفات التى تثير إعجابه فى بعض الرجال: قساوة القلب، والاهتمام الأعمى بالقضية الثورية، والذكاء الحاد، والمواهب التنظيمية. كما فهم لينين، فإن هناك هاجسين تسلطا على حياة دزرشنسكى : الاشتغال «سيفاً ودرعاً» للثورة البولشفية، والعمل على إقامة حكومة شيوعية فى بلاده بولندا.

ولكن قبل تحقيق تلك الأحلام، واجه دزرنشسكى التحدى الأعظم، وهو المحافظة على حياة الثورة البولشفية الناشئة. وكانت هناك أخطار كثيرة تعرض لها النظام الجديدة: الخطر الأول هو أن روسيا، من الناحية الفعلية، كانت فى حالة حرب مع ألمانيا. والخطر الثانى هو أنه كانت هناك قوات كبيرة معادية للبولشفيك تحتل أجزاء واسعة من الأراضى الروسية، وتعلن عن اعتزامها القيام بحملة عسكرية مقدسة للقضاء على البولشفيك. والخطر الثالث هو أن الدول الغربية، التى شعرت بالقلق تجاه هدف لينين المعلن فى توقيع معاهدة سلام منفردة مع ألمانيا وإخراج روسيا من الحرب، كانت تهدد علانية بالتدخل.

وفى غضون أسابيع بعد تكوين جهاز الاستخبارات البولشفى «تشيكا»، بدأ دزرشنسكى فى إقامة الدليل على مواهبه، الأمر الذى جعل زملاءه البولشفيك يلقبونه «فيلكس الحديدى». واختار دزرشنسكى الآلاف من العمال، معظمهم من الأشداء وشبه المتعلمين، الذين يقومون بتنفيذ أبسط قواعد النظام التى يضعها رؤساؤهم: «إفعل ما تؤمر به، وإلا واجهت عقوبة الإعدام أو السجن مدى الحياة».

وصرح دزرنشكى عندما أرسل مجموعة مسلحة للقضاء على المنشقين عن النظام البولشفى فى كافة أنحاء روسيا: «نحن نناصر الرعب المنظم». وبين ليلة وضحاها، أقام دزرشنسكى نظاماً بيروقراطياً للاستخبارات البولشفية، ونقل مقر قيادته من سانت بطرسبورج (لينينجراد) إلى بناية فى موسكو كانت مقراً لإحدى شركات التأمين. وقام دزرشنسكى بتحويل هذه البناية إلى مكاتب استخبارات وزنزانات. وأصبح موقع جهاز الاستخبارات البولشفى «تشيكا» الجديد فى شارع «لوبيانكا» واحداً من أقذر العناوين فى كل أنحاء روسيا، ذلك أن الروس كانوا يفضلون قطع مسافة طويلة مشياً على الأقدام بدلاً من المشى على الرصيف المحاذى لموقع البناية. وكان خوف الروس مفهوماً، وله ما يبرره، ذلك أن آلافاً من المواطنين الروس اختفوا وراء الجدران، ولم تعرف مصائرهم إلا بعد بضعة أسابيع، وذلك عن طريق ورقة حكومية صغيرة إلى عائلاتهم تفيد باتهامهم بالقيام بأنشطة معادية للثورة، وإعدامهم تبعاً لذلك.

ومع حلول الشهور الأولى من ١٩١٨، تمكن دزرشنسكى من تكوين نظام محكم للرقابة فى البلاد، وذلك بهدف التصدى لاندفاع أية حرب أهلية أو مواجهة أية ضغوط خارجية من دول أجنبية (وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا واليابان وفرنسا أرسلت قوات لاحتلال الأراضى الروسية). وبلغت قوة جهاز الاستخبارات البولشفى «تشيكا» حوالى ١٠٠,٠٠٠ رجل تساعدهم شبكة كبيرة من المخبرين.

وفى ظل وجود رقابة داخلية محكمة، تمكن دزرشنسكى من تحويل اهتمامه إلى بعض التهديدات الاستخباراتية الخارجية التى تواجه النظام الجديد. واختار دزرشنسكى مجموعة من ألمع العملاء فى جهاز الاستخبارات البولشفى «تشيكا» لتكوين قسم لمكافحة التجسس، وذلك بهدف متابعة السفارات الغربية العديدة باعتبارها مصادر محتملة لعمليات سرية واسعة النطاق ضد نظام لينين. واتضح فى وقت لاحق أن هذا التصرف كان صحيحاً، ذلك أن الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين كانوا يتعاونون فيما بينهم على تنظيم عناصر معادية للبولشفيك للإطاحة بنظام لينين فى انقلاب مدعوم من الدول الغربية يستهدف إلقاء القبض على جميع الزعماء البولشفيك وجعلهم يمشون فى مسيرة مذلة فى شوارع موسكو الرئيسية بالملابس الداخلية قبل إعدامهم.

واخترع دزرشنسكى حلاً نموذجياً لهذه المشكلة، ذلك أنه أمر بتكوين منظمة جديدة تتألف من عناصر منشقة مزعومة، وهى عبارة عن مجموعة من الجنود اللتوانيين الذين تولوا من قبل أمر توفير الحماية إلى لينين. وقام قائد هذه المجموعة بمفاتحة الدبلوماسيين الغربيين، وعرض عليهم وضع رجالة تحت تصرفهم. وكشفت الاجتماعات اللاحقة مع الدبلوماسيين الغربيين الغافلين عن معظم تفاصيل المحاولة الانقلابية. ومن خلال إضافة جهود عميل آخر، وهو دبلوماسى شيوعى فرنسى، تمكن دزرشنسكى من تكوين صورة متكاملة عن خطة الانقلاب، هذا بالإضافة إلى تفاصيل أخرى عن سلسلة الشبكات التابعة لجهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» وجهاز استخبارات وزارة الخارجية الأمريكية.

وفى خريف ١٩١٨، ضرب جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» ضربته.

ومن خلال سلسلة من عمليات الاضطهاد، قام دزرشنسكى بإلقاء القبض على جميع العملاء والمتعاونين مع الدول الغربية، من بينهم الجاسوس الأمريكى الرئيسى فى روسيا، زينوفون كلاميتانو، وهو رجل أعمال يونانى - أمريكى. (وأيضاً قتل أحد عملاء جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦» فى تبادل لإطلاق النار). وكان انتصار دزرشنسكى حاسماً: جميع عملاء الاستخبارات الغربية فى روسيا، وهم أكثر من ٢٠٠ شخص، اختفوا وراء جدران لوبيانكا، وهى ضربة لم يتمكن الغرب من الشفاء منها. ولكن هذا كله كان بمثابة مقدمة محدودة لعملية رعب واسعة النطاق، وهذه العملية نشأت بعد محاولة الثوريين الاشتراكيين اغتيال لينين. ومن خلال شعوره بالغيظ تجاه محاولة الاعتداء على حياة الرجل الذى يكن له احتراماً كبيراً، بدأ دزرشنسكى حملة أطلق عليها «الرعب الأحمر». وكبداية، قام دزرشنسكى باعتقال حوالى ٥٠٠ شخص من المسؤولين السابقين فى النظام القيصرى، مع أن أحداً منهم لم يكن له أية ارتباطات بمحاولة اغتيال لينين التى أسفرت عن أصابته بجروح بالغة، وأطلق عليهم النار فى الحال. وبعد ذلك، قام باعتقال الآلاف من الروس، ووضعهم فى لوبيانكا. ولم يعد أحد منهم إلى بيته أبداً.

وهذا «الرعب الأحمر» لقى موافقة تامة من لينين، حتى أنه بدأ فى استخدام دزرشنسكى كرجل خبير قادر على حل المشاكل المستعصية. ولكن كانت هناك مشكلة لم يستطع دزرشنسكى إيجاد الحلول لها، وهى مشكلة بولندا. وانطلاقاً من اعتزامهم إعادة الشعب البولندى إلى الحظيرة الروسية، قام الروس بغزو بولندا فى ١٩٢٠، وأدى النجاح المبكر إلى قيام لينين بتعيين دزرشنسكى رئيساً للسوفييت البولنديين، بهدف الإعداد لحكومة شيوعية فى أعقاب الانتصار الروسى الحتمى. ولكن المقاومة البولندية تعاظمت وألحقت الهزيمة بالروس.

وعاد دزرشنسكى إلى روسيا، حيث واجه تهديداً جديداً، ولكن هذا التهديد جاء فى هذه المرة من داخل الحكومة البولشفية. ولم يكن جميع البولشفيك راضين عن وسائله، وربما كان أبرزهم ليون تروتسكى، رئيس الجيش الأحمر. وفى رأى تروتسكى، فإن دزرشنسكى يملك سلطات واسعة، ووجود رجل واحد يكون مسؤولاً عن الأمن

الداخلي والاستخبارات الخارجية معاً بشكل سابقة خطيرة. ومن خلال محاولة لتوجيه ضربة عنيفة إلى دزرشنسكي، قرر تروتسكي تكوين منظمة استخبارات خاصة به، وأطلق عليها الدائرة الرابعة في الجيش الأحمر، ثم أطلق عليها في وقت لاحق وكالة الاستخبارات السوفيتية «جي آر يو». وفي محاولة لتشكيل العناصر المكونة لهذه الوكالة، اختار تروتسكي عدداً من ضباط الجيش الواعدين، هذا بالإضافة إلى عدد من عملاء جهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا». ومن بين المجموعة الأخيرة كان هناك أحد اللتوانيين الذي برهن على مواهب فطرية في عالم التجسس، وكان اسمه جان بيرزين.

***

وفي ذلك الوقت، لم يكن تروتسكي يملك أية فكرة عن أهمية الدور الذي يمكن أن يقوم به بيرزين في تاريخ الاستخبارات السوفييتية. وجان بيرزين، الذي كان اسمه الحقيقي بيتر كيوزيس، كان ثورياً طيلة سنوات شبابه. ومع حلول ١٩١٩، اعتبر واحداً من ألمع الثوريين، ولما بلغ الثلاثين من العمر، كان واحداً من زعماء ليتوانيا السوفييتية. ولما فشلت محاولة الزعماء فرض الثورة في ليتوانيا وفق النمط البولشفي، هرب جان بيزين إلى الاتحاد السوفييتي. وهناك اختاره دزرشنسكي للانضمام إلى جهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا». وجرى الاعتراف بقدراته مبكراً، ومع حلول ١٩٢٠، أصبح جان بيرزين مسئولاً عن قسم التسجيل التابع لجهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا»، وهو القسم الذي يتولى العمليات الاستخباراتية الخارجية. وبعد عام، وعلى نحو لم يبعث على ارتياح دزرشنسكي، انتقل جان بيرزين إلى وكالة الاستخبارات السوفيتية «جي آر يو» الجديدة.

وكان بيرزين يتخذ موقفاً انتقادياً تجاه الطريقة التي يدير بها جهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا» العمليات الاستخباراتية الخارجية، ذلك أنه لم يشعر بالارتياح تجاه اعتماده على الشيوعيين الأجانب في التجسس، وجادل بأن الشيوعيين معروفون لدى أجهزة رجال البوليس ووكالات الاستخبارات. ومن ناحية أخرى، فلم يكن بيرزين

راضياً عن منهج جهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا» في إستخدام قتلة جائرين كعملاء للاستخبارات الخارجية دون تدريب. وفي رأي بيرزين، فإن الاستخبارات الحديثة، وبخاصة في أوروبا الغربية، تطلب استخدام عملاء متورطين قادرين على العمل تحت غطاء الاشتغال بالأعمال التجارية، أو شئ من هذا القبيل.

وكانت هناك فرصة أمام بيرزين للبرهنة على صحة نظرياته في ١٩٢٤، وذلك حينما أصبح رئيساً لوكالة الاستخبارات السوفييتية «جي آر يو». وبالنظر إلى أنه كان معروفاً بكنيته «الرجل العجوز» بسبب رأسه الأصلع وملامح الشيخوخة المبكرة، فإن بيرزين كان شخصية محبوبة جداً بين عملائه. وقام بتنظيم برنامج تدريب صارم، وأشرف بنفسه على تفاصيل تطبيقه. وكان صديقاً شخصياً للكثيرين من عملائه، الذين اعتبروا بيرزين رجلاً ذكياً ومبدعاً. وفي بعض الأحيان، كان بعض العملاء الذين قام بيرزين بتجنيدهم يميلون إلى الممارسات اللاأخلاقية في التجسس، ومن بين هؤلاء ليبا دومب، وولتر كريفيتسكي، وروث كوتشنكي، وريتشارد سورج.

ولم يكن ذزرشنسكي يشعر بالارتياح تجاه ظهور وكالة الأُستخبارات السوفييتية «جي آر يو»، ومنافستها لجهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا»، وهي منافسة استمرت لفترة طويلة لاحقة واستنزفت كل طاقة بيرزين في غاية الأمكر. وفي هذه الأثناء، كان دزرشنكي منهمكاً في متاعبه السياسية الخاصة به، ذلك أن «الرعب الأحمر» الذي أوجده جهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا» بدأ في التسبب بحدوث تفاعل بين الشعوب السوفييتية، الأمر الذي حمل لينين على كبح جماح دزرشنسكي. وكان دزرشنسكي في ذلك الوقت يعاني من السل الرئوي المزمن، ومات بسببه في ١٩٢٦.

ومع حلول ١٩٣٦، وبيما كان بيرزين مكلفاً في مهمة إلى إسبانيا لإدارة العمليات الاستخباراتية السوفيتية في الحرب الأهلية الإسبانية، أصبحت وكالة الاستخبارات السوفيتية «جي آر يو» سابقة على جهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا» من حيث الأهمية. (أطلق على جهاز الاستخبارات البولشفي «تشيكا» فيما بعد اسم جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي»). ونتيجة لذلك، أصبحت العلاقات بين وكالة

الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» وبين جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» متأزمة. وكان بيرزين لديه أعداء فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وعلى رأسهم النجم الناهض، لافنترى بيريا، الذى كان مقرباً من ستالين. وفى ١٩٣٧، جرى استدعاء بيرزين إلى موسكو «للتشاور»، ولما طلب زملاؤه فى وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» الهروب، قال بيرزين مستسلماً: «يمكنهم أن يطلقوا على النار هنا، ويمكنهم أن يطلقوا على النار هناك». وذهب بيرزين إلى موسكو، وبعد ساعة من وصوله، أطلقوا عليه النار فى بناية لوبيانكا.

وهكذا، بقى على التاريخ أن يصدر حكمه على اثنين من أعظم الجواسيس الذين أنجبهم الاتحاد السوفييتى: بيرزين، بعد إطلاق النار عليه، أصبح شيئاً مهملاً، ولم يذكر التاريخ اسمه إلا بعد موت ستالين فى ١٩٥٣، حينما تقرر إحياء ذكراه كواحد من أعظم الجواسيس السوفييت، ودرزشنسكى وضع زملاؤه تمثالاً كبيراً له فى ميدان دزرشنسكى، الواقع بالقرب من بناية لوبيانكا، ولكن فى أواخر ١٩٩١، أصدر الشعب الروسى حكمه النهائى عليه، حينما جروا تمثاله الكبير إلى ساحة الخردة.

كينجي دويهارا

الثعبان فى السلة

١٨٨٣ - ١٩٤٨

فى نظر أى رجل أنهكته الطموحات، فإن كينجى دويهارا، الميجر فى الجيش اليابانى، لم يأخذ حقه، وتلك هى مشكلته بالضبط. وعلى الرغم من تضلعه فى ١١ لغة (بما فيها ثلاث لغات محلية صينية)، فإن مستقبل دويهارا المهنى فى ١٩٢٦، الرجل الذكى جداً والعضو فى جمعية التنين الأسود اليابانية، وهى جمعية الصفوة المختارة من الضباط المخلصين لقضية سياسة التوسع الإقليمى اليابانى، توقف تماماً عن التقدم.

وحينما كان يبلغ من العمر ٣٤ عاماً، كان أكبر سناً قليلاً من أن يكون برتبة ميجر، ذلك أنه بعد مضى بضع سنوات، سوف يضطر على نحو إكراهى إلى التقاعد، الأمر الذى جعله يتخذ صفة الرجل الذى ضاعت فرصته منه. وكان دويهارا عاقداً العزم على أن يفعل شيئاً عظيماً فى مهنة عسكرية، غير أنه قام بدور محدود جداً فى الحرب الروسية- اليابانية. وكان الكثيرون من نظرائه يتقدمون إلى أعلى، نحو أشياء أكبر وأفضل. ومن وراء ظهره، كانوا يضحكون ضحكة نصف مكبوتة على تلك «البطة القبيحة» التى تخلفت وراءهم. وكان تعبير «البطة القبيحة» دقيقاً جداً، ذلك أن الميجر دويهارا لم يكن مظهره الخارجى يدل على إمكانية أن يكون زعيماً للرجال: قصير القامة وممتلئ الجسم، وله وجه مستدير، وشارب مثل شارب شارلى شابلن، ومشية

غريبة مثل البطة تماماً، وهذا كله جعله شخصية مضحكة.

وإدراكاً منه أن الضباط الآخرين كانوا يعتبرونه شخصية مضحكة، فإن دويهارا عقد العزم أكثر من أى وقت مضى على النجاح، ولكنه لم يكن بعد يملك فكرة حقيقية عن مجال النجاح الممكن. واستغرق هذا الأمر فترة زمنية معينة، ولكن فى النهاية وقف هؤلاء الضباط الذين كانوا يضحكون عليه فى رهبة احتراماً للجنرال كينجى دويهارا، الجاسوس الأعظم فى التاريخ اليابانى.

أما كيف خرج دويهارا من هذا الطريق المسدود الذى وجد نفسه فيه وهو فى منتصف العمر، فهذا شئ يكشف الكثير عن حقيقة هذا الرجل. وكان دويهارا فاتح ابنة خالته، الفتاة المراهقة الجميلة البالغة من العمر ١٥ عاماً، وأقنعها بالوقوف عارية أمامه، ثم أرسل مجموعة من أفضل الصور الفوتوغرافية إلى أحد الأمراء فى العائلة الامبراطورية. ولدى تأثره، استدعى الأمير تلك الفتاة الجميلة الى حضرته، ومع أن العلاقة تطورت، فلم يستطع أن يتزوج فتاة من العامة. ولكنهما أصبحا عاشقين مخلصين، وهى فرصة انتظرها دويهارا بصبر شديد لمعرفة النتائج النهائية. وفى تلك الأثناء، تحدثت ابنة الخالة مع الأمير عن قريبها الضابط الذكى فى الجيش الذى يضيع مواهبه الفذة فى وظيفة مملة فى طوكيو. وفى غضون أسبوع، تلقى دويهارا أوامر بتولى منصب مساعد الملحق العسكرى فى بكين.

وفيما يتصل بأمر دويهارا، فما كان من الممكن أن يحدث شئ أفضل من ذلك : اليابان كانت لديها نوايا عدوانية ضد الصين، ولذلك، فبالنسبة إلى ضابط يكرس كل اهتمامه فى المهنة، فذلك هو المكان الأفضل،والأهم من هذا، فإن دويهارا اكتشف، عند وصوله إلى بكين، أن السفارة اليابانية كانت منهمكة جداً فى التجسس وفى عمليات سياسية خفية ضد الصينيين. ومثله كمثل بطة اكتشفت الماء لأول مرة، فإن دويهارا وجد مكانه الصحيح.

وفى غضون أسابيع، ومما أثار شعوراً بالبهجة فى نفوس رؤسائه، فإن الميجر دويهارا برهن على رغبة حقيقية فى المؤامرات والتخريب والاغتيالات والحيل

والرشوة والفساد والتجسس. وكان الهدف هو إضعاف الحكومة الجمهورية الصينية، من خلال استخدام كل الوسائل، على أمل انهيارها التدريجي وتمهيد الطريق أمام الغزو الياباني. وتمثلت ضربته الأعظم في تغلغله إلى صفوف منظمة تجارية صينية قوية يطلق عليها «أنفو»، وهي منظمة لديها ارتباطات رفيعة المستوى في الحكومة الصينية. وقام بتجنيد عدد كبير من أعضائها الذين حرصوا على تزويده بالمعلومات الاستخباراتية حول ما يحدث داخل المجالس الحكومية.

وكان دويهارا منهمكاً أيضاً في أفعال أكثر اعتدالاً، بما فيها تجنيده مجموعات من عالم الرذيلة والإجرام للقيام بمظاهرات ضد الحكومة. وذات مرة، قام بإثارة أعمال شغب، ثم اندفع داخل مبنى حكومي لإنقاذ عدد كبير من الموظفين الحكوميين المحجوزين. واعترافاً منهم بفضله في إنقاذ أرواحهم، وافقوا على أن يصبحوا جواسيساً نافعين يعملون لصالح دويهارا. وبعد ذلك كانت هناك مجموعة قليلة من العمليات الناجحة المماثلة، ومع حلول ١٩٢٨ حصل على ترقية إلى رتبة كولونيل، واعتبره رؤساؤه المباشرون في تقاريرهم إلى طوكيو واحداً من أعظم الجواسيس الأذكياء ومؤهلاً للترقية إلى منصب بمسؤوليات أعظم.

وكانت لدى طوكيو في ذلك الوقت مهمة مناسبة: منشوريا. وهذا الإقليم الغني بالمعادن الواقع في أقصى الطرف الشمالي من الصين كان شيئاً مرغوباً فيه في عيون اليابانيين، الذين خططوا لاحتلاله حينما تسمح الظروف. وكان يتعين على كينجي دويهارا أن يوجد مثل هذه الظروف. وبإعطائه تفويضاً على بياض للعمل وفق ما يراه مناسباً في منشوريا، جرت تسميته رئيساً للاستخبارات العسكرية اليابانية في الإقليم.

وتمثلت خطوته الأولى في تكوين شبكة تجسس بحيث تغطي الإقليم كله. وفي حقيقة الأمر، فهذه الشبكة كانت تتكون من ثلاث شبكات منفردة: الأولى كانت تتكون من ٥,٠٠٠ رجل من المجرمين الروس الذين هربوا إلى منشوريا بعد الثورة البولشفية. والثانية كانت تتكون من الروس البيض التواقين إلى التملق كسباً لتعاطف طوكيو.

والثالثة كانت تتكون من جيش قوامه ٨٠,٠٠٠ جاسوس ينتمون إلى طائفة صينية، الذين وعدهم دويهارا بمنحهم حق الاستقلال عن حكومة بكين. وبعد تأكده من ضمان اشتغال جميع هؤلاء الرجال معه، انتقل بعدئذ إلى المرحلة التالية فى خطة زعزعة الاستقرار، التى تضمنت السيطرة على تجارة الأفيون فى الإقليم. واستولى دويهارا على أوكار الأفيون، ووضع أسماء التجار على جداول الرواتب لجعل الأفيون سلعة محتكرة للاستخبارات اليابانية. وسعى إلى مضاعفة عدد المدمنين من خلال تكوين حجيرات صغيرة فى أسواق خيرية حيث يقدم «دواء مجانى» لمرضى السل. وفى حقيقة الأمر، فإن هذا الدواء كان مستخرجاً من الأفيون. وأقنع أيضاً الحكومة اليابانية بصناعة نوع جديد من السجائر أطلق عليه «الخفاش الذهبى»، وكان متوفراً للتصدير فقط. ولا عجب: فهذه السجائر كانت تحتوى على جرعات صغيرة من الأفيون والهيروين. وببيع هذه السجائر بأسعار منخفضة جداً إلى الصينيين، فإن دويهارا أوجد جيلاً جديداً من المدمنين الذين اضطروا إلى شراء المخدر الذى أصبح سلعة محتكرة يابانية. وبكلمات أخرى، فإن المنشوريين كانوا يدفعون ثمن هلاكهم.

وكانت خطوة دويهارا التمهيدية الأخيرة هى تدبير اغتيال الحاكم العسكرى فى منشوريا عن طريق وضع قنبلة فى القطار الذى كان يستقله. وبينما كانت السلطات الإقليمية تحاول التفكير بما يمكن عمله، قام دويهارا بضرب ضربته: أشعل على نحو متعمد فتيل إطلاق النار بين القوات اليابانية والمنشورية. ومن جانبهم، فإن اليابانيين، الذين أعلنوا حالة الاستنفار فى مواجهة مجموعات أمامية أوجدها دويهارا لهذا الغرض، قاموا بإرسال قوة عسكرية كبيرة للاستيلاء على الإقليم «وحماية المواطنين» من «اهتياج» القوات المنشورية. ولم تكن الحكومة المركزية فى بكين، التى كانت ضعيفة بسبب انقساماتها الخاصة بها وسنوات النزاعات المريرة التى خطط لها دويهارا ويابانيون آخرون، فى وضع يسمح بالجدل فى شئ. وهكذا، استولت اليابان على كل منشوريا.

ومن خلال محاولة لمنع حدوث أية مشاكل دولية، اضطر دويهارا إلى اختلاق صورة خيالية وهى أن كل الاضطرابات القائمة فى منشوريا أمر طبيعى جداً. وتحقيقاً

لهذه الغاية، قام بتدبير خدعة غريبة: ذهب إلى بكين، وحاول إقناع هنرى بويى، الامبراطور الأخير فى الصين (فى ذلك الوقت كان منصبه فخرياً فقط) بأن يصبح امبراطوراً على منشوريا. وتردد بويى، وبينما كان يحاول التفكير فى الأمر، تلقى سلة من الفاكهة عند الباب الخارجى، وكانت تحتوى على ثعبان سام فى قاع السلة. وأسرع دويهارا إلى جانبه، وتمكن من إقناع هذا الأرستقراطى الساذج بأنه بات محلاً لمؤامرات من أعداء غير معروفين، وفى حاجة إلى حماية يابانية. وقام دويهارا الذى لم يكن يتردد فى القول إنه هو الذى أرسل سلة الفاكهة بأخذ بويى إلى منشوريا لكى يصبح امبراطوراً. وفى اللحظة الأخيرة، عرف بويى أنه ليس أكثر من ألعوبة (وتلك حادثة جرى تصويرها فى فيلم سينمائى بعنوان «الامبراطور الأخير» .

وفى ظل وجود منشوريا فى أيدى اليابانيين، عكف دويهارا بعد ذلك إلى توجيه اهتمامه إلى بقية أنحاء الصين. ومن خلال اتباع منهجه الخاص به فى العمل، قام بتنفيذ سلسلة كاملة من جهود زعزعة الاستقرار فى الأقاليم الجنوبية من الصين، بما فيها أعمال الشغب والقتل وبلوغ حركة تجارة الأفيون إلى عشرة أضعاف. وبدت يد دويهارا كأنها فى كل مكان، ذلك أن شيانج كاى شك قام بإعدام ثمانية من قادته العسكريين، وذلك بعدما اكتشف أن أسماءهم موجودة على جداول دويهارا للرواتب. ومع حلول ١٩٣٨، حينما قام اليابانيون بغزو جنوب الصين، كان دويهارا أوجد الظروف المناسبة، وهى ظروف وصفها أحد المسؤولين اليابانيين بأنها «عقوبة أخلاقية مستحقة»، حيث كان الجيش اليابانى يتحرك بدون أية معوقات.

ولكن كان ينبغى أن تتوقف أفعال دويهارا عند هذا الحد، ذلك أن اليابانيين لم يكونوا يملكون قوة كافية تمكنهم من دخول حرب برية رئيسية فى الصين وغزو مناطق جنوب المحيط الهادى فى وقت واحد. وبعد عملية بيرل هاربر، أصبحت الحرب مع الولايات المتحدة هى الشغل الشاغل عند اليابانيين. وأصبحت الصين موقعاًعسكرياً خلفياً منعزلاً. واستمر دويهارا فى العمل فى الصين حتى ١٩٤٤، حينما عهدت إليه مهمة أخرى فى الملايو. وفى ١٩٤٥، تلقى أوامر بالعودة إلى اليابان، حيث كان معنياً بتنظيم الخندق الأخير للدفاع فى مواجهة الغزو الأمريكى المتوقع..

ومن مراكز قيادته فى طوكيو، سمع التقارير عن كارثة اليابان فى منشوريا، حيث تمكنت القوات السوفييتية فى غضون أربعة أيام من تدمير القوات اليابانية. وفى الداخل، فمهما كانت الخطط التى وضعها من أجل خوض قتال ضد الأمريكيين، فإن استسلام اليابان جاء محبطاً لهذه الخطط.

ودويهارا ألقى القبض عليه من جانب الأمريكيين، وقدم إلى المحاكمة كمجرم حرب. وكانت هناك أشياء كثيرة كان يتعين عليه الإجابة عليها، ولكن أياً منها لم تكن قابلة للدفاع عنها، وعلى الأخص تلك الفقرة الاتهامية فى الحكم القضائى الموجه ضده، وهى دوره فى تجارة الأفيون. وبعد توجيه الاتهام إليه، فترت همته فى السجن، بينما استمرت محاولات استئناف الدعوى. وفى نوفمبر ١٩٤٨، جرى إعدامه، ممثلاً لآخر إنجازات «البطة القبيحة» اليابانية. وكان الجاسوس الأعظم الوحيد الذى أدين لجرائم ارتكبت باسم التجسس.

جواسيس
الأفعال الشائنة

لافنترى بيريا

«أعطنى رجلاً»

الاسم المستعار: بينون ليدزة

١٨٨٨ - ١٩٥٣

«أعطنى رجلاً، أعطيك دولاراً». وكان لافنترى بيريا من عادته ترديد هذا القول بابتسامة ساخرة وماكرة معاً. والملايين من الروس تعلموا الدرس القاسى، وهو أن هذا القول ليس نكتة. وخلال فترة تزيد عن ١٥ عاماً قضاها بيريا فى منصب رئيس جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، ليس هناك أحد وقع فى قبضة بيريالم يعرف بالضبط ما أراد بيريا منه أن يفعل.

وليس هنا أى لغز تجاه الكيفية التى أراد بيريا من خلالها تحقيق ما أراد، فهو أقام أكبر وأقدر منظمة بوليسية سرية فى التاريخ، وهى عبارة عن امبراطورية ضخمة تضم مئات الآلاف من العملاء، وملايين المخبرين غير المتفرغين، وشبكة من السجون، ومئات معسكرات الاعتقال والأشغال الشاقة، ونظاماً للرقابة الأمنية الداخلية تمكن من تنظيم حركات أكثر من ٢٠٠ مليون مواطن روسى. وفى الوقت نفسه، قام بإدارة جهاز الاستخبارات السوفييتية الخارجية، وهو أكبر جهاز استخبارات فى العالم.

وهذا الرجل الذى وقف على رأس هذه الامبراطورية كان رجلاً مرعباً بحق، وهو واحد من أقذر الرجال فى التاريخ. وبالرغم من سمعته، فلم يخيب مظهره العام

ظناً، فهو أصلع الرأس وممتلئ الجسم، وينظر إلى العالم بعينين باردتين خلف نظارة طبية، ويملك يدين صغيرتين وناعمتين وممتلئتين بالرطوبة دائماً، ويتكلم بنغمة واضحة لا تخدع أحداً. ولأنه كان رجلاً قاتلاً جائراً، فلم يكن لديه أصدقاء، باستثناء جوزيف ستالين. وفيما يتعلق بمهمة بيريا، فإن ستالين هو الصديق الذى احتاج إليه.

وكان بيريا التقى ستالين لأول مرة فى ١٩١٥، حينما كان بيريا الشاب الثورى البالغ من العمر ٢٧ عاماً هارباً فى مرتفعات بلاده جورجيا. وكان بيريا هرب من أحد سجون القيصر بعد الحكم عليه بالإعدام بتهمة القيام بأنشطة ثورية بسبب ترويجه للمبادئ الشيوعية بين طلاب الجامعة. وفى هذه المرتفعات، التقى بيريا زعيم المنظمة الجورجية الشيوعية السرية، جوزيف ستالين، وحصل منه على أسلحة، كما تلقى أوامر بإشعال الثورة المسلحة بين عمال النفط فى باكو، وفشت الانتفاضة، واضطر بيريا إلى النجاة بحياته، وهرب من نقاط تفتيش البوليس القيصرى بلباس امرأة.

وحينما اندلعت الثورة البولشفية، كان بيريا رئيس مجموعة من أسرى الحرب النمساويين، وعددهم ٥٠٠ رجل، وهؤلاء جميعاً تحولوا إلى الشيوعية، ولم يظهروا استعداداً للتحول إلى قوة مباغتة. وتحت قيادة بيريا، حاربوا بنجاح فى الحرب الأهلية، وهونجاح لفت انتباه فيلكس دزرشنسكى الذى اختاره للانضمام إلى جهاز الاستخبارات البولشفى «تشيكا». ومع حلول ١٩٢٠، أصبح بيريا واحداً من أفضل عملاء دزرشنسكى، وعهدت إليه مهمة الذهاب إلى براغ لمراقبة المبعدين المناهضين للبولشفيك. وفى ١٩٢٩، وكان وقتئذٍ يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، ظهر بيريا فى باريس بهوية جديدة: هوية الكولونيل بيدون ليدزة، الضابط السابق فى الجيش القيصرى، الذى يزعم أن أطيانه وثروته استولت عليها الثورة البولشفية، وهو الآن يتوق إلى الانتقام. ومن خلال هذه الصورة المخادعة، تمكين بيريا من استمالة عدد كبير من الضباط القياصرة السابقين، ثم أخذهم فى «مهمة» إلى روسيا، ولم يعودوا بعدها.

وبعد عام، جرى اختيار بيريا رئيساً للمكتب الخارجى التابع لجهاز الاستخبارات

السوفيتى «كى جى بى»، وهو مكتب يشرف على كل العمليات الاستخباراتية الخارجية. وجاء هذا التعيين بمثابة خطوة إلى الأمام فى عالم الاستخبارات السوفييتية، وهو نتيجة علاقة صداقة بين بيريا وستالين. وبعدما تمكن ستالين من تعزيز قبضته، ظهر بيريا معه، وأصبح فى ١٩٣٨ رئيساً لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وفى واقع الأمر، فالاثنان معاً شكلا ثنائياً مرعباً، ذلك أن بيريا كان بمثابة الذراع الأيمن لستالين. وبينما سعى ستالين إلى التغلب على مناهضيه السياسيين، فإن بيريا هو الذى جمع ملفات المعلومات المشوهة لسمعتهم، وهو الذى عمل على اختفاء بعض السياسيين المعارضين لستالين، وهو الذى لفق الدلائل لتشويه سمعة الخصوم حين الاقتضاء. ويقال إنه بعدما ازدادت العلاقة عمقاً بين الرجلين، كان باستطاعة بيريا قراءة أفكار ستالين، حتى أنه توقع فى الغالب الخطوة التالية التى يفكر بها ستالين. وكلما كانت تجئ مثل هذه الخطوة، كان بيريا مستعداً لها بالملفات التى تحتوى على المعلومات المشوهة للسمعة والنزوات الجنسية ومجالات الضعف فى الأهداف المعنية.

ومع أن بيريا كان مسؤولاً عن العمليات الخارجية فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، لكنه ترك تلك المهمة إلى مساعديه، وقام بالتركيز على مهمة تعزيز سلطة ستالين. وفى معرض تنفيذ هذه المهمة، كان على بيريا أن يقيم الدليل على مواهبه المخيفة فى قمع الناس، وذلك إلى حد لم يكن دزرشنسكى نفسه يتصوره.

وبينما عكف ستالين على تعزيز سلطته فى الاتحاد السوفييتى، من خلال حمامات الدم وتصفية الخصوم، فإن بيريا قام باختراع الآلية التى جعلت اسمه يثير خوفاً قاتلاً فى قلوب الروس. وكان من بين اختراعاته ما يطلق عليه «نظام التفريغ»، وهو عبارة عن عملية متعددة المراحل تقوم على تمرير الأشخاص المعتقلين فى سلسلة من عمليات الضرب، والاستجواب على مدار الساعة، والتعذيب، بحيث يخرج الأشخاص فى المرحلة الأخيرة من «نظام التفريغ» أشخاصاً مذعنين يبدون استعداداً للاعتراف بأى شئ. ولأنه يتصف بالسادية، فإن بيريا أحب المشاركة الشخصية فى «نظام التفريغ»، ولهذا السبب كان يحتفظ بهروات فى مكتبه لاستخدامها فى ضرب

السياسيين حتى الموت. (بيريا ألقى القبض على رجال ونساء لمجرد معارضتهم المزعومة فى الرأى لسياسات ستالين). وأمر ستالين أيضاً كبار مساعديه بالمشاركة فى عمليات الضرب والتعذيب كوسيلة لضمان اشتراكهم فى أعمال قذرة، حتى يتعذر عليهم فى وقت لاحق الزعم بعدم معرفتهم بمثل هذه التجاوزات.

وفيما يتعلق بحالات خاصة معينة، اخترع بيريا ما يطلق عليه «مختبر الصدق»، وهو عبارة عن تقنيات جديدة اخترعها الأطباء والعلماء للتعذيب، هذا بالإضافة إلى عقاقير لتغيير العقل. وبالنسبة إلى هؤلاء الضحايا الذين يفترض اختفاؤهم بلا رجعة، فإن بيريا بنى لهم «بيوت الموت» فى إحدى ضواحى موسكو، حيث تولى خبراء السموم أمرهم . وبالنسبة إلى المنشقين الذين هربوا من البلاد، قام بيريا بتكوين شبكة «الموت للجواسيس»، وهى عبارة عن مجموعة من القتلة الجائرين الموجودين فى كل أنحاء العالم لقتل أى شخص يشعر ستالين تجاهه بأنه يشكل تهديداً لنظامه. (فى وقت لاحق، خلال الحرب العالمية الثانية، تقرر توسيع نطاق شبكة «الموت للجواسيس» وتحويلها إلى جيش صغير يقوم بإطلاق النار على كل الهاربين من الخدمة العسكرية والمتعاونين مع الألمان وجميع أسرى الحرب السوفييت باعتبار أنهم «خانوا» بلادهم بوقوعهم فى الأسر.

ومن واقع كونه رئيساً لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، كان بيريا يملك الخيوط الهامة للسلطة بين يديه. وبسبب ذلك، قام بعمليات تطهير واسعة النطاق فى صفوف جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وبدأ بيريا أولاً بتطهير اليهود (بيريا كان يشاطر ستالين فى وجهة نظره المعادية للسامية). ثم، فى وقت لاحق، قام بتطهير الحرس القديم الذى كان موجوداً فى زمن جهاز الاستخبارات البولشفى «تشيكا». وهناك ملايين من الروس اختفوا فى معسكرات الاعتقال فى سيبيريا، هذا بالإضافة إلى أعداد أخرى لا تعد ولا تحصى. أما هؤلاء غير المحظوظين، فكان يمكنهم أن يتوقعوا تمريرهم فى «نظام التفريغ» حيث كانوا يتحولون من مواطنين أبرياء إلى مواطنين دمويين ومستعدين للاعتراف بكونهم جواسيس وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، أو جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، أو أى اعتراف

آخر يريد جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» انتزاعه منهم.

وأمضى بيريا سنوات الحرب العالمية الثانية فى تقوية الآلية القمعية أكثر من ذلك، فهو عكف على قراءة رسائل الضباط والجنود بعناية، حتى أن أى تلميح بالتشكك فى سياسات ستالين أو التقليل من شأن الانتصارات السوفييتية فى الحرب، كان يمكن أن يؤدى بكاتب الرسالة إلى معسكرات الاعتقال فى سيبيريا لمدة ١٠ سنوات. (أحد هؤلاء الضحايا كان شاباً ضابطاً فى سلاح المدفعية يدعى ألكسندر شولشينتزين، وأدى انتقاده المعتدل لسياسات ستالين فى رسالة بعث بها إلى أمه إلى وضعه فى معسكر الاعتقال، ولكن هذا الشاب استخدم تجربته فى معسكر الاعتقال فى تأليف كتاب عن تاريخ معسكرات الاعتقال).

وفى ١٩٤٥، قام ستالين بتعزيز سلطات بيريا أكثر من ذلك، وذلك بتسميته رئيساً لوزارة الشؤون الداخلية، الأمر الذى جعله رئيساً لكل الاستخبارات السوفييتية وقوات الأمن الداخلى ومراقبة الحدود. ومن خلال هذه السلطات، التى لم يعهد بمثلها من قبل إلى أى رئيس للاستخبارات، تولى بيريا أمر مهمتين صعبتين وضروريتين معاً : المهمة الأولى تنفيذ برنامج جرئ فى الاتحاد السوفييتى لصنع قنبلة ذرية، والمهمة الثانية تطوير قدرات صواريخ استراتيجية. وتمكن بيريا من تحقيق هاتين المهمتين بطريقة عجيبة، ذلك أنه قام بتعبئة مليون من العمال، والمؤسسة العلمية السوفييتية، وجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» لصنع قنبلة ذرية فى غضون أربع سنوات، وهى فترة تقل عن ربع الفترة الزمنية التى قدرتها الاستخبارات الغربية فى ذلك الوقت. واستخدم بيريا الاستخبارات السوفييتية فى سرقة أسرار القنبلة الذرية، ثم سارع إلى الاستفادة من هذه الأسرار فى بناء مشروع هائل يشتمل على بناء تسهيلات للتجارب، ومناجم يورانيوم، ومنشآت أخرى ضرورية لصنع أسلحة نووية. وكان منهج بيريا فى تطوير قدرات الصواريخ الاستراتيجية أكثر تفاؤلاً، فهو أمر باختطاف مجموعة من علماء الصواريخ الألمان فى ألمانيا إلى الاتحاد السوفييتى، حيث أعطاهم رواتب سخية لصنع صاروخ سوفييتى من طراز «فى-٢». ولم يضطر بيريا إلى التهديد بالبدائل، ذلك أن العلماء الألمان وجدوا جيوشاً من العمال الذين يعملون على مدار

الساعة فى مواقع اختبار الصواريخ والقواعد العسكرية . ولم يكن الأمر يستدعى اللجوء إلى الخيال للاقتناع بأن العلماء الألمان لو رفضوا التعاون، فإن رجلاً مثل بيريا كان يمكن أن يجعلهم عمالاً مأجورين . وكان العلماء الألمان يعرفون جيداً مدى فظاظة بيريا، فهم راقبوا ذات يوم تجربة إطلاق أحد الصواريخ، ولكنها كانت تجربة فاشلة حيث انفجر الصاروخ فى المنصة قبل إنطلاقه، وأسفر الانفجار عن مقتل ١٠٠ رجل من الفنيين السوفييت وعدد من ضباط الجيش . وعندئذ، صاح بيريا قائلاً: «نظفوا المكان، وعودوا إلى العمل» .

ولا شك فى أن نجاح بيريا فى هاتين المهمتين أدى إلى تعزيز الثقة بينه وبين ستالين، وذلك إلى الحد الذى أبدى فيه ستالين استعداداً للتغاضى عن التجاوزات الغريبة فى حياة زعيم الجواسيس الخاصة . ومن خلال سلطته التى تأتى فى الدرجة الثانية بعد ستالين، كان بيريا قادراً على الانغماس فى الشهوات كما أراد، ومن بين شهواته الغريبة اغتصاب الفتيات المراهقات . وكان من عادته أن يقوم باختطاف الفتيات فى شوارع موسكو، ولم يكن آباء الفتيات التعيسات قادرين على التذمر والشكوى، وفى غالب الأحيان، كان بيريا يقتل ضحاياه من الفتيات .

وفى الوقت الذى كانت فيه سلطة بيريا فى ذروتها، بدأ هذا الرجل المرعب فى وضع الخطط للمرحلة اللاحقة على ستالين فى الاتحاد السوفييتى . وإدراكاً منه بأن ستالين كان مريضاً، فربما ظن بيريا أنه يمكنه أن يخلف هذا الدكتاتور، وهى إمكانية أثارت قلقاً كبيراً عند العسكريين السوفييت . وبصرف النظر عن كراهيتهم الشخصية له، وخوفهم منه، فإن لديهم أيضاً ذكريات مريرة معه، ذلك أنهم لم ينسوا أن بيريا هو الذى قتل عدداً كبيراً من جنودهم أثناء الحرب وبعدها . ومن المثير للاستغراب أن بيريا، برغم ذكائه السياسى الحاد، لم يكن يعرف مدى حقد العسكريين عليه، وهى غلطة دفع ثمناً لها .

وفى ١٩٣٥، حينما مات ستالين، قام بيريا بخطوته، وهى الإعلان عن نفسه بأنه ستالين الجديد . ولكن جورجى مالينكوف، عضو المكتب السياسى، وأحد ألد أعداء

بيريا، كان منهمكاً فى استقطاب دعم العسكريين. وفى صباح أحد أيام الخريف من ذلك العام، حينما وصل بيريا لحضور اجتماع للمكتب السياسى لمناقشة مسألة خلافه ستالين، شعر بيريا بالدهشة حينما أبلغه وفد من كبار الضباط العسكريين بإلقاء القبض عليه ومحاكمته فوراً بتهمة ارتكاب «جرائم ضد الشعب السوفييتى». وأصابت بيريا صدمة عنيفة حينما سمع النطق باتهامه مذنباً، وعندئذٍ سحب أحد الضباط مسدسه، وأطلق النار على رأسه، وأرداه قتيلاً فى الحال.

رينهارد هيدريش

سر مرعب

١٩٠٤ - ١٩٤٢

« في صباح ١٤ يونيو ١٩٣١ ، سافر الضابط فى البحرية الألمانية بعد طرده مؤخراً من الخدمة إلى إحدى مزارع الدواجن بالقرب من ميونخ لمقابلة صاحبها، هينريش هيملر. وبعد تسميته قبل عام رئيساً للحرس الخاص للزعيم النازى أدولف هتلر، قام هيملر باستدعاء رينهارد هيدريش لكى يعرض عليه وظيفة.

ولم يكن هيملر يملك أية فكرة إن كان هيدريش لديه أية مؤهلات للوظيفة، وهى رئيس وكالة الاستخبارات النازية الجديدة. ولكنه كان متأثراً بهذا النازى البالغ من العمر ٢٧ عاماً، الذى برهن على الصفات الضرورية للطموح وانعدام الرحمة التى تثير إعجاب هيملر. وكان هيدريش انضم فى ١٩٢٠ إلى فرق قوات المظلات التى شاعت فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد عامين انضم إلى البحرية الألمانية. وأثناء وجوده كضابط فى البحرية، قرر هيدريش الانضمام إلى الحزب النازى، حيث وجد ضالته الحقيقية. ومع حلول ١٩٣١ ، حينما طرد من البحرية بقرار من محكمة الشرف العسكرية بسبب رفضه الزواج من ابنة رجل رفيع المنزلة بعدما جعلها حاملاً منه، أصبح هيدريش موظفاً نازياً متفرغاً فى الحرس الخاص للزعيم النازى.

وعند وصوله إلى بيت هيملر، واجه هيدريش المهمة الصعبة: إجلس واكتب خطة حول تنظيم وكالة استخبارات نازية جديدة. وأعطاه هيملر ٢٠ دقيقة للانتهاء من

المهمة.

وهذه المهمة وضعت هيدريش فى شئ من ورطة، ذلك أنه لم يكن يملك فكرة غامضة حول كيفية تنظيم وكالة استخبارات، أو، فيما يتعلق بهذا الأمر، لم يكن يعرف أى شئ عن الاستخبارات. ومع ذلك، فمن خلال اعتماده على ذاكرته عن روايات وأفلام الجاسوسية، كتب بسرعة ما ظن أنها وكالة استخبارات حديثة ينبغى تنظيمها. وكان هيملر، الذى لم يكن يعرف شيئاً عن الاستخبارات أيضاً، متأثراً إلى حد بعيد، وفى الحال، قام بتعيين هيدريش رئيساً للوكالة الجديدة، التى أطلق عليها وكالة الاستخبارات النازية «إس دى».

ومع أن هيملر كان يظن أن وكالة الاستخبارات النازية يمكن أن تعمل فى مجال جمع المعلومات الاستخباراتية الخارجية، فإن هيدريش اكتشف أن وكالته الجديدة لديها فى الوقت الحاضر اهتمامات داخلية أكثر إلحاحاً، وعلى الأخص فيما يتعلق بتعزيز قبضة هتلر فى ألمانيا. وكان هيدريش برهن على مهاراته فى هذا المجال لأول مرة فى ١٩٣٣، حينما أسماه هيملر رئيس «قسم سياسى» جديد فى بوليس ميونخ، وهو ما أصبح يعرف فى وقت لاحق باسم البوليس السرى النازى «الجستابو». وكان أداؤه فى استئصال المعادين للنازية وإخماد جميع المنشقين جعل هيملر يفكر فى أن يعهد إليه مهمة أخرى، وهى حمام الدم الذى أصبح معروفاً باسم «ليلة السكاكين الطويلة».

وكان الدافع إلى حمام الدم هو صفقة سرية مشكوك فى طيبة الدوافع المفضية إليها بين هتلر والعسكريين الألمان. وفى ١٩٣٤، وافق العسكريون على تأييد هتلر، على شرط أن يتخلص من جيشه الخاص به، أصحاب القمصان السوداء، بقيادة إرنست روهم. وكان أصحاب القمصان السوداء، المعروفون رسمياً باسم «قوات المباغتة»، عبارة عن مجموعة من قطاع الطرق والمجرمين الذين اكتسبوا سمعة شائنة على المستوى العالمى بسبب اعتدائهم على اليهود فى الشوارع وتخريبهم عمداً الأعمال التجارية الخاصة باليهود. ومع أن هتلر وافق على إقالة روهم من منصبه وحل أصحاب القمصان السوداء، فإنه تردد، ذلك أن روهم، رفيق الحرب العالمية الأولى،

كان أقدم وأقرب صديق له.

وفى يونيو ١٩٣٤، ومن خلال قوائم أعدها هيدريش، قامت فرق من الحرس الخاص للزعيم النازى بإلقاء القبض على جميع قادة «قوات المباغتة»، ومن بينهم روهم، الذى وضع فى زنزانة فى السجن وأعدم. ولكن قوات الحرس الخاص للزعيم النازى كانت لديها أهداف أخرى أيضاً، ذلك أن القوائم تضمنت أيضاً أسماء خصوم هتلر فى الهيكل السياسى برمته. ومع انتهاء رجال الحرس الخاص للزعيم النازى من هذه المهمة، كان هناك حوالى ٤,٠٠٠ من أعداء هتلر إما قتلوا أو أخذوا إلى مؤسسة جديدة فى ألمانيا، وهى معسكر الاعتقال. وفى ظل وجود أعدائه موتى أو خلف أسلاك شائكة فى «داشو»، أصبح هتلر الزعيم الأوحد فى ألمانيا.

وهكذا، فإن هيدريش، الرجل الذى قام بجمع الملفات وإعداد القوائم، نعم بدوره فى مفخرة المذبحة. وقال هتلر عنه بإعجاب: «الرجل صاحب القلب الحديدى»، بينما اعتبره هيملر «النازى الحقيقى، والعامل الأعجوبة الذى سوف تحقق قساوته وعبقريته التنظيمية انتصار النازية فى كل مكان. ولكن ما لم يكن يعرف هتلر أو هيملر هو أنه فى الوقت الذى عكف فيه كل منهما على تمجيد الرئيس الشاب لوكالة الاستخبارات النازية «إس دى» بأنه التجسيد الحقيقى للقضية النازية، فإنه كان مشغولاً فى إخفاء سره الأعظم.

وكان هذا السر شيئاً لا يمكن تصوره: هيدريش كان فى الحقيقة نصف يهودى، ذلك أن جدته من ناحية الأم كانت يهودية، وهى حقيقة تحرك هيدريش لإخفائها. وقام هيدريش بتقطيع كل سجلات مولدها وزواجها، حتى أنه ذهب إلى حد إحلال شاهد قبر مسيحى محل شاهد قبرها الذى كان يحمل نجمة داود المحفورة عليه.

ومهما كان هيدريش دقيقاً فى إخفاء هذا السر من ماضيه، فهناك رجل واحد كان يعرف كل شئ عنه، وهى معلومة خطيرة عقد الأمل على استخدامها كضمان فى مواجهة أى صراع بيروقراطى بينهما. وكان ويلهلم كناريس، رئيس وكالة الاستخبارات الألمانية منذ ١٩٢٩، يعرف أن هيدريش عهده إليه مهمة تكوين وكالة استخبارات

نازية، وهو تطور كان من الواضح أنه قصد به عند مرحلة معينة تصنيف وكالة كناريس غير النازية ضمن فئة أعم وأشمل. وحرص كناريس على مراقبة خصمه، وتحقيقاً لهذه الغاية جعل عملاءه يقومون بجمع أسرار عن هيدريش، وعلى ر أسها خلفيته اليهودية (هذه الحقيقة عن حياة هيدريش اتخذت فى وقت لاحق شكل مهزلة مرعبة).

وقامت وكالة الاستخبارات الألمانية بعدد من الاكتشافات المثيرة الأخرى عن هيدريش. وكانت من بين هذه الاكتشافات حقيقة واحدة وهى أن هيدريش أقام على نحو سرى بيتاً للدعارة فى برلين لتقديم الخدمات إلى الدبلوماسيين الأجانب الموجودين فى المدينة. وأطلق على هذا البيت اسم «صالون كيتى»، وكان مليئاً بالميكروفونات والكاميرات من أجل تسجيل أعمال طيش الدبلوماسيين التى يمكن أن يكون لها قيمة استخباراتية. وقامت وكالة الاستخبارات النازية بتجنيد مجموعة من العاهرات الجميلات لملء المكان، فيما تلقت كل منهن تعليمات بانتزاع الأ سرار من الرجال فى لحظة ذروة العاطفة. واكتشفت وكالة الاستخبارات الألمانية أيضاً أن هيدريش نفسه كان ذبوناً دائماً فى صالون كيتى، مع أن النساء كن يخشين من وصوله بسبب ميوله السادية: الرعشة من تعذيب النساء. (وعرفت وكالة الاستخبارات الألمانية أنه على الرغم من أن هيدريش أمر بإغلاق كل الكاميرات والميكروفونات أثناء زياراته، ففى إحدى الليالى نسى مساعدوه أن يفعلوا ذلك، وكانت النتيجة أن واحدة من أعمال طيش هيدريش وصلت إلى وكالات الاستخبارات الألمانية).

وكانت عملية صالوت كيتى أول عملية قام بها هيدريش فى مجال الاستخبارات الخارجية، وهى العملية الوحيدة الخاصة به. وكما تعلم هيدريش الدرس الصعب، فلم يكن باستطاعة النازيين تكوين جهاز استخبارات لجمع المعلومات الاستخباراتية الخارجية من فراغ. وكوكالة نازية تحاول تطبيق نظريات تجريدية من غير اعتبار للمصاعب العملية، فإن وكالة الاستخبارات النازية حاولت تكوين شبكات لها فى مختلف أنحاء العالم عن طريق تجنيد «آريين خالصين» ورجال منضبطين سياسياً فى سفارات ألمانيا فى الخارج، غير أنهم وقفوا مثل الأفيال عند طاولات حفلات العشاء.

ومع هذا، فإن هيدريش ثابر على العمل بعزم وعناد، اعتقاداً من على ما يبدو أنه من خلال قوة الجهود وحدها، يمكن أن تصبح وكالة الاستخبارات النازية شيئاً أكثر من كونها وكالة بوليس سرية. وراقب كناريس هذه الجهود بشئ من القلق، وعلى الرغم من أن وكالة الاستخبارات النازية لم تبرهن على نجاح كبير في مجال الاستخبارات الخارجية (هناك سجل من الفشل استمر حتى ١٩٤٥)، فهو عرف أن الهدف النهائي هو التخلص من وكالته. وعرف أيضاً أنه مثلما يقوم بجمع ملفات مشوهة للسمعة عن هيدريش فإن رئيس وكالة الاستخبارات النازية منهمك أيضاً في جمع أنواع مماثلة من الملفات عن كناريس. وفي ألمانيا النازية، بدا كل واحد كأنه يجمع ملفات عن خصوم بيروقراطيين حقيقيين أو مفترضين. ولم يكن أحد يعرف الحقيقة بأفضل من كناريس، الذي كان لديه جملة من أسرار بالغة الأهمية، مثل علاج هتلر من حالة جنون بعد الحرب العالمية الأولى، وصفقات مالية سرية قام بها مارتن بورمان وزعماء نازيون آخرون، وبالطبع تلك الحقيقة عن إسراف هيدريش. ومن جانبه، كشفت ملفات هيدريش أن كناريس عاف على نحو سري النازيين، وكان يخبيء يهوداً في وكالته لإبعادهم عن قبضات الجستابو. واكتشف عملاء وكالة الاستخبارات النازية أيضاً أن كناريس لديه أصدقاء في الاستخبارات البريطانية، وأن بعض مساعديه لديهم ارتباطات مع الحركة السرية المعادية للنازية.

وما جعل لعبة الملفات المخيفة هذه لعبة مسلية هو أن هيدريش وكناريس كانا جارين في إحدى ضواحي برلين، وفي الغالب كانا يمضيان الأمسيات في بيت كل منهما الآخر. وهناك كان كناريس يرى رينهارد هيدريش شخصية مختلفة تماماً. وكان هيدريش ابن قائد فرقة موسيقية، وعازف كمان موهوباً، حتى أنه كان باستطاعته أن يسحر مستمعيه بمعزوفاته الرائعة. ولم يحدث أن فشل كناريس في اكتشاف ذلك التناقض الغريب بين هيدريش الفاسد رئيس وكالة الاستخبارات النازية، الذي يهمس الناس باسمه بدافع الخوف، وبين هيدريش عازف الكمان الرومانسي، الذي لديه أرداف عريضة ممتلئة وصوت عالٍ ويدان طويلتان مما جعله يتخذ مظاهر أنثوية.

ومن الناحية الرسمية، فإن الرجلين كانا صديقين، ولكن أيهما لم ينخدع

بصداقة الآخر، ذلك أن الاثنين معاً كانا منهمكين في صراع مميت في سبيل تنشيط الاستخبارات الألمانية، وكانت المكاشفة أمراً حتمياً بينهما تبعاً لذلك. وأول صدام حقيقي جاء في ١٩٣٦ ،حينما طلب هيدريش من كناريس «استعارة» بعض الوثائق من ملفات وكالة الاستخبارات الألمانية التي تتعلق بالفترة من ١٩٢٩ حينما قدم الألمان على نحو سري تدريبات عسكرية ومساعدات أخرى إلى الاتحاد السوفييتي. وكان باستطاعة كناريس أن يعرف الأسباب التي جعلت هيدريش يطلب هذه الوثائق، كما أن عملاءه أكدوا ذلك: رئيس وكالة الاستخبارات النازية كان يعد لعملية تزوير هائلة لإقناع ستالين بأن قادته العسكريين كانوا يخططون لانقلاب عسكري. ولم يكن كناريس يبدي اهتماماً بمثل هذه العملية، ورفض طلب هيدريش، وأضاف هيدريش نقطة سوداء إلى اسم رئيس وكالة الاستخبارات الألمانية.

وبعد ثلاث سنوات، كان هناك صدام أشد خطورة من ذلك. وكان هيدريش أبلغ كناريس أن وكالة الاستخبارات النازية عهدت إليه مهمة لا تقل عن محاولة إشعال الحرب العالمية الثانية. وكانت خطة هتلر إلى وكالة الاستخبارات النازية تقوم على افتعال «حادثة» عند الحدود الألمانية – البولندية من شأنها توفير ذريعة للألمان لغزو بولندا. ووفق الخطة، يجب أن يلبس نزلاء معسكرات الاعتقال ملابس الجيش البولندي، ويجب أن تقوم وحدة من وكالة الاستخبارات النازية بالهجوم على محطة راديو ألمانية، وتذيع إعلاناً زائفاً عن حدوث هجوم بولندي، ثم تهرب عائدة إلى ألمانيا. وفي هذه الأثناء، يجب البدء بإعدام نزلاء معسكرات الاعتقال، وإلقاء جثثهم في مكان قريب من المحطة «لإقامة الدليل» على مسؤولية البولنديين. وجادل كناريس بغضب شديد ضد هذه العملية، ولكن دون جدوى، وبدأت الحرب العالمية الثانية.

ومهما كانت أخطاء كناريس، فإن نجاح العملية البولندية أدى إلى رفع هيدريش إلى قمة عالية جديدة في السلطة، وتوليه مسؤولية الإشراف الكامل على هيكل البوليس السري الألماني برمته، بما فيه البوليس الجنائي والجستابو. وفي وقت مبكر من ١٩٤٢، عهدت إليه مهمة أدت إلى القضاء على أي شيء اعترض سبيله في عمله، وهي مهمة لا تقل عن كونها واحدة من أعظم جرائم التاريخ: تدبير القضاء على

يهود أوروبا.

وفى يوم دافيء من أحد أيام الربيع فى ذلك العام، عقد هيدريش اجتماعاً فى فيللا فخمة على شواطئ «بحيرة وانسى» فى ضواحى برلين. وكان اختيار المكان يعود إلى الرغبة فى تخليص المشاركين، كبار المسؤولين فى كل دائرة حكومية، من ضغوط مكاتبهم الحكومية، وتواجدهم فى جو يعمل على تسهيل المهمة التى جاءوا من أجلها. وفى غضون أربع ساعات، تحت توجيهات هيدريش الواضحة، بحث هؤلاء المشاركون التحديات الكبيرة التى تواجه خطة إلقاء القبض على ١١ مليون يهودى فى أوروبا وشحنهم إلى مراكز القتل فى بولندا تمهيداً لإبادتهم. وأظهرت محاضر الاجتماع، التى تولى ضبطها المسؤول التنفيذى فى وكالة الاستخبارات النازية عن عمليات قتل اليهود، أدولف أيخمان، رهبة المشاركين تجاه قدرة هيدريش الفائقة على استيعاب أدق التفاصيل. وفى ختام الاجتماع، بعد الانتهاء من وضع خطة «الحل النهائى»، انفض الاجتماع، وجلس المشاركون إلى طاولات أشهى طعام غداء.

وكانت تلك بمثابة المشاركة الأخيرة من جانب هيدريش تجاه النظام النازى. وبعد شهر، فى مايو ١٩٤٢، عاد إلى العمل، فيما كانت تنتظره مهمة خاصة أخرى من هتلر، كرئيس للاحتلال النازى فى تشيكوسلوفاكيا. وفى صباح أحد الأيام، وهو فى طريقه إلى العمل، قام أربعة من مقاتلى الحركة النسائية التشيكية بإطلاق النار عليه حتى الموت.

وكشفت نهاية هيدريش عن غلطة كلاسيكية، وربما كانت غلطة تستدعى السخرية إلى حد ما، فى الاستخبارات: وكالة الاستخبارات النازية، غير العارفة بالتهديدات السرية، لم توفر الأمن لرئيسها، الذى ذهب إلى العمل بدون حرس شخصى أو أى شكل من الحماية. ولو كان من الصحيح القول، كما أشارت بعض الهمسات فى وقت لاحق، إن كناريس كان يعرف خطة قتل هيدريش ولم يفعل شيئاً لتحذيره، فلم يكن هذا أمراً معروفاً على وجه اليقين أبداً. وكناريس، الذى وجد فى وقت لاحق متورطاً فى مؤامرة لاغتيال هتلر فى ١٩٤٤، ألقى القبض عليه وأعدم، أما

ملفاته عن هيدريش والنازيين الآخرين، فلم يتم العثور عليها أبداً.

وفيما يخص هيدريش، هناك أثر باق وحيد (الكلمة مستخدمة هنا على نحو مقصود) يذكر اسمه، وهو يقع فى مكان حيث كانت معروفة فيه قرية ليديس التشيكوسلوفاكية. وبسبب شعوره بغضب شديد تجاه قتل هيدريش، فإن هتلر أمر بإزالة القرية وجميع سكانها البالغ عددهم ٤٠٠ شخص عن وجه الأرض وجعلها عبرة للآخرين. وقامت فرقة إعدام تابعة لوكالة الاستخبارات النازية بقتل جميع السكان، وتسوية القرية بالأرض، وحرث المنطقة وتحويلها إلى أرض جرداء. ولم يسكن أحد هناك منذ ذلك الحين.

ولكن، بالطبع، هناك آثار أخرى غير موسومة بعلامة لهذا «الرجل صاحب القلب الحديدى» فى كل أنحاء أوروبا : المقابر الجماعية التى تحتوى على رفات ستة ملايين يهودى. وربما يظل التاريخ يذكر اسم هيدريش على أنه المخطط والمنفذ للقضاء عليهم.

جابـور بيتـر

أحدب بودابست

١٨٩٨ - ١٩٩٣

بدا مظهر ذلك الأمريكى البالغ من العمر ٥٢ عاماً، الذى خرج من أحد سجون بودابست فى ١٩٥٦ وهو ينظر بعينين طارفتين نصف مفتوحتين إلى ضوء الشمس الذى لم يره منذ سبع سنوات، كأنه أكبر من سنّه الحقيقى بكثير. وبدا أيضاً كأنه رجل خرج لتوه من محنة مروعة: هزيل ، وشعره أبيض، وعيناه ضاربتان إلى البياض. وفى واقع الأمر ، فإن نوئيل فيلد كان شهد كابوساً لا ينجو منه أحد أبداً، وهذا الكابوس هو جابور بيتر.

وحينما خـرج فيلد من ذلك السجن، فإن خروجه كان بمثابة الفصل الأخير فى حكاية تجسس زاخرة بأفعال زلـزلت أوروبـا الشرقية خلال عشر سنوات تقريباً. وكان هناك آلاف من رجال ونساء ماتوا فى ظل جنـون منـاورة محسـوبة جيداً ومطـبوخة فى موسكو. والأداة الرئيسية إلى ذلك هو عميل الاستخبارات ورئيس البوليس السرى الذى أرعب هنغاريا، وهو رجل مخيف وسيء السمعة، حتى أنه أصبح أكثر رؤساء البوليس السرى إدانة بجرائم شائنة فى كل أنحاء أوروبا الشرقية. ومن المثير للسخرية بدرجة كافية فى هذا المجال هو أن هذا رئيس البوليس السرى، جابور بيتر، اكتوى بنيران ذلك الحريق الهائل الذى أشعل شرارته من قبل.

وكان بيتر يجسد حلم مخرج سينمائى فى رجل وغد: رجل قبيح على نحو يتعذر

تصوره، له حدبة فى الظهر، وأعرج، وله وجه صغير بشارب هتلر. وكان تعبيره الأكثر شيوعاً ملاحظة ساخرة، وفى الغالب مقدمة لوجه تلتوى قسماته بغضب شديد. ولأنه سادى، فهو أحب أن يشارك شخصياً فى إلحاق صنوف العذاب بالآخرين، متباهياً بأنه لم يعجز أبداً عن تحطيم أحد وقع فى قبضته.

وهذا الرجل الذى ولد تحت اسم بينو أوسبيتش فى ١٨٩٨ فى هنغاريا أصبح شيوعياً متعصباً خلال الثورة البولشفية فى روسيا، الأمر الذى أصاب بالحزن والده، الخياط، الذى عقد الأمل على أن يحذو ابنه حذوه. ولكن أوسبيتش أصبح أسير فكرة خدمة قضية الثورة العالمية. وفى ١٩١٩، حينما اجتاحت انتفاضة شيوعية مختلف أنحاء هنغاريا الجديدة، فإن أوسبيتش، الذى كان يستخدم فى ذلك الوقت اسمه المستعار السرى الشيوعى جابور بيتر، كان واحداً من بين المتطرفين الذين تولوا السلطة فى بودابست. وبعد إعلانهم عن جمهورية سوفييتية برئاسة الثورى الشيوعى بيلا كون، تحرك المتطرفون على الفور لقمع جميع المنشقين غير الشيوعيين. وتزعم بيتر مجموعة من الإرهابيين الذين تعقبوا، وعذبوا، وقتلوا، خصوم كون بضراوة حتى أن الهنغاريين أطلقوا على بيتر وعصابته من السفاحين «الرعب الأحمر».

وهرب بيتر وزملاؤه المتطرفون إلى الاتحاد السوفييتى فى أعقاب انهيار جمهورية كون قصيرة الأجل فى ١٩١٩. وهؤلاء الهنغاريون الذين افترضوا ذات يوم أن هذا هو آخر ما يمكن رؤيته من أفعال بيتر شعروا بالصدمة بعد ٢٦ عاماً حينما عاد إلى هنغاريا، فى هذه المرة بشخصية متعطشة إلى الدماء على نحو أشد وأعظم.

وبدا بيتر كأنه اختفى فى عالم النسيان فى الاتحاد السوفييتى، غير أن المظاهر كانت مضللة: فى حقيقة الأمر، فإن بيتر جرى تجنيده فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، الذى رأى كل شئ ممكن فى هذا الأحدب القبيح. وبعد التدريب، خدم بيتر فى عدد من محطات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى أنحاء أوروبا الشرقية، وفى ١٩٣٠، عهدت إليه مهمة ممتازة: عميل فى أحد أهم مراكز التجسس فى أوروبا: فيينا.

وركز بيتر، الذى كان يعمل مع ثيودور مالى، وهو هنغارى آخرمجند فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وقسيس كاثوليكى سابق، اهتمامه نحو الحركة السرية الصهيونية التى كانت معروفة باسم بلاو ويز. وبالنظر إلى كونها مجموعة اشتراكية هدفها توفير خدمات ترفيهية وأشياء أخرى لليهود الشباب فى فيينا، فإن بيتر ومالى حرصا على تعقبهما من أجل اختيار مجندين واعدين للانضمام إلى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». واكتشف الاثنان أن بلاو ويز مع أنها مجموعة اشتراكية، فإنها تضم عدداً من الشيوعيين المجاهرين برأيهم، ومن بينهم زوجة مؤسس المجموعة، أليس كولمان فريدمان. وكانت أليس فريدمان، المعروفة باسم ليتسى، طلقت زوجها حينما لم يتمكنا من تسوية قناعاتهما السياسية الشخصية (كان زوجها اشتراكياً متصلباً فى الرأى ويكره الشيوعيين). وقام بيتر بتجنيد هذه الشيوعية الناشطة والملتزمة على نحو عميق للعمل كجاسوسة وسيطة بين المجموعات اليسارية المختلفة التى تغلغل إليها جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».

وكان هذا التجنيد أمراً عادياً بدرجة كافية فى ظل الاضطرابات السياسية التى شهدتها فيينا فى الثلاثينيات، غير أنه برهن على كونه تجنيداً على درجة بالغة من الأهمية لسبب بسيط: فريدمان الأب استقبل تلميذاً نزيلاً فى البيت.

وكانت فريدمان تعيش فى البيت فى أعقاب طلاقها. وكان والدها، الذى كان فى حاجة ماسة إلى النقود فى ظل الانهيار الاقتصادى النمساوى فى ١٩٣٤، قرر تحويل غرفة إضافية فى البيت إلى نقود من خلال عرضها للإيجار. وفى ذلك الصيف، وصل طالب بريطانى من كامبريدج إلى فيينا لدراسة السياسات الأوروبية. وبسبب حاجته إلى مكان ينزل فيه، لمح إعلان كولمان فى جريدة محلية، واستأجر الغرفة لفترة الصيف. وفى اليوم الذى انتقل فيه إلى الغرفة، قابل الفتاة الجميلة ذات الشعر الأسمر ليتسى فريدمان، وانطلقت شرارة فجأة، وكشفت محادثاتهما عن تقارب سياسى مثير للانتباه، ذلك أن هذا التلميذ فى كامبريدج، العضو فى خلية حزبية شيوعية فى الجامعة، كان شيوعياً ملتزماً من قبل. وقدمت فريدمان هذا التلميذ كرمشح محتمل «لعمل حزبى هام» (وهذا يعنى التجسس) إلى بيتر ومالى، وجرى تجنيد هذا

الإنجليزى كجاسوس نافع متدنى الدرجة. ومثله كمثل فريدمان، التى كان يعتزم الزواج منها فى وقت لاحق من ذلك العام، فهو عمل كجاسوس وسيط.

وبذلك، فإن هارولد فيلبى أصبح جاسوساً نافعاً لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». ولم يكن بيتر يعرف أبداً أن فيلبى يمكن أن يصبح أعظم الجواسيس العاملين فى الظلام فى كل العصور، غير أن تجنيده لهذا الشيوعى البريطانى الشاب عمل فى وقت لاحق على تعزيز سمعته فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وهناك دليل واحد على ذلك وهو أن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» قرر استثناءه من موجة التطهير المعادية للساميةالتى اجتاحت جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى أواخر الثلاثينيات، حينما، وفق أوامر ستالين، جرى التخلص من جميع اليهود من الاستخبارات السوفييتية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن بيتر أيضاً ساعد نفسه من خلال بعض التصرفات الستالينية الخالصة، ذلك أنه قرر العودة إلى الاتحاد السوفييتى بعد قيام الحكومة النمساوية اليمينية فى أواخر الثلاثينيات بتطبيق إجراءات قمعية صارمة ضد المنظمات اليسارية، بما فيها حظر نشاط الحزب الشيوعى. ووصل بيتر فى وقت سىء، ذلك أن موجة التطهيرات الستالينية شملت إهلاك الجزء الأعظم من الكوادر العليا فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وبالإضافة إلى اليهود، فإن رئيس جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، لافنترى بيريا، عكف أيضاً على تطهير الشيوعيين الأجانب، ومن بين أهدافه كان الشيوعيون الهنغاريون، مثل بيتر، الذين هربوا إلى الناحية الشرقية فى أعقاب فشل انتفاضة ١٩١٩. وقفز بيتر إلى عربة الموسيقى، واصفاً أصدقاءه الشيوعيين الهنغاريين السابقين بأنهم «جواسيس غربيون». وكان هذا الوصف بمثابة وثيقة إعدام، ذلك أن الهنغاريين اختفوا بين أنياب ماكينة الموت التى أعدها بيريا لهم. وكان من بين الضحايا بيلا كون نفسه، وكان صديقه القديم وصفه بأنه «إمبريالى» وعميل سرى للاستخبارات البريطانية (بعد بضعة أيام بين أيدى مأجورى بيريا، اعترف كون بهذه الجرائم كلها).

ومع حلول ١٩٤٥، أصبح بيتر فى نظر جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى

بى، الرجل الذى يمكن أن يكون ذا فائدة أعظم من كونه مجرد عميل استخبارات. وبالنظر إلى أنه برهن على قدرة واضحة فى الخيانة والوحشية تنافس قدرة أستاذه بيريا، فمن الطبيعى أن تعهد إليه مهمة أهم من ذلك بكثير: رئيس البوليس السرى. وفى ظل وجود هنغاريا تحت الهيمنة العسكرية السوفييتية، فإن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» كان منهمكاً على نحو ناشط فى جعل البلاد شيوعية، وهى مهمة استدعت وجود بيريا الهنغارى، وكان جابور بيتر هو ذلك الرجل.

وفى هذه المرحلة فى حياته، التى غالباً ما كان يقول فيها إنه لن يتردد أبداً فى الانتحار لو طلب منه ستالين أن يفعل ذلك، وصل بيتر إلى بودابست بأوامر لوضع هنغاريا تحت القبضة الشيوعية. وقام بتكوين جهاز أطلق عليه جهاز الاستخبارات الهنغارى «إى فى إ تش»، وهو جهاز جمع بين الاستخبارات الخارجية والأمن الداخلى، كما قام بتجنيد كادر من أشد قطاع الطرق الستالينية وحشية من الذين أمكن العثور عليهم بين صفوف الشيوعيين الهنغاريين.

وذهب هؤلاء المجندون إلى العمل فى الأهداف الأولى عند بيتر، وهى المنظمات السياسية غير الشيوعية التى كانت مشاركة فى أول ائتلاف حاكم فى البلاد. وفى غضون عام، تمكن بيتر من القضاء عليها، ذلك أن سياسيين جرى اختطافهم وقتلهم، وآخرين تلقوا رشاوى، وآخرين أيضاً تعرضوا للتهديد بالتزام الصمت. ومع حلول ١٩٤٨، تمكن بيتر من تحويل هنغاريا إلى دولة حزب واحد بوليسية، وهو نجاح وصفه بيريا أمام الشيوعيين الأوروبيين الشرقيين بأنه نموذج يحتذى به فى كيفية استخدام الرعب والقمع لفرض الهيمنة الشيوعية.

وبعد توطيد دعائم دكتاتورية الحزب الواحد، تحول بيتر بعدئذ إلى الداخل، منفذاً عملية تطهير أمر بها ستالين فى صفوف الشيوعيين الهنغاريين. وفى كابوس من رعب، أمكن جر آلاف من الشيوعيين الموالين إلى مكتب بيتر، حيث قابلوا رئيس جهاز الاستخبارات الهنغارى «إى فى إتش» الذى كان يحمل هراوة. والبعض منهم كانوا أصدقاء سابقين، ولكن هذا لم يكن يفيد فى شئ. وبعد أن كان بيتر وعصابته من

المعذبين يقضون بعض الوقت معهم، كان هؤلاء الأصدقاء لا يترددون فى الاعتراف بجرائم يتعذر تصورها، ومما له دلالته فى هذا المجال هو أن أحد أصدقاء بيتر المقربين اعترف بأنه كان يعمل جاسوساً لحساب تشيكوسلوفاكيا منذ ١٩١٧، قبل عامين من وجود تشيكوسلوفاكيا كدولة.

وأصبحت سمعة بيتر بين الهنغاريين بأنه «بيريا الهنغارى» أمراً راسخاً. وكان اسمه، الذى كان فى العادة يهمس به خوفاً بين أهل بلده، موضوعاً لحكايات حول هذه الشخصية الغريبة. وتحدث الضحايا الذين تمكنوا بطريقة ما من النجاة بحياتهم من الاعتقال عن عادة بيتر فى الذهاب لاستنشاق رائحة مزهريات الزهور فى مكتبه أثناء دورات التعذيب المتقطعة. وبالنظر إلى أنه من عشاق الزهور، ففى كل يوم كان مكتبه يزين بباقات الزهور، ولهذه النباتات وحدها كان بيتر يظهر ضعفاً واضحاً. وفيما يتعلق بالإنسان، أياً كانت منزلته الاجتماعية، فلم يكن بيتر يظهر غير الوحشية. وعلى سبيل المثال، فعندما تقرر إلقاء القبض على لازلو راجيك، أول وزير داخلية فى هذا البلد، ضمن عملية تطهير أمر بها ستالين، واعتقاله بدون تحذير سابق، وأخذه إلى مكتب بيتر، طالب راجيك الغاضب بمقابلة السكرتير الأول للحزب. وعندئذ، قام بيتر بضربه بعنف على وجهه، وقال مزمجراً: «السكرتير الأول لا يتحدث مع الخائنين». (راجيك، الذى حصل على وعد من بيتر بحماية عائلته فى حالة اعترافه بكونه جاسوساً أمريكياً، اعترف، ولكن بيتر قتله، وقتل كل أفراد عائلته).

ومع حلول ١٩٤٩، انتشرت عمليات القمع التى قام بها بيتر فى كل أنحاء البلاد مثل انتشار خيوط عنكبوت ضخم ومؤذٍ، وتعلم الهنغاريون الحذر فى محادثاتهم العامة، ذلك أن شبكة قوامها ٨٠,٠٠٠ رجل من المخبرين المحليين (فى دولة لا يزيد عدد سكانها عن ٩,٥ مليون) غمرت مكتب بيتر بتقارير حتى عن أشد الكلام براءة بين المواطنين العاديين. وهؤلاء الذين اعتبروا خائنين كانوا يتعرضون إلى إلقاء القبض عليهم من جانب جهاز الاستخبارات الهنغارى «إيه فى إتش» فى منتصف الليل، ثم تعذيبهم، ثم الحكم عليهم بالسجن لعدة سنوات فى معسكرات الأشغال الشاقة، وفى بعض الحالات، الموت.

وبرغم هذا النموذج لدولة ستالينية، فإن ستالين نفسه قرر أن هنغاريا، بالإضافة إلى دول أوروبا الشرقية الدائرة فى فلك موسكو، برهنت على حماسة شيوعية غير كافية. وعلى ما يبدو، فربما كانت هناك أيضاً «عناصر معادية للثورة». ولذلك فإن أوامر صدرت للبدء فى موجة تطهير جديدة. وحين الأخذ فى الاعتبار موجات التطهير السابقة، فهناك بعض الصعوبة فى إيجاد مبرر لواحدة جديدة، ولكن بيتر وزملاءه من رؤساء البوليس السرى فى أوروبا الشرقية اكتشفوا المبرر الصحيح وكان اسمه نوئيل فيلد.

وبوصفه حالماً شيوعياً ورومانسياً، فإن فيلد كان واحداً من الكويكرز الأمريكيين، ثم أصبح متعاطفاً شيوعياً. وفى ١٩٣٤، حينما كان مسؤولاً فى وزارة الخارجية الأمريكية فى الثلاثين من العمر، أصبح فيلد واحداً من أصدقاء الجير هيس، وجرى تجنيده كعميل نافع لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وخلال الحرب العالمية الثانية، عالج فيلد مشاكل اللاجئين، وقام ببعض الشغل إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية «أواس إس»، محاولاً بذلك تجنيد شيوعيين للوكالة الأمريكية. وبعد الحرب، ذهب للعمل لحساب منظمة خاصة لمساعدة اللاجئين، ولكنه طرد منها فى ١٩٤٧ حينما اكتشفت المجموعة أن فيلد يستخدم تسهيلات لمساعدة اللاجئين الشيوعيين فقط، ومن بينهم شيوعيون هنغاريون. وكان نوئيل فيلد دفع ثمناً باهظاً فى وقت لاحق لمساعدته لهؤلاء الهنغاريين.

وهاجر فيلد إلى براغ، حيث عقد الأمل على إمكانية بدء مهنة جديدة ككاتب. ولكنه فى ١٩٤٩ جرى إلقاء القبض عليه فجأة بتهمة التجسس، واستمع فيلد المرتبك إلى اتهامه بكونه «جاسوساً أمريكياً» قام بتجنيد المئات، وربما الآلاف، من الشيوعيين الأوروبيين الشرقيين للقضاء على الشيوعية. ومهما بدت هذه التهمة مثيرة للضحك، فلم يكن فيلد يعرف أنه أصبح الأداة فى حملة تطهير أعظم وأشد دموية فى أوروبا الشرقية.

وكان بيتر الرجل المسؤول الرئيسى عن هذه الحملة. وكان طلب حضور فيلد

من أجل «التحقيق» معه فى أنشطة جاسوس أمريكى، وخلال فترة زمنية قصيرة، اعترف بأنه العميل الرئيسى فى عملية تجسس أمريكية هائلة قامت على تجنيد الزعامة العليا من جميع حكام موسكو فى أوروبا الشرقية، وعلى الأخص هنغاريا. ويمكن فقط تصور مدى الرعب الذى تعرض له فيلد حتى وصل إلى هذه المرحلة. ولكن النتيجة كانت هناك أمام عيون الجميع: مئات، ثم آلاف، من الشيوعيين الموالين جرى أخذهم إلى زنزانات التعذيب، ثم أعقب ذلك اعترافهم فى محاكمات علنية بأنهم جواسيس أمريكيون وبريطانيون. وبعد ذلك، جرى إهلاك الجزء الأعظم من الزعامة الشيوعية الهنغارية، إضافة إلى هؤلاء من بلدان أوروبية شرقية أخرى.

ولم يكن تأثير ذلك واضحاً خلال عدة سنوات لاحقة: بعد القضاء على زعامتها ضمن حملات التطهير، بدأت شعوب أوروبا الشرقية فى الانزلاق نحو انهيارها النهائى بعد عقود لاحقة.

وفى غضون ذلك، فإن «حملة تطهير فيلد»، كما أصبحت معروفة بهذا الاسم، كان ينبغى أيضاً أن تأكل الضحية الأخيرة: جابور بيتر نفسه. وإدراكاً منها أن حملة التطهير ربما تجاوزت حدودها، بدأت موسكو فى البحث عن كبش فداء. وفى هنغاريا، كان بيتر الضحية المختارة. وبناء على أوامر من جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، جرى إلقاء القبض على بيتر بدون توجيه أية تهمة، وتعرض، على نحو تام وكامل، إلى صنوف التعذيب إياها التى ألحقها من قبل بالكثيرين من الضحايا. وبدافع من التحمس لأداء الواجب، اعترف بيتر بكونه «عميلاً للبريطانيين ولأجهزة التجسس الصهيونية». (هذه اللمسة الأخيرة كان يقصد منها التأكيد على أن حملة التطهير الجديدة المعادية للسامية التى قام بها ستالين قامت على أساس أن العملاء اليهود اعتبروا تلقائياً تحت سلطة الاستخبارات الإسرائيلية).

ولكن على العكس من معظم ضحاياه، فإن بيتر بقى على قيد الحياة. وكان صدر ضده حكم متساهل نسبياً بالسجن مدى الحياة والبقاء فى السجن نفسه الذى كان فيه نوئيل فيلد، أحد أبرز ضحاياه. وعندما اندلعت الثورة الهنغارية فى ١٩٥٦، أطلق

الثوريون سراح فيلد، ولكنهم أبقوا على بيتر فى السجن. وكان بيتر محظوظاً، ذلك أنه حتى إخماد الثورة فى أعقاب التدخل العسكرى السوفييتى، تمكن الثوريون من اقتحام مراكز قيادة جهاز الاستخبارات الهنغارى «إيه فى إتش» (البعض منهم تعرض إلى الضرب حتى الموت)، وإتلاف جزء من ملايين الملفات التى كانت تحتوى على معلومات محرفة المعانى عن مواطنين عاديين هنغاريين.

وبعد ثلاث سنوات، حدث تطور غير متوقع وغريب فى حكاية بيتر، وذلك حينما صدر أمر بإطلاق سراحه من السجن من جانب رئيس الوزراء يانوس كادار، وهو يانوس كادار نفسه، ياللعجب، الذى أمر بيتر بإلقاء القبض عليه وتعذيبه قبل بضع سنوات خلال حملة التطهير الستالينية الأولى. وبتأثير من دوافع بقيت غير معروفة، قدم كادار إلى بيتر وظيفة حكومية متواضعة. وبعد سنوات قليلة، تقاعد بيتر. وبعد عودته إلى انتحال اسمه الحقيقى، بينو أوسبيتش، أمضى سنواته الأخيرة فى الاشتغال كخياط ملابس. وحرص الناس جميعاً على تجنب الاحتكاك مع هذا الخياط العجوز الأحدب، إدراكاً منهم أنه كان ذات يوم الرجل الذى أرهب البلد كله.

ومات بيتر فى ١٩٩٣، وبناء على أوامر من الحكومة، تقرر وضع جثته فى قبر غير محدد المعالم، وفى مكان غير معروف. وكان هذا جزءاً من جهود غير ناجحة لنسيان ذكرى هذا المواطن الهنغارى الشائن، غير أن وصمة العار التى خلفها بيتر فى نفس أوروبا الشرقية باقية إلى الأبد.

جواسيس الأفعال
الغامضة

هينريش مولر

نازى فى موسكو

١٩٠٠ - ١٩٤٨ (؟)

عاد الرجال المستنزفون والمنهكون الذين مروا عبر مركز التسجيل والاستجواب إلى أرض الوطن أخيراً، ولكن قبل إعادة جمع شملهم مع أفراد عائلاتهم الذين ظنوا أنهم لن يروهم مرة أخرى، كانت هناك خدمة واحدة أخيرة ينبغى تقديمها إلى بلدهم. ومع أنهم كانوا مستنزفين، فإن أسرى الحرب الألمان العائدين أخيراً من معسكرات السجون السوفييتية فى صيف ١٩٥٣ بعد قضاء عشر سنوات أو يزيد، انتهزوا الفرصة للجلوس ساعات للتحدث فى أجهزة تسجيل الأصوات على أشرطة، معددين كل تفاصيل صغيرة عن تجاربهم فى وقت ما زالت فيه ذاكراتهم قوية.

وكان الكثيرون منهم، وهم ضباط مدربون جيداً، يتميزون بذكاء فنى جعلهم قادرين على نقل كل التفاصيل إلى رجال رينهارد جيهلن فى جهاز الاستخبارات «الأورج» الذين عهد إليهم باستجواب الأسرى العائدين. وكان هذا هو جوهر العمل الاستخباراتى، وهو جمع عدد هائل من التفاصيل التى يمكن جمعها فى وقت لاحق فى كل متلاحم: طاقة شحن خط السكة الحديدية، وموقع خطوط أنابيب النفط الهامة، وعملية الصنع فى مصانع الفولاذ، وهكذا. وكانت كل التفاصيل مفيدة، ولكن بعض الضباط ذكروا شيئاً غريباً جداً ومن الصعب تصديقه، إنهم رأوا شبحاً.

ولم يكن هذا أى شبح: هؤلاء الضباط أصروا على القول، أمام القائمين على

الاستجواب والنزاعين إلى الشك، إنهم رأوا هينريش موللر، رئيس الجستابو من ١٩٣٥ إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، في الاتحاد السوفييتي بلباس كولونيل في جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي». هذا مستحيل، هكذا قيل للضباط. موللر ومات في برلين في ١٩٤٥. وحتى حين افتراض القول إن موللر نجا بحياته من الحرب، فمن غير المعقول أن يقوم جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» بتجنيد رئيس الجستابو، من بين جميع الناس، للعمل في جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي».

ومع ذلك، فحينما تحدث ضباط آخرون من الأسرى عن الرؤية ذاتها، بدأ رجال جهاز الاستخبارات «الأورج» في التساؤل: هل هذا ممكن؟ كل الرؤى التي جرى التبليغ عنها كانت متوافقة فيما يتعلق بالوصف الجسماني: الجمجمة العريضة المربعانية، والشخصية القصيرة البدينة، والوجه الشاحب بفتحة للفم. هذا هو موللر، هذا صحيح، إنه الرجل الذي كان مظهره الخارجي الجسماني واحداً من أشد المظاهر تميزاً بين جميع رجال السلطة النازيين. ولكن كانت هناك مهام استخباراتية أكثر إلحاحاً في تلك الفترة. ولذلك فإن لغز هينريش موللر ترك جانباً تمهيداً لإحيائه في وقت لاحق.

وحين أخذ الأمور بظواهرها، فربما من الصعب تصور تجنيداً أشد إثارة للدهشة من قيام جهاز الاستخبارات السوفييتي «كي جي بي» بتجنيد رئيس الجستابو. وكان موللر، قبل كل شئ، هو الذي قضى على الحزب الشيوعي الألماني، الأقوى والأكثر عدداً خارج الاتحاد السوفييتي، بوحشية لا يتصورها غير نظيره الروسي بيريا وحده. وكان الشيوعيون الألمان، الذين بلغوا عدة ملايين ذات مرة، تعرضوا للملاحقة كالفئران. والشيوعيون في ألمانيا قتلوا، أو وضعوا في معسكرات الاعتقال أو طردوا إلى المنفى. ومع حلول ١٩٤٢، أصبح ذلك البلد، الذي كان مسقط رأس كارل ماركس، يضم حفنة قليلة من شيوعيين يعيشون في ظل وجود سري محفوف بالأخطار. وفي الوقت نفسه، فإن جستابو موللر حطم كل شبكات الاستخبارات السوفييتية في ألمانيا، التي كانت تعتبر في نظر مركز موسكو بمثابة ميدان لصراع الاستخبارات الأهم في كل

أنحاء أوروبا الغربية.

وكان الرجل الذى تسبب فى حدوث هذا كله شرطياً، ولم يكن عميلاً مدرباً فى مكافحة التجسس. وكان موللر ولد فى ميونخ فى ١٩٠٠ لأسرة من رجال البوليس البفاريين الغارقين فى التبلد الحسى. واتبع موللر طريق الحرفة ذاتها، وانضم إلى دائرة بوليس ميونخ فى ١٩١٩ . ومع حلول ١٩٢٩ ، جاء به سجل أعماله الثابت، إن لم يكن سجلاً رائعاً، إلى منصب متوسط المرتبة، وهو مفتش بوليس جنائى (المقابل لمنصب المفتش فى دائرة البوليس الأمريكى) . ومن المثير للسخرية بدرجة كافية، على ضوء الأحداث اللاحقة، هو أن أحد مصادر الاهتمام الرئيسية عند موللر فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى كان حركة سياسية صغيرة ولكنها مزعجة ذات آراء متطرفة، وهى حزب العمال الألمان الاشتراكيين الوطنيين. وبإطلاقهم على أنفسهم لقب «النازيين»، من اللفظة الأوائلية الألمانية لحركتهم، فإن هذه الجماعة كان يتزعمها الإخوان جريجور وأوتو ستراشر. وكان الأخوان ستراشر والمناصرون لهما يتكلمون بطلاقة وإسهاب توليفة غريبة من فنون الجدل اليمينى والمبادئ الاشتراكية حول ملكية الدولة لكل الصناعة، ولكن كما أبلغ موللر رؤساءه، فهذه الجماعة جاء بها رجل مثير للفتنة فى الحزب وجندى سابق يدعى أدولف هتلر.

وفى رأى موللر، فإن هتلر وعصبته الصغيرة من الأتباع كانوا مجموعة من المعتوهين، ولا يختلفون كثيراً عن سحابة المنشقين السياسيين الذين تواجدوا فى الاضطرابات اللاحقة على الحرب العالمية الأولى فى ألمانيا. وبرغم ذلك، فهو عكف على مراقبة أنشطة الحزب عن كثب، وعلى الأخص بعد الفتنة الفاشلة التى تزعمها هتلر فى ١٩٢٣ . ومع حلول ١٩٣٣ ، وهو العام الذى أصبح فيه معتوه حانات البيرة فى ميونخ رئيساً للوزراء، كان موللر أحد الخبراء البارزين فى العالم حول الحركة النازية. وتضمنت ملفاته، التى تعرضت للإهلاك للأسف نتيجة غارة جوية فى ١٩٤٥، أشد المعلومات تفصيلاً عن الحزب والمسؤولين فيه. وكان موللر جمع هذه المعلومات من خلال عمليات إلقاء القبض على الكثيرين من النازيين بسبب جرائم مختلفة، وهى فى معظمها جرائم مشاجرات بين خصوم سياسيين فى الشوارع.

وكان مفتاح شخصية موللر هو تجرده المهنى. وفى جوهر الأمر، فإن موللر كان شخصية غير سياسية. وكان رجلاً مطيعاً بوليسياً كلاسيكياً مهتماً فى أداء الواجب فقط. وسواء كان يجرى تحقيقات مع شيوعيين أو نازيين، فإن موللر ظل بعيداً عن التأثر بتلك التشنجات السياسية التى مزقت ألمانيا، وكان معروفاً داخل دوائر البوليس فى ميونخ بأنه الشرطى المثالى المستقيم الذى بقى غير متأثر بالسياسات أو النقود أو أى شئ آخر. وموللر كان يقوم بتنفيذ الأوامر فقط.

ولهذا السبب، فإن موللر افترض أنه توقف عن العمل فى ١٩٣٣ حينما بدأ النازيون فى إضفاء الصفة النازية على البوليس الألمانى. ولم يكن موللر عضواً فى الحزب النازى، أو أى حزى سياسى آخر. وفيما يتعلق بهذا الأمر، فهو لم يكن ينوى الانضمام إلى حزب العمال الألمان الاشتراكيين الوطنيين كذريعة للبقاء فى الوظيفة، كما فعل الكثيرون من زملائه من رجال الشرطة. ولدهشته، فإن ذلك النازى المثالى، رينهارد هيدريش، طلب من موللر البقاء وتولى مسئولية «قسم معادٍ للسوفييت» داخل قوة البوليس. وفى ظل اقتراب الإعلان عن عدم شرعية الحزب الشيوعى الألمانى، فإن موللر كان معنياً بالتفتيش عن جميع أعضاء الحزب. وبالإضافة إلى ذلك، جرى إبلاغه أنه معنى بملاحقة كل شبكات التجسس السوفييتية التى يعتقد أنها تستخدم الشيوعيين الألمان كجواسيس نافعين.

وأثار قرار هيدريش غيظ الجناح المحافظ فى الحزب النازى، الذين أعربوا عن تذمرهم من أن موللر كان الشرطى الذى جعل حياتهم بائسة فى أيام حملة ميونخ. وتجاهل هيدريش الاحتجاجات، ذلك أن اختيار موللر جاء بعد تفكير فى الأمر بدهاء. وبداية، وكما كان هيدريش يعرف جيداً، ففى دولة بوليسية مثل ألمانيا النازية، هناك نزعة عند أى شخص مرتبط بأداة القمع لاستخدام النفوذ الهائل لتحقيق مزايا سياسية. وموللر غير السياسى لم يكن لديه جدول أعمال سياسى. وثانياً، فإن مهمة القضاء على الشيوعية فى ألمانيا لم تكن مهمة المتعصبين، وإنما كانت مهمة الخبراء غير المتعاطفين. وموللر كان واحداً من هؤلاء بالتأكيد. وكما فعل من قبل مع النازيين، فإن موللر بنى جهازاً ضخماً للمعلومات عن الشيوعيين. وبالأضافة إلى ذلك، وكما كان

هيدريش يعرف، فإن موللر درس وسائل الاستخبارات السوفييتية، وكان يعتبر واحداً من بين الخبراء الألمان البارزين فى هذا المجال.

وفى ظل تسلحه بهذه المعلومات، فإن موللر، الذى وضع مسؤولاً عن العشرات من العملاء المجندين من بين صفوف بوليس ميونخ، بدأ فى مطاردة الشيوعيين فى كل أنحاء المناطق الجنوبية من ألمانيا بنفس الكفاءة التى برهن عليها ذات مرة ضد النازيين. ومع حلول ١٩٣٥، أمكن القضاء على الشيوعيين بالفعل. وهذا الإنجاز إستحق عليه موللر ترقية كبيرة: تسميته رئيساً لقسم جديد فى وكالة الاستخبارات النازية «إس دى»، وهو جهاز أمن داخلى أطلق عليه الجستابو (البوليس السرى النازى).

وكان ينبغى على موللر أن يوجد فى هذا الجهاز الجديد أداة للقمع من شأنها جعل اسمه مرادفاً لسلطة الدولة البوليسية غير المقيدة. وإلى حد كبير، فإن الجستابو كان انعكاساً لأفكار موللر نفسه، ذلك أنه قام بتجنيد الكثيرين من بين صفوف المفتشين من رجال البوليس الألمان، وبحث عن الرجال الذين يشاطرونه أفكاره غير السياسية والتكريس الأعمى للواجب. وكان منهج الجستابو فى تحقيق غاياته مصاغاً على غرار جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وهو الجهاز الذى أعرب موللر عن إعجابه به صراحة، كما دعا فى الغالب رجاله إلى تقليده.

وداخل نطاق وكالة الاستخبارات النازية «إس دى»، التى كان يهيمن على زعامتها مثقفون أضفيت عليهم الصبغة النازية («القتلة الجنتلمن» كما كانت وكالة الاستخبارات الألمانية تطلق عليهم بسخرية وازدراء)، لم يكن موللر شخصية محبوبة. وكان موللر يحتقر جميع المثقفين، وقال عنهم ذات مرة : «ينبغى على المرء فى الحقيقة أن يسوق جميع المثقفين إلى منجم فحم، ثم يفجره على رؤوسهم». ومن جانبهم، اعتبر زعماء وكالة الاستخبارات النازية «إس دى» موللر على أنه إنسان الكهف، شرطى ميونخ أمسح القدمين الذى لا يمتد أفق تفكيره إلى ما هو أبعد من البيرة والسجق.

وكانت تلك صورة كاريكاتورية نوعاً ما عن موللر الحقيقى، وهى صورة لا

تنفى وجهة نظره الضيقة. وبالنظر إلى أنه فاشستى كلاسيكى، فإن عقله كان يهيمن عليه مفهوم الواجب. ولو قامت الدولة بتمرير قانون، كما فعلت ألمانيا النازية، بحيث يجعل مجرد العضوية فى الحزب الشيوعى عقوبتها الإعدام، فإن موللر كان مستعداً للقيام بواجبه وإلقاء القبض عليهم. وحينما بدأ النازيون فى غزو أوروبا، فإن موللر كان مستعداً لإرسال رجاله إلى كل زاوية فى أوروبا المحتلة لذبح «أعداء الدولة»، وفق تعريف الدولة. وكان يفضل أن يعتبر نفسه صاحب الأمر الذى لا يعرف الصفح. وبالنظر إلى أنه رجل كان يملك ذاكرة قوية قادرة على الاحتفاظ بانطباعات حية ومشهوراً بمعرفته اسم كل واحد من عملائه الذين يقدر عددهم بالآلاف، فإن موللر تمكن من الاحتفاظ بملف بطاقات ضخم بشأن الملايين من المواطنين الألمان، وهو ملف كان يغذى بالمعلومات عن طريق شبكة من المخبرين، على غرار شبكة جهاز الاستخبارات السوفييتى (كى جى بى)، المزروعين فى كل مؤسسة ألمانية (قبل نهاية الحرب بزمن قصير، أعرب موللر عن أسفه لعدم قدرته على استكمال تنفيذ فكرة إعداد بطاقة معلومات عن كل مواطن ألمانى).

ولم يكن موللر يصدر أية أحكام أخلاقية مهما كانت، ذلك أن الدولة كانت هى التى تقرر من هم الأعداء، وكان موللر يطاردهم بحكم الواجب. وبالمثل، فهو لم يشعر بالندم تجاه الوسائل التى استخدمها الجستابو. والدولة أبلغته أن أعداء الدولة ليس لهم حقوق، وينبغى استخدام كل الوسائل لتحقيق نتائج. وموللر لم يكن سادياً، ولكنه قام بالفعل بتجنيد مجموعات من الساديين لتحقيق النتائج التى أرادها فى زنزانات التعذيب سيئة السمعة الخاصة بالجستابو.

ولأنه كان معروفاً باسم «جستابو موللر» فى ألمانيا (تمييزاً له عن الآخرين الكثيرين الذين يحملون الاسم الأول الألمانى الشائع)، فإن موللر بدا كأنه نازى من الطراز الأول، مع أن عدداً قليلاً جداً كانوا يعرفون أنه لم يكن عضواً فى الحزب النازى. وهذه الحقيقة بدأت تثير بعض الدمدمات داخل السلطة الحكومية: هل من المعقول أن يكون الأمن الداخلى فى ألمانيا النازية برئاسة رجل غير نازى؟ وبناء عليه، تلقى موللر فى ١٩٣٩ أمراً بوجوب الانضمام إلى الحزب النازى. ولكن الحزب، على

نحو مثير للاشمئزاز، رفض طلب موللر باعتباره «غير مؤهل» للعضوية. واضطر هينريش هيملر نفسه إلى التدخل، وأمر مسؤولى الحزب بضم موللر فوراً، أو مواجهة عقوبة السجن فى معسكرات الاعتقال.

وعملت هذه الحادثة على جعل العلاقات أسوأ بين موللر وزعامة وكالة الاستخبارات النازية «إس دى»، وقرر رئيسها أن يلقى نظرة أوثق على رئيس الجستابو. ولم يكن وولتر شيلينبيرج، المحامى الجامعى الذى تولى رئاسة وكالة الاستخبارات النازية «إس دى» بعد اغتيال رينهارد هيدريش فى ١٩٤٢، يميل إلى موللر شخصياً. ولكن بالنظر إلى أنه باحث فى الطبيعة الإنسانية، فهو تمنى لو يعرف أين يكمن ولاء موللر الحقيقى. وفى نظر رجل أيديولوجى نازى دائم الشك مثل شيلينبيرج، فإن التكريس غير السياسى عند موللر للواجب كان يشكل مصدراً للقلق، ذلك أن مثل هذا الرجل كان فقط قادراً على تنفيذ أوامر شخص آخر، إن استدعت الظروف ذلك.

وبدأت شكوك شيلينبيرج المترددة الأولى فى التحول إلى شكوك أقل تردداً فى ١٩٤٢، حينما قام موللر بدور بارز فى القضاء على الفرع الألمانى التابع لشبكة الاستخبارات السوفييتية «الأوركسترا الحمراء». وكان جرى الاستيلاء على عدد من راديوهات الأوركسترا الحمراء، غير أن ما أثار شعوراً بالقلق عند شيلينبيرج هو أن موللر أصر على إبقاء البعض منها لأغراض لم يشأ توضيحها. وعلاوة على ذلك، وكما عرف شيلينبيرج، فإن موللر قام بتجنيد خبير فى تشغيل الراديو وفن قراءة رموز الشيفرة. لماذا، كما تمنى شيلينبيرج أن يعرف، كان موللر فى حاجة إلى مثل هذا الخبير؟ الروس كانوا يعرفون جيداً أن الفرع التابع للأوركسترا الحمراء جرى القضاء عليه، ولذلك فليست هناك أية إمكانية لإعادة تشغيل راديو مستولى عليه. والحقيقة هى أن مركز موسكو ما كان يمكن أن يصدق أية رسالة لا سلكية فى شبكة يعرف أنها فى قبضة الجستابو.

وأبقى شيلينبيرج على خبير الراديو الخاص به، وفى ١٩٤١، اكتشف بعض الاشارات غير المفسرة الصادرة عن مركز قيادة الجستابو فى برلين إلى ناحية الشرق،

نحو محطة استلام فى دانزينج. وهذه الإشارات، كما اكتشف شيلينبيرج كانت مكتوبة برموز شيفرة لم يستطع أحد من خبرائه حلها، الأمر الذى قاده إلى الاعتقاد أنها عملية سوفييتية لمرة واحدة فقط. وإذا كان الأمر كذلك، فما هو ذلك الذى كان الراديو فى مراكز قيادة الجستابو يقوم بإرساله برموز شيفرة ربما كانت سوفييتية إلى دانزينج فى بولندا البعيدة؟

وكانت هناك دلائل أخرى أزعجت شيلينبيرج. وفى أوائل ١٩٤٤، كانت وكالة الاستخبارات الألمانية فقدت حظوتها عند هتلر، الذى بدأ فى تحطيم الوكالة. وكخطوة أولى، عهد بمسئولية قسم مكافحة الاستخبارات فى الوكالة إلى جستابو موللر، وهذا يعنى أن موللر فى ذلك الوقت أصبح يملك السيطرة الخالصة على كل عمليات مكافحة التجسس فى ألمانيا. وبمحض الصدفة، كما اكتشف شيلينبيرج، فإن مكافحة التجسس ضد العمليات السوفييتية توقفت. وكان تفسير موللر الرسمى هو أن الألمان حققوا نجاحاً رائعاً فى القضاء على الشبكات السوفييتية، الأمر الذى جعل موسكو تتوقف عن الحركة. ولكن شيلينبيرج كان يعرف أن الروس أذكى من ذلك، ولهذا فلم يكن أمامه غير التفكير فى الأشياء التى لا يمكن تصورها: هل يمكن أن يكون موللر، العارف أكثر من غيره بحتمية هزيمة ألمانيا، تحول إلى الجانب الآخر؟

وكانت هناك مجالات اهتمام أكثر إلحاحاً دفعت شيلينبيرج إلى وضع مسألة موللر جانباً فى الوقت الحاضر على الأقل، وحينما عاد إليها مرة أخرى، كانت الحرب على وشك الانتهاء. وفى غضون ذلك، بقى موللر فى برلين حتى اللحظة الأخيرة، ثم اختفى فجأة. وكانت آخر مرة شوهد فيها حياً فى ٢٩ أبريل ١٩٤٥ فى غرفة هتلر المحصنة تحت الأرض. وفى وقت لاحق، قام نازيون آخرون فى برلين بإبلاغ المحققين أن موللر وأحد مساعديه حاولا الهروب من المدينة المحاصرة، ولكنهما قتلا برصاص الجنوب الروس أثناء المحاولة، ودفنا بعدئذٍ فى مقبرة المدينة.

وهناك بقى اللغز موجوداً حتى الاستماع إلى المزاعم المروعة التى أدلى بها أسرى الحرب الألمان العائدون فى ١٩٥٣. وكل حكاياتهم لها خيط مشترك: فى بعض

الأحيان بعد أسرهم، كان يطلب منهم المشى فى طوابير فى شوارع موسكو كجزء من حملة دعائية من جانب الروس لرفع الروح المعنوية عند المدنيين. وأثناء مشيهم فى الطوابير لاحظوا أن من بين المسؤولين السوفييت الذين وقفوا لمشاهدتهم من شرفة كبار الناظرين كان هناك رجل قريب الشبه جداً من موللر.

واتجه رجال الاستخبارات الألمانية الغربية نحو تجاهل هذه التقارير، ولكن قبل أن يتمكنوا من إغلاق ملف موللر، بدأوا فى سماع تقارير غريبة أخرى عن موللر. وأحد هذه التقارير، من اتصالات موثوق بها فى ألمانيا، أفاد أن موللر كان فى ألبانيا لبعض الوقت فى ١٩٥٣ كمستشار للبوليس السرى الألبانى. وفى ذلك العام نفسه، كانت هناك رؤية أخرى، وهذه الرؤية أفادت أن موللر كان يعمل فى ألمانيا الشرقية مع البوليس السرى الألمانى الشرقى. وأخيراً، ومن خلال محاولة لحل المسألة، قرر الألمان الغربيون فى ١٩٦٣ إخراج موللر من القبر فى برلين وإجراء تشريح للجثة. وعند فتح القبر، شعر الألمان بالدهشة، ذلك أنهم وجدوا ثلاث جثث فى القبر، ولم تكن جثة موللر واحدة منها.

وهكذا، فإن الحكاية حول موت موللر المفترض فى برلين فى ١٩٤٥ تحولت إلى أن تكون حكاية غير حقيقية. ولكن ماذا حدث له؟ ألمانيا الغربية لم تعرف، مع أن هناك كانت دلائل فترية محيرة. وفى ١٩٦٧، على سبيل المثال، جرى إلقاء القبض على رجلين لمحاولتهما اقتحام عنوة بيت أرملة موللر. وعلى ما يبدو، فربما كانت محاولة سرقة عادية، غير أن البوليس اكتشف أن الرجلين تابعان للسفارة الإسرائيلية، وكانا فى الحقيقة عميلين للموساد. ماذا كان الموساد يحاول أن يعرف من وراء اقتحام عنوة بيت السيدة موللر؟

ولم يقل الإسرائيليون شيئاً، وبذلك أسدل الستار على قضية هينريش موللر. ولم يناقش الروس أو أى من حلفائهم فى أوروبا الشرقية مسألة موللر، مع أن مصدراً ألمانياً شرقياً أبلغ الألمان الغربيين قبل بضع سنوات أنه سمع أن مولر مات فى ١٩٤٨ فى ألمانيا الشرقية خلال اشتغاله كمستشار للبوليس السرى.

وعلى الأرجح، فإن الحقيقة حول ما حدث إلى موللر بعد ١٩٤٥ لن تعرف أبداً على وجه اليقين. ومن الناحية الرسمية، فهو مطلوب إلى ألمانيا الغربية بسبب جرائم الحرب، ولذلك فإن قضيته من الناحية الفنية تبقى مفتوحة. ولكن احتمالات بقاء موللر حياً حتى الآن بعيدة جداً، ذلك أن عمره بات يتجاوز الآن ٩٠ عاماً. وتلك أعوام طويلة جداً، حتى بالنسبة إلى شرطي بلا طموحات سياسية.

رودلـف روسلـر

سـر لـوسى

الاسم الرمزى : لوسى

١٨٩٧ - ١٩٦٢

لم تكن المجلة الشهرية المنتظمة التى كانت تصدرها «داى انتشيدونج» ، وهى منظمة كاثوليكية ليبرالية خلال الثلاثينيات، تحتل مرتبة عليا على قائمة القراءة عند معظم المواطنين السويسريين. ومن خلال استخدام أعمدة سوداء من حروف مطبعية كثيفة، فإن كل عدد منها كان ميلئاً بمقالات مملة تتناول، على نحو بليد فى الغالب، مواضيع سياسية وكنائسية. وباستثناء حوالى ٢٠٠ عضو أو أكثر قليلاً فى «داى انتشيدونج» ، فلم يكن هناك أحد يبدى اهتماماً بالمجلة.

ولكن فى ١٩٣٦ ، أصبحت المجلة فجأة مفعمة بالحيوية والنشاط بسبب كتابات مشارك جديد، وهو مغترب ألمانى بدا كأنه يملك قدرة مذهلة على فهم الأحداث فى ألمانيا. وبدأت مقالاته فى هذه المجلة المغمورة فى إثارة الانتباه، ذلك أنه بدا يعرف تفاصيل غير منشورة على صفحات مطبوعات أخرى: مناورات سياسية داخل السلطة النازية، وبرامج التنمية الاقتصادية، والأهم من هذا كله، تفاصيل عن برنامج هتلر السرى لإعادة التسليح.

وكان المؤلف، رودولف روسلر، يعيش فى المنفى فى لوسيرن، حيث هرب

فى ١٩٣٣ بعد طرده من وظيفته عند ناشر مسرحى بسبب آرائه المعادية للنازية. وفيما يتعلق بمظهره العام، فهو بدا مثل المفكر الأوروبى: قصير القامة ونحيف، بنظارة طبية سميكة، وغارق فى التفكير معظم الوقت. وهو رجل هادئ، وقادر على الاستبطان، وكان يعانى من الربو، وهو داء أصاب رجلاً خجولاً من قبل ثم جعله منطوياً على نفسه على نحو شديد.

ومهما كانت شخصيته غير جذابة، فإن هذا الرجل صاحب السلوك المعتدل أصبح فى وقت لاحق واحداً من أعظم الجواسيس فى التاريخ، أو ربما لم يكن كذلك. وهذا هو الغموض الذى يشكل جوهر أسطورة روسلر.

ولم يكن هناك شئ فى خلفية روسلر كان يوحى بشهرته المستقبلية. وكان مثالاً نموذجياً بدرجة كافية لذلك النوع المعروف من ألمانى ليبرالى. وكان روسلر ولد فى أوجسبيرج، ثم انضم إلى الجيش الألمانى عند اندلاع الحرب فى ١٩١٤، حينما كان عمره ١٧ عاماً. وتمكن من النجاة بحياته خلال أربع سنوات كجندى مقاتل، ولكن التجربة أوجدت فيه مقتاً دائماً للحرب وللروح الحربية فى ألمانيا. ولأنه كاثوليكى مخلص، فإن روسلر اتخذ قراراً بتكريس نفسه للقضاء على هذين الشرين.

وبعد الحرب، قرر روسلر استكمال دراسته، وانضم إلى الجامعة فى برلين لدراسة القانون، معيلاً نفسه كصحفى. وأصبح جزءاً من حلقة من المثاليين الكاثوليك من ذوى الآراء المتطابقة، حتى أن أحدهم، وهو رفيق دراسة فى جامعة برلين، كان له تأثير عميق على حياة روسلر.

وكان جافيير شنايير، وهو سويسرى من عائلة غنية على نحو معتدل، شاطر روسلر شعوره بالقلق تجاه نهوض النازيين. وقبل عودة شنايير، العضو البارز فى مجلة «داى انتشيدونج»، إلى وطنه، نصح صديقه روسلر بعدم وجود مستقبل له فى ألمانيا، ولذلك يتعين عليه أن يهاجر إلى سويسرا. ولكن روسلر قرر البقاء ومواصلة العمل فى المجلة .وفى ١٩٣٣، إثر طرده من وظيفته عند الناشر المسرحى،عرف روسلر أنه كان رجلاً مشبوهاً. وبعد توصله إلى استنتاج أنه لم يعد آمناً فى ألمانيا، هرب إلى لوسيرن

بناء على اقتراح شنايبر وأسس دار نشر صغيرة تدعى «فيتا نوفا» لنشر الأدب الكاثوليكي. وظل على اتصال، مع ذلك، مع بعض أصدقائه من ذوى الآراء المتطابقة في ألمانيا النازية، الذين حاولوا إخفاء مشاعرهم المعادية للنازية من خلال تولى وظائف في وزارات حكومية.

وكان يمكن أن يبقى روسلر صاحب دار نشر مغمورة، قانعاً بإنتاج أعمال من المناظرات الفلسفية الملتوية المحبوبةعند المتدينين الكاثوليك، لولا حدوث ذلك التغيير في حياة صديقه شنايبر. وفي ١٩٣٩، جرى استدعاء شنايبر، الضابط الاحتياط في الجيش السويسري، لتأدية الخدمة العسكرية، في فرع الاستخبارات العسكرية. وتحدث شنايبر إلى رئيسه، الميجرهانز هوسمان، عن روسلر، المغترب الألماني الذي كان يكتب مقالات دقيقة جداً عن التطورات في ألمانيا، وعلى ما يبدو عن تلك الشبكة من أصدقائه القدامى في ذلك البلد. ووقع هوسمان عقداً مع روسلر بتعيينه محللاً، وهذا يعني قيامه بتحليل كل التقارير الاستخباراتية والمعلومات الآتية من مصادر معنية حول ألمانيا، ثم كتابة تقارير تحليلية عن مضامينها.

ولم يكن روسلر يعرف حقيقة الأمر، ولكنه بات الآن جزءاً من لعبة استخباراتية معقدة. وكانت سويسرا، من واقع حقيقة موقعها الاستراتيجي الميؤوس منه الذي لا يسمح لها بالدفاع في مواجهة أي غزو ألماني، عقدت العزم على البقاء محايدة. وتحقيقاً لهذه الغاية، قامت الاستخبارات السويسرية بعدة أدوار في الوسط، ذلك أنها تعاونت إلى حد ما مع الألمان، ولكنها في الوقت نفسه تسامحت مع عمليات استخباراتية بريطانية وسوفييتية هائلة على أراضيها، في ظل تفاهم ضمني بعدم محاولة أي من البريطانيين أو الروس جعل هذه الارتباطات واضحة أو تنفيذ أية عمليات من شأنها تعريض الأمن السويسري للخطر.وكانت النتيجة وجود منطقة حرة للاستخبارات، حتى أن أجهزة استخبارات عشرات من الدول كانت تدير عمليات مدروسة في سويسرا، في حين أن السويسريين تظاهروا بعدم معرفتهم لمثل هذه العمليات، مع أنهم تعاونوا بشكل ما معهم جميعاً. وكان هذا كله بمثابة مسرح للاستعارضات الاستخباراتية.

وكانت العملية الاستخباراتية الأكبر والأعظم نشاطاً فى سويسرا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية هى شبكة سوفييتية كبيرة تابعة لوكالة الاستخبارات السوفيتية «جى آر يو»، ومعروفة لدى الألمان بأنها «الثلاثة الحمر»، وكانت فى الواقع تتكون من ثلاثة راديوهات. وكان الراديو الأهم فى «الثلاثة الحمر» تحت إدارة ساندور رادو، الشيوعى الهنغارى والعميل السابق فى وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو»، الذى كان معنياً بجمع المعلومات الاستخباراتية عن القوة العسكرية فى ألمانيا. وكان رادو يجد صعوبة فى الحصول على مثل هذه المعلومات الاستخباراتية إلى أن فاتحه هوسمان على نحو سرى بعرض مذهل: الضابط فى الاستخبارات السويسرية لديه شخص ألمانى له مصادر معلومات جيدة فى ألمانيا ويمكنه تزويد السوفييت بمعلومات استخباراتية رفيعة المستوى حول التطورات العسكرية الألمانية. والبعض من هذه المعلومات الاستخباراتية قط تحظى باهتمام السويسريين، ولكن البقية، التى تعالج الخطط العسكرية الألمانية فى أوروبا الشرقية، تحظى باهتمام السوفييت على ما يبدو.

ووافق رادو على العرض شاكراً، وبدأ سيرك الاستخبارات فى سويسرا يتخذ منعطفاً جديداً. ومن خلال تعاونه على نحو خفى مع الاستخبارات السوفييتية، فإن هوسمان وجد قناة خفية لنقل المعلومات الاستخباراتية حول ألمانيا دون إثارة غضب الألمان. وحتى لو اكتشف الألمان هذا التسرب، فليس هناك ارتباط واضح مع الاستخبارات السويسرية. وقام رادو بتسجيل اسم روسلر على قائمة الرواتب الشهرية للمستخدمين العاملين لحساب «الثلاثة الحمر». وفى معرض سعيه لاختيار اسم رمزى لهذا المصدر الجديد، اهتدى رادو إلى اسم لوسى، لأن روسلر كان يقيم فى لوسيرن.

ودخل روسلر إلى عالم التجسس تحت ذلك الاسم الرمزى. وفى بادئ الأمر، مع ذلك، لوسى جعل مركز موسكو عصبياً على نحو شديد. وهناك سبب واحد لذلك وهو أن روسلر أبلغ رادو أنه سوف يقوم بتزويد المعلومات الاستخباراتية إلى الاستخبارات السوفييتية على شرط أن لا يذكر أبداً اسم مصادره. وفى ظل الظروف العادية، ما كان يمكن أن تتقبل وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو» أية معلومات استخباراتية بدون أن تعرف مصدرها الحقيقى للتحقق منه، وإلا فسوف يكون من

السهل على العدو تمرير معلومات استخباراتية مضللة. وقررت وكالة الاستخبارات السوفيتية «جي آر يو» أن تتبنى موقف «انتظر لترى» في الوقت الحاضر على الأقل، معلقة اتخاذ قرار نهائي حول مدى الثقة تجاه لوسي إلى ما بعد قراءة تقاريره الأولى.

واتضح أن هذه التقارير جيدة جداً، وبدأت في أن تكون أفضل حينما شرع روسلر في إرسال كميات كبيرة على نحو مذهل من المعلومات الاستخباراتية التفصيلية. وشعر رادو بالارتباك: من أين يأتي هذا الناشر المغترب الألماني المغمور بمثل هذه المعلومات الاستخباراتية؟ روسلر لم يكن يقول على نحو مباشر، ولكنه كان يلمح إلى أن لديه أصدقاء سابقين في ألمانيا يتولون الآن مناصب رفيعة في القيادة العليا العسكرية الألمانية ويقومون بتزويد المعلومات إلى رجل يشاطرهم أفكارهم السياسية. وفي بعض الأحيان، كان روسلر يذكر مصادره بأسماء رمزية شخصية مثل وولتز وإنجي.

وفي نظر رادو، الخبير في لعبة الاستخبارات، فإن هذا لم يكن يعني شيئاً. وكانت معلومات روسلر الاستخباراتية جديدة دائماً، وهذا يعني أنه يحصل عليها ساخنة من مصادرها، وهذا هو الصحيح، وهو ما ينبغي قوله. ومن الواضح أنه كمغترب معادٍ للنازية، لا يستطيع الذهاب إلى ألمانيا، ومن ناحية أخرى، فإن الرسائل البريدية بطيئة جداً، حين الأخذ في الاعتبار سخونة هذه المعلومات الاستخباراتية، ولذلك هناك تفسير واحد فقط يمكن أن يكون صحيحاً: مصادر روسلر تقوم بإرسال المعلومات الاستخباراتية عن طريق الراديو. ولكن هذا بعيد الاحتمال، ففي دولة البوليس النازي، حيث تخضع كل الرسائل اللاسلكية للرقابة على نحو شديد، هل يمكن أن يقوم خائنون من ذوي المستويات العليا بتحمل المخاطرة بالبقاء على الهواء لمدة ساعات في المرة الواحدة من أجل إرسال معلوماتهم الاستخباراتية؟

ولم يكن رادو يملك إجابة على هذا السوال، ولكن المسألة كانت معقدة جداً، واستمرت معلومات روسلر في التدفق على نحو متزايد من حيث الكم والنوع، وفي ١٧ يونيو ١٩٤١، جاء مسرعاً إلى الراديو حاملاً قنبلة استبخاراتية: الألمان سوف يقومون بغزو الاتحاد السوفييتي في غضون أيام. وفي اليوم التالي، كانت هناك قنبلة أكبر:

ترتيب كامل للوحدات القتالية التى سوف تقوم بالغزو، ابتداء من التشكيلات الرئيسية وانتهاء بالكتيبة الواحدة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن روسلر قام بتزويد الاسم الرمزى للغزو (بارباروسا) والتوقيت الدقيق للغزو.

وكما بات معروفاً حتى الآن، فإن هذا كان المصدر الاستخباراتى الرئيسى الخامس الذى قام بتزويد تحذيرات دقيقة وتفصيلية عن الغزو الألمانى، وكلها تجاهلها ستالين. وتلقى رادو رسالة توبيخية من مركز موسكو يحذره فيها من مغبة تمرير مثل هذه المعلومات الاستخباراتية «المضللة». ولكن موقف المركز تغير فجأة فى صباح ٢٢ يونيو، حينما بدأ الألمان هجومهم، بالتوقيت الدقيق والقوة العسكرية الدقيقة، تماماً مثلما كشف عنها روسلر قبل بضعة أيام. وفى تلك اللحظة، جرى ترفيع روسلر إلى عميل الاستخبارات النجم، وتلقى رادو أوامر بالحصول منه على كل ما لديه.

وتقبل روسلر الخدمة: ومن خلال تيار متدفق من المعلومات الاستخباراتية الهائلة فى كل يوم تقريباً كان روسلا يقوم بتزويد معلومات دقيقة حول أوامر هتلر التى تحكم الاتجاه الاستراتيجى للقوات الألمانية، علاوة على قوتها وموقعها وحجم كل الوحدات الألمانية فى الجبهة الشرقية. والشئ الذى لا يمكن تصديقه هو أن روسلر قام بتزويد تقارير، وهى تقارير ربما أمكن الحصول عليها من مراكز القيادة فى وكالة الاستخبارات الألمانية مباشرة، حول ما كانت الاستخبارات الألمانية تقوم بإبلاغه إلى هتلر عن المواقع الروسية وحجم القوات والخطط العسكرية. وحين أخذ هذا كله بعين الاعتبار، يمكن القول إن هذا الأمر ارتقى إلى مرتبة انقلاب مثير فى الاستخبارات، ذلك أن الروس لم يكونوا يعلمون فقط عن القوة والخطط الدقيقة عند أعدائهم، وإنما أيضاً كانوا يعلمون عن مجال ودقة استخبارات الأعداء. ولم يحدث شئ من هذا القبيل أبداً من قبل، ولم يتكرر منذ ذلك الحين.

ومن خلال رغبتهم الشديدة فى جعل هذه الوزة الذهبية تواصل وضع البيض، لم يحاول الروس ممارسة الضغوط على روسلر لحمله على الكشف عن كيفية حصوله على مثل هذه المعلومات التى لا تصدق. وكما لاحظت وكالة الاستخبارات السوفييتية

«جى آر يو»، ففى بعض الأحيان كان روسلر يقوم بتزويد معلومات استخباراتية تكتيكية حيوية مثل الخطط الألمانية ومحاور الهجوم حتى قبل أن تتلقى الوحدات القتالية البرية الألمانية أوامرها ببدء مسيرة الزحف. والشئ المهم هنا هو أن روسلر كان دقيقاً على نحو ثابت، ذلك أنه كان يتجنب تضمين معلوماته الاستخباراتية بكلمات مثل «من المتوقع» أو «ربما». ولو كان روسلر قال إن فيلقاً معيناً من المدرعات الألمانية سوف يقوم بالهجوم فى الساعة السادسة صباحاً فى يوم معين وفى مكان معين، فإن الروس كانوا يعرفون أنهم يمكنهم المراهنة على أن فيلق الدبابات الألمانية سوف يقوم بالفعل بمثل هذا الهجوم. وقام روسلر أيضاً بتزويد أرقام تفصيلية عن الخسائر الألمانية الفعلية فى الرجال والمعدات (وهى أرقام مغايرة لما يكشف عنه علانية بالطبع).

ومع حلول أوائل ١٩٤٣، حينما بدأ تيار الحرب فى الجبهة الشرقية فى التحول إلى صالح السوفييت، والفضل الكبير فى ذلك يرجع إلى مصدرهم المحير فى سويسرا، بدأ روسلر فى تقديم تقارير عن الاستعدادات الألمانية السرية للقيام بآخر وأعظم لعبة بالنرد فى الجبهة الشرقية. ومع اقتراب الربيع، كشف عن بعض التفاصيل الأخرى: حالما يسمح الطقس، سوف يقوم الألمان بهجوم كبير فى الجبهة الجنوبية، بالقرب من بلدة كيرسك. ومن خلال حشد مئات الآلاف من الجنود والجزء الأعظم من المدرعات الألمانية، تقرر وضع خطة للضرب من بين الخطوط الروسية ثم القيام بعملية تطويق مزدوجة هائلة للقوات الروسية التى قوامها مليون جندى. وهذه العملية التى حملت الاسم الرمزى «زيتادل» فى حالة نجاحها، سوف تلحق هزيمة بالاتحاد السوفييتى لن يشفى منها أبداً. وعلاوة على ذلك، فمن شأنها استعادة الهيمنة العسكرية الألمانية بعد كارثة ستالينجراد.

وبتحذيرهم مسبقاً، فإن الروس قاموا باتخاذ الإجراءات الضرورية للدفاع فى مواجهة الهجوم الألمانى، وفى الوقت نفسه وضعوا خططاً لهجوم مضاد من شأنه تطويق المطوقين. وفيما يتعلق بالمفاهيم الاستخباراتية، فإن هذا أسلوب فى العمل محفوف بالأخطار، ذلك أن الأساس المنطقى الوحيد للاعتقاد بأن مثل هذا الهجوم الألمانى بات وشيكاً جاء من جاسوس واحد. ولكن إيمان موسكو فى لوسى كان فى

ذلك الوقت مطلقاً، وعلى ذلك الأساس قامر الروس بأنه على صواب.

وكما برهنت الأحداث، فإن روسلر، كالعادة، كان على صواب. وبدأ الهجوم الألمانى فى الزمان والمكان المعروفين، وبالنتيجة، كان الروس ينتظرون. ومن قبل كانوا أقاموا دفاعات إلى ٧٠ ميلاً فى العمق، وهى دفاعات كانت تعج بالمدافع المختفية المضادة للدبابات والمجموعات الصائدة للدبابات. وفى غضون أسبوعين، تمكن الروس من تحطيم الهجوم والقضاء على القوة العسكرية الهجومية الألمانية فى الجبهة الشرقية. ومنذ ذلك الحين، تحول الألمان إلى الدفاع، ولم يتمكنوا أبداً من الهجوم مرة أخرى. وفى حرب ضد عدو متفوق من حيث العدد، فإن ذلك كان يعنى هزيمة مؤكدة.

وكان انتصار الاستخبارات بالقرب من بلدة كيرسك آخر انتصارات روسلر، وبعد وقت قصير من بداية تقهقر الألمان، قام السويسريون فجأة بالتحرك ضد شبكات «الثلاثة الحمر» وإلقاء القبض على جميع العملاء والجواسيس النافعين. وتمكن رادو من تجنب الاعتقال من خلال الاختباء، بينما ترك روسلر، الذى كان يعتبر رسمياً جاسوساً نافعاً يعمل لحساب الاستخبارات السويسرية، وشأنه. ومع أن روسلر لم يعد يملك وسائل لإرسال معلوماته الاستخباراتية إلى موسكو، فإن الحقيقة هى أن خدماته لم تعد ضرورية. وفى واقع الأمر، فمنذ أن انقلب تيار الحرب فى الجبهة الشرقية على نحو لا رجعة فيه، فلم تعد هناك حاجة أخرى إلى «الثلاثة الحمر». ومن المثير للدهشة بدرجة كافية هو أن الشبكة حالما بدأت فى فقدان الكثير من أهميتها، قامت الاستخبارات السويسرية باختيار اللحظة المناسبة لإغلاقها. وكان الألمان، العارفون بوجود شبكة «الثلاثة الحمر» منذ فترة عن طريق أدواتهم الاعتراضية للإشارات اللاسلكية، مارسوا ضغطاً على السويسريين منذ أكثر من عام لإغلاق هذه الشبكة.

ومع هذا، فإن نهاية لوسى تركت اللغز العظيم بدون إجابة: كيف تمكن هذا الناشر الألمانى الخجول من جمع أشد الأسرار العسكرية الألمانية حيوية؟ وحينما سئل، قال روسلر: «لست أعرف مصادرى». ومع أنه ساد الظن على نطاق واسع أن هذا

القول كان يشكل إعتزام روسلر حماية شبكة من الخائنين الألمان الذين قاموا بتزويده بالمعلومات الاستخباراتية، فبعد انقضاء حوالى ٣٠ عاماً بدأت تظهر بعض الدلائل الحيوية التى تفيد أن روسلر كان صادقاً فى قوله.

والدليل الأول ظهر فى أكداس سجلات الاستخبارات الألمانية التى كشفت أن مراقبى الراديوهات الألمان راقبوا بدقة حركة الإشارات اللاسلكية من ألمانيا إلى سويسرا، المعروفة بأنها مكان العمليات الاستخباراتية الرئيسية لدول الحلفاء. ووفق هذه السجلات، وجد الألمان أنه ليست هناك حركة ألمانيا – سويسرا تقريباً، وإنما كان هناك فيضان حقيقى يتحرك من سويسرا إلى الناحية الشرقية. وشعر الألمان بالحيرة: من الواضح أن الشبكات فى سويسرا، التى تقوم بإرسال رسائلها على الهواء لمدة ٢٤ ساعة فى اليوم تقريباً، لديها الكثير من المعلومات الاستخباراتية. من أين جاءت بهذه المعلومات إذن؟

والدليل الآخر الأشد أهمية ظهر فى السبعينيات، حينما أصبحت التفاصيل الأولية عن عملية «أولترا» البريطانية لفك رموز الشيفرة معروفة على نحو علنى. ومن بين هذه التفاصيل هناك حقيقة مثيرة للانتباه: فى أوائل ١٩٤١، واستناداً إلى عمليات «أولترا» لفك رموز الشيفرة، قام البريطانيون بتحذير ستالين من أن هتلر يخطط لغزو الاتحاد السوفييتى. وهذا يعنى أن البريطانيين كانوا يقرأون حركة الرسائل اللاسلكية العسكرية رفيعة المستوى الألمانية فى ذلك الوقت. وبالإضافة إلى ذلك، فمن المعروف أن البريطانيين، من واقع شعورهم بالإحباط تجاه رفض ستالين تصديق معلوماتهم الاستخباراتية، شرعوا فى إيجاد وسيلة أخرى لنقل استخبارات «أولترا» إلى الاتحاد السوفييتى مع المحافظة على المصدر. وهذه المهمة قام بها كلود دانسى من جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، ومن خلال أنشطة دانسى وارتباطاته جاء لوسى إلى حيز الوجود.

ومهما كانت الأسئلة التى ربما ما زالت موسكو تريد إجابة عليها حول روسلر، فإن مثل هذه الأسئلة أصبحت بلا مبرر يوجبها فى ١٩٤٦ بسبب لوسى نفسه. وخلال

الحرب كان روسلر يتقاضى حوالى ٨٠٠ دولار فى الشهر من الروس مقابل خدماته، وهو مبلغ كبير فى الأربعينيات. ووضع روسلر كل سنت فى دار النشر، ولكن مع نهاية الحرب، تعرض مشروع دار النشر إلى الفشل. وتحدث روسلر إلى كارل سيدلاشيك، العميل التشيكى المحنك الذى يعمل لحساب الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين. ووقع سيدلاشيك مع روسلر عقداً لجمع المعلومات الاستخبارانية عن المواقع العسكرية الأمريكية فى ألمانيا، وانتظر وصول المعلومات الاستخباراتية الرائعة التى كان لوسى يقدمها إلى وكالة الاستخبارات السوفييتية «جى آر يو».

ولكن، لم تكن هناك مثل هذه المعلومات الاستخباراتية، ذلك أن تلك المصادر رفيعة المستوى التى جعلت لوسى يوماً ما أسطورة التجسس إختفت على ما يبدو.

ومن موقعه فى سويسرا، فإن أفضل ما يمكن أن يفعل روسلر هو جمع معلومات استخباراتية متدنية الدرجة جداً، وهى معلومات اعتبرها التشيكوسلوفاكيون معلومات غير مثيرة للاهتمام. ومع هذا، فهم أبقوا عليه براتب شهرى ٤٠٠ دولار، على أمل حصولهم على معلومات استخباراتية أفضل.

ولكن المعلومات الاستخباراتية الأفضل لم تأت. وفى ١٩٥٢، جرى إلقاء القبض عليه، ذلك أنه كان يرسل معلوماته الاستخباراتية إلى التشيك عن طريق ميكروفيلم موضوع فى طرد بريدى يحتوى على مواد غذائية ومعنون إلى صندوق بريد دوسلدورف. وذات يوم، قام مكتب البريد بفتح طرد بريدى بسبب خطأ فى كتابة العنوان، وتبين أن هناك ميكروفيلماً موضوعاً فى مرطبان العسل. وبعد إلقاء القبض عليه فى سويسرا، صدر حكم متساهل على روسلر بالسجن لمدة عام على أساس أنه لم يرتكب عملاً تجسسياً ضد سويسرا. (ومن المفيد القول هنا أن هوسمان، صديقه القديم، تدخل بهدوء وقال كلمة طيبة إلى السلطات السويسرية). وخلال محاكمته، أصر روسلر على القول إنه لم يكن الجاسوس السوبر مثلها صورته أجهزة الإعلام. واعترف روسلر بتمرير معلومات استخباراتية إلى السوفييت خلال الحرب فى سبيل المساعدة فى هزيمة ألمانيا النازية، ولكنه كرر القول : «لست أعرف مصادرى».

وفى نظر الروس، فإن هذه السلسلة من الظروف شكلت دليلاً نهائياً على أن روسلر عمل كقناة للبريطانيين. ومن الواضح أن هذه «المصادر رفيعة المستوى» الملفقة، مثل وولتر وإنجى لم تكن موجودة، وروسلر نفسه رفض إلقاء أى ضوء على هذه المسألة، وحتى موته بالسرطان فى ١٩٦٢ كان يفضل البقاء لغزاً محيراً. واستمر فى نشر بحوث دينية كثيفة، غير أن أياً من هذه البحوث لم يقدم دليلاً واحداً على دوافعه الخاصة به، باستثناء تركيزه الشديد فى كل أعماله على مسألة الخير والشر. ومن الواضح أن لوسى اعتبر نفسه خبيراً فى هذه المسألة.

فيتالى يورشينكو

الجاسوس الذي غير رأيه

الاسم الرمزى : اليكس

الاسم المستعار : روبرت رودمان

١٩٣٥ -

فى صباح ٢٢ يونيو ١٩٨٥ توقفت مجموعة من الدبلوماسيين السوفييت، كانوا فى جولة مشياً على الأقدام حول روما، لتناول المرطبات. وأعلن أحد الدبلوماسيين، وهو رجل فى الخمسين من العمر له شارب كبير يدعى فيتالى يورشينكو أنه ينوى الانسحاب من المجموعة لفترة قصيرة. وقال لهم : «سوف أنضم إليكم فى وقت لاحق فى السفارة، وأريد الآن زيارة المتاحف فى الفاتيكان».

ولكن يورشينكو لم يكن ينوى رؤية روائع مايكل أنجلو، واتجه مباشرة إلى السفارة الأمريكية، وطلب رؤية ضباط الأمن، وأبلغه أنه يريد الارتداد إلى الولايات المتحدة. وفى نظر عميل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» فى السفارة الأمريكية فى روما، فلم يكن فى الضرورى بالنسبة إلى السكرتير الثانى يورشينكو أن يقدم نفسه، والسبب فى ذلك هو أنه فهم على الفور أنه اصطاد سمكة كبيرة جداً بالفعل: الكولونيل فيتالى يورشينكو، ضابط كبير فى المديرية الأولى التابعة

إلى لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».

وفى معرض الحديث عن خلفيته، فإن يورشينكو هو ذلك المرتد الذى يحلم به جميع ضباط مكافحة التجسس. وهو أحد النجوم اللامعين فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وكان يورشينكو بدأ عمله فى البحرية السوفييتية إلى إنضم إليها فى ١٩٥٥ . وكان برهن على درجة عالية من الذكاء الحاد والتفكير المبدع أثارت أنتباه القائمين على التجنيد فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» الذين يبحثون دائماً عن الرجال العسكريين اللامعين، وفى ١٩٥٩ انضم إلى الجهاز. وأظهر استعداداً للعمل فى مكافحة التجسس، ومع حلول ١٩٦١ أصبح الضابط المسؤول عن العمليات فى وحدات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى الأسطول السوفييتى فى البحر الأسود. مع الاهتمام على نحو خاص بحماية السفن الحربية المتطورة من وكالات الاستخبارات الغربية المتطفلة. وفى ١٩٦٨ انتقل إلى العمليات الاستخباراتية الخارجية، وذهب فى مهمة إلى الاسكندرية فى مصر تحت غطاء مستشار بحرى سوفييتى لدى البحرية المصرية. وكانت مهمته الحقيقية جمع المعلومات الاستخباراتية عن البحرية الأمريكية والسفن الحربية الغربية الأخرى فى البحر الأبيض المتوسط.

وكانت مهمته الكبرى التالية، فى ١٩٧٥، هى التى لفتت انتباه الاستخبارات الأمريكية. وظهر فى السفارة السوفييتية فى واشنطن، وهى المحطة الأهم فى نظر جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، كضابط الأمن فى السفارة. وحين ترجمة هذا كله، فإن ذلك يعنى أنه كان مسؤولاً عن مراقبة كل المعلومات الاستخباراتية والأشخاص الدبلوماسيين فى السفارة. وفى الوقت نفسه منع أية عمليات تغلغل من جانب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» أو مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف.بى.آى». وهذه المهمة وضعته ضمن الفئة الرئيسية فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».، وبذلت كل من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» ومكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى آى» بعض الجهود لدراسة هذا الخصم.

والاستنتاج الأول الذى توصل إليه الأمريكيون هو أن يورشينكو كان خبيراً من الطراز الأول فى مكافحة التجسس فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وهو رجل صارم وحاد الذهن وذو قدرة عقلية فائقة، ويتميز بقدر كبير من الجاذبية الشخصية. ولكن هذا المظهر الخارجى، كما اكتشف الأمريكيون، كان يخفى وراءه رجلاً يعيش حالة من الاضطراب الداخلى، وهى مشكلة عامة تصيب عدداً معيناً من الرجال: يورشينكو، رجل متزوج وله طفلان، كان يحب امرأة أخرى. وما زاد الوضع تعقيداً هو أن موضوع عواطفه كانت متزوجة من دبلوماسى سوفييتى.

وهذا وضع مثير للانتباه جداً، ومحفوف بالأخطار أيضاً: وفق قواعد جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وحتى بالنسبة إلى نجم مثل يورشينكو، فإن مثل هذه العلاقة ممنوعة، وعلى الأخص إذا كانت تتصل بزوجة دبلوماسى سوفييتى. وما عمل على جعل الوضع أشد صعوبة هو حقيقة أن المرأة كانت تعيش فى مونتريال فى كندا، حيث كان يعمل زوجها. وكانت زيارات يورشينكو العديدة إلى مونتريال، وهى زيارات كانت فى بادئ الأمر موضع شبهة عند مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى أى» كجزء من عملية استخبارات هائلة عبر الحدود، عادية جداً، ولكنها أثارت سؤالاً مثيراً للانتباه: هل يمكن أن يكون يورشينكو فكر فى الارتداد مع حبيبته إلى حياة جديدة فى الولايات المتحدة؟

وقبل أن يتمكن أى واحد فى مجموعة الاستخبارات الأمريكية من معرفة كيفية ترتيب مثل هذا الارتداد، ظهر يورشينكو نفسه على درجة الباب الخارجى الأمريكى. وكما توقعت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، فإن الخطوة الأولى بعد الارتداد تمثلت فى طلبه القيام بزيارة إلى كندا. ومن خلال مرافقة مجموعة مختارة من رجال الأمن فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، وصل الجاسوس الذى أصبح يحمل الاسم الرمزى أليكس ويسافر تحت هوية أمريكية جديدة باسم روبرت رودمان إلى مونتريال من أجل لقاء حبيبته فى مكان وزمان قامت بترتيبهما وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه». ولم يكن ذلك لقاءاً عادياً، ذلك أن يورشينكو - رودمان نقل إليها خبراً بأنه ارتد إلى وكالة

الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، ويريد منها الآن أن تترك زوجها وتبدأ حياة جديدة مع يورشينكو فى أمريكا. ولكن ما أصاب يورشينكو بالصدمة هو أنها أعلنت عن استعدادها لمواصلة العلاقة، ولكنها لا تنوى ترك زوجها. وفيما يتعلق بفكرة الارتداد والانضمام إليه فى الولايات المتحدة، قالت له صراحة إنه مجنون.

وهذه الأخبار وضعت يورشينكو فى شئ من اضطراب فكرى، كما ألقت ظلالاً من الكآبة على المرحلة التالية فى حياته، التى ينبغى عليه فيها الجلوس لمدة ساعات وأيام للتحقيق معه وتفريغ رأسه من المعلومات من جانب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه». وفى ذلك الدور، وعلى الرغم من اضطرابه الشخصى الواضح، فإن يورشينكو كان قادراً على معالجة الموضوعات المثيرة. وحين أخذ موقعه بعين الاعتبار، فإن يورشينكو لم يكن يعرف فقط كل عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». المستمرة فى الولايات المتحدة، وإنما كان يعرف أيضاً أشياء كثيرة عن كل عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» الأخرى.

وكما عرفت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، فما كان يمكنها أن تأمل بارتداد مصدر يتمتع بمنزلة رفيعة داخل جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». مثل يورشينكو. وفى ١٩٨٠ كان يورشينكو أنهى جولة فى واشنطن استغرقت خمس سنوات، وجرت ترقيته إلى منصب رئيس الدائرة «كى» (مكافحة التجسس) التابعة للمديرية الرئيسية الأولى، وهى الدائرة الأهم فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». التى تعالج العمليات الاستخباراتية الخارجية. ومع حلول أوائل ١٩٨٥، أصبح نائباً لرئيس الدائرة الأولى (الولايات المتحدة وكندا) فى المديرية الرئيسية الأولى، ومن خلال ذلك المنصب، لم يكن يعرف فقط هويات جميع عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» التابعين للسفارة السوفيتية، وإنما كان يعرف أيضاً هويات جواسيسهم النافعين. وفى تلك المجموعة الأخيرة، كشف يورشينكو عن اسمين، الأمر الذين أدى إلى حدوث صدمة شديدة فى كل أنحاء المؤسسة الاستخباراتية والعسكرية.

وكانت الصدمة الأشد هى قيام يورشينكو بالكشف عن أن وكالة الأمن القومى (إن إس إيه)، وهى الدائرة الأشد سرية فى امبراطورية الاستخبارات الأمريكية، أمكن التغلغل إليها من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». عن طريق تجنيد موظف سابق. وفى الحقيقة، كما قال يورشينكو، فلم يكن ذلك تجنيداً فعلياً، ذلك أن هذا الموظف السابق قام بالاتصال مع جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى السفارة السوفييتية فى واشنطن فى يناير ١٩٨٠، وعرض بيع كل ما كان يعرف. واتضح أن هذا الموظف السابق، رونالد بيلتون، كان يعرف أشياء كثيرة عن وكالة الأمن القومى، التى تعالج كل مسائل حل رموز الشيفرة الأمريكية وعمليات الاعتراض الالكترونية الخارجية. وخلال الخمس سنوات اللاحقة حتى قيام يوروشينكو بالكشف عنه، تمكن بيلتون على نحو فردى من تحطيم كل عمليات وكالة الأمن القومى المتعلقة بالاتحاد السوفييتى، كما كشف للمعنيين فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». بالضبط عن ما كانت وكالة الأمن القومى تعرف عن أنظمة الاشارات والشيفرة السوفييتية وماهية التكنولوجيا التى كانت وكالة الأمن القومى تستخدمها فى اكتشاف تلك الإشارات، ومدى النجاح الأمريكى فى حل رموز الشيفرة السوفييتية.

وكان الكشف التالى أدى إلى حدوث صدمة أشد وأعظم: عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» فى الاتحاد السوفييتى كانت توقفت عن العمل بعد اكتشاف أمرها. والجاسوس النافع الذى عمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى هذه الحالة هو إدوارد هوارد. وكان هوارد، فى ١٩٨٣، فى أعقاب التدريب على العمل فى محطة موسكو التابعة للوكالة، حرم من فرصة التعيين حينما أظهر مكشاف الكذب فى الوكالة دلائل عن تعاطى المخدرات وعمليات سرقة. وبعد طرده من الوكالة مباشرة، اتصل هوارد مع السفارة السوفييتية وعرض بيع أسرار عن عمليات وكالة الاستخبارات الأمريكية «سى آى إيه» فى الاتحاد السوفييتى. واتضح أن معلوماته كانت تلحق ضرراً كبيراً بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية: على الأقل جرى إلقاء القبض على ستة جواسيس نافعين، وتوقفت كل عمليات الوكالة بالفعل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هوارد كشف للسوفييت عن أسماء

جميع عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية سى آى إيه، العاملين تحت غطاء دبلوماسى فى السفارة الأمريكية.

وأدت محاولات يورشينكو الكشف عن الأسماء فيما يخص بيلتون وهوارد إلى القضاء، فى خبطة واحدة، على اثنين من أهم الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى الولايات المتحدة. وخلال الأسابيع القليلة التالية من التحقيق معه، تسبب يورشينكو أيضاً فى حدوث أضرار أخرى، ذلك أنه كشف أن هانزتيدج، رئيس وكالة مكافحة التجسس الألمانية الغربية «بى إف فى» كان جاسوساً يعمل فى الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» منذ فترة طويلة، هذا بالإضافة إلى ثلاثة من المسؤولين الآخرين فى حكومة ألمانيا الغربية (جميعهم هربوا إلى ألمانيا الشرقية فى اللحظة التى عرفوا فيها أن يورشينكو ارتد إلى الولايات المتحدة).

وأثارت تلك القائمة المتزايدة من الأضرار الشديدة التى أصابت جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» هذا السؤال: لماذا فعل يورشينكو هذا كله؟ هذا السؤال لن تتم الإجابة عليه بصورة مرضية. وفى نظر المعنيين الأمريكيين، فإن يورشينكو لم يتحدث أبداً عن الدافعين الكلاسيكيين للارتداد: الشعور بالكراهية تجاه النظام السياسى فى بلده، والشعور بالإحباط تجاه الطموحات المهنية. ويورشينكو كان شيوعياً بالاسم، ولم يبرهن على أية قناعات سياسية عميقة، وباختصار، فهو كان رجلاً غير سياسى. ومن المؤكد أنه لم يكن يعانى من مشاكل مهنية فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».، ذلك أنه حصل على مناصب رفيعة من قبل، واكتفى بالوعود بالتكريم والجوائز التقديرية. وفيما يتعلق بالصراع فى الحرب الباردة، فإن يورشينكو بدا كأنه يعتبر هذا كله مجرد لعبة. ويورشينكو تحدث بشئ من السخرية إلى المعنيين باستجوابه فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» عن إحدى عمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى واشنطن، وهى عملية «الزاحفين إلى الملاهى الليلية»، وذلك حينما قام عملاء الجهاز بالزحف إلى الملاهى الليلية والحانات لتجنيد موظفى الحكومة الأمريكية الذين كانوا مولعين جداً بالخمور

والمخدرات والجنس.

وأدى الافتقار إلى الدافع الحقيقى للارتداد إلى جعل مجموعة واحدة على الأقل من المسئولين فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» يميلون إلى الاعتقاد أن يورشينكو خدعة سوفييتية تستهدف التغلغل إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه». وفسرت هذه المجموعة ما كشف عنه يورشينكو من خلال القول إن هؤلاء جميعاً ربما كانوا «أشخاصاً منبوذين»، أشخاصاً من الجواسيس النافعين الذين أصبح من الممكن الاستغناء عن خدماتهم فى مرحلة معينة. والمشكلة فى هذا القول، بالطبع، هى أنه لا يشرح الأسباب التى جعلت جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يتقبل خسارة الكثيرين من جواسيسه النافعين العظماء لمجرد تعزيز مهمة يورشينكو القائمة على الأمل باحتمالات انضمامه إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» ووصوله إلى الاستخبارات الأمريكية رفيعة الدرجة.

وكانت النظرية الأكثر احتمالاً هى أن يورشينكو، الممزق عاطفياً بسبب مسألة حبه لزوجة الدبلوماسى، اتخذ قراراً مرتجلاً وسريعاً، ولا يهم هنا إن كان قراراً سخيفاً، بإمكانية هروبه مع حبيبته من حياتهما الزوجية الصعبة وبدء حياة جديدة فى أمريكا.

ومهما كانت الدوافع الحقيقية عند يورشينكو فإن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» شرعت فى تعقيد الأشياء أكثر من ذلك من خلال سلسلة من الأخطاء الفادحة. وربما كانت الغلطة الكبرى هى قرار مدير وكالة الاستخبارات المركزية «سى آى إيه» وقتئذٍ، وليام كيسى، بتعزيز الصورة الضعيفة للوكالة، فى أعقاب فضيحة إيران – كونترا، من خلال تسريب كلمة عن ارتداد يورشينكو. وشعر يورشينكو بالخوف، كما أن الاجتماع اللاحق مع كيسى نفسه لم يساعد فى شئ. ومن واقع ما عرف عنه من تحدثه بلهجة أهالى الجزء الغربى من نيويورك التى يتعذر فك رموزها عند غير المولودين فى هذه المنطقة، فإن كيسى أرهب يورشينكو، الذى كان يتقن الإنجليزية. ثم إن يورشينكو خرج من مكتب كيسى وهو يسمع كلمات قاسية معادية للشيوعية.

وما عمل على زيادة الأشياء تعقيداً هو أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، المعروفة بافتقارها إلى البراعة فى معالجة قضايا المرتدين عن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، أساءت معالجة قضية يورشينكو. وكان بعض عملائها بدأوا فى التعطف عليه، بينما سخر آخرون صراحة من حبه لزوجة الدبلوماسى فى كندا. وأثناء قضاء وقته فى بيت آمن فى فيرجينيا، شعر يورشينكو بانزعاج آخر حينما رأى اسمه منقولاً على شاشة التليفزيون فى تقارير الأخبار. وفى بعض الأوقات، كان يقاطع محدثه بسرعة وحدة. وفى ليلة ٢ نوفمبر ١٩٨٥، أثناء وجوده فى مطعم فى واشنطن لتناول الغداء مع اثنين من المرافقين التابعين لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» قاطع يورشينكو محدثه بسؤاله عن ما يمكن أن تفعل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» لو أنه نهض ببساطة وغادر المطعم. وحينما قال أحد العميلين إنه لا يعرف، نهض يورشينكو، وخرج من غير قصد من المطعم، ومشى فى الشارع إلى مسافة قصيرة، ودخل إلى مبنى السفارة السوفييتية.

وما حدث بعد ذلك كان يشكل ما يمكن اعتباره بلا شك مسرحية التجسس الأغرب فى تاريخ التجسس كله فى الحرب الباردة. وبعد يومين من عودته، عقدت السفارة السوفييتية مؤتمراً صحفياً، وكان يورشينكو نجم المؤتمر. وزعم أنه تعرض للاختطاف والتخدير بمخدر من جانب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، وإجباره على الإدلاء ببيانات حول جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وقال إنه تمكن أخيراً من «الهروب» من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه».

وبعد عودته إلى موسكو، بدا يورشينكو كأنه يقضى وقتاً رائعاً. وعلى الرغم من قيام وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» بتسريب معلومات إلى الصحافة حول إعدامه بمجرد عودته إلى الاتحاد السوفييتى، فهو ما زال على قيد الحياة، ويجرى مقابلات صحفية مع المراسلين حول «غباء» وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه». وفيما يتعلق بأمر بيلتون وهوارد، فهو زعم أنه لا

يعرف شيئاً عنهما، أو عن أى جاسوس نافع آخر يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». كشف عن اسمه.

وفى ظل ذلك الوجود الحر الواضح الذى يتمتع به يورشينكو فى موسكو، ما هى الحقيقة، إذن، وراء ظهوره فى السفارة الأمريكية فى روما قبل بضعة شهور؟ يورشينكو وحده يعرف فى الحقيقة إن كان مرتداً حقيقياً، ولكن الدلائل الملازمة للأحداث تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى أنه لم يكن خدعة مدروسة من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».. وفيما يتعلق بنفيه الأخير أنه أعطى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» معلومات استخباراتية هامة، فإن هذا النفى يأتى متناقضاً مع الدلائل المتاحة. وسواء كانت خدعة أو أى شئ آخر، فالحقيقة الباقية هى أن يورشينكو ألحق ضرراً بالغاً بعمليات جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». ولا ريب فى أن الكشف عن أسماء أكثر من عشرة أشخاص من أهم الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». يشكل كارثة استخباراتية من الدرجة الأولى.

وفى هذه الأيام، فإن يورشينكو، الذى ما زال على ما يبدو يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» أصبح مشهوراً داخل الجهاز بانطباعاته الذهنية الخاصة به عن وليام كيسى فى أنه رجل يتمتم أثناء الحديث. ولكن المسؤولين فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». يقسمون بأنه رجل مرح.

نيكولاى أرتامانوف

العميل المزدوج الذى لم يكن

الاسم المستعار : نيكولاس شادرين

١٩٣٦ - ١٩٧٥ (؟)

بالنسبة إلى المسافرين بحراً على امتداد الساحل السويدى الذين يعربون عن احترامهم الشديد لتقلبات وضراوة بحر البلطيق، فإن هذا العمل البطولى كان عملاً استثنائياً. ومن خلال إبحارهما مع بوصلة فقط، تمكن هذا الرجل وزوجته بطريقة ما من قيادة قارب صغير فى بحر هائج عبر البلطيق من بولندا إلى السويد.

وكانت رحلة الكابتن البحرى السوفييتى نيكولاى أرتامانوف وزوجته البولندية إيفا فى يونيو ١٩٥٩ موضوع حديث السويد لبضعه شهور. ومن واقع تحدرهم من سلاسه الفايكنج وتمجيدهم للأعمال البطولية البحرية، فإن السويديون أعربوا عن إعجابهم الشديد تجاه كيفية قيام أرتامانوف، الذى عقد العزم على الهروب من النظام القمعى واللجوء إلى الحرب فى الغرب، بتدبير حصوله على قارب، ثم قيادته إلى السويد على بعد مئات الأميال، متجنباً قوارب الدورية البولندية والسوفييتية.

وحين إبلاغها عن ارتداد أرتامانوف، أعربت السلطات الأمريكية عن اهتمامها بالسماح له بدخول الولايات المتحدة. وتركز اهتمام الأمريكيين على ما يمكن أن يبلغهم عنه أرتامانوف حول البحرية السوفييتية، التى كانت تجتاز مرحلة من البناء

على نطاق واسع .وهكذا، نقل أرتامانوف إلى واشنطن، ومنح هوية جديدة تحت اسم نيكولاى شادرين، وعين كمستشار لدى مكتب الاستخبارات البحرية (أو إن آى) لملء فراغات الوكالة بشأن التكنولوجيا والتكتيكات البحرية السوفييتية.

وفى ظواهر الأمور، فإن هذا كله بدا كأنه مسألة إرتداد عادية جداً ذات معانى استخباراتية متواضعة فى حرب باردة.. ولكن فى النهاية تطور إلى لغز استخباراتى على نحو معقد وغير عادى. وحتى بعد مضى بضعة عقود، ظهر جزء فقط من الحقيقة الكاملة، وربما لن يكون الجزء الباقى معروفاً.

ومع حلول ١٩٦٠، حينما استقر أرتامانوف فى الولايات المتحدة، وأصبح مشغولاً فى العمل مع مكتب الاستخبارات البحرية، بدأت تلك الضجة القصيرة المصاحبة للاهتمام العالمى بموضوع هروبه إلى الحرية فى الخمود. وبدا المواطن الأمريكى الجديد الذى يدعى نيكولاى شادرين كأى موظف حكومى آخر يذهب إلى مكان عمله من بيته المتواضع فى ميريلاند. وفى غضون ذلك، عكفت زوجته على الدراسة لتأهيل نفسها للحصول على ترخيص كطبيبة أسنان أمريكية. ولكن كانت هناك جهتان تبديان اهتماماً بأمر هذا الرجل.

فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، كان هناك البعض فى قسم مكافحة التجسس فى الوكالة الذين يبدون اهتماماً بموضوع نيكولاى أرتامانوف. ومن واقع شعورهم بالقلق تجاه تغلغل سوفييتى فى الاستخبارات الأمريكية، فإنهم كانوا يميلون إلى الشك المستمر فى أمر هذا الكابتن البحرى السوفييتى. وفى نظر هؤلاء الأشخاص النزاعين إلى الشك، فإن هروب شادرين المفاجئ عبر البلطيق يأتى مغايراً للصورة التى بدا عليها، ذلك أنهم راجعوا وأعادوا مراجعة الطريق، ثم عادوا من حيث جاءوا حتى اقتنعوا أن حكاية شادرين مجرد كذبة. وبدأ هؤلاء الأشخاص فى الظن أن شادرين فى الحقيقة جاسوس مزروع، غير أن الهدف فى ذلك الوقت كان غامضاً. وكما تكهن البعض، فربما كان جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» عقد الأمل على إمكانية ارتفاع شادرين إلى مستوى رفيع داخل مكتب الاستخبارات

البحرية (أو إن أى) ، إلى منصب بحيث يمكنه تقديم بعض المعلومات الاستخباراتية رفيعة الدرجة.

ومن ناحية أخرى ، فإن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» أيضاً كان يبدى اهتماماً متزايداً بموضوع شادرين. والسبب فى ذلك الاهتمام غير معروف، ولكن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» أمر عملاءه فى الولايات المتحدة بالبحث عن مكانة، تحت أية هوية جديدة يعيش، ولصالح أية وكالة حكومية يعمل.

ولم يتم اتخاذ أية خطوة واضحة حتى يونيو ١٩٦٦ ، حينما وقعت حادثة محيرة، ذلك أن مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية «سى آى إيه» وقتئذٍ، ريتشارد هولمز، بينما كان يلعب الجولف فى صباح الأحد فى أحد الأندية فى واشنطن، تلقى مكالمة تليفونية من رجل يدعى إيجور كوشنوف، الذى قال إنه أراد مقابلة المسؤولين فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» لمناقشة «مسألة هامة جداً». وكان كوشنوف شخصية معروفة لدى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»: فى ذلك الوقت كان ضابطاً كبيراً فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، وموجوداً تحت غطاء دبلوماسى فى السفارة السوفييتية. وكان رئيس مكافحة التجسس فى محطة جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى السفارة، ومخصصاً، لمهمة مراقبة عمليات التغلغل من جانب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» ومكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى آى»، ولكن هذا جزء فقط من خلفيته المثيرة للانتباه. وهو أيضاً زوج ابنة يازكترنينا فورتزيفا، وزيرة الثقافة السوفييتية، وواحدة من أقوى الشخصيات فى السلطة السياسية السوفييتية برمتها (وهى زوجة نيكيتا خروشوف). وبالإضافة إلى ذلك، فإن والد زوجته كان صديقاً مقرباً من يورى أندرويوف، الرئيس المرتقب لجهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى».

وجملة القول، فربما كان الهدف من مكالمة كوشنوف التليفونية الغريبة إلى هولمز هو أن هذه الشخصية المثيرة للانتباه وعد برد الخدمة لو أمكن تجنيده فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه». وفى اجتماع لاحق مع كبار

العملاء فى الوكالة، عرض كوشنوف خدماته من خلال صفقة غريبة. وفى حقيقة الأمر، فإن كوشنوف عرض أن يكون مصدر وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» فى حصولها على المعلومات الاستخباراتية حول تغلغل جهاز الاستخبارات السوفيتى «كى جى بى» فى الوكالة. وقال إنه عهدت إليه من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» مهمة البحث عن شادرين وتحويله إلى عميل مزدوج. وقال كوشنوف إن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» لو ساعدته فى هذه المهمة، فإن منزلته عندئذ سوف تتعزز فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، الأمر الذى يسمح له بالوصول على نحو أفضل إلى نوعية المعلومات الاستخباراتية التى يمكن تمريرها إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه».

وحين إلقاء نظرة شمولية إلى هذا الأمر، فإن هذا بدا عرضاً غريباً، ولكن بعد مناقشة داخلية شاقة، جادل خلالها بعض المسؤولين فى الوكالة بأن كوشنوف يقوم بتدبير خدعة سوفييتية على نحو لا يرقى إليه الشك، تقرر أن تقبل وكالة الاستخبارات الأمريكية «سى آى إيه» العرض. وبناء عليه، جرت مفاتحة شادرين ودعوته إلى تقديم خدماته متطوعاً كعميل مزدوج زائف. وفى وقت لاحق، قام عميل من جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بمفاتحته فى الأمر.

ومن خلال إعطائه معلومات استخباراتية متدنية الدرجة (وهو ما يعرف بمفهوم «تلقيم الدجاجة» فى تجارة التجسس) كمحاولة لجعل اهتمام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» قائماً، قام شادرين بدورة كمرتد سوفييتى أصبح متخلصاً من أوهامه تجاه الولايات المتحدة، ومستعداً الآن لتقديم العون إلى الوطن الأم، على أمل العودة. وكوشنوف، فى غضون ذلك، من خلال عمله تحت الاسم الرمزى الجديد «كيتى كوك» الذى اختارته له الوكالة، بدأ فى تلقيم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» بمعلومات استخباراتية متدنية الدرجة أيضاً. وفى أكتوبر ١٩٦٦، انتهت مهمة كوشنوف فى الولايات المتحدة، وعاد إلى موسكو، حيث جرت ترقيته واختياره لمهمة خاصة فى وكالة الذرية الدولية، وهى مرافقة (وهو ما يعنى

أيضاً مراقبة شديدة) المبعوثين السوفييت. وخلال السنوات اللاحقة، كانت هناك فقط اتصالات فترية قصيرة وسريعة بين «كيتى هوك» وعملاء الاستخبارات الأمريكية فى موسكو.

واستمرت هذه الرقصة البطيئة الاستخباراتية طوال ١٩٧١، حينما قام جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» بإرسال شادرين إلى تشيكوسلوفاكيا لتلقى تدريبات خاصة فى عملية تشغيل أجهزة اتصالات للتجسس عالية التكنولوجيا. وبدت الجهود المتعاظمة من جانب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» المرتبطة مع شادرين كأنها تشير إلى ثقة وكالات الاستخبارت المركزية الأمريكية «سى آى إيه» الكاملة بصدق السوفييت. وهذه الثقة تعززت على نحو أفضل فى ١٩٧٥، حينما طلب جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» مع شادرين الذهاب إلى فيينا للمشاركة فى اجتماع رفيع المستوى مع كبار المسؤولين فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى». وكانت فيينا، وهى نقطة الارتكاز للتجسس بين الشرق والغرب، بمثابة المكان المفضل عند جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» لعقد اجتماعاته الأهم مع كبار جواسيسه النافعين الغربيين. ومن جانبها، فإن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه»، إحساساً منها بإمكانية حدوث تقدم مفاجئ، وافقت على خطة ذهاب شادرين إلى فيينا.

وفى ١٧ ديسمبر، وصل شادرين بصحبة زوجته، إلى فيينا. وفى اليوم التالى، اجتمع مع اثنين من كبار الضباط فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى»، اللذين قالا له إن هناك اجتماعاً «هاماً جداً» سوف يشارك فيه مسؤولون كبار من جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى العشرين من الشهر. وتحسباً منها لاحتمالات قيام فريق مكافحة التجسس فى جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» باكتشاف أية محاولة من جانبها لمراقبة الاجتماع (وهذا من شأنه إظهار مدى خضوع شادرين لمراقبتها)، قررت الوكالة إرسال شادرين لحضور الاجتماع منفرداً. وفى ليلة ٢٠ ديسمبر التقى شادرين مع اثنين من عملاء جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» أمام إحدى الكنائس. وركب الثلاثة سيارة سوداء. ومضت الساعات، بدون أية

كلمة من شادرين. وجلست زوجته بالقرب من التليفون فى غرفة الفندق، منتظرة المكالمة التى وعد بها زوجها بمجرد الانتهاء من هذا «الشغل البسيط».

وبعد مضى ٢٤ ساعة، أصبحت زوجة شادرين مريضة وعصبية المزاج. وجاءت امرأة عميلة من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» للبقاء معها، غير أن محاولات تهدئة الزوجة كانت عديمة الجدوى. وبعد أربعة أيام، أصبح من الواضح أن شادرين، أينما كان، لن يعود. إنه اختفى عن وجه الأرض.

ولم تكن هناك نهاية للآراء حول ما حدث بالضبط. وجادلت فئة فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» بأن شادرين كان خدعة سوفييتية طوال الوقت، ثم عاد إلى موسكو بعد انتهاء اللعبة. وجادلت فئة أخرى بأن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» اكتشف بطريقة ما دور شادرين كعميل مزدوج، ثم قام باختطافه وإرساله إلى الاتحاد السوفييتى. ولم يقدم «كيتى هوك» أى عون، وزعم أنه أجرى الترتيبات للاجتماع فقط، كما زعم أنه لا يعرف شيئاً عن ما حدث بعد ذلك.

ولكن هذا تغير فى ١٩٨٥، حينما ارتد فيتالى يورشينكو. ومن بين الأشياء الأولى التى كشف عنها إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» كان مصير نيكولاس شادرين. ووفق قول يورشينكو، فإن خطة جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» قامت على تخدير شادرين وإرساله إلى موسكو، ولكن أحد العملاء المعنيين بالعملية حقنه بجرعة كبيرة من المخدر القاتل، ومات شادرين فى الحال.

وفى ٢٧ أكتوبر ١٩٨٥، ظهر اثنان من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى آى» أمام باب بيت زوجة شادرين، ونقلا إليها أن زوجها، المفقود منذ عشر سنوات، بات فى حكم المؤكد أنه ميت «بما لا يدع مجالاً للشك». ولكن كان هناك الكثير من الشك باقياً. وبعد ثلاث سنوات من هذا الرأى الذى يفترض أنه النهائى، قام مصدر سوفييتى بإبلاغ وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» أن شادرين مازال حياً، ذلك أنه شوهد أثناء تشييع جنازة الأدميرال سيرجى جورشكوف، رئيس البحرية

الروسية.

إذن هل كان ارتداد أرتامانوف - شادرين نوعاً من عملية مدروسة قام بها جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» من أجل زرع مصدر فى الاستخبارات الأمريكية وتضليل الأمريكيين فيما يتصل بالقدرات البحرية السوفييتية؟ وهل كان مصدر وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» على خطأ فيما يتعلق بمشاهدة شادرين بعد ثلاث سنوات من موته المفترض؟ وهل كان يورشينكو على خطأ (أو ربما قام بتمرير معلومات مضللة سوفييتية) حينما تحدث عن مصير شادرين؟ وهل كان إيجور كوشنوف، «كيتى هوك» خدعة سوفييتية؟

وفى الوقت الحاضر، ليس هناك حل ممكن لهذه الألغاز الباقية، ذلك أنها تشكل فى مجموعها نتيجة كلاسيكية لمفهوم «تعدد المرايا» فى عمليات استخباراتية معينة، حيث تصبح كل الخطوط الفاصلة بين الحقيقة والكذب متعذرة الوضوح. ومع هذا، فهناك شئ واحد يبقى واضحاً: قضية شادرين جعلت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» تقلع عن فكرة مشاركة جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» فى ممارسة لعبة العميل المزدوج والثلاثى المعقدة الموجودة فى الروايات البوليسية. ولا شك فى أن جهاز الاستخبارات السوفييتى «كى جى بى» يعمل فى عالم مختلف تماماً، حيث فكرة التضحية بالأشخاص، شادرين مثلاً، ضرورة عملياتية لها ما يبررها. أما فى عالم ديمقراطى، فإن قضية شادرين تشكل مأساة حقيقية.

وبعض الجواسيس الظرفاء

إرنست هيمنجواى

أصدقاء بابا كروك

١٨٩٩ - ١٩٦١

على الرغم من ذلك الاحترام الشديد الذى كان يظهره تجاه قدرات ومواهب أحد جواسيسه النافعين الرئيسيين، فإن الكولونيل جون ثوماسون، من مكتب الاستخبارات البحرية، اضطر إلى أن يقول له فى هذه المرة، إنه على خطأ تام. وقال مخاطباً إرنست هيمنجواى: «لا، ليس من الممكن، فليست هناك أية إمكانية فى أن تكون البحرية اليابانية حمقاء إلى هذا الحد حتى تقوم بمباغتة القوات البحرية الأمريكية، فهذا يعد انتحاراً، واليابانيون ليسوا شعباً غبياً».

واختلف هيمنجواى بشدة معه فى هذا الرأى، ولكنه لم يجادل أكثر من ذلك. وقبل كل شئ، فإن ثوماسون كان ضابطاً يحمل أوسمة رفيعة تقديراً لخدماته التى امتدت إلى ٢٠ عاماً، منها ١٠ أعوام فى مكتب الاستخبارات البحرية. ولوقال ثوماسون إنه ليست هناك إمكانية لاحتمالات قيام اليابانيين بمهاجمة الولايات المتحدة، فهو عندئذ الرجل الذى يفترض فيه أن يعرف. إنه المحترف، بينما هيمنجواى ما زال جاسوساً هاوياً. ومع هذا، فإن هيمنجواى شعر بالانزعاج، ذلك أن كل شئ سمعه فى ذلك الربيع من ١٩٤١ خلال جولته إلى الشرق الأقصى كان يشير فى اتجاه هجوم يابانى وشيك ضد البحرية الأمريكية.

وكان الهجوم على بيرل هاربر بعد بضعة شهور دلالة على أن هيمنجواى كان

على صواب، ولكنه لم يذكر ولم يكتب عن هذه المرحلة عن حياته. ولم يفعل ذلك أيضاً الكثيرون من الأمريكيين الذين، مثل هيمنجواى، جرى تجنيدهم قبل الحرب العالمية الثانية للخدمة كجواسيس هواة لصالح بلدهم انطلاقاً من حبهم للوطن. وفى تلك الأزمنة البسيطة، لم يكن الأمريكون يرون أى خطأ فى تضافر جهود المحترفين مع جهود الهواة فى جمع المعلومات الاستخباراتية لخدمة مؤسسات الاستخبارات الأمريكية الناشئة.

وإلى حد ما، فإن استعداد هيمنجواى للقيام بممارسة هواية التجسس لصالح بلده جاء من ذاته الجديرة بالاعتبار. وتخيل هيمنجواى نفسه واحداً من الجواسيس السوبر، وهو دور بدأ فى القيام به أثناء جولاته فى إسبانيا خلال الحرب الأهلية. ومن خلال ارتباطاته الرومانسية مع عالم العلاقات الغرامية السرية فى العاصمة مدريد المليئة بشبكات التجسس المختلفة، قام هيمنجواى بتمرير قصاصات صغيرة من المعلومات الاستخباراتية إلى صديقه فى مكتب الاستخبارات البحرية. وكانت معلومات متدنية الدرجة بالطبع، ولكن هيمنجواى زعم فى وقت لاحق أنه هو الذى اخترع مصطلح «الطابور الخامس»، الذى يمثل افتراضاً طابوراً خفياً من جواسيس العدو يتحرك فى مسيرة فى مقدمة أربعة طوابير من قوات الجيش التقليدية. وذهب إلى حد تأليف مسرحية «الطابور الخامس»، وجعل الشخصية الرئيسية فيها، الجاسوس السوبر، كاتب المسرحية نفسه، ولكن بصورة مبطنة إلى حد ما.

وفى وقت لاحق، طلب ثوماسون، من مكتب الاستخبارات البحرية، وهو صديق قديم، من هيمنجواى تزويده بأيه معلومات استخباراتية يصادفها أثناء جولاته إلى أنحاء العالم المختلفة. وكان ثوماسون يقدر تقديراً كبيراً المعلومات الاستخباراتية التى يقوم بتزويدها صديقة المشهور جداً، ولكنه تعلم أن يكون صبوراً فى كل مرة يأتى بها هيمنجواى إلى واشنطن لتقديم معلوماته، ذلك أن المؤلف كان يصر دائماً على إضافة تحليلات مطولة فى شرح معنى كلمة الاستخبارات. وفى الغالب، كانت استنتاجات هيمنجواى خاطئة، مع أن هناك كانت بعض الاستثناءات، مثل استنتاجه فى أوائل ١٩٤١ أن اليابانيين كانوا على وشك القيام بهجوم ضد الولايات المتحدة.

ولكن هيمنجواى لم يكن يشعر بالرضا تجاه تجاهل معلوماته الاستخباراتية، ولذلك قرر قطع اتصالاته مع مكتب الاستخبارات البحرية وتقطيب الجبين والعبوس فى بيته فى هافانا. وبدافع من رغبته الملحة فى القيام بواجبه الوطنى (فى سن ٤٢ عاماً وكان متقدماً فى السن للخدمة العسكرية) ذهب مفتشاً عن أى نوع من التجسس يمكن القيام به. وظن هيمنجواى أنه يمكنه العثور عليه بين مئات الآلاف من اللاجئين الإسبان الذين جاءوا هاربين إلى الجزيرة بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية. وكما أبلغ فى وقت لاحق صديقه سبرويل برادن، سفير الولايات المتحدة لدى كوبا وقتئذٍ، فهناك على الأقل ٢٠,٠٠٠ شخص من المتعاطفين مع الفاشستين من بين هؤلاء اللاجئين، وهم «طابور خامس» كبير يجلسون منتظرين إشارة من برلين للنهوض والاستيلاء على الجزيرة. وبالإضافة إلى ذلك، زعم هيمنجواى أنه عرف أن هؤلاء الفاشستيين يتعاونون على نحو وثيق مع ركاب القوارب الألمان الذين يجوبون الشواطئ الساحلية.

وأعتقد برادن، المحنك ورفيع الثقافة، أن هذا محض هراء، وقام بتجنيد هيمنجواى، بالنيابة عن وكالة الاستخبارات فى وزارة الخارجية، لتكوين شبكة من اللاجئين الإسبان الذين يثق بهم. وكان من شأن هذا اكتشاف الفاشستيين من بين اللاجئين، وفى الوقت نفسه تمكين هيمنجواى من اختيار الكثيرين منهم للقيام بعملية جريئة لاصطياد ركاب القوارب، الأمر الذى كان يتطلب استخدام قارب الصيد الشير «بيلر» الذى يبلغ طوله ٤٠ قدماً ويملكه هيمنجواى نفسه. وقام هيمنجواى بتجنيد شبكة من ٢٦ شخصاً من عناصر مختلفة من حثالة كوبا، من مهربى الأسلحة والذخيرة والقوادين والعاهرات والساقين فى الحانات والمستهترين المنغمسين فى الملذات والمقامرين ومجموعة قليلة من رفاق المؤلف فى الشرب. وبحصولهم على مبالغ نقدية متواضعة مقابل إزعاجهم، أطلق هيمنجواى عليهم جميعاً «أصدقاء بابا كروك» تيمناً بكنيته المفضلة.

ولم يقدم «أصدقاء بابا كروك» أى إسهام فى عالم التجسس، ولكنهم قاموا بالفعل على نحو غير مقصود بدور فى قرار هام من جانب الاستخبارات الأمريكية: بسبب هيمنجواى وأصدقائه بالدرجة الأولى، تقرر نهائياً عدم تجنيد الهواة بعد ذلك فى أية

عملية استخباراتية هامة. وحين النظر إلى سجل «أصدقاء كروك»، فليس من الصعب معرفة الأسباب التى أدت إلى مثل هذا القرار.

وإذا كان الدرس المستفاد من «أصدقاء كروك» فى نظر الاستخبارات الأمريكية هو عقد العزم على عدم تكرار التجربة مرة، فإن هيمنجواى تعلم شيئاً آخر: تلك الرحلة البحرية الأخيرة للقارب «بيلر» فى ١٩٤٣، بما فيها المعركة البطولية مع السمكة الإقيانوسية الضخمة، أدت إلى حبكة رواية «العجوز والبحر»، التى فاز فيها هيمنجواى بجائزة نوبل فى الأدب. وهذه الجائزة كانت محلاً لملاحظة قصيرة بدون تعليق فى ملف هيمنجواى فى مكتب التحقيقات الفيدرالى «إف بى آى».

جراهام جرين

رجلنا فى هافانا

الاسم الرمزى : ٥٩٢٠٠

١٩٠٥ - ١٩٩١

من خلال محاولة لعدم الظهور بمظهر الرجل الذى أصابه السأم، جلس الكاتب المعروف فى غرفة الدراسة مع مفكرين آخرين مثله يستمعون إلى محاضرة حول تعقيدات الحبر غير المنظور. ولم يكن هذا هو ما يأمل به جراهام جرين، غير أنه فى ذلك العام الأسود ١٩٤١، تطوع لتقديم كل ما يستطيع لخدمة بلده. وهكذا، أصبح صدق عزيمته محلاً للامتحان.

وبالنظر إلى كونه غير لائق صحياً للخدمة العسكرية، فإن هذا المؤلف البالغ من العمر ٣٦ عاماً عند اندلاع الحرب قرر الانضمام إلى وزارة الإعلام. ولكنه لم يكن راضياً عن الوظيفة المكتبية، ولأنه كان تواقاً إلى الانهماك على نحو أكثر إيجابية فى الحرب، التفت إلى اقتراح من أخته إليزابيث، التى كانت تعمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦»، بأنه من الأفضل (والأشد إثارة) استخدام مواهبه فى أعمال الجهاز. وافتراضاً منه أن عالم جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦» الحقيقى يماثل عالم الخيال فى رواياته، فإن جرين رأى أن يقدم طلباً للانضمام إلى الجهاز.

وكما كان عليه الأمر فى تلك الأيام فى شبكة أصحاب السلطة المحافظين التى تمثلت فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦»، فلم يكن جرين يواجه أى صعوبات

فى اجتياز المقابلة الأمنية المثيرة للسخرية. وعلى الرغم من حقيقة أنه كان عضواً فى الحزب الشيوعى خلال سنوات الدراسة فى أكسفورد، فلم يواجه جرين أية مشكلة فيما يتصل بخلفيته. وما كان يهم هو معرفته الشخصية مع كل واحد يستحق المعرفة فى الجهاز، أخته، وإلى حد كبير صداقته الشخصية الوثيقة مع مسؤول يدعى هارولد فيلبى.

وكان جرين واحداً من بين عدد من المفكرين الذين تقرر تجنيدهم فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦». وكان المسؤولون فى الجهاز يميلون إلى عدم الثقة بهذه الأصناف، ولكن فى ظل ظروف الحرب التى استدعت الاستعانة بأكبر عدد ممكن من العملاء، فإنهم أبدوا استعداداً لتليين قناعاتهم قليلاً. ولم يكن المسؤولون يعلقون آمالاً كبيرة، وقرروا إعطاء هؤلاء المفكرين دورة تدريبية خاصة ومكثفة بدلاً من الالتزام بنظام التدريب السائد، ثم إرسالهم إلى مناطق هادئة من العالم حيث لا يمكنهم معرفة الطريق.

وبناء عليه، وجد جرين نفسه فى تلك الدورة التدريبية المختصرة يستمع إلى محاضرات مطولة من بعض العملاء المخضرمين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦» حول أسرار الحبر غير المنظور. ومثلهم كمثل جرين، فإن المفكرين الآخرين، ومن بينهم وجوه لامعة مثل مالكولم موجريدج، وجدوا المحاضرة تافهة. هل يتوقع جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦» من عملائه أن يحملوا معهم مرطبانات الحبر غير المنظور لكتابة رسائل إلى مراكز القيادة فى لندن كأنهم ما زالوا يعيشون فى زمن ماتا هارى؟ وعند نقطة معينة، سأل أحد الطلبة المدرب عن ما يمكن عمله فى حالة نفاذ إمدادات هذا الحبر المنظور. وأجاب المدرب: ليست هناك مشكلة، وذكر عدداً من البدائل المؤقتة، من بينها، كما أشار جرين فى وقت لاحق، وصفة مثيرة للقرف تتكون من لعاب الإنسان وروث الحمام.

وانتهت الدورة التدريبية، وتقرر إرسال جرين إلى محطة نائية تابعة لجهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦» فى فرى تاون، سيراليون. وحين وصف هذا البلد

الأفريقى الصغير بأنه موقع أمامى دائم، فإن هذا الوصف يرقى إلى مرتبة المبالغة فى أهميته. وكما اكتشف جرين، فإن فرى تاون تتميز بعناصر الإثارة والحماسة الملازمة لسباق السلاحف. ومع ذلك، فهى تطل على خطوط الملاحة الهامة على امتداد الساحل الأفريقى، ولذلك فإن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦» أراد شخصاً هناك من أجل مراقبة أية محاولة من جانب الألمان للتجسس على قوافل السفن المارة ونقل تلك المعلومات الاستخباراتية إلى ركاب القوارب المترصدين من الألمان.

ولم تكن مهمة جرين فى فرى تاون تنطوى على عنصر الإثارة أو الرغبة الملحة فى العمل. وعكف جرين على التخلص من السأم من خلال عدد من المداعبات السمجة، الأمر الذى أزعج رؤساءه فى لندن. وتحت غطاء مفتش لدى اللجنة البريطانية للتجارة فى فرى تاون، كان جرين يضمن تقاريرة تلميحات أدبية غامضة وتوريات لفظية ومقتطفات من رواياته. وذات مرة، حينما جرى استدعاؤه إلى اجتماع لم يكن قادراً على حضوره، أرسل جرين برقية إلى مراكز القيادة: «وكما قال المخصى، فلا أستطيع أن أكرر لا أستطيع الحضور». وكما هى العادة، فإن جرين وقع البرقية بإسمه الرمزى: ٥٩٢٠٠، ولكنه فى مناسبات أخرى كان يوقع إسمه بأسماء شخصيات مختلفة من رواياته الكلاسيكية.

ومع حلول ١٩٤٤، بعد زوال أخطار التهديدالت التى كان يشكلها ركاب القوارب الألمان، وبعدما أصبح بدون عمل بصورة فعلية، بدأ جرين يخذ الإجراءات الضرورية للانتقال إلى دائرة الاستخبارات التابعة لوزارة الخارجية. ومن جانبه، قام جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦» بتسهيل انتقاله فى غمرة شعور بالتحرر من توتر الأعصاب. ومن خلال عملية ذرف الدموع على هؤلاء المفكرين المزعجين، أخذ جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦» على نفسه عهداً بعدم استخدام مثل هؤلاء الأشخاص كعملاء مرة أخرى.

وفى وقت لاحق، تذكر جرين خدمته فى زمن الحرب مع جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦»، بشئ من الرعب، ولكنه تمكن من الأخذ بالثأر بعد عقدين من

الحرب من خلال تأليف رواية هجائية هلاسيكية «رجلنا فى هافانا». وهذه الرواية جرى تحويلها فى وقت لاحق إلى فيلم سينمائى رابع. وكانت هذه الرواية، وهى من الروايات الأكثر رواجاً، التى تحدثت عن بائع مكانس كهربائية بريطانى فى هافانا مجند فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦»، انتزعت ضحكات هيستيرية من قلوب القراء البريطانيين، ولكن جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦» لم يضحك. وفى حقيقة الأمر، فإن مؤسسة الاستخبارات البريطانية كانت غاضبة جداً، وكانت هناك خطط جادة جارية مجراها لاتهام جرين بمخالفات وفق قانون الأسرار الرسمية فى بريطانيا. ولكن الرؤوس العاقلة تدخلت فى نهاية الأمر، وألمحت إلى أن احتمالات الجدل فى المحكمة حول الانتهاكات الأمنية، وعلى الأخص ما جاء فى الرواية حول بقبقة المسؤولين فى جهاز الاستخبارات البريطانى «إم آى ٦»، يمكن أن تقنع الناس بأن مثل هذه الشخصيات الكاريكاتورية شخصيات حقيقية. وهكذا، جرى إسقاط خطط إقامة الدعوى.

جيوفاني مونتينى

البابا جاسوساً

١٨٩٧ - ١٩٧٨

مثلها كمثل الكثير من العمليات الاستخباراتية، فهى بدأت بهدوء تام، وكان فينسنت سكامبوريني، رئيس محطة مكتب الخدمات الاستراتيجية فى روما المحررة حديثاً خلال ١٩٤٤، قدم تقريراً عن استلام قصاصة من المعلومات الاستخباراتية تضمنت وعداً عظيماً، شريطة استعداد مكتب الخدمات الاستراتيجية للدفع إلى حاملها ١٢٥ دولاراً فى الشهر.

وكان هذا مبلغاً من الدولارات كبيراً جداً فى ١٩٤٤، حتى أن مسؤولين كباراً فى مكتب الخدمات الاستراتيجية فكروا طويلاً وعلى نحو جاد قبل الموافقة أخيراً على دفع النقود. وكان المستلم، الذى عرف فى برقية مكتب الخدمات الاستراتيجية تحت اسم «فيزيل»، قدم وعداً عظيماً مقابل النقود. وزعم أن لديه خطاً مباشراً للحصول على المعلومات من مستويات عليا فى الفاتيكان، كما أنه، من بين أشياء أخرى، يملك حرية الوصول إلى محادثات سرية جرت بين الممثل اليابانى والمسؤولين فى الفاتيكان، ومن بينهم البابا بايوس الثانى عشر. وقال «فيزيل» إن الممثل اليابانى كان يبحث مع مسؤولين فى الفاتيكان إمكانية التوصل إلى صيغ سلام مختلفة بحيث تأمل طوكيو من ورائها أن تؤدى إلى نوع من تسوية متفاوض عليها مع الولايات المتحدة. وزعم «فيزيل» أن اليابانيين يسعون إلى تجنب قيام الأمريكيين بغزو الجزر اليابانية، وهو

غزو ربما يؤدى إلى تكلفة مرتفعة فى أرواح الأمريكيين، وفى الوقت نفسه تدمير اليابان كمجتمع صناعى حديث.

وفى ظل قرار مكتب الخدمات الاستراتيجية شراء المعلومات الاستخباراتية التى عرضها «فيزيل»، بدأت فى الحركة سلسلة من نتائج لم يكن أحد معنى بالعملية يتوقعها. ومثل الموجة الصغيرة الناشئة عن رمى حجر فى بركة، فإن «فيزيل» أرسل موجات من صدمة فى كل اتجاه. ومن غير ترتيب معين، فإن هذه الموجات تضمنت واحداً من أخطر قرارات الاستسلام الجماعى فى التاريخ، وبرنامجاً من عمل سرى هائل لمنع دولة غربية من التحول إلى دولة شيوعية تابعة، وكيفية تجنيد جيوفانى باتيستا مونتينى، أو كما هو معروف فى التاريخ قداسة البابا بول السادس، كجاسوس نافع للاستخبارات الأمريكية.

وفى وقت مبكر من ١٩٤٤، وصل إلى روما جيمس أنجيلتون، البالغ من العمر ٢٧ عاماً ورئيس فرع مكافحة التجسس التابع لمكتب الخدمات الاستراتيجية فى العاصمة الإيطالية. وحين التحدث إليه عن عملية «فيزيل»، أعرب أنجيلتون على الفور عن تشككه فى الأمر. وكما كان يعرف من قبل، فإن الفاتيكان فى عالم الاستخبارات مجتمع غامض، ولا سبيل إلى التغلغل إليه، وعلى رأسه المنعزل البابا بايوس الثانى عشر. كيف، إذن، تمكن «فيزيل» من التغلغل إلى هذا العالم المغلق واكتشاف أشد المحادثات سرية؟ وكان كلما بحث أنجيلتون أكثر فى المعلومات الاستخباراتية التى قدمها «فيزيل»، أصبح أكثر اقتناعاً بوجود شئ خطأ. واستنتج أنجيلتون أن «فيزيل» ربما كان يحمل معلومات مخادعة، وربما كانت معلوما مزروعة من جانب الاستخبارات اليابانية لتضليل الأمريكيين. أو ربما كان يحمل معلومات روسية، ذلك أن هناك عدداً كبيراً من تقارير «فيزيل» تحدثت عن الأهمية التى يوليها اليابانيون إلى دور الاتحاد السوفييتى فى أية تسوية للحرب مع الولايات المتحدة، ولذلك، فربما كان الروس عكفوا على تمرير معلومات استخباراتية لتعزيزدورهم فى آسيا اللاحقة على الحرب. وكما عرف مكتب الخدمات الاستراتيجية من مصادر أخرى من قبل، فإن الروس كانوا تواقين إلى الحصول على نفوذ رئيسى فى المناطق التى

يحتلها اليابانيون فى منشوريا وكوريا واليابان نفسها.

وعلى الرغم من اقتناع مراكز القيادة فى مكتب الخدمات الاستراتيجية بأن معلومات «فيزيل» كانت حقيقة وذات أهمية بالغة، فإن أنجليتون شرع فى تأكيد شكوكه بأنها ليست كذلك. وتحرك على جبهتين. الأولى هى أن أنجيلتون وضع بعض عملائه للعمل فى مجال كشف النقاب عن مصدر معلومات «فيزيل»، والثانية هى أنه شرع فى تجنيد مصدر رفيع المستوى فى الفاتيكان يمكنه تأكيد ما إذا كانت المحادثات التى تحدث عنها «فيزيل» جرت فعلاً. وكانت هذه المهمة الأخيرة هى الأصعب، ولكن أنجيلتون نجح فى تحقيق التجنيد الأهم فى تاريخ الاستخبارات فى كل العصور. وكان اسمه جيوفانى مونتينى.

أما كيف تمكن هذا الضابط من مكتب الخدمات الاستراتيجية صاحب الأذنين العريضتين من تدبير تجنيد هذا الأسقف الكاثوليكى جداً صاحب الأنف المستدق والوجه الرقيق، فهذا يبقى لغزاً. ولم يكن أى من أنجيلتون أو مونتينى ناقش هذا الأمر من قبل، ولكن النتيجة هى أن الأمريكيين أصبحوا يملكون مورداً لا يقدر بثمن. ومن الناحية الرسمية، فإن أنجيلتون قام بتجنيد مونتينى من أجل غرض واحد، وهو متابعة التسرب داخل الفاتيكان الذى وجد طريقه إلى تقارير «فيزيل»، ولكن كما كان ربما يعرف الرجلان، فلم يكن ذلك نهاية العلاقة.

ومهما يكن من أمر، فإن مونتينى برهن على كونه مورداً لا يقدر بثمن فى عملية التحقيق التى قام بها أنجيلتون بشأن «فيزيل». وبعد قيامه بفحص دقيق لنسخ تقارير «فيزيل» المشتراة من جانب مكتب الخدمات الاستراتيجية، أعلن مونتينى عن مفاجأة تتصل بقضية الضابط: ليس هناك تسرب فى الفاتيكان. واستنتج مونتينى أن معلومات «فيزيل» لا علاقة لها بالمرة بالمحتوى الحقيقى للمناقشات الدبلوماسية داخل الفاتيكان، وعلى الأخص تلك التقارير المتعلقة بالمحادثات المزعومة مع الممثل اليابانى. وفى حقيقة الأمر، كما أبلغ مونتينى الضابط أنجيلتون، فإن هذا الرجل الذى جاء من طوكيو كان يتخبط. ومن واقع تلقيه معلومات متناقضة من مجلس وزراء

يابانى منقسم على نفسه، فإنه كان يحاول أن يفعل كل ما يستطيع من أجل تجميع نوع من صفقة سلام، وهى صفقة لا يجد أى دبلوماسى مجرب صعوبة فى التأكد من أنها لن تكون مقبولة لدى الأمريكيين. وكما أبلغ مونتينى نفسه الممثل اليابانى، فإن الأمريكيين لن يتمكنوا على الأرجح من قبول عرض بالسلام من شأنه ترك الحكومة الخاضعة لهيمنة العسكريين فى طوكيو فى السلطة، كما أن الأمريكيين لن يتقبلوا أيضاً فكرة احتفاظ اليابان بسيطرتها على الأراضى الصينية التى احتلتها.

وتكشفت الحقيقة الآن : «فيزيل» كان خدعة تامة، واحدة ذكية، ولكنها خدعة قائمة على الاحتيال فى الوقت نفسه. ولكن ما هو الدافع إلى ذلك؟ ولحساب من كان يعمل «فيزيل»؟ وجاءت الأجوبة حينما تمكن أنجيلتون أخيراً من اكتشاف المحرضين لعملية «فيزيل». والرجل الرئيسى فى الصفقة الذى قام أولاً بمفاتحة مكتب الخدمات الاستراتيجية كان روسيا مبعداً يدعى دوبينين. وظن أنجيلتون، وكان على صواب فى ظنه، أن دوبينين، السمكة الصغيرة، ربما كان مجرد صورة ظاهرية لرجل حقيقى (أو ربما جهاز استخبارات) وراء الاسم الرمزى «فيزيل».

وكما تبين فى نهاية الأمر، فإن «فيزيل» برهن على كونه موضوعاً أقل مما كان متصوراً. واكتشف أنجيلتون أن «فيزيل» كان فيرجيليو ساكتولينى، وهو صحفى قصير القامة، وممتلئ الجسم، ومؤلف يستمد مطلبه فى الشهرة من الكتابات الإباحية.

وقضية «فيزيل» جعلت أنجيلتون واحداً من أشهر عملاء مكافحة التجسس فى مكتب الخدمات الاستراتيجية (بعد سنوات قليلة أصبح رئيساً لقسم مكافحة التجسس فى وكالة الأستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه») غير أن صداقته التى أصبحت حميمة مع مونتينى وعدت أيضاً بمكافآت أعظم. وبرهنت العلاقة على كونها لا تقدر بثمن فى أوائل ١٩٤٥، حينما قام قائد الحرس الخاص للزعيم النازى فى ألمانيا، مستخدماً الفاتيكان كجهة وسيطة، بالتفاوض مع مكتب الخدمات الاستراتيجية من أجل استسلام كل قوات المحور فى شمال إيطاليا. وكانت هذه الصفقة، التى بموجبها ألقى حوالى نصف مليون من قوات المحور أسلحتهم (مقابل منح العفو عن جرائم الحرب

للمسؤولين المعنيين فى قيادة الحرس الخاص للزعيم النازى) انتصاراً لمونتينى، الذى قام بدور الوسيط فى هذه الصفقة، ذلك أنه أنقذ الصناعات الحيوية فى شمال إيطاليا من الدمار الحتمى الذى كان يمكن أن ينشأ عن حملة عسكرية واسعة النطاق.

وبعد ثلاث سنوات، قام مونتينى بدور حاسم أيضاً، وهذا الدور يتعلق بوجود إيطاليا ذاتها. وفى هذا الوقت، كان مونتينى حصل على ترقية إلى منصب أسقف ميلان، أحد أقوى المناصب فى الكنيسة الإيطالية ونقطة الانطلاق إلى البابوية. وبالإضافة إلى ذلك، فلم يستمر مونتينى فى الإبقاء على علاقته القوية داخل الفاتيكان فحسب، وإنما كان أيضاً رئيس العمل الكاثوليكى، وهو عبارة عن مجموعة كاثوليكية للعمل السياسى يقدر عددها بالملايين. وهذه المجموعة شكلت القوة المضادة الضرورية للقوة المتزايدة للحزب الشيوعى الإيطالى، الذى كان من المتوقع على نطاق واسع أن يتولى السلطة فى الانتخابات الوطنية فى ١٩٤٨. ومثل هذه النتيجة لم تكن أمراً يمكن تصوره من جانب واشنطن، ولهذا شرعت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه» فى عملية سياسية سرية. وكان أنجيلتون واحداً من الضباط القائمين على هذه العملية السرية، ولجأ مرة أخرى إلى صديقه مونتينى. واستجاب الأسقف من خلال تحريك المجموعة الكاثوليكية للعمل السياسى، كما أجرى اتصالات مكثفة شملت كل أنحاء المسرح السياسى الإيطالى طلباً للمساعدة فى عملية وكالات الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى آى إيه». وفى النهاية، أدى تضافر النقود الأمريكية، والجهود العظيمة من جانب المجموعات السياسية غير الشيوعية فى إيطاليا، والمساعدات الكبيرة من جانب الفاتيكان، إلى التغلب على الأمر بصعوبة. وفشل الشيوعيون فى الحصول على الأغلبية، ومع أنهم بقوا قوة فى السياسات الإيطالية لعدة سنوات لاحقة، فإن أيام مجدهم انقضت.

ومن جانبه، كانت هناك أعمال معروف هامة قدمها أنجيلتون تقديراً لأعمال المعروف التى قدمها مونتينى. وكان أنجيلتون هو الذى ساعد فى إعادة توطيد سيطرة الفاتيكان على الكنائس الكاثوليكية فى جنوب ألمانيا، وهى منطقة داخل منطقة الاحتلال الأمريكى. وكان أنجيلتون أيضاً هو الذى ساعد الفاتيكان فى إعادة توطيد

اتصالاته مع الأبرشيات الكاثوليكية الهامة فى غرب يوجوسلافيا. وهناك ترتيبات أخرى مماثلة ساعدت فى تعزيز علاقة أنجيلتون - مونتينى. وكان من شأن هذه العلاقة حدوث شئ غير متوقع فى ١٩٦٣، ذلك أنه جرى اختيار هذا الدبلوماسى المراوغ فى الفاتيكان إلى منصب البابا بول السادس. ومع أنه محافظ ومتشدد فى التمسك بالمبادئ والطقوس الكنسية، وقام بفرض الامتناع الإجبارى عن الزواج بالنسبة لجماعة الكهنة. والمعارضة الشديدة من جانب الكنيسة لكافة أشكال منع الحمل، فإن مونتينى مع ذلك بقى سياسياً براجماتياً. وحتى قبل موته فى ١٩٧٨ بسبب أزمة قلبية، كان مونتينى يقيم علاقة وثيقة مع الاستخبارات الأمريكية، وفى الوقت نفسه بدأ فى مفاوضات أولية نحو إعادة توطيد سلطة الكنيسة فى أوروبا الشرقية.

والتفاصيل الدقيقة حول ماهية الخدمات التى تمكن البابا بول السادس من تقديمها إلى الاستخبارات الأمريكية غير معروفة، ولكن من المعروف أنه بعد انقضاء ١٤ عاماً على موته، قدم أحد خلفائه، البابا جون بول الثانى، مساعدات إلى عملية التمويل السرية الأمريكية إلى حركة التضامن البولندية. وهذا البابا نفسه أوصى بمنح جيوفانى مونتينى درجة القداسة، وهى توصية لم تذكر قضية «فيزيل».

سومرت موم

رجلنا فى بيتروجراد

الاسم الرمزى : سومرفيل

١٨٧٤ - ١٩٦٥

هذا الرجل الذى كان ينبغى أن يكون أشد عملاء الاستخبارات فى العالم تميزاً وصل إلى بيتروجراد (سانت بطرسبورج سابقاً) فى أغسطس ١٩١٧ . ولم تكن الحكومة الروسية الثورية الجديدة، برئاسة وزير الحربية السابق، الكسندر كيرينسكى، تعرف تماماً ماذا تفعل مع هذا الرجل غريب الشكل الذى زعم أن الهدف الوحيد من جولته إلى بيتروجراد المضطربة فى منتصب الحرب العالمية الأولى هو اختيار موضوع روايته القادمة.

ولم يجد الروس هذه القصة الإخبارية قابلة للتصديق، ولكنهم لم يحملوا أنفسهم على الاعتقاد بأن هذا الرجل الإنجليزى، سومرت موم، يمكن أن يكون جاسوساً. ووصل موم مرتدياً ملابس غالية الثمن، ومصنوعة خصيصاً بناء على طلب الزبون، وحذاء يغطى محيط الكاحل، وعصا المشى. وفى بيتروجراد الثورية المثيرة للاشمئزاز، وقف موم كأنه جوهرة بين كومة زبالة، وقلما كان يمكن أن يظهر أى جاسوس بهذا المظهر. وأيضاً، هناك مسألة كلامه، الذى كان متميزاً بالتمتمة والسعال الدائم الناشئ عن السل الرئوى. ولاستكمال صورة الجاسوس غير المحتمل، فإن موم كان شاذاً

جنسياً على نحو علنى، وميالاً إلى النظرات الغرامية تجاه البحارة الثوريين الذين أمطروا القصر الشتوى بوابل من النيران وأطاحوا بالقيصر.

ولكن موم، كان جاسوساً أرسلته الاستخبارات البريطانية فى مهمة ذات موضوع ونتائج خطيرة جداً.

ولم تكن المهمة إلى بيتروجراد التجربة الأولى من جانب موم مع الاستخبارات. وفى ١٩١٥، كان كاتباً محبوباً يبلغ من العمر ٤١ عاماً، ويعيش فى سويسرا حيث أراد أن يفعل شيئاً لمساعدة بلده فى جهود الحرب. ومن واقع اتصالات موم المكثفة فى كل أنحاء المؤسسة السويسرية وجماعة الأوروبيين من الرجال الشاذين جنسياً والنساء المشبوهات، قام قسم جديد تابع لوزارة الحربية البريطانية أطلق عليه «إم ١١ سى» (وفى وقت لاحق من الحرب أصبح «إم آى ٦») بتجنيده لمراقبة العملاء الألمان وجواسيسهم النافعين العاملين فى سويسرا.

وبعد ذلك، تقرر إرسال موم إلى الولايات المتحدة للانضمام إلى رئيس محطة جهاز الاستخبارات البريطانى «إم أى ٦»، وليام وايزمن، وهو أيضاً رئيس الاستخبارات البريطانية فى الولايات المتحدة. ومن الناحية الرسمية، فإن وايزمن كان رئيس بعثة المشتريات البريطانية، ولكنه كان فى الحقيقة معنياً بالانهماك فى إدارة عمليات استخبارات واسعة النطاق، وحملات دعائية، وعمليات مكافحة التجسس، فى مواجهة الاستخبارات الألمانية فى الولايات المتحدة. ومن خلال موقعة فى واشنطن، أقام وايزمن ارتباطات هامة فى كل أنحاء المؤسسة الأمريكية، وعلى رأسها البيت الأبيض من طريق صداقته مع الكولونيل إدوارد هاوس، مستشار الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون. وفى حالة غياب إستخبارات فعالة فى تلك الفترة، فإن الاستخبارات البريطانية، تبعاً لذلك، هى التى كانت تحدد شكل قناعات ويلسون السياسية.

وكانت روسيا محلاً لمثل هذه القناعات. وكانت ثورة ١٩١٧ عملت على تعقيد الأمور، والسبب فى ذلك هو أنه على الرغم من أن الحكومة الثورية برئاسة كيرينسكى أعلنت صراحة اعتزامها مواصلة مشاركة روسيا فى الحرب ضد ألمانيا، فإن كيرينسكى

تعرض لضغوط متزايدة من جانب البولشفيك لتوقيع سلام منفرد وإخراج روسيا من الحرب. وكان شعار البولشفيك : «السلام والخبز» ، وهو شعار أصاب الجماهير الروسية في العمق.

وتنبهت الاستخبارات البريطانية إلى الخطر، ذلك أنه في حالة خروج الروس من الحرب، فإن الألمان سوف يتمكنون من تحويل مليون جندي من الجهة الشرقية إلى الجهة الغربية، ومهاجمة القوات البريطانية والفرنسية المستنزفة. وأصبحت الحرب معلقة في الميزان، وحتى وصول القوات الأمريكية لن يتم في الوقت المناسب لمنع حدوث كارثة. ومهما كلف الأمر، كان ينبغي جعل الروس يواصلون الحرب. وكان ينبغي، مع ذلك، على الاستخبارات البريطانية أن تعرف شيئين : الأول، احتمالات بقاء حكومة كيرينسكي في السلطة، والثاني، كيف يمكن ضمان بقاء تلك الحكومة في السلطة.

وهكذا، نشأت فكرة وايزمن باستخدام موم للمهمة، وفي حسابات وايزمن، فإن شهرة موم الأدبية يمكن أن تعمل كغطاء مثالي لمهمته الحقيقية في بيتروجراد. وبالإضافة إلى ذلك، فإن موم لديه بعض الخبرة في التجسس من عمله في سويسرا.

ولكن عالم سويسرا النظيف والمنضبط لم يكن يشبه عالم بيتروجراد، ذلك أن المدينة كانت عبارة عن مستشفى سياسي من المجانين. والأسوأ من ذلك، كما اكتشف موم على الفور تقريباً، فهو وصل متأخراً جداً. وكانت الاستخبارات الألمانية مشغولة وفاعلة، واتخذت من قبل إجراءات لنقل لينين والزعماء البولشفيك الآخرين سراً إلى روسيا في القطار المغلق الشهير، ولديها عمليات دعائية فاعلة وراسخة. وحققت الدعاية الألمانية، التي جادلت بأن الجماهير الروسية ليس لديها مصلحة في حرب أوروبية تستنزف روسيا، في تحقيق أهدافها، وأعلنت فرق عسكرية روسية بكاملها التمرد على الضباط، وبدأ الكثيرون من الجنود الروس، الذين كانوا كارهين للحرب، بمغادرة وحداتهم والعودة إلى بيوتهم.

وكتب موم تقريراً إلى وايزمن جاء فيه أن العمل السريع وحده هو الذي يمكن

أن ينقذ نظام كيرينسكي. وما لم يكن الحلفاء مستعدين لإغراق نظام كيرينسكي بكميات هائلة من النقود لإفشال عملية التمويل السرية التي تقدمها الاستخبارات الألمانية إلى البولشفيك، فعندئذ فإن الحكومة الثورية المؤقتة سوف تكون معرضة لأخطار السقوط الوشيك. وبالإضافة إلى ذلك، كما جاء في تقرير موم، فلو أراد الحلفاء الإبقاء على الدور العسكري للروس، أو على الأقل الإبقاء على ما بقي منه حتى الآن، فإن التدخل العسكري المباشر وحده هو الذين يمكن أن ينقذ الموقف.

وبينما كان الحلفاء يحاولون اتخاذ قرار حول ما ينبغي عمله، فإن الأحداث سبقتهم: لينين والبولشفيك تولوا السلطة، وكيرينسكي هرب إلى المنفى، وجهود الحرب الروسية تحطمت. وهرب موم من روسيا على ظهر مدمرة بريطانية جرى إرسالها لإنقاذه بسرعة من الأخطار.

وبعد عودته إلى سويسرا، حرص موم، الذي ازدادت حالته الصحية سوءاً بسبب الأحوال الجوية في روسيا، على إبلاغ وايزمن أنه كان صادقاً في عمله لحساب الاستخبارات البريطانية. (في أعقاب استرداد عافيته، عاد موم إلى الكتابة، وأخيراً دخل عالم الفجور الأدبي قبل موته في ١٩٦٥) .

وفي غضون ذلك، بدأ وايزمن في إقناع ويلسون، مجادلاً بأن العمل السريع وحده هو الذي يمكن أن «ينقذ» روسيا. ووافق ويلسون بعدئذ على عدد من الخطوات التي اعتقد أنها يمكن أن تقلب مجرى التاريخ: عملية إنزال القوات الحلفاء في روسيا، بما فيها ١٣,٠٠٠ رجل من الجنود الأمريكيين، والموافقة على برنامج عمل سري لتمزيق النظام البولشفي الناشئ، ودعم مباشر للقوى المعادية للبولشفيك في الحرب الأهلية الروسية التي إندلعت في نهاية الحرب العالمية الأولى. وكل هذه الأفعال أدت إلى حدوث كارثة مازلت نتائجها تتردد أصدقاؤها لعدة سنوات قادمة. وكل ما نجح ويلسون والحلفاء في تحقيقه هو عداء البولشفيك الدائم، ولا يعرف ذلك الذي كان يمكن أن يحدث لو أن البولشفيك لم يعتبروا خارجين على القانون منذ اللحظة التي جاءوا فيها إلى السلطة.

هذا الكتاب

عاش الجواسيس في خيال الناس كشخصيات وهمية وساحرة منذ فترة طويلة. ولكن هل يعرف الناس على وجه اليقين شيئاً عن حياة هؤلاء الافراد الذين اختاروا "الفن القذر" في عالم التجسس؟ وفي هذه القراءة الغامضة في عالم الاستخبارات السرية، يكشف مؤرخ التجسس المعروف إرنست فولكمان النقاب عن الدراما الانسانية الحقيقية الكامنة وراء ثاني أقدم مهنة في التاريخ.

وكتاب "الجواسيس: عملاء سريون غيروا مجرى التاريخ" يحتوي على عدد من "الافعال الشائنة وغير الاخلاقية" التي وقعت في القرن العشرين، وهي حكايات عن عمليات تجسس حقيقية قام بها افراد كثيرون من بينهم: جواسيس عملاء وجواسيس نافعون وجواسيس نائمون، وجواسيس سريون وجواسيس عاملون في الظلام، وهؤلاء الافراد في مجموعهم من رجال ونساء عملت افعالهم التجسسية بطريقة او باخرى على تغيير مجرى التاريخ على نحو لا رجعة فيه.

ومن خلال خفة دم واضحة، يذكر فولكمان بدقة الصحفي عدداً من حكايات التجسس المثيرة، بما فيها حكاية قداسة البابا جون بول السادس مع وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية، وحكاية الروائي البريطاني جراهام جرين ومهمته الرائعة كعميل بريطاني وحكاية الروائي الأمريكي إرنست هيمنجواى ومهمته كجاسوس امريكي هاو في هافانا. وهناك ايضاً مجموعة من رواد التجسس الحديث من بينهم المتحجرة القلب الدكتورة الحسناء الزبيث شراجه ولم رائدة التدريب على الاستخبارات الحديثة، وصاحبة فكرة الشخص المسور وهي التضحية المقصودة باحد العملاء في سبيل حماية عميل آخر اكثر اهمية منه. وهناك حكايات اخرى مثل حكاية لافنتري بيريا، العقل المدبر في دولة ستالين البوليسية، وحكاية كلاود دانسي الجاسوس السوبر المشاكس في جهاز الاستخبارات البريطاني "ام اي ٦"

الطبعة الاولى

١٩٩٩